كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدّين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان

المقدسي الدّمشقي الشّافعي

المعروف بأبي شامة

المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

إبراهيم شمس الدّين

١ ـ ٢

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السُّنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3329-2



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الكتابة التاريخية بشكل عام ليست نشاطاً فكرياً محايداً، على الرغم من الشروط التي حددها علماء الاجتماع والتاريخ لتكون الكتابة التاريخية علماً قائماً بذاته. وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه السياسية وارتباطه ذاتياً أو موضوعياً بأحد أطراف الصراع باعتبار أن التاريخ بشكل أساسي هو تاريخ الصراعات ـ فكيف بصاحب القراءة التاريخية السياسية الذي يجد مادته الأساسية في نصوص التاريخ الموضوعة.

والواقعة التاريخية إن كانت قائمة بذاتها موضوعياً، فإنها في المتناول تلك الصورة التي يقدمها ذهن ما لتلك الواقعة، أو بتعبير آخر، ليست هناك واقعة تاريخية، بل هناك وعي ما لتلك الواقعة، وهذا الوعي متعدد بتعدد القائمين به.

هذه المقدمة تنطبق بشكل واضح على كتابي أبي شامة «الروضتين» و«المذيل على الروضتين». لقد ولد وعاش أبو شامة في الفترة ما بين ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م و٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م، وهذه الفترة تشمل، بالنسبة إلى مصر وبلاد الشام والعراق، تقسم المملكة التي أقامها صلاح الدين يوسف بن أيوب (توفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) والتي ضمت مصر وبلاد الشام وغيرهما، والتي جمع جهودها وإمكاناتها وقدراتها ووجه بها ضربة قاصمة للصليبيين في معركة حطين (سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م). هذه المملكة تقسمت بعد وفاته، مع أن الملك العادل (توفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) والملك الكامل (توفي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨). تمكنا من الحفاظ على وحدة الأمبراطورية نسبياً، غير أن عوامل التقسيم كانت طاغية على عوامل التوحيد، فنشأت دويلات أيوبية في مصر، وأخرى في الشام، وأخرى في حلب، وأخرى في ديار بكر، وأخرى في اليمن، هذا فضلاً عن الدويلات الأخرى الأصغر مثل مملكة حماة.

وانتهى أمر المنطقة بأن قامت دولة المماليك في مصر (سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وضمت بلاد الشام، بعد أن قضى المغول على الدويلات الأيوبية في الجزيرة وبلاد الشام.

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي عاش أبو شامة، ويبدو أنه قد مرّ عليه وقت وجد فيه نفسه مؤرخاً يبحث عن موضوع، وفي الوقت نفسه يبحث عن بطل، في حياته أمثولة، وفي تصرفه درس خلقي، يقول أبو شامة في تقديمه لكتابه: «ومرّ بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين[1] في المتقدمين، فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقديمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد».

لقد وجد أبو شامة أبطاله وهما كما يقول هو عنهما: «ملكا بلدتنا وسلطانا خطتنا، خصنا الله تعالى بهما»، وهنا يدخل عنصر آخر، وهو عنصر العصبية المحلية، وقد كانت هذه صفة من صفات الكتابة التاريخية في القرون السادس والسابع والثامن الهجري فالبطلان نور الدين وصلاح الدين، ملكا دمشق، وأبو شامة يشعر بشيء من الفخر لأنهما ملكا بلدته، وسلطانا خطته.

ويضيف أبو شامة في مقدمته: «فعزمت على إفراد ذكر دوليتهما بتصنيف، يتضمن التقريظ والتعريف، فلعلّه يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك. فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك والمتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم، بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهم أحد، إن وفّق الله تعالى الكريم وسدّد.. وهكذا أقول: هذا الملكان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين».

لقد وضع أبو شامة كتاب «الروضتين» عن قصد وتصميم وعزم على إفراد ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين في كتاب، ولكنه لم يكتف بهذا، فوضع كتابه التاريخي الثاني الذي سمّاه «المذيل على الروضتين»، وقد بيّن السبب الذي دفعه لوضع هذا الكتاب فقال: «أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبراً، وفي ذكرها عن الغرور مزدجراً، لا سيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإن ذلك مما

(١) العمران: هما عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه. . .

وكان أن سهل الله تعالى عليّ، وحبّب إليّ، أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيراً من الحوادث الواقعة زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما، وأصلح ما بعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعاً لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم. . .

ثم خطر لي أن أجمع كتاباً يتضمن كثيراً من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ما تدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح. وكان فيما حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلباً على الآخرة يساعف. . . فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها ما فاتني في كتاب الروضتين، سنة بعد سنة. . . من أول سنة تسعين على ترتيب السنين»[١].

أما عملنا في هذين الكتابين «الروضتين» و«الذيل»، فهو:

أولاً: وضع ترجمة وافية للمؤلف.

ثانياً: وضع دراسة وافية لكتابي «الروضتين» و«الذيل».

ثالثاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في مقابلة ومقارنة النصوص التي أوردها المؤلف في كتابه والتي أخذها من كتب تاريخ أخرى.

رابعاً: حرصنا بقدر الطاقة على تنقية النص من الأخطاء النحوية واللغوية.

خامساً: شرحنا في حواشي الكتاب ما في متنه من غريب اللغة أو صعب المتناول منها، وذلك استناداً إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

سادساً: وضعنا في حواشي الكتاب تعريفاً وافياً ـ مع ذكر المراجع والمصادر ـ لجميع الأعلام، وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور، ولم نجد ضرورة لنافل القول فيه، وإما لم نهتد إليه فيما بين أيدينا من المراجع والمصادر، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

سابعاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في شرح جميع المصطلحات والتي تعود أصولها إلى غير اللغة العربية، وكانت منتشرة في ذلك العصر، كالتركية والهندية،

---

(١) انظر مقدمة المؤلف للمذيّل على الروضتين ص٥.

والفارسية، وغيرها. وذلك استناداً إلى المعاجم المتوفرة لدينا.

ثامناً: خرّجنا جميع الأحاديث النبوية والآثار، تخريجاً وافياً، وضبطنا نص الحديث استناداً إلى كتب الحديث المعتبرة.

تاسعاً: خرجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

عاشراً: اجتهدنا في ضبط أسماء الأشخاص والمواضع التي أوردها على أمهات المعاجم والمراجع التي توفرت لنا، وأشرنا إلى الضبط المختلف أو الروايات المتعددة بهذا الشأن.

حادي عشر: ضبطنا الشعر ضبطاً عروضياً ووضعنا بحوره.

ثاني عشر: أضفنا عناوين فرعية للكتاب وضعناها بين معكوفين وأخيراً نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

ترجمة المؤلف

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي الشافعي المعروف بأبي شامة، لأنه كان به شامة فوق حاجبه الأيسر، وكان يلقب بشهاب الدين ويكنى بأبي القاسم محمد.

ولد أبو شامة في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٩٩هـ الموافق العاشر من شهر كانون الثاني ١٢٠٣م، بدمشق في حي متواضع من أحيائها يعرف بدرب الفواخير، القريب من الباب الشرقي، في أسرة متواضعة لا تكاد تتميز بتفوق خاص في الحياة العلمية أو السياسية، كما لم تترك لنا كتب التراجم عنها شيئاً ذا أهمية. وكل ما نعرفه عن هذه الأسرة، عن طريق أبي شامة نفسه، أن مؤسس هذه الأسرة هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي، المقرئ الصوفي. إمام صخرة بيت المقدس، قتل على يد الصليبيين، فيمن قتل، بعد فتحهم للقدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وأصبح من الشهداء الذين تزار قبورهم، ويلاحظ أن أبا شامة يتشكك في أن هذا الشهيد هو مؤسس أسرته، ويظهر هذا التشكك من خلال حديثه في المذيّل، إذ قدّم له بقوله:

«ولعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر........»

ويقرر أبو شامة أنه نقل هذه الحقيقة عن ابن عساكر[1]. وعلى هذا لم يبق أمام أسرته إلّا الرحيل عن القدس، فخرجوا منها إلى دمشق واستقروا في بعض أحيائها قريباً من الباب الشرقي.

ولم يظهر لأحدٍ من أفراد أسرة أبي شامة، بعد هذا، نشاط ذو شأن يحدثنا عنه أبو شامة أكثر من واحد منها هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الذي اشتغل بتعليم الصبيان في مكتب، بباب الجامع الشامي، حتى توفي سنة ٦٠٥ بعد أن عمر تسعين عاماً[2] أما إسماعيل والد أبي شامة، الذي توفي سنة ٦٣٨هـ، فقد أنجب ولدين: إبراهيم في سنة ٥٩١هـ وعبد الرحمن «أبا شامة» سنة ٥٩٩هـ.

---

(١) أبو شامة: المذيّل على الروضتين (وقد طبع خطأ باسم الذيل) ص٣٧.

(٢) أبو شامة: نفسه ص٦٥.

ويبدو أن والد أبي شامة وأخاه إبراهيم لم يحظيا بدرجة عالية من الثقافة، كما يتضح من رؤيا[١] يقصها أبو شامة عن أخيه الذي رأى والده يقول له في المنام: «عليك بالعلم، انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل، والوالد والراني يمشيان في أسفله».

ويورد أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه، كثيراً من الرؤى التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه. فقد رأت والدته، وكانت لا تزال حاملاً به، كأنها في أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وهي تؤذن. فقصصت رؤياها على من يجيد التعبير عن الرؤيا فقال: تلدين ذكراً ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى أبو شامة. في صفر سنة ٦٢٤هـ كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج، وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه في أمور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقاً منكبه، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل، وهو يخبرهم وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنة أيضاً، أي سنة ٦٢٤هـ، رأى أيضاً كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام داخل باب الرحمة بالبيت المقدس وقد أراد فتحه، وثمّ من يمنع عن فتحه ويدفعونه لينغلق فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه. ورأى أيضاً في جمادى الآخرة من السنة نفسها كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولا ماء ثمّ يُعرف، فنظر إلى قليب ماء قريباً منه وحوض، فخطر له أن يسقي من ذلك القليب ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة. فاستقى شخص قبله لا يعرفه دلواً ودلوين. ثم أخذ الدلو منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلداً هيكلاً وهو يقول: انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله. ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا، وهي قرية من قرى غوطة دمشق، وكأنهم سألوا ما شأنهم. قالوا: ننتظر النبي ﷺ يُصلّي بنا. قالت: فحضر (يعني أبا شامة) فصلى بهم.

وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذي للكتب، في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية وهو الموضع الذي يجلس فيه عادة للفتوى، ومنه يخرج إلى الصلاة بهذه المدرسة. فتعجَّب الرجل، فقيل له ممّ تتعجب؟ قال: هذا مكان ما

---

(١) أبو شامة: نفسه ص٣٨ ـ ٣٩ وكذلك ٢٢١ ـ ٢٣٧.

رأيته قط. قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية وفيها خلق كثير، وكأن قائلاً يقول للناس: تنحوّا فالنبي ﷺ يمر: قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب، ومرّ كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ٦٥٥هـ كأن أبا شامة متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه تزوداً تاماً يُعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة ٦٥٧هـ كأن قائلاً في عالم الغيب لا يراه بل يسمع صوته يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت.

ورأى أخاه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، وهو أسنّ من أبي شامة بنحو تسع سنين، وكان من الصالحين، كأن أبا شامة متمسك بحبل قد دلي من السماء وهو مرتفع فيه، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى. فقال له ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد فقال: سليمان بن داود. فقال: أعطي أخوك مثل ما أعطي سليمان. فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. أليس أعطي كذا وكذا، وعدّد أنواع ما أوتي. فقال: بلى. قال: وكذا أخوك أوتي أنواعاً من العلم كثيرة.

هذه المنامات التي أوردها أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه. سواء التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه يستدل بها على كثير من تطورات حياته. وإن كان أبو شامة يخبرنا أنه سطرها في مذيّلة تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] واعتبرها من البشائر حيث قال النبي ﷺ: لم يبق من المبشرات إلّا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له[(١)].

وعندما بلغ أبو شامة العاشرة من العمر فاجأ أباه بقوله: قد ختمت القرآن حفظاً، فتعجّب أبوه من ذلك، كما كان يتعجب من ولع أبي شامة بالتردد على المكتب وسعيه في طلب العلم وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان[(٢)] ثم لم يلبث أبو شامة أن بدأ دراسة القراءات السبع، والفقه والعربية والحديث. وبعد أن أتقن هذه الدراسات وفرغ منها، رأى أن يصرف بعض عمره إلى الدراسة التاريخية حتى يستكمل ثقافته الدينية و«يحوز بذلك سنة العلم وفرضه».

وإذا تتبعنا حياة أبي شامة في مرحلة طلبه العلم، ثم فيما أعقب هذه

---

(١) أبو شامة: نفسه ص٣٩.

(٢) أبو شامة: نفسه ص٣٧.

المرحلة. لنتبين وضعه في هذه الظروف الاجتماعية التي عاش فيها كثير من أنداده العلماء. وجدنا الغموض يكتنف حياته في جميع مراحلها، فهو مقتصد في الحديث. اللهم إلّا في بعض الفترات القصيرة التي نجد عنها إشارات موجزة مختصرة، يذكرها أبو شامة بين حين وآخر فتلقي بصيصاً من الضوء على حياته، في هذه الفترات القصيرة.

وأولى هذه الإشارات يرجع إلى سنة ٦١٥هـ، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، ففي هذه السنة نجده مقيماً في المدرسة العزيزية بدمشق. ثم لا نلبث أن نجد بعد هذا إشارة إلى أنه أتم دراسة علم القراءات في السنة التالية. أي سنة ٦١٦هـ. وقد يفهم من هذا أن صلته بهذه المدرسة انقطعت منذ نجح في إتمام دراسته لهذا الفرع من العلوم. حجّ مع والده سنة ٦٢١هـ، ثم في السنة التي بعدها أي سنة ٦٢٢هـ، وزار القدس سنة ٦٢٤هـ بصحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام، وزار مصر سنة ٦٢٨هـ زيارة علمية دراسية، استمع فيها إلى أساتذة دمياط والقاهرة والإسكندرية، ولا نجد بعد هذا شيئاً يذكر عن حياة أبي شامة إلا إشارة مقتضبة في سنة ٦٣٤هـ، وأخريات في سنوات ٦٤٤، ٦٤٨، ٦٥٤، ٦٥٦، وكلها إشارات غير مباشرة وردت في أثناء تسجيله لبعض الحوادث أو الوفيات. ومن الممكن الاستدلال بها على أنه كان يقيم في هذه السنوات في المدرسة العادلية بدمشق. ونحن لا ندري إذا كان أبو شامة قد استمر مقيماً في هذه المدرسة بعد سنة ٦٥٦هـ حتى انتقل منها سنة ٦٦٠هـ إلى المدرسة الركنية عندما عيّن مدرساً لها كما أنه من غير الممكن الجزم بتاريخ انتقاله من المدرسة العزيزية التي كان مقيماً بها حوالي ٦١٥هـ إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقرارها بها سنة ٦٣٤هـ. ويبدو أن إقامة أبي شامة بهذه المدرسة الأخيرة بين سنتي ٦٣٤، ٦٥٦هـ كانت متصلة، لم يقطعها إلا مدة انصرافه إلى بساتينه الخاصة. هذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة يمتد حتى يخفي عنا الوظائف التي كان يشغلها ويعتمد عليها في حياته، غير أنا نجده يشير إلى أن الاختيار وقع عليه، سنة ٦٣٥هـ ليكون أحد المعدّلين بدمشق[١]. ويذكر أن نائبه في الصلاة بالمدرسة العادلية، الشيخ شمس الدين محمود النابلسي، توفي سنة ٦٥٦هـ[٢]. وقد ناب الشيخ النابلسي عن أبي شامة في مناسبتين لم يحدّد تاريخهما، الأولى مدة مرضه، والثانية في المدة التي انصرف فيها أبو شامة عن المدرسة إلى بساتينه الخاصة يفلحها ويعمل فيها بنفسه، معرضاً عن الأوقاف، متحرراً من قيودها.

---

(١) المعدّل أو العدّل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضي ويطمئن إلى شهادته فيعينه لمعاونته في أعماله ومنها تسجيل الأحكام انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

(٢) أبو شامة: المذيّل ص١١٩.

وعندما بلغ أبو شامة الستين من عمره تولى التدريس في المدرسة الركنية سنة ٦٦٠هـ، وبقي فيها حتى عيّن مدرساً للمدرسة الأشرفية سنة ٦٦٢هـ، ثم أضيفت إليه وظيفة الإقراء بالتربة الأشرفية. واستمر يشغل هاتين الوظيفتين حتى توفي سنة ٦٦٥هـ.

من هذه الإشارات جميعها يمكن القطع بأن أبا شامة شغل منصب الأستاذية للمرة الأولى سنة ٦٦٠هـ. وهذه الوظيفة كانت تتيح لمتقلدها الإشراف على إدارة المدرسة، إشرافاً كاملاً يشمل الأوقاف المخصصة لها. والمتتبع لحياة العلماء في هذه الفترة التي شهدت نهضة علمية ميسرة يجد أن كثيراً منهم اعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الأوقاف والمدارس في تنظيم حياته، مستفيداً من مواردها في فترة طلب العلم، ثم متقلداً وظيفة الأستاذية في هذه المدارس، أو قائماً بالإشراف على الأوقاف المخصّصة لها بعد اجتياز مرحلة الطلب. بل أننا نجد كثيراً من هؤلاء العلماء يجمعون بين التدريس والإشراف على عدد كبير من الأوقاف يديرونها ويدبّرون شؤونها، ووسيلة بعضهم إلى هذا التقرب من الأمراء الواقفين، أو من السلاطين الحاكمين.

كما يمكن القطع أن أبا شامة كان يشغل وظيفة صغيرة في شبابه، سنة ٦٣٥هـ، عندما اختير واحداً من عدول دمشق، ثم أمّ الصلاة في المدرسة العادلية التي كان يقيم بها في دمشق مدة لا نستطيع تحديدها، كما لا نعرف تاريخ بدئها أو نهايتها، ويستثنى من هذه المدة الفترة التي انقطع فيها عن الإمامة، عندما خرج إلى بساتينه الخاصة يعمل فيها ويعتمد عليها في حياته.

هذا الغموض الذي يحيط بالجانب المادي من حياة أبي شامة لا يعني، في حال من الأحوال أنه كان شخصية مغمورة في الحياة الحكومية، كما لا يدل على نقص في كفاءته جعل رجال الدولة يصرفون النظر عن إسناد بعض المناصب الهامة إليه، بل إننا نجد في حديث أبو شامة عن بعض أساتذته الذين أعرضوا عن التزلف إلى ذوي السلطان ما يدل على أنه اتخذهم قدوة له ينهج نهجهم ويترسّم خطاهم. فمنذ صغره عندما كان يقرأ القرآن في جامع دمشق، كان أبو شامة ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبو منصور ابن عساكر. ويرى طريقه في فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث، إلى المدرسة التقوية[1]. لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وتردّدهم إليه، مع حسن سمته

(١) أبو شامة: المذيّل ص٣٧.

واقتصاده في لباسه، فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم ونشره له وانتفاع الناس بفتاويه.

كما صحب أبو شامة أستاذه علم الدين السخاوي[1] ما يقرب من ثلاثين سنة بين سنتي ٦١٤ ـ ٦٤٣هـ؛ وقد كان السخاوي هذا «زاهد في صحبة رجال السلطان» كما كان «متعففاً زاهداً مقتنعاً باليسير» وكان للناس «فيه اعتقاد عظيم..... فكانوا يزدحمون في الجامع لأجل القراءة ولا يصح لواحد منهم نوبة إلّا بعد زمان». ومما يدل على زهده وتعففه خروجه مرة مع أبي شامة لزيارة المقابر. وفي هذه الزيارة لفت نظر أبي شامة إلى بيت كتب على قبر الفقيه ابن الشاغوري يقول:

ما كنت تقرب سلطاناً لتخدمه لكن غنيت بسلطان السلاطين

وتتلمّذ أبو شامة كذلك على عزّ الدين بن عبد السلام الذي أخرج من دمشق سنة ٦٣٩هـ لقوة شخصيته وخوف سلطانها منه، فذهب إلى مصر وأقام بها حتى توفي سنة ٦٦٠هـ وكان عزّ الدين بن عبد السلام هذا «شيخ المسلمين والإسلام وسلطان العلماء...... لم ير من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وسلاطة لسان» والسبب المباشر لإخراجه من دمشق أنه أسقط اسم الصالح إسماعيل، أميرها من الخطبة عندما استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا. وقد ساعد ابن عبد السلام في هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية، وعندما وصل إلى مصر تنحى له العلماء عن أماكنهم، وتأدب معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري وامتنع عن الإفتاء من أجله وتقديراً له وقال: ليس لها إلا عزّ الدين. وفي سنة ٦٦٠هـ توفي ابن عبد السلام في مصر فخرج السلطان بيبرس في جنازته وحدّث خاصته قائلاً: «اليوم استقر ملكي لي، فلو أمر عزّ الدين الناس في شأني بما أراد لأطاعوه مبادرين».

طالت صحبة أبي شامة لهذين العالمين الجليلين، ولأمثالهما من أئمة الزاهدين فتأثر بهم واتخذهم قدوة، ومثلاً، فعزف عن المناصب الحكومية، وترفّع عن التكالب على أموال الأوقاف، وانصرف مدة، كما ألمحنا، إلى بساتينه الخاصة يفلحها بنفسه ويعتمد عليها وحدها في حياته حتى أغنى بيته وتمكن من إسعاد أهله

---

(١) يذكر أبو شامة أنه استفاد من السخاوي، علّامة زمانه وشيخ عصره، علوماً جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربيّة وأنه صحبه من شعبان سنة ٦١٤هـ. وقد توفي السخاوي سنة ٦٤٣. أبو شامة: المذيّل ص١٧٧.

وأقاربه المحتاجين وصان وجهه عن الناس وأحسّ بالحرية والاستقلال، كما يقول في المذيّل[١] وقد سجل شعوره هذا في قصيدة أوردها في المذيّل في مائة وعشرة أبيات وفيها يقول:

أيها العاذل الذي إن تحرى ... قال خيراً ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة واعلم ... إنها من أحلّ أحب وأثرى
وبها صنت ماء وجهي عن النا ... س جميعاً وعشت في القوم حرا
إذ بها صار منزلي ذا غلال ... مع عيال من بعد ما كان فقرا

وفي هذه القصيدة يوجه حديثه إلى طالب العلم مندّداً بتكالب العلماء على التزلف إلى ذوي السلطان. فيقول:

اتخذْ حرفة تعيَّشْ بها يا ... طالب العلم، إن للعلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقـ ... ـف، فيمضي الزمان ذلاً وعسرا
إنما تحصل الوقوف لشرّ ... يد ونذل من العلوم مُبرّا
أو لمن يلزم الأكابر لا يبْـ ... ـرح في خدمة لهم، ومدح وإطرا
طالباً جاههم مجيباً إلى كل ... أمور لهم، عكوفاً مصرّا
فترى قاضي القضاة ومن يذ ... كر درساً يرعاه سراً وجهرا
قاصداً قربة فيصغي إليه ... فاعلاً ما يريد نفعاً وضرا

وقد أطنب كتاب التراجم في مدح صفات أبي شامة الطيبة، من تواضع وأخلاق حميدة واطراح للتكلف وحرص على الاجتهاد في الأحكام المختلف فيها فلا يفتي إلا بما يراه أقرب إلى الحق وإن كان خلاف مذهبه الشافعي تبعاً للأدلة. وجب للعزلة والانفراد، عزوف عن التردد إلى أبواب أهل الدنيا متجنباً المزاحمة على المناصب لا يؤثر على العافية والكفاية شيئاً. ومن شعره في هذا الخصوص[٢].

الثوب واللقمة والعافية ... لقانع من عيشه كافيه
وما يزد فالنفس ليست به ... وإن تكن مملكة راضيه

وله أيضاً:

أنا في عز القناعة ... رافل في كل ساعه
رب اتممها بخير ... في معافاة وطاعه

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٢٢٢ ـ ٢٢٦.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص٢٠٢.

ولا نجد في مؤلفي التراجم مَن يشذ عن هذا الإجماع في تقدير شخصية أبي شامة وطيب أخلاقه إلّا قطب الدين اليونيني، الذي يتخذ موقفاً معارضاً، فيذكر أن أبا شامة كان كثير البغض من العلماء والأكابر والصلحاء والطعن عليهم والتنقيص بهم، وذكر مساوئ الناس وثلب أعراضهم، ولم يكن بمثابة من لا يقال فيه فقدح الناس فيه وتكلموا في حقه، وكان عند نفسه عظيماً فسقط بذلك من أعين الناس.

وصدور هذا الطعن من معاصر لأبي شامة يحملنا على الوقوف عند قوله لنتبين وجه الصحة فيه، وهذا ما يقتضينا أن نحاول معرفة نوع الصلة التي كانت بين الرجلين. وفي هذا نجد أن أبا شامة كان شافعي المذهب، على حين كان اليونيني من قادة الحنابلة وابناً لإمام من أئمتهم في بعلبك وهو الشيخ محمد الحنبلي اليونيني الذي توفي سنة ٦٥٧هـ. وقد ذكر أبو شامة نبأ وفاته في المذيّل ضمن حوادث هذه السنة[١] وعلق عليها، مبيناً أن الإمام اليونيني ألّف كتاباً في الإسراء مليئاً بالخطأ الفاحش، فحمل هذا أبا شامة على تأليف كتاب خاص يفند به مزاعم اليونيني ويصحح أخطاءه وسمى كتابه هذا: «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي». ولم يكن الحنابلة عندئذٍ على علاقة طيبة بأئمة المذاهب الأخرى في الشام عامة ودمشق خاصة. حتى أننا نرى أبا شامة يمدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه «كان لا يمر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسبهم له» ويعلل هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي يكفينا للتدليل عليه أن نذكر أن زكي الدين بن رواحة أنشأ مدرستين في دمشق وحلب، وجعل من شروطه للدراسة فيهما «ألا يدخلهما مسيحي ولا حنبلي» وهكذا نجد أن من المحتمل أن اليونيني تأثر في العبارات التي تحدث بها عن أبي شامة بعاملين أحدهما البغض التقليدي الذي شاع بين الحنابلة والشافعية. وكلاهما إمام من أئمة مذهبه، وثانيهما البغض الشخصي الذي أحس به اليونيني نحو أبي شامة الذي ألّف كتاباً خاصاً يعدد فيه أخطاء والده ويصححها[٢].

ويبدو أن حياة أبي شامة في مجموعها، كانت سهلة مطمئنة، وأنه لم يعترضه من الصعوبات ما يعكر صفوها أو يخرج بها عن هدوئها واستقرارها باستثناء حادثتين أشار

---

(١) أبو شامة: نفسه ص١١٩.

(٢) يذكر أبو شامة أن اليونيني صنّف أوراقاً فيما يتعلق بإسراء النبي ﷺ ليلة المعراج وأخطأ فيه أنواعاً من الخطأ الفاحش. فصنّف أبو شامة كتاباً خاصاً يعدد فيه هذه الأخطاء بعنوان «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي».
أبو شامة: المذيّل ص٢٠٧.

إليهما في تقريريه عن سنتي ٦٥٨ و٦٦٥هـ. ففي سنة ٦٥٨هـ[1]، وهي سنة دخول التتار دمشق، استدعاه نائب التتار وأهانه، وهدّده بضرب عنقه، فاضطر أبو شامة أن يوقع له بمبلغ كبير، حتى يطلق سراحه وقد هزم التتار بعد هذه الحادثة بعشرة أيام في موقعة عين جالوت، واعتبر أهل دمشق الهزيمة كرامة لأبي شامة وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا	أبا شامة ظلماً وكدر ورده
أرادوا به كيداً وما هيب علمه	فغار له الرحمٰن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منه وكسرهم	لدى رمضان غير عشر نعدّه
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره	ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي الـ	ـبرية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا	نسر به حيناً فلا كان فقده

وحادثة أخرى كان لها على ما يظهر أثر هام في صحة أبي شامة. تلك هي أنه تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله، في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٥هـ متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا، وبعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به وإلى غيبة من قد يحاول نجدته وإنقاذه من اعتدائهما، انهالا عليه بالضرب المبرّح، ربما لأسباب مذهبية وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً. وقد عرض عليه بعض أصحابه أن يتقدم بالشكوى إلى ولاة الأمر فرفض قائلاً: قد فوضت أمري إلى الله، فما أغيّر ما عقدته مع الله وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه[2]. وقد نظم في هذه المناسبة الأبيات الثلاثة التالية:

قل لمن قال آلا تشتكي	ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا	من يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى	فحسبنا الله ونعم الوكيل

وقد توفي أبو شامة بعد شهرين ونصف من هذا الحادث وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ الموافق ١٣ حزيران سنة ١٢٦٨ دفن في مقبرته بالفراديس. وكان الذي قتلوه هم الذين جاؤوه من قبل فضربوه ليموت فلم يمت[3].

(١) أبو شامة: المذيّل ص٢١١.
(٢) أبو شامة: نفسه ص٢٤٠.
(٣) نجد ترجمة لأبي شامة، بالإضافة إلى تلك التي كتبها لنفسه، في:
- تاج الدين تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية ٥/ ٧٠.
- ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

ـ مؤلفات أبي شامة

أورد له بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» ٦/ ١٤ ـ ١٧، المؤلفات التالية:

١ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: تاريخ السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين.

٢ ـ الذيل على الروضتين، عن السنوات ٥٩٠ ـ ٦٦٥هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٦٦م.

٣ ـ المقاصد أو المنائح السنية في شرح القصائد النبوية: شرح القصيدة اللامية الشقراطسية لأبي محمد عبد الله بن أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي والقصائد السبع لشيخه علي بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣/ ١٢٤٥.

«شرح سبع قصائد السخاوي في مدح النبي» ألّفه سنة ٦٤٢/ ١٢٤٤.

٤ ـ شرح البردة.

٥ ـ قصيدة في أربعين بيتاً يشكو فيها مزاجه الحزين الحاد العكر، ويطلب النصح من شيخه علم الدين السخاوي.

٦ ـ إبراز المعاني في شرح حرز المعاني أي في شرح القصيدة الشاطبية.

٧ ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.

٨ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

٩ ـ مختصر كتاب المؤمَّل في الرد إلى الأمر الأول. ويهاجم فيه على طريقة الظاهرية «المذهب» و«التقليد».

١٠ ـ الباعث إلى إنكار البدع والحوادث.

١١ ـ الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب.

١٢ ـ كتاب البسملة.

١٣ ـ كتاب السواك وما أشبه ذلك.

وبالعودة إلى المذيَّل حيث ترجم أبو شامة سيرة حياته. نراه يذكر كتباً أخرى لم يذكرها بروكلمان إلى جانب تلك التي ذكرها هذا الأخير، ولعلها ضاعت. وللمقارنة نورد ما ذكره أبو شامة عن أسماء هذه المصنفات[1]:

وجمع وألّف وهذّب وصنّف في فنون العلوم النافعة كتباً كثيرةً ومصنفات

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٤٠.

جليلة مختصرة ومطوّلة تم أكثرها وسمعها ووقفها وكثرت النسخ بها. فأول ما أظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد. ومنها: شرح قصيدة الشيخ الشاطبي رحمه الله الذي سماه إبراز المعاني من حرز الأماني، وهما شرحان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم، والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصار لتاريخ دمشق وهما أيضاً أكبر وأصغر وكلاهما تام، فالأكبر بخطه في خمسة عشر مجلداً والأصغر في خمس مجلدات. ومنها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين ومختصر في مجلدة صغيرة. ومنها: الكتاب المرقوم في جملة العلوم يجمع عدة مصنفات في مجلدين، الأول فيه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، وكتاب نور المسرى في تفسير آية الإسراء وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، وضوء الساري أي رؤية معرفة الباري، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول، وكتاب البسملة، والباعث على إنكار البدع والحوادث، وكتاب السواك وما أشبه ذلك. ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك.

«ومنها: كشف حال بني عبيد، والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصول من الأصول، ومفردات القراءة، وشيوخ الحافظ البيهقي، ومقدمة في النحو، والألفاظ المعربة، والقصيدة الدامغة، وقصيدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الزمخشري، ونظم العروض والقوافي، ونظم شيء من متشابه القرآن، وشرح عروس السمر».

«وابتدأ كتباً كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها ونحن في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبها سنة ستين فيها: كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد، وتقييد الأسماء المشكلة، ورفع النزاع بالرد على الأتباع، والمذهب في علم المذهب، ونية الصيام وما في يوم الشك من الكلام، وشرح نظام المفصل، والأعلام بمعنى الكلمة والكلام، وشرح لباب التهذيب والأرجوزة في الفقه، وذكر من ركب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكلات الأخبار، وكتاب القيامة، وشرح أحاديث الوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي، وأمالي ثعلب، وأمالي الزجاجي، ونحو كتاب المجالسة، واختصار جملة من الدواوين.

وقد نظم أحد الفضلاء بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له (أي لأبي شامة)[١] فقال:

هذا الشهاب الثاقب الفهم الذي	قد فاق في بحر العلوم وشطّهِ
أكرم بتحقيق وإتقان وتصـ	ـنيف له وبراعة في ضبطه
وعناية من ربه فيما يحاو	له به فأحله في وسطه
فكلامه في الفقه يشبه ما تقد	م من كلام الشافعي وسبطه
يبني على نص الكتاب وسنة الـ	ـمصطفى في رفعه أو حطه
ومذاهب العلماء يلحظها فيفتي	بالمرجح عنده من قسطه
ويفسر القرآن والأخبار عن	حذف بمفهوم الكلام وربطه
وبنص أسماء الورى وحديثهم	ووفاتهم فكأنهم من رهطه
شرح الصدور بشرحه لقصائد	نبوية في قبضه أو بسطه
والشاطبية جولوا أفكاركم	فما شرحها إن كنتم من شرطه
وله كتاب الروضتين وهذب التا	ريخ مختصراً له من شحطه
وكتابه المرقوم فيه مصنفا	ت في علوم جازها في مرطه
منها المحقق والسواك وباعث	مع مبعث أحسن به وبقمطه
والضوء والإسراء وبسملة ومر	شدها الذي أحيا بحسن محطه
ولنظمه في النحو والأوزان الـ	ـأحكام لم يك ما مضى من سمطه
وقد ابتدا كتباً فأن أبقه من	قوّاه أكملها بجودة سفطه
رفع النزاع ومشكل الـ	آيات والأخبار مما شده في قمطه
أرجو له عفو الإله فأنه	ما زال يطلب عفوه في خطه

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون (٥/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) مؤلفاته، وهي:

١ ـ إبراز المعاني من حرز الأماني. أعني الشاطبية.

٢ ـ أزهار الروضتين في أخبار الدولتين، أعني نور الدين وصلاح الدين.

٣ ـ الأصول في الأصول.

٤ ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث.

٥ ـ الروض الآنف في الذيل على أزهار الروضتين.

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٤٠.

٦ ـ شرح قصيدة البردة.

٧ ـ شرح القصائد السبع في المدائح النبوية للسخاوي.

٨ ـ شرح المقتفى في مبحث مبعث المصطفى ﷺ.

٩ ـ ضوء القمر الساري إلى معرفة رؤية الباري.

١٠ ـ كتاب البسملة الأصغر.

١١ ـ كتاب البسملة الأكبر.

١٢ ـ كتاب السواك وما أشبه ذلك.

١٣ ـ كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد.

١٤ ـ المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ.

١٥ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر.

١٦ ـ المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز.

١٧ ـ مفردات القرآن.

١٨ ـ المقاصد السنية في المدائح النبوية.

١٩ ـ نظم المفصل للزمخشري في النحو.

٢٠ ـ النور المسرى في تفسير آية الإسرا.

عصر أبي شامة وبيئته

أحوال العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

يجد الباحث في تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية، لزاماً عليه، أن يحيط بأحوال العالم الإسلامي بشكل عام، وأحوال الخلافتين العباسية والفاطمية بشكل خاص، ليتسنى له فهم الظروف التي ساهمت في إبراز آل زنكي وآل أيوب على مسرح الأحداث السياسية فهماً صحيحاً فبعد فترات الزهو والانتصار التي عرفها العالم الإسلامي، بدأ الوهن يدب في أوصاله منذ القرن الحادي عشر الميلادي. ففي جناحه الشرقي خلافتان إحداهما عباسية سنية في بغداد، والأخرى فاطمية شيعية في القاهرة، وولاء المسلمين موزّع بينهما. وقد أنهكتهما مشاكلهما الداخلية بحيث باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وحدّ أطماع الطامعين فيها من قوى محلية وخارجية تمثلت بالصليبيين والبيزنطيين. ولم يكن الغرب الإسلامي بأفضل حال، فقد كان هو أيضاً يعاني من الإنهيار بسبب تفككه إلى دويلات عرفت بدول الطوائف في الأندلس، الأمر الذي أطمع الإربان فيها وقوّى أملهم في طرد المسلمين نهائياً من الأندلس، وبدا كأن معجزة فقط هي التي تنقذ العالم الإسلامي من انهيار محقق، وقد تحققت هذه المعجزة فعلاً على أيدي المرابطين في المغرب الإسلامي والسلاجقة الأتراك في المشرق ويهمنا هنا الحديث عن السلاجقة، فعن طريقهم ظهر الأتابكة من آل زنكي، وعن طريق هؤلاء ظهر الأيوبيون فيما بعد.

والسلاجقة مجموعة من قبائل الغز التركية تنسب إلى سلجوق بن دقاق، الذي جمع شملها ووحد كلمتها، وبدأت به أهميتها، منذ أن انتقلت معه من سهوب تركستان، موطنها الأصلي، إلى بلاد ما وراء النهر، حيث اعتنقت الديانة الإسلامية على المذهب السني. واستقرت بنواحي سمرقند وبخارى أواخر القرن الرابع الهجري وتعاونت مع السامانيين في نشر الإسلام بين الأتراك الوثنيين وحماية الثغور الإسلامية، وما لبثت جموعهم أن اتجهت غرباً نحو خراسان بقيادة طغرل بك، حفيد سلجوق، حيث استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم

سنة ١٠٣٧م. كما استولوا على همذان والدنيور، والري، وأصبهان التي اتخذها طغرل بك عاصمة له من بين سنتي ٤٣٣ ـ ٤٣٧هـ. وقد حرصوا خلال زحفهم على إظهار تمسكهم بالمذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي دون هوادة.

وفي الوقت الذي كانت فيه جموع السلاجقة تنثال غرباً، كانت الخلافة العباسية تعاني الكثير من سيطرة الأسرة البويهية الشيعية على الخلفاء العباسيين بحيث باتت سلطة الخليفة العباسي اسمية، ليس له من مظاهرها إلّا الخطبة والسكّة وتعيين القضاة وخطباء المساجد بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لأنفسهم لقب ملك أو شاهنشاه، بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائداً في عصر النفوذ التركي السابق، كما قرنت أسماؤهم باسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة[١].

وعانت الخلافة العباسية، إضافة إلى النفوذ البويهي، من مؤامرات الدولة الفاطمية، مما حمل الخليفة العباسي القائم بأمر الله على التطلع إلى الاستعانة بطغرل بك والسلاجقة للتخلص من البويهيين الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة، فأسرع طغرل بك بتلبية ندائه ودخل بغداد سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥م وأعاده القائم إلى سدة الخلافة بعد أن قضى على دولة الملك الرحيم آخر الملوك البويهيين. وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة في بغداد، حيث اتخذ طغرل بك لقب سلطان ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة. وهذا اللقب الذي يعني القوة والنفوذ، كان يطلق على الخلفاء وحدهم.

وكان رد الخلافة الفاطمية على دخول السلاجقة بغداد وقضائهم على البويهيين سريعاً إذا شجعت وأيّدت ثورة القائد التركي البساسيري بالمال والسلاح، ممّا مكّنه من التغلب على جيوش الخليفة العباسي في سنجار سنة ٤٤٩. ثم أخذ ينتظر فرصة مناسبة لدخول بغداد نفسها، فانتهز خروج طغرل بك من بغداد إلى شمال العراق ليخضع تمرداً قام به أخوه إبراهيم وهاجم بغداد واستولى عليها، وأجبر الخليفة القائم على إصدار عهد عنه يعترف فيه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة مع وجود الفاطميين أبناء فاطمة الزهراء. وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد، وأرسلت إليه عمامة الخليفة وعرشه. إلّا أن ثورة البساسيري لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد طغرل بك ليقضي على البساسيري وليعيد الخليفة القائم[٢]. وتوّج انتصاره هذا بالزواج من ابنة الخليفة القائم عام

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٤/ ١٤٢.
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ١١ ـ ١٢.

٤٥٤هـ. لكن العمر لم يطل به بعد هذا الزواج فما لبث أن توفي في العام التالي ٤٤٥/ ١٠٦٣ وقد جاوز السبعين.

وولي الحكم بعد طغرل بك، ابن أخيه السلطان عضد الدين ألب أرسلان فحمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين والشيعة على السواء طيلة فترة حكمه التي دامت عشرة أعوام (١٠٦٣ ـ ١٠٧٣م). وبسط سيطرته على حلب سنة ١٠٧٠م وكانت معقلاً للشيعة، ومنها أرسل قائده أتسز الخوارزمي إلى فلسطين وكانت تابعة للفاطميين، ففتح الرملة والقدس وما جاورها. ثم قصد دمشق وحاصرها وخرّب ضواحيها، وقطع الإمدادات عنها، ولكنه فشل في دخولها.

ومن حلب اتجه ألب أرسلان لمقابلة الأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس الذي توغل في الأراضي الإسلامية حتى بلغ ملاذكرد التي دارت عندها معركة هائلة كتب النصر فيها لألب أرسلان وأُسر الأمبراطور البيزنطي سنة (٤٦٢ ـ ١٠٧١م).

وتمهدت الطريق بهذا النصر لألب أرسلان إلى ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى. فوجه إليها ابن عمه سليمان قتلمش فأقام فيها دولة سلاجقة الروم. ولم يعش ألب أرسلان بعد نصره هذا طويلاً، إذ قتل على يد أحد أتباعه أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر عام ١٠٧٣م. وكان قد أوصى بالملك من بعده لولده ملكشاه.

وفي عهد ملكشاه، استطاع القائد اتسز الاستيلاء على دمشق عام ٤٦٨هـ وما لبث ملكشاه أن عيّن أخاه تتش ملكاً على بلاد الشام وجعل الحكم وراثياً في أسرته، وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي وقفت في وجه أي تقدم فاطمي من مصر باتجاه الشام.

وجاء وفاة ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام عام (٤٨٥ ـ ١٠٩٢م) إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة، فقد خلف من الأولاد أربعة هم: بركياروق، ومحمود، ومحمد وسنجر. وقد انقسمت دولته فيما بينهم. فتنافسوا، ومن بعدهم أولادهم، على السيطرة على الخليفة العباسي وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لنفسه لقب السلطان. كما تنافس ابنا تتش، رضوان ودقاق في الشام[١]. وأعمامه وأبناءهم في ولايات المشرق[٢].

ولعل أبرز مظهر لانحلال دولة السلاجقة، إضافة إلى التفكك والتناصر الأسري، هو استقلال عدد من كبار قادة السلاجقة ممن اصطلح على تسميتهم

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٣ ـ ١١٣.

بالأتابكة، بولاياتهم، والأتابكة هي جمع لكلمة أتابك التركية المؤلفة من مقطعين: «أتا» بمعنى أب، و«بك». بمعنى السيد الذي يربي أولاد الملوك. ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القادة بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة. وقد أطلقت على الدول التي أسسوها الأتابكيات وهي كثيرة عديدة، وبيوتها شتى لا تنتسب إلى نسب واحد. ولكن مما يجمعها هو صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الإقطاعي الإسلامي. وأهم هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي. وعن طريق آل زنكي ظهر الأيوبيون. ولعب هؤلاء وأولئك أدوارهم على مسرح الحوادث السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي.

ولم تكن الخلافة الفاطمية في مصر، أسعد حالاً في هذه الفترة من الخلافة العباسية التي كانت في هذه الفترة في أشد حالات الضعف. وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله الذي أعلن الخلافة، وتلقب بلقب المهدي، وتسمى بأمير المؤمنين سنة (٢٩٧ ـ ٩٠٩م). وبعد أن استولت على مصر والشام ومعظم بلاد جزيرة العرب أخذ الضعف يدب في أوصالها، نتيجة لاستبداد الوزراء، وهو نفس السبب الذي تسبّب في ضعف الخلافة العباسية حين استبد بها أمراء الأمراء، ومن بعدهم ملوك بني بويه، ثم سلاطين السلاجقة. وقد كان الخلفاء الفاطميون أثناء إقامتهم بالمغرب، وفي أوائل حكمهم في مصر، يعتمدون على أنفسهم في تدبير الأمور، وإن استخدموا في مصر الكاتب أو المدبّر أو الوسيط أو السفير، وهي تسميات تدل على الذي يتصرف برأي الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير، ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله، كان هؤلاء ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ.

واعتباراً من النصف الثاني من عهد الخليفة المستنصر بالله، الذي تميزت فترة حكمه الطويلة بالمجاعات بسبب قصور النيل وما تلاه من قحط شديد استمر سبع سنوات، كثرت الفتن والقلاقل، ففقد الخليفة ووزراؤه كل سلطة في البلاد بحيث كان هؤلاء الوزراء يسقطون بسرعة بحيث عيّن في مدى أربع سنين عشرون وزيراً منهم.

ولما أضحى الخليفة المستنصر عاجزاً على قمع الفتن. وتصريف أمور الدولة بنفسه، التجأ إلى واليه على عكة بالشام، بدر الجمالي، الأرمني الأصلي، فطلب منه القدوم إلى مصر لتنظيم أمورها وإخماد ما نشب فيها من فتن، ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الأرمن عام ٤٦٦هـ وقبض على زمام الأمور بيد من حديد. فخلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة إلى جانب

تفويضه إمرة الجيوش. وبذلك أصبحت سلطته تمتد إلى كل أمر من أمور الدولة فهو أمير الجيوش، المسيطر على الجيش وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادي دعاة المؤمنين، أي المشرف على الدعوة الفاطمية[١]. وقد حكم بدر حكماً مطلقاً إلى وقت وفاته سنة (٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م) حيث كان المستنصر معه كالمحجور عليه[٢].

وبعد بدر الجمالي توالت سلسلة من وزراء التفويض أولهم الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان له من القوة ما حمله على إيصال المستعلي، الابن الأصغر للمستنصر، لمركز الخلافة رغم أحقية أخيه نزار بها. وما لبث أن تخلص منه باغتياله بالسم عام ١١٠١م وأحل في مركز الخلافة المنصور بن المستعلي وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره ولقبّه بالآمر بأحكام الله، وحجر عليه ولم يسمح له بالظهور إلّا مرتين في السنة، ولكن الآمر بعد أن بلغ رشده حاول أن يسترد نفوذه الضائع فتخلص من وزيره بعد أن دسّ السم له فقتله عام ١١٢١م. وشغل هذا المنصب بعد الأفضل المأمون البطائحي الذي حاول أن يسير على خطى سلفه من حيث الاستبداد بالخليفة، الأمر الذي اضطر الخليفة الآمر أن يدس له أحد مماليكه فقتله عام ٥١٩ ـ ١١٢٥م.

وفي عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) قتل الآمر على يد أحد أتباع عمه نزار، الذين كانوا يعتبرونه، وأباه من قبله، غاصبين للحكم[٣]. ولمّا لم يترك الخليفة الآمر وريثاً، فقد انتقلت الخلافة إلى أحد أقربائه ويدعى عبد المجيد، الذي تلقب بالحافظ لدين الله. وفي عهده استبد بالسلطنة الوزير الأكمل بن الأفضل الذي قبض على الخليفة وسجنه واستولى على ما في قصره من أموال وتحف. ولما لبث الأكمل أن قتل عام ٥٢٦هـ وأخرج الحافظ من سجنه. وقد اعتبر هذا اليوم يوم عيد يحتفل به كل عام وسمي عيد النصر[٤]. وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ ١١٤٦م اشتد التنافس بين كبار موظفي الدولة على منصب الوزارة، وساعدهم على ذلك صغر سن الخلفاء الذين توالوا على الخلافة بعد الحافظ وهم على التوالي: الظافر والفائز والعاضد وتوالى على منصب الوزارة في هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية رضوان بن ولخشي والي الغربية والعادل بن السلار والي البحيرة، وطلائع بن رزيك

(١) الخطط المقريزية ٢/ ٣٠٤.
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣.
(٣) النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٤) خطط المقريزي ٢/ ١٧٢.

والي الأشمونين وشاور والي قوص، وأبو الأشبال ضرغام الذي تولى الوزارة لآخر الخلفاء الفاطميين العاضد بعد أن هزم شاور الذي هرب إلى الشام ليستنجد بالزنكيين.

يتضح لنا، من هذه العجالة أن الخلافتين العباسية والفاطمية لم تكونا على حال تحسدان عليه، وشغلتهما مشاكلهما الداخلية عن مقاومة خصم مشترك لكلتيهما وللإسلام وتمثل هذا الخصم بالحملات الصليبية التي استهدفت ظاهرياً استخلاص الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين وحماية الحجاج الوافدين من أوروبا، بشكل خاص، مما كانوا يلاقونه من عراقيل ومصاعب واضطهاد من جانب المسلمين، ولما كان العصر عصر العاطفة الدينية المشبوبة فقد اتخذ القائمون على تلك الحملات من الدين ستاراً يخفون وراءه مطامعهم وأهدافهم الحقيقية ليجتذبوا أكبر عدد من المشاركين بهذه الحملات. والواقع أنه تجمعت من الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ما ينبغي أن يأخذه الباحث المنصف بعين الاعتبار وهو يدرس تاريخ هذه الفترة. وإذا كانت قلة من المشاركين بهذه الحملات قد حملت شارة الصليب لدوافع دينية. فقد كان عدد من زعماء هذه الحملات قد قصدوا من اشتراكهم بها أن يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون عليها أعلامهم وتدين لهم بالطاعة. كما قصدت المدن التجارية في أوروبا مثل البندقية وجنوى وبرشلونه وبيزا وفلورنسا أن تجني الأرباح الهائلة من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، والسيطرة على طرق التجارة التي تمر عبر الوطن العربي. والقضاء على البحرية الإسلامية التجارية، لذا فإنها موّلت هذه الحملات وساعدت في نقلها على متن سفنها إلى ميادين القتال، متخذة من هذه الحرب فرصة لتنشيط تجارتها. لقد كان الشرق منجم ذهب هرع لينهبه الأفاقون والمفلسون واللصوص والباعة والخدم والرهبان والرقيق يسيطر عليهم جميعاً حمى الخوف على الحياة والاختيار بين الإثراء والشحاذة على حد تعبير أحد المؤرخين. لقد كانت الحملات الصليبية في واقع الأمر استعماراً سياسياً واقتصادياً لهذه المنطقة من العالم.

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا جزئياً في تحقيق أهدافهم واستطاعوا إقامة مملكة في القدس وإمارات ثلاث في الرها وأنطاكية وطرابلس، فإن نجاحهم هذا لا يُعزى إلى وفرة عددهم، وإلى سيل الإمدادات الذي لم ينقطع من الغرب الأوروبي بتشجيع ودعم من البابوية في روما، ومن الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل يعود أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية مع العداء المذهبي الذي دمغ بطابعه تصرفات وعلاقات كلتا الخلافتين الواحدة بالأخرى، فأفاد الصليبيون من هذا الواقع ووظفوه لصالحهم.

١ ـ المواجهة الصليبية ـ العربية الإسلامية

ليس بمقدورنا في هذا الدراسة أن نقدم تقريراً مفصلاً لسير الأحداث العسكرية والسياسية ولكننا نود أن نشير إلى أن عداوة مريرة نشأت بين الأمم التي تدين بالمسيحية والإسلام منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر المتوسط، بعد أن أجبروا البيزنطيين على التراجع إلى أقصى بلادهم في آسيا الصغرى وسيطروا في عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم في سوريا والجزيرة ومصر وأرمينية وقبرص ورودس، أي على معظم شرق البحر المتوسط كما سيطروا في عهد الخلافة الأموية على المغرب والأندلس وجزر البيار وسردينية وكريت في غرب المتوسط، ولما جاءت الدولة الأغلبية، في شمال إفريقيا، استولت على صقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م ثم على مالطة ٢٢١هـ/ ٨٣٥م وفتح المسلمون كالبريا جنوب إيطاليا ووصلوا إلى روما سنة ٢٣١هـ/ ٨٤١م مقر البابا التي دخلوها وأحرقوها ونهبوا كنائسها، واضطر البابا ليون الرابع أن يختبئ. ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم في شمال إفريقيا، بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية سنة ٣٣٣هـ/ ٩١٥م وأخذوا يغزون أيضاً في كالبريا (قلّورية كما سماها العرب) وهاجموا لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م. وهاجموا جنوب شرق فرنسا، كما غزوا سواحل بلاد الروم.

وكان من الطبيعي والمنتظر أن تستهدف الأمم النصرانية، بعد أن اشتد ساعدها، الانتقام من المسلمين، ولم يكن متوقعاً أن يأتي الخطر من جانب البيزنطيين الذين تلقوا ضربات قاسية من المسلمين، منذ انسياحهم في حركة الفتوح، باستيلائهم على أملاكهم في حوض البحر المتوسط، ومن ناحية أخرى بسبب أن حدودها في أوروبا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية وبخاصة البلغار. ولما قويت بيزنطة، بضعف الخلافة العباسية، وبعد تسوية علاقاتها بالبلغار، مدّت نفوذها في عهد الأسرة المقدونية إلى الإمارات الإسلامية في شمال الشام وفي إقليم الجزيرة، كما استعادت رودس وقبرص وكريت. وجعلتها مراكز للإغارة على سواحل المسلمين. وفي أوائل عهد الفاطميين، بعد أن نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وصل البيزنطيون إلى قرب القدس مرار[١] إلّا أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم وما لبثوا أن عقدوا الصلح معهم. دون أن يسترجعوا الجزر التي فقدوها ولما جاء السلاجقة إلى العراق، زادوا من ضعف البيزنطيين، بخاصة بعد أن تقدموا باتجاه آسية الصغرى التي فتحوا أبوابها لهجرة قبائلهم فتكوّنت إمارة

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١١٨.

سلجوقية قوية على يد سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، اتخذت قونية عاصمة لها وبدأت تتوسع مقتطعة الأراضي البيزنطية جزءاً جزءاً. كما اضطروا البيزنطيين أن يدفعوا لها الجزية[١].

ولكن الخطر الحقيقي جاء من أهل أوروبا الذين عرفهم العرب باسم الفرنجة أو الإفرنج[٢]، أو الفرنج، وبخاصة من العناصر النورماندية الشمالية المخاطرة الذين غزوا إنكلترا في القرن الثاني الميلادي وفيها تحولوا إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى شمال فرنسا واستقروا في منطقة النورماندي التي نسبت إليهم. ومن هناك بدأوا يهاجمون سواحل الأندلس الإسلامية سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٤م. كما حاولوا بقيادة زعيمهم روبير جيسكار أن يقضوا على نفوذ بيزنطية على سواحل الأدرياتيك. وحينما صُدّوا اتجهوا إلى جنوب إيطاليا وصقلية ومالطة وكانت تخضع للفاطميين ولآل باديس في تونس، واستولوا عليها بقيادة ملكهم روجار Roger في سنة ٤٨٤/ ١٠٩١ بعد أن حطموا سيطرة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، وبدأوا يغيرون على مراكب المسلمين المتجهة من مصر إلى إفريقيا[٣]. كما هاجموا طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ١١٤٦م واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣هـ؟ ١١٤٨م وقد تحالفوا للقضاء على نفوذ المسلمين في البحر المتوسط مع دويلات قوية بدأت تظهر في إيطاليا، مستقلة عن نفوذ بيزنطية مثل بيزا وجنوى والبندقية.

كذلك جاء الخطر من قبل نصارى الأندلس الذين بدأوا يسترجعون جزءاً فجزءاً الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين فيما عرف بحروب الاسترداد (الريكونكيستا) مستغلين ضعفهم وانقسامهم إلى دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف. ولكن مما حدّ من انتصاراتهم ظهور الدولتين المرابطية والموحدية في المغرب اللتين أوقفتا تقدم الأسبان وجمّدتا نشاطاتهم المعادية إلى حين.

ولكن الخطر الداهم على المسلمين، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب في العصور الوسطى بالأرض الكبيرة، وهي تمتد من شمال الأندلس إلى رومة شرقاً وكانت البابوية في روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة عليهم. وباستثناء فرنجة فرنسا الذين أغار المسلمون عليهم وهاجموا أراضيهم في عهد الأمويين والعباسيين[٤] لمجاورتها الأندلس، لم يكن

---

(١) رحلة ابن جبير ص٢١٧.
(٢) المصدر نفسه ص٢٢٢.
(٣) الكامل في التاريخ ٩/ ٥.
(٤) الكامل في التاريخ ٥/ ١٠٢.

الإسلام على عداء مع سائر فرنجة أوروبا، إلّا أنهم حينما دعاهم البابا إلى حرب المسلمين لبوا النداء وأضحوا من أشد أعداء الإسلام.

ابتدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م بمؤتمر كليرمونت (Clermont - Ferrand) بجنوب فرنسا، بناءً على دعوة البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) وحضره حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين وقد ألقى البابا أوربان في المؤتمر خطاباً حض فيه على حرب المسلمين ولتحرر الكنيسة الشرقية من ربقتهم، والأراضي المقدسة من سيطرتهم مقابل غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحرب سواء مات في الطريق إلى الأراضي المقدسة أو قتل في الحرب ضد المسلمين، كما خطب بطرس الناسك أيضاً ولقيت خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما لوحت به من مكاسب دنيوية ورغبت بالمكاسب الدينية استجابة فورية وحماسية تجسدت في الصيحة التي رددها الحاضرة: الله يريد ذلك (Dieu le Veut - Dies le volt) والواقع أن هذه الاستجابة لم تكن ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت استجابة للمشروع الذي طال انتظارهم له. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحرب الصليبية تتناسب مع العصر تماماً، إذ كان المجتمع الإقطاعي الأوروبي، بغطرسته وكبريائه وتعصبه ضد غير الكاثوليك على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا ويضمن له المغامرة والكسب مثلما يضمن له خلاص الروح.

أخذ الفرنجة يتجمعون في كل مكان لقتال المسلمين وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليباً من قماش أحمر لذلك عرفت الحروب التي قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية، أما المؤرخون العرب فسموها بحركة الفرنج[١].

وقد اشترك في أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاؤوا من كل مكان في أوروبا يقودهم بطرس الناسك إلى بيت المقدس. حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوروبا إلى القسطنطينية، فقتلوا اليهود في طريقهم وسلبوا ونهبوا ويبدو أن بطرس الذي كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين والمجرمين وبنات الهوى والفلاحين المعدمين والفقراء من أهل المدن فضلاً عن عدد صغير من الفرسان. فلما وصلوا إلى أسوار

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٤٦.

القسطنطينية في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٦٩م نصحهم ملكها ألكسيوس كومينوس (١٠٨١ ـ ١١١٨م) بألّا يتسرعوا في العبور إلى آسيا الصغرى. ولكنهم أساؤوا التصرف فأحرقوا القصور ونهبوا الكنائس، فأمرهم بالرحيل وسرعان ما وقعوا في كمين أعده لهم السلاجقة فأجهز على الحملة الشعبية في حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.

وفي الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة. ولذا كان خطرها شديداً على المسلمين. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة مثل غودفروا دي بويون Godefroi de Bouillon ويسميه العرب كند فري أو كند هري، وشقيقه بودوان (Boudouin) ويسمونه بغدوين أو بردويل. وبوهيمند النورماندي (Bohémond) ويسمونه بيمنت أو بيمند[١] وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوروبا، والبعض الآخر عن طريق سهول إيطاليا الشمالية. فلما وصلوا إلى القسطنطينية سنة ٤٩٠/ ١٠٩٧ ليعبروا بحر مرمرة أو ما سماه العرب بالخليج أو «المجاز» إلى بلاد الترك السلاجقة لم يمكنهم ألكسيوس من العبور حتى يتعهدوا له وأن يقسموا له يمين الولاء بإعادة أنطاكية إذا ما استولوا عليها من السلاجقة.

كانت نيقية أول أهداف الصليبيين. وهي عاصمة دولة سلاجقة الروم يحكمها قلج أرسلان وتتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول. فتم فرض حصار عليها استسلمت بعده للإمبراطور البيزنطي خوفاً من وحشية الصليبيين وكان النصر حافزاً للصليبيين على مواصلة الزحف جنوباً صوب فلسطين. ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها[٢] ولأن جماعات مسلمة من مدن حلب ودمشق والقدس خرجت لنصرتها. وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى الصليبيون على أنطاكية من صاحبها التركي ياغيسيان في آذار ١٠٩٨/ ٤٩١هـ فلما دخلوها ذبحوا معظم أهاليها المسلمين بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث. ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها بقيادة كربوقا التركي أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وأصبح الصليبيون فيها محاصرين، لكن الانقسامات بين المسلمين أضاع عليهم الفرصة فانهزموا هزيمة منكرة[٣]. وكان الصليبيون قد اتفقوا

---

(١) ابن الأثير ٨/ ١٨٥ ـ ١٨٧.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦.
(٣) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

مع ألكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية، إلّا أنهم سلموها لبوهيمند الذي تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد (Tangrid).

بعد هذا الانتصار سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فاستولوا على مدن عديدة منها الرُّها[١] وأغلب سكانها من الأرمن: لكن أتابكة السلاجقة في الجزيرة تمكنوا من وقف تقدمهم إلى بغداد. كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب وكانوا يسيرون على طول الشاطئ وتمدهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال فكانت مدن الشام العليا وموانيها تسلّم إليهم دون مقاومة. وقد تعامل الصليبيون بمنتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان مثلاً، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه.

وهكذا قامت إمارتان صليبيتان في بلاد الشام، رغم أن المسلمين كانوا قادرين على إبادة القوات الصليبية لو نبذ حكام المنطقة الشك والعداوة التي رسختها طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، الأمر الذي جعلهم عاجزين عن مقاومة قوات الصليبيين. لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسي للحكام العرب والسلاجقة في المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم في آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم في بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات[٢]. ولا بُدّ أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه. أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا أبداً في مساعدة السلاجقة السنّة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة، حيث أرسل الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي سفاره لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام. ولم تثمر هذه المحاولات شيئاً. وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأي سلطات ولا شك أن الفاطميين، كالسلاجقة، ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبي مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين.

---

(١) الكامل في التاريخ ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٨.
ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩.
ـ ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٢ ـ ١٨٥.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا في أنطاكية، أدرك أن السلاجقة ليسوا في وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد، فشن هجوماً على فلسطين التي كانت في حوزة سقمان وأيلغازي ابني أرتق، وكانا يدينان بالولاء أمير دمشق دقاق. وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م استولى على القدس وأناب فيها قائداً اسمه افتخار الدولة[١].

وفي الشمال من بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة تراقب انهيار السلاجقة في سرور، ولم يتدخل أحد إلى جانبهم. ويذكر ابن الأثير ما نصه: «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية . . . . .»[٢]. وإذا كان رضوان ودقاق السلجوقيان، قد اتخذا هذا الموقف، فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحاً.

وتحرك ريمون دي تولوز من معرة النعمان على رأس قواته، جنوباً بحذاء منحدرات جبل النصيرية دون مشاكل، لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشياً لهجوم الصليبيين عليهم. وبعدما حدث في أنطاكية والرها ومعرة النعمان، قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، ثم انضم غود فري وتنكريد وبوهيمند إلى الجيش الزاحف جنوباً. وقد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذي كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية، وتوغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبي إلّا بعد فوات الأوان.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى، هو الحصار الذي ضربه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من ٧ حزيران إلى ١٥ تموز ١٠٩٩م استبسل خلالها المدافعون فكانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من الأبراج عن تسليم أنفسهم[٣] وفي يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م (٢٢ شعبان

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٩.

٤٩٢هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحملة الفاطمية افتخار الدولة وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وجرى الدم في الشوارع وظلت الجثث مطروحة في الشوارع أياماً.

وكان الوزير الأفضل، لما بلغه وصول الصليبيين إلى القدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم، فلما قرب من القدس، كانوا قد فتحوها، وهجموا عليها وهزموه وأحرقوا من التجأ من عساكره إلى الغابات وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى قبر المسيح بحيث إنهم كانوا يبكون من شدة الفرح. وهكذا سقطت القدس في أيدي الصليبيين بعد أن ظلت في يد المسلمين منذ فتحها زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م.

وعندما خفّت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهام التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاضت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة. واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد. وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها، فقد تنازعتها البابوية، التي كانت تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة إلى سيطرتها على الكنيسة الغربية، والمدن الإيطالية التي قامت بنقل الجنود والإمداد على متن سفنها، وبيزنطة التي كانت تريد استعادة مستعمراتها في الشرق. ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن يكون غود فري (كند فري أو كند هري) حاكماً عليها تحت لقب «حامي الضريح المقدس» وكان هذا الحل الوسط في حقيقة الأمر هروباً من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في هذه الدولة الوليدة.

وفي الثاني عشر من تموز عام ١١٠٠ مات غود فري أثناء محاولته مد نفوذه في السهل الساحلي بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا في الإفادة من النصر الصليبي. وتمّ استدعاء بدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس خلفاً لأخيه المتوفى. وفي الخامس والعشرين من كانون الأول تم تتويجه. وهكذا قامت مملكة بيت المقدس اللاتينية، التي تكونت بالإضافة إلى القدس من يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل وأريافها التي تسكنها أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا إلّا أن العدد الأكبر منهم بقي في المنطقة حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة

الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم كانوا أقل كثيراً في عددهم من المسلمين والعرب أصحاب البلاد، فقد حاولوا جهد طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. كما كانت من ناحية أخرى أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربي رغبة في الحصول على نصيب من المغانم التي شاعت أخبارها في الغرب الأوروبي على ألسنة العائدين من فلسطين وبدأت الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة لمساعدة المؤمنين في «جيش الرب» تحقق نجاحاً ملحوظاً.

وفي سنة ١١٠١م كانت حملة جديدة قد تجمعت في الغرب الأوروبي لمساعدة صليبيي الشرق، وكانت عبارة عن جموع من اللمبارديين تشبه جموع بطرس الناسك من قبل، يتحرقون شوقاً للرحيل وقد غادرت ميلانو في ١٣ حزيران سنة ١١٠١ وسلكت الحملة الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا في إثارة المتاعب الصليبية المعتادة. ولم يجد الإمبراطور ألكسيوس كومينوس بداً من نقلهم إلى آسيا الصغرى. وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم الفرنسية. وفي تلك الأثناء كان بوهيمند أمير أنطاكية أسيراً لدى أمير سيواس الملك الغازي بن الداتشمند. وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره. ولكن السلاجقة الذين علمتهم أحداث الحملة الأولى درساً قاسياً، اتَّحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة، فأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازي أمير سيواس على الصليبيين، الذين تبدّد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا الإشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطي. وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس[١].

ومن ناحية أخرى، بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم في الأراضي والموانئ التي كانت تفصل، أو تصل، بين المناطق المتناثرة التي استولوا عليها، وفي بطء بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدي لهم تماماً ففي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية وكان الجنويون بأساطيلهم خير عون لهم في هذا الهجوم[٢].

وحاول الفاطميون في السنة التالية (١١٠٢م) أن يشنوا هجوماً مضاداً على

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢١١.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٤.

الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة الخسائر التي نزلت بالصليبيين[١]. ثم استولى تنكرد من البيزنطيين على اللاذقية سنة ١١٠٣م.

وعبثاً حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئاً وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون بسهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى حراجة الوضع وسلبيته بقوله: «لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذٍ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء......[٢].

وفي سنة ١١٠٤م ملك الصليبيون عكا، ثم طرابلس بعد حصار دام سبع سنوات مات أثناءها ريمون دي تولوز، وقد أظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار بطولة وصبراً رائعين طوال سنوات الحصار السبع، وأخيراً سقطت المدينة سنة ١١٠٩م. وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وأنطاكية، فضلاً عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها، لم تتوقف المقاومة الإسلامية في الشمال من جانب السلاجقة الذين نجحوا في أسر بوهيمند فترة من الزمن، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين. كما أن الفاطميين في الجنوب استغلوا قاعدتهم في عسقلان لشن هجمات ضد الصليبيين في سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، و١١٠٥م، وقد كلفت هذه الهجمات الكثير من الخسائر في الرجال والأموال بيد أن بذور الشك والمرارة لا زالت تفعل فعلها، فمنعت أي تنسيق جدي على محور القاهرة دمشق، وبعد ١١٠٥م لم يشن المصريون أي هجوم خطير على الصليبيين، بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد دائم على الصليبيين.

في تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على الساحل كله[٣] باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكري لصالحهم بالشكل الذي أقلق إمارة دمشق وإزاء الفشل على محور دمشق القاهرة، بدأ أمير دمشق طغتكين (١٠٩٥م ـ ١١٢٨م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (١١٠٨م ـ ١١١٣م) الذي كان يحاول تنظيم تحالف إسلامي كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية[٤]. ولكن هذه المحاولات لم تؤت

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٢.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢١.
(٣) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٠.
(٤) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية في بلاد الشام حالت دون ذلك، كما أن سلاطين السلاجقة كانوا أكثر اهتماماً بفارس منهم بالبلاد الشامية.

في تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت في معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيمند سنة ١١١١م، ثم تلاه تنكرد سنة ١١١٢م. وبذلك قوي مركز بلدوين الأول كثيراً بالشكل الذي أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق.

وعلى الجانب الإسلامي كانت تجري محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين. وقد انتهز مودود أتابك الموصل فرصة استنجاد طغتكين به، فجمع جيشاً كبيراً لمهاجمة الصليبيين في فلسطين هذه المرة. ففي سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق والأمير أياز بن أيلغازي صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبي تماماً[١]. بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة في شهر ربيع الثاني من هذه السنة (تشرين الأول ١١١٣م)، ثم موت رضوان أمير حلب في جمادى الآخرة في السنة نفسها، خفّف من وطأة الهجوم الإسلامي على جبهة الشمال.

ولم يكن ثمة حادث مهم في الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس، سوى محاولته غزو مصر سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ولكن مرضاً عضالاً أصابه، فعاد مسرعاً إلى فلسطين ليلقى حتفه[٢]. وتنتهي بذلك مرحلة التوسع الصليبي التي قادها هذا الملك لتبدأ مرحلة التوازن بين الجبهة الإسلامية في الشمال وبين الصليبيين، بحيث يتجه الجانبان في أنظارهما شطر مصر التي بدأ الصليبيون يحاولون التوسع على حسابها.

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة إلى الشام والجزيرة، وأنه أصبحت لها مملكة وإمارات في هذه البلاد بين إمارات السلاجقة وأتابكياتهم، وعلى حدود مصر، ونميز منها: إمارة الرها على الفرات التي كان يتبعها عدة بلاد، وإمارة أنطاكية في الشمال التي امتدت إلى جبال طوروس وشمال الشام، ومملكة القدس التي امتدت من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، وإمارة طرابلس التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذاً لها على الساحل، وامتدت من

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٦.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧١.

حمص إلى شمل لبنان دون أن تدخل فيها إمارة دمشق السلجوقية، ومع ذلك، فإن مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد الفرنجة، إذ كان يخضع لها أشرافهم في الشام والجزيرة. وموقفهم منها يشبه موقف الإمارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان السلجوقي في العراق.

٢ ـ المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين ودور آل زنكي وآل أيوب

لم تكن المواجهة الصليبية العربية الإسلامية مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداماً بين حضارتين. وقد تجلّت الاستجابات التي خلفتها هذه المواجهة في عدة مستويات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية. هذا التفاعل بين هذه الجوانب جميعاً أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع.

إن الاستجابة الأولى للتحدي الذي فرضه العدوان الصليبي على العالم العربي تبرز في الحقيقة القائلة أن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية ليتكرس نموذج الدولة العسكرية كبديل مناسب بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبيين. وهذا الدور التاريخي هو الذي يضفي عليها الشرعية في نظر رعاياها، كما أنه مبرر وجودها واستمرارها.

لقد شكل الغزو الصليبي صدمة نفسية مؤلمة وأثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الاستياء والغضب في كل مكان ذهب إليه هؤلاء اللاجئون وأدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاؤوا إلى بلادهم بقصد البقاء. وبدأ العالم الإسلامي يشهد ظاهرة إيجابية، جاءت هذه المرة من جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذي ضيّع البلاد وأذلّ العباد[١]. وأخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التي تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأي عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأي والمفكرون. وفي رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.

المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين. وفي ظل هذا البعث الإيديولوجي ظهر آل زنكي في الموصل اعتباراً من سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ليقودوا حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية وما لبث عماد الدين زنكي أن صار أقوى حاكم مسلم في زمانه، لأنه طوع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام، أي الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس والعلماء والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأي العام القوي المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبي. وجاء عماد الدين زنكي استجابة تاريخية للمطلب العربي الإسلامي العام. من ثم برزت أتابكية الموصل، باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التي يقودها ملك مقاتل لكي تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت في طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل الخلافتين العباسية والفاطمية في التصدي لهم. هذه الدول هي: الزنكية ـ الأيوبية ـ ثم المملوكية.

تمكن عماد الدين زنكي تدريجياً من التغلب على النعرات الانعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفي سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م ملك مدينة حلب وقلعتها. وكان هذا أمراً في غاية الخطورة على الصليبيين في شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية. وفي العام التالي استولى على حماه. ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص ٥٣٢هـ/ ١١٤٣.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكي أن تستولي على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً وكانت تلك هي أول إمارة صليبية قامت على أرض الشرق العربي الإسلامي وأول إمارة خسروها في حرب الاسترداد الإسلامية لذا كان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت أصداؤها في كل مكان إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً على استيلاء بلدوين دي بويون عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربي الإسلامي كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة وتدعيماً له في مواجهة النعرات الانعزّالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكري كان سقوط الرها بيد المسلمين كسباً كبيراً لأنه جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية. كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما في الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من الحزن الذي عم الناس هناك، إلّا

أن أحداً لم يحاول أن يجنّد حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق لمقابلة البابا أيجينوس الثالث (١١٤٥ ـ ١١٥٣) بعد أن اعتلى العرش البابوي بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنتي ١١٤٥ و١١٤٩م جرت أحداث هذه الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية وكانت بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوروبا، واتجهت نحو القسطنطينية. ولكن الترك السلاجقة في آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما في ١١٤٦/٥٤١. وبقي الملكان ومع قلة وصلا بها بحراً إلى أنطاكية بعد أن نجا لويس من القتل أو الأسر بأعجوبة.

أما موقف الصليبيين في بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكي لقي مصرعه على يد بعض خدمه غيلة في السادس من شهر ربيع الآخر سنة ١١٤٦/٥٤١[1] وانقسام مملكته بين ولديه غازي الذي استولى على الموصل والجزيرة ونور الدين وكان من نصيبه حلب، فقد فشل جوسلين أمير الرها في هجومه على المدينة لاستردادها لأن نور الدين أفشل محاولته وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عنه قدوم جنود الحملة الثانية ولكن لويس السابع الذي أقلقته مكائد أمير أنطاكية والإشاعات التي راجت عن وجود علاقة غرامية بينه وبين زوجته، تجاهل الرها وسار حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث في فلسطين وبدلاً من محاولة استرداد الرها سار كونراد نحو أتابكية دمشق، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس وحاصرها سنة ١١٤٨/٥٤٣م فجاء غازي ونور الدين لنصرة صاحب دمشق معين الدين أنر. لكن معين الدين الذي خاف على ملكه من ولدي عماد الدين، أرسل إلى الفرنجة وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال. وعاد كونراد إلى ألمانيا، كما عاد لويس بعد أن مكث في الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة ١١٤٩م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية بالفشل وأصبح نور الدين أكبر الأتابكة الزنكيين بعد وفاة أخيه الأكبر غازي في الموصل سنة ١١٤٩/٥٤٤م[2] وتنازل أخيه الأصغر

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤٢، الكامل في التاريخ ٩/ ١٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٦٥ ـ ٦٦.

ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٢٤.

قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة. مما جعله يفكر جدياً في الاستيلاء على أتابكة دمشق لا سيما وأن حاكمها معين الدين أنر لا يزال يمثل عقبة كأداء في وجه محاولاته لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففي كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يسرعون لنجدتها، ومما جعله يعجل أيضاً هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين بالشام سنة ٥٤٨/ ١١٥٣م[١] الأمر الذي قوّى أملهم في أخذ دمشق ولا سيما أن معين الدين أنر كان قد توفي، وضعُف مجير الدين صاحبها، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك. كما ورده تقليد من الخليفة العباسي المتقي على البلاد الشامية وكذلك المصرية. وفي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م نجح نور الدين محمود في دخول دمشق برغبة أهلها ونقل إليها مركز حكمه بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق. وعيّن نجم الدين أيوب حاكماً عليها شيركوه نائباً عنه وصلاح الدين رئيساً لحاميتها[٢].

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار إلى مصر التي كانت تعاني الضعف السياسي آنذاك. إذ كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عمرها، عارية إلّا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ انهكتها الكوارث الطبيعية والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالي صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بين أيديهم. كما توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحى التدهور في قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية في ذلك الحين أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولي عليها، أو يضمها إلى جانبه في الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فإن كلاً من الطرفين آثر ألّا ينتظر النهاية الطبيعية للدولة الفاطمية وإنما يبادر إلى وضع حد لهذه النهاية.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧.
ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٢.
(٢) النجوم الزاهرة ٦/ ٨.

كانت الأحداث السياسية في مصر تجري بسرعة نحو التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥/ ١١٢١م[١] لم يعد هناك حاكم قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد في دوامة لا نهاية لها من المؤمرات والدماء، بحيث انتعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود، وفي سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (١١٤٣ ـ ١١٦٣م) في إصلاح تحصينات غزة، مما كشف عن نيته المبيّتة في الهجوم على مصر بوضوح، وكانت عسقلان لا تزال بأيدي المصريين وتمثل تهديداً محتملاً ضد الوجود الصليبي في فلسطين. وفي سنة ٥٤٨/ ١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطيني كله للصليبيين إلّا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التي لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحين مات بلدوين الثالث في ١٠ شباط ١١٦٣م، كان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف إذ إن سياسة خليفته أملريك الأول (عموري) (١١٦٣ ـ ١١٧٤م) كانت في حقيقة أمرها سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ إن اتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاة الصليبيين. إذ أدرك أملريك الأول أن سقوط مصر في يد المسلمين السنة في بلاد الشام سيجعل الدويلات الصليبية بين حجري الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبي أن نور الدين محمود كان مدركاً لأهمية التطورات السياسية الداخلية في مصر على مجريات الصراع الإسلامي الصليبي. وهكذا كان نور الدين وأملريك على أهبة الاستعداد لبدء السباق للفوز بالجائزة الكبرى، وهي مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين. فبعد موت الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨/ ١١٦١م اندلع الصراع على كرسي الوزارة بين ابنه العادل الذي مكث على كرسي الوزارة خمسة عشر شهراً، شاركه أثناءها شاور حاكم الصعيد الذي قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذي بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه[٢]. ولم يجد شاور بداً من الهرب

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩٧ ـ ٣٧٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٨١، أبو شامة: الروضتين ١/ ١٣٠.

صوب بلاط نور الدين محمود على حين وجد الملك الصليبي أملريك في الفوضى الضاربة في مصر آنذاك فرصة ملائمة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التي تقررت على مصر للصليبيين في عهد سلفه بلدوين الثالث. وفي سنة ١١٦٣م كانت قوات أملريك تعبر برزخ السويس. ثم حاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغاماً الذي انفرد بكرسي الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً صعباً جعل الصليبيين يرجعون القهقرة إلى فلسطين ولكن إلى حين.

وفي تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاد نور الدين محمود في دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسي الوزارة الضائع في القاهرة. وفي مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنوياً.

واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه وبرفقته ابن أخيه، الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي خلف فيما بعد نور الدين في قيادة الجهاد ضد الصليبيين.

ولكن ضرغاماً الذي بلغته أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين، ولم يتردد عموري (أملريك) وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال الست سنوات التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات. لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل، وعلى طول المسافة ما بين الفرما والقاهرة. وكانت هذه النقلة في مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية، فقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميداناً رئيسياً في الحرب الصليبية، لا هامشاً عرضياً من هوامش ذلك الصراع الطويل المضني.

على أي حال أدت محاولات أملريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين في غاية الأهمية، **أولاهما**: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة، **وثانيهما**: تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية فقد قتل ضرغام وشاور في خضم هذه الأحداث وصار أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، وبعد موت أسد الدين سنة ٥٦٤هـ/

١١٦٩م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي في الوزارة.

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل الحقبة الحرجة في تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة صلاح الدين في خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه، وكان فشل مشروع أملريك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٦٦٥/١١٦٩م وحصارهم الفاشل لدمياط على مدى خمسين عاماً[١] بمثابة الإعلان عن أن القائد الشاب قد دعّم حكمه واطمأن إلى سلامة مركزه السياسي.

وفي هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هي: دمشق والرها وحلب والموصل ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة في أول يوم جمعة في سنة ٥٦٧/ ١٠ أيلول ١١٧١م أحل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة التي ألقيت في مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمي العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع دون أن يدري أن دولة أبائه قد دالت وأنه آخر الفاطميين[٢].

كان انفراد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة في مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ إن مصر بمواردها الهائلة جعلت قدرته لا حدود لها ثم جاءت وفاة نور الدين محمود في ١١ شوال ٥٦٩/ ١١٧٤. ثم موت عدوه اللدود أملريك ملك بيت المقدس في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يوحد الجبهة الإسلامية وليؤكد زعامته على العالم الإسلامي كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات. وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي سنة ٥٧٠/ ١١٧٥م. وقضى صلاح الدين في مصر حوالي ست سنوات من ٥٧٢ ـ ٥٧٧هـ (١١٧٦ ـ ١١٨١م) لترتيب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين.

وفي تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٠٥ ـ ١٠٦.
ـ أبو شامة: الروضتين ١/ ١٨٣.
(٢) أبو شامة: الروضتين ١/ ١٩٣ ـ ١٩٧.

على مستوى كبير مع الصليبيين. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات، حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة في حال نشوب المعركة ضد الصليبيين.

وفي تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل أن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس، كما شنوا غارات على تيماء شمال شبه الجزيرة العربية وحاول رينالددي شاتيون أمير الكرك ويسميه العرب أرناط أن يقتحم البحر الأحمر ويحتل مكة والمدينة، وأن يتحكم في حركة التجارة الدولية المارة في هذا البحر. وهاجم بعض موانئ مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصري سحق أسطوله تماماً.

وهكذا وجد صلاح الدين مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاراته على زهرة جيوش الصليبيين عند قرون حطين في فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٢هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م. لقد فقدت المملكة اللاتينية في القدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج في المنطقة العربية إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم. كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم في الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية قاسية. ولكن ما حدث في حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي. كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصياً وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا ويافا، وبيروت، وجبيل، ثم عسقلان وغزة[١]. وفي أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣/ أيلول ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حتى غزوها قبل أكثر من ثمانين سنة. وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً[٢].

ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٨٥ ـ ٩٢.
(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٩٦ وما بعدها.

وجاء رد الفعل الأوروبي عنيفاً، فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء تنتشر بسرعة، فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبي بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور في جولة قادته إلى بلاطات عدد من ملوك وأمراء الغرب لكي يستنهض هممهم وقام البابا غريغوري الثامن، الذي لم يستمر في كرسي البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوي لكل «المؤمنين في الغرب» يذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين عاماً كان يجب أن يكون نذيراً لهم. كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوه في حملة صليبية جديدة. وفرض صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة والامتناع عن أكل اللحم في أيام السبت والأربعاء.

ومات البابا غريغوري الثامن في ١٧ كانون أول سنة ١١٨٧م. تاركاً لخليفته كليمنت الثالث (١١٨٧ ـ ١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة بالمائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين». وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م)، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩)، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ ـ ١١٢٣). في ١١ آيار ١١٨٩ تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية والقوات الإنكليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البري الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى. ولكن الإمبراطور لقي حتفه في أحد أنهار آسيا الصغرى غريقاً في ١٠ حزيران سنة ١١٩٠م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه. وانتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة أما ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ ـ ١١٩١ في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية. ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسي أولاً بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطي. وفي تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا في مدينة صور التي رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك غي دي لوزينيان، الذي أطلق صلاح الدين الأيوبي سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة في سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة.

لا تهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا في أيدي صليبيي الحملة الثالثة؛ وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا، على حين بقي ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة. ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٨٨/ ١١٩٢م الذي أبقى الوضع كما هو عليه.

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي، وسرعان ما تحولت آمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى إحباط واتهامات متبادلة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقي شهوراً قليلة في بيت المقدس. ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربّه في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩/ ٤ آذار ١١٩٣. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء السمع والبصر والفؤاد. وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه. أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الأمة الإسلامية كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً. والإحياء الأيديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

من الواضح أن وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة إذ كانت نذيراً بقيام المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة. وكان صلاح الدين، يدرك أن إدارة إمبراطورية واسعة، فيما بعد وفاته سوف يؤدي إلى نتائج خطيرة، فما من أبنائه الذين خلفهم من يملك من الخلال والمواهب ما يمكنه أن يفرض طاعته على سائر الأمراء الأيوبيين، فشخصية صلاح الدين ومهابته وحزمه، كانت كلها ضمانة لبقاء الدولة موحدة في غياب النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة القائد. حقاً كانت الخلافة نظاماً له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها، إلّا أن صلاح الدين لم يكن خليفة، وإنما فرض طاعته على المسلمين بقوة شخصيته. وقد افتقر أبناؤه إلى هذه الشخصية لذا حاول قبل وفاته أن ينظم دولته بنفسه، وأن يجعل أمراءه وخاصته يقبلون حلّه.

بقي السلطان صلاح الدين أميناً لما كان معروفاً من قبله من التقاليد والأعراف. ولما استقر من النظم، وهي بمجملها تذهب إلى اعتبار الملك إرثاً خاصاً يوزّع أنصبة متساوية، أو غير متساوية بين أبناء البيت الحاكم. لذا حرص على أن تكون أهم أقاليم الدولة الأيوبية لأبنائه دون سواهم من أقربائه. ففي عام

١١٨٤م، أعلنت في دمشق نصوص وصيته القاضية بأن تؤول مصر لابنه العزيز عثمان، وأن تكون الشام لابنه الآخر الأفضل علي ويكون له لقب السلطان. ونصّت الوصية أيضاً على أن يكون صاحب حماه تقي الدين عمر وصياً على العزيز، وأن يكون العادل أخو صلاح الدين، الذي أعطي حلب وصياً على الأفضل حتى يبلغا سن الرشد ويصبحا قادرين على تصريف الأمور. ثم أجرى تعديلاً أولاً على الوصية عام ١١٨٦م عملاً بنصيحة أحد المقربين من قادته، وهو الأمير سليمان بن جندر، أعيدت حلب بموجبه للظاهر غازي ثالث أبناء صلاح الدين. وأرسل العادل إلى مصر ليكون بجانب العزيز عثمان أتابكاً له. وبعد وفاة تقي الدين عمر، صاحب حماه عام ١١٩١م أجرى السلطان صلاح الدين تعديلاً ثانياً على وصيته، انتزع بموجبه من ابنه المنصور بن تقي الدين، وكان يكن له الكراهية، حران والرها وسمياط وميافارقين وأعطاها لأخيه العادل، إضافة إلى ما بيده من بلاد وهي الكرك والشوبك والبلقاء وبعض جهات مصر.

وبوفاة صلاح الدين تقسّمت الإمبراطورية الأيوبية بين أبنائه وإخوته وكبار قادته. فاستقلّ الملك الأفضل علي بدمشق وما يتبعها، واحتفظ الملك العزيز عثمان بمصر وكان ينوب عن والده في حكمها، في حين أخذ الملك الظاهر غازي حلب وشمال الشام. وأصبحت بصرى من نصيب الظافر خضر وهو أحد أبناء صلاح الدين. وأما الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين فقد أخذ الكرك والشوبك فضلاً عن بلاد الجزيرة وديار بكر، وهي أملاك متناثرة لا اتصال بينها، كما لا تتناسب مع أهمية العادل الذي ستزداد مطامحه وضوحاً مع مضي الوقت. كما ملك سيف الإسلام طغتكين، الأخ الآخر المتبقي على قيد الحياة للسلطان، اليمن وجزيرة العرب، وكان قد خلف أخاه تورانشاه عليها، وأخذ الأمجد بهرامشاه ابن أخ السلطان بعلبك. واستقل المجاهد شيركوه الثاني ابن محمد بن شيركوه بحمص، أما حماه فكانت من نصيب المنصور بن تقي الدين عمر، كما حاز بعض القادة كثيراً من المدن والحصون وعلى هذا النحو كان لا بد أن يظهر بعد وفاة السلطان صلاح الدين حرص أفراد أسرته على امتلاك البلاد ووصل أملاكهم المتناثرة. وقد طفح تاريخ الأيوبيين في هذه المرحلة بالمؤامرات والحروب الأهلية المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية، كلٌ يريد أن يتوسع على حساب الآخرين ما وسعه جهده، لكن من الغبن أن لا نرى في تاريخ الأيوبيين، في هذه الفترة، سوى المنازعات والخلافات الأسرية، فتاريخهم حفل أيضاً بالجهاد ضد الصليبيين مقتفين بذلك سيرة سلفهم السلطان صلاح الدين بيد أنهم، وبسبب تشتت صفوفهم، لم

يحسموا الأمر بوحدتهم. ولو توحدوا لعجلوا في إسدال الستار على آخر فصل من رواية الحروب الصليبية. لكن التوتر الذي ساد العلاقات بين هؤلاء الورثة، كان نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التي أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهي فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرّت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة لنجدتهم.

ورغم أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعاً من الوحدة على الأيوبيين في مصر والشام ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين، بعد صلاح الدين، كان يميل إلى مهادنة الصليبيين، ويعني هذا في التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخي الذي هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح التاريخ مثلها مثل دولة آل زنكي، لأن مؤسسها صلاح الدين قد التزم بهذا الدور التاريخي، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك وسلاطين بني أيوب يتخلفون عن هذا الدور بشكل أو بآخر وعلى الرغم من جهود البعض منهم، كالعادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب، العسكرية ضد الصليبيين فإن سقوطها في مصر أولاً، ثم في بلاد الشام، جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل به الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين.

كتاب الروضتين
في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

إذا استعرضنا ترجمة أبي شامة في كتب التراجم، وجدنا المترجمين معاً يقدمونه إلى القراء مستهلين حديثهم بأنه «العلّامة ذو الفنون. . . . . الشافعي المقرئ النحوي» الذي «كان فقيهاً محدثاً مقرئاً نحوياً»؛ وبأنه «أتقن الفقه وبرع في العربية حتى بلغ رتبة الاجتهاد»، «وكان يكتب الخط المليح المتقن»؛ «وله نظم متوسط كثير». ولكننا لا نجد بين هذه العبارات التمهيدية التي يقدم بها المترجمون حديثهم عن أبي شامة ما يدل على نشاطه في دراسة التاريخ والتأليف فيه؛ وإنما يجيء الكلام عن هذه النقطة عرضاً بعد ذلك عند تعداد مؤلفاته.

ويشعرنا أبو شامة نفسه، في مقدمة كتاب الروضتين، بأن اهتمامه بالتاريخ لم يبدأ إلّا في مرحلة متأخرة من مراحل ثقافته؛ فهو يقول: «. . . . . أما بعد؛ فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه، اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى»[1] فهو لم يهتم بالتاريخ إلّا بعد أن برع في الدراسات الشرعية والأدبية، وهو لم يقدم على هذه الدراسة إلّا اقتداء بسيرة من مضى من العلماء المبرزين، الذين أخذوا من كل علم بنصيب، ومتأثراً في ذلك بالنهج العام الذي تميزت به الحياة العلمية في هذا العصر. ليحوز سنّة العلم بعد أن حاز فرضه. ولا يكتفي أبو شامة بهذا الشرح لتبرير موقفه من دراسة التاريخ، بل يحاول تبرير اهتمامه به في هذه المرحلة المتأخرة تبريراً. فيقول: «ففي كتاب الله وسنة رسوله حديث الأمم الخالية» والإمام الشافعي درس «أيام الناس والأدب عشرين سنة» ولم يرد الشافعي بهذا «إلّا الاستعانة على الفقه»[2].

---

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/ ٢.

(٢) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

ويبدو من هذا كله أن أبا شامة لم يرد بدراسته للتاريخ أن تشغل كل وقته، وإنما أراد أن يستعين منها بما يكمل ثقافته ويمكّن للدراسات الرئيسية التي يهتم بها، وهي الدراسات الشرعية واللغوية. وبرغم هذا نجد أبا شامة يدين بكثير مما اشتهر به في ميدان المعرفة إلى مؤلفاته التاريخية.

ومن بين هذه الكتب التاريخية يظفر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ويقصد دولة نور الدين وصلاح الدين، في الحياة العلمية الحديثة. بمكانة عظيمة تضعه في مقدمة المصادر التي يرجع إليها الباحثون في مرحلة هامة من مراحل تاريخ العصور الوسطى الإسلامية، وهي مرحلة النزاع الذي اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية.

ومع أن أبا شامة، في واقع الأمر، لم يكتب في الروضتين شيئاً من عنده، سوى بعض الأسطر والتعليقات الصغيرة بين المقتطفات المقتبسة، إلّا أنه استطاع في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازناً، شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري حوالي سنة ٥٤٠هـ، إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ، وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار، محبوكة الرصف بعضها وراء بعض، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي تسعمائة وإحدى وستون قطعة مقتبسة أخذت عن اثنين وعشرين مصدراً وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى. وإذا كانت بعض المقتبسات قد لا تزيد على سطر أو سطرين. وبعضها يمتد صفحات تصل أحياناً إلى سبع وعشرين صفحة، فإن أبا شامة فيما بين هذه وتلك واضح الشخصية والوجود رغم هذه المقتبسات ينقد ويناقش ويضيف ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع، أو باللجوء إلى المنطق. وهذا بدوره مما ميّز الكتاب وزاد في قيمته كمصدر موثوق. وقد أضاف أبو شامة بنفسه على كتابه ذيلاً هو «مذيّل كتاب الروضتين» حيث وصل بالحوادث ما بين سنة ٥٩٠هـ إلى تاريخ وفاته سنة ٦٦٥هـ. وقد أكثر فيه من التراجم، ولكنه ذكر أحداث تلك الفترة الكثيرة القلق والاضطراب في حدود ما عرف وشاهد، سنة بعد سنة، لكن المذيّل أقل أهمية وقيمة تاريخية من الروضتين.

ويدل عنوان «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» على أنه يتعرض بموضوعه لزمن محدود بعصري نور الدين وصلاح الدين ولأمكنة محدودة

بدولتي هذين السلطانين ومنطقة نفوذهما فما الذي حدا بأبي شامة إلى اختيار هذه الفترة لتكون موضوع كتابه؟

قد يفيدنا في الإجابة على هذا التساؤل أن نتبين الملامح الخاصة للتأليف التاريخي في الشام بين القرنين الثالث والسابع الهجريين، حيث ولد أبو شامة وعاش، كما ضمت تربتها رفاته، وحيث في مدارسها تعلّم وعلّم، وعن شيوخها وأعلامها أخذ واقتبس، وإلى مدرستها التاريخية انتمى.

والأصول الأولى للمدرسة الشامية أموية، وقد ساهمت في نشأة التدوين التاريخي في الإسلام بشكل فعال، فلما كان العصر العباسي. انتقل مركز الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق وتحديداً من دمشق إلى بغداد، الأمر الذي سلب هذه المدرسة كثيراً من الديناميكية التي تتمتع بها العواصم، ومن الإمكانيات المادية ومن الرفد الخارجي الذي يزيد في غناها الفكري، ودفعها للعيش على هامش الحياة السياسية والحضارية الموّارة في بغداد إلّا أن هذا التهميش لم يلغ هذه المدرسة، فقصارى ما نجم عنه أنه منعها فترة طويلة من أن تطلع مؤرخين كباراً أو إنتاجاً غزيراً غنياً في كميته ونوعيته إلّا في نهاية هذه الفترة.

وعلى هذا، فسوف لن نلتقي في الواقع إلا مجموعات من الأسماء الصغيرة، طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون، قبل أن يظهر المؤرخون الكبار في الشام. وهذه القرون الثلاثة نفسها هي الفارق الزمني في التخلف التاريخي، في المنظور والشمولية، لمدرسة الشام عن مدرسة العراق. وبينما كان منظور المؤرخين في العراق، منظوراً عالمياً بين الصفة العالمية التي كانت تتمتع بها بغداد، ومن ورائها العراق. لذا كان إنتاجها، بالضرورة، شاملاً لأمور وأحداث وتراجم من كل قطر وتهم كل قطر، نجد الصفة الإقليمية المحدودة تغلب على إنتاج المدارس الإقليمية، ومنها بلاد الشام، حيث نراها بأرضها ألصق وبرجالها وأحداثها أكثر اهتماماً.

وملاحظتنا هذه حول الإنتاج التاريخي ببلاد الشام. لا تمس النهج والأسلوب والأنواع التاريخية التي أضحت مألوفة، متشابهة في العالم الإسلامي كله والذي انتظمته وحدة المصير والتاريخ والفكر نتيجة ارتباطه بالخلافة العباسية السنيّة، وهو ارتباط سياسي وديني انعكس بوضوح في التدوين التاريخي، وكان يتمثل سياسياً في الخطبة لخليفة بغداد والتماس شرعية الحكم منه كما تمثل دينياً في المذهب السني الذي كان ينتسب إليه الناس عامة، وكان بالتالي مذهب معظم المؤرخين باستثناء بعضهم. لكن ملاحظتنا تنصب على المسيرة العامة للعمل التاريخي، سعة وعمقاً وفروعاً، كمثل ضخامة الأعمال التاريخية، وإلحاح مدرسة على بعض

المواضيع دون الأخرى، وكثرة عدد المؤرخين أو قلتهم، وتوزعهم الجغرافي والزمني، في هذا الصدد نلاحظ أن مدرسة الشام كانت موزعة النشاط بين عدد من المدن، وإن استأثرت دمشق وحلب بالنصيب الأوفى منها ومن رجالها.

السمة الثانية: هي أن أكثرية المؤرخين في بلاد الشام كانوا من المحدثين والفقهاء، يليهم من حيث العدد الموظفون من الكتاب والقضاة خاصة، كما كان من بين المؤرخين ملوك ووزراء وأشراف وتجار وأطباء، وآخرون أهمل ذكر مواقعهم في الحياة فلا نعرف إلّا أسماءهم المجردة والشام في كل هذا منسجمة تمام الانسجام مع واقع الحياة الفكرية الإسلامية من جهة. وواقع المدارس التاريخية الأخرى من جهة أخرى، فقد ندر جداً أن اختص عالم بعلم واحد دون أن يشارك في علوم أخرى. أما المشاريع التاريخية لهؤلاء المؤرخين فكانت بوجه عام صغيرة، محدودة المدى الزمني والمكاني على السواء. وبالتالي لم يكن لمعظمهم من الطموح التاريخي الأوسع ما يجعله يقفز إلى ما قبل زمن هذه المشاريع. أو لما وراء إقليمه، فهي بين سيرة رجل أو دولة، أو تعليق تاريخي أو ذكر فضيلة موقع أو مناقب رجل. أو التاريخ لمدينة أو أسرة، وعلينا أن ننتظر ما بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن السابع الهجريين (أواسط القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لنلتقي بالمشاريع التاريخية الكبرى وأصحابها، لنجد مثلاً ابن عساكر، ومجلداته الثمانين عن تاريخ دمشق، وياقوت بمعجميه المشهورين (معجم البلدان ومعجم الأدباء) وتاريخيه الضخمين الضائعين وسبط ابن الجوزي بتاريخه ذي العشرين مجلداً، وابن العديم بتاريخه ذي المجلدات الأربعين بعنوان بغية الطلب في تاريخ حلب، في هذه الفترة إذن ظهرت المشاريع التاريخية في دمشق وحلب لمنافسة تاريخ الطبري أو ابن الأثير بتاريخ كامل مماثل، وظهرت المعاجم التاريخية الكبرى، ليشكل كل أولئك قفزة نوعية في طموح المؤرخين الشاميين والجانب الأكبر من الأسباب إنما يرجع إلى عودة الحياة السياسية إلى بلاد الشام وظهور سلطات فيها تستقطب اهتمام الناس وتجتذب إعجابهم.

تبقى ميزة أخرى تفردت بها المدرسة الشامية وتتمثل في تصدر كتب الفضائل قائمة المؤلفات التاريخية وخاصة فضائل المدن، وعلى الأخص دمشق والقدس ومكة والمدينة والخليل وعسقلان، وأخرى في فضائل الجهاد، والتأليف في فضائل الجهاد يجد تفسيره في وجود الصليبيين العدواني في الشام، وكذلك ينبع التأليف في فضائل المدن من المنبع نفسه. وقد كانت هذه الكتب في أول الأمر رد فعل على المآسي والآلام التي لحقت ببلاد الشام منذ أوائل العصر العباسي، كما

كانت ردّاً على الكوارث والفتن وظلم الحكام ونكبات الغزوات البدوية المتمادية. ولقد ظهرت كتب الفضائل بالفعل لتدافع عن الاستيطان في هذه المراكز ولتدافع في الوقت نفسه عنها بإضفاء حالة من القداسة عليها لعل وعسى ذلك يرد العدوان عنها، وقد ظهرت هذه الكتب منذ أوائل القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى دمشق وهي بالنسبة للقدس أقدم، لِقدَم قدسيتها في النفوس. ثم لما جاء العدوان الصليبي وكبر على المسلمين ضياع القدس من بين أيديهم، كان من أهداف المقاومة والجهاد إبراز قدسية هذا البلد ومكانته وفضله في مؤلفات متداولة، وبالمقارنة فإن دمشق التي قاومت الصليبيين وهزمتهم عند أسوارها في الحملة الثانية. ثم أصبحت مركزاً لنور الدين وصلاح الدين اللذين تزعما حركة الجهاد الإسلامي، بعد أن تخلّت دولتي الخلافة في بغداد والقاهرة عن دوريهما. مما أبرز الدور الضخم الذي توجب على مدن الشام (دمشق وحلب) أن تلعبه ضد التحدي الصليبي العنيف في تلك الأوقات، فأضحت مركز الاستقطاب السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، تشعر بارتباط العالم الإسلامي بها وارتباطها به من خلال تلك الحروب ومن اتصالها بالماضي الإسلامي كله في الوقت الذي تدافع عن حاضره. وأصبحت سمعة وسيرة نور الدين وصلاح الدين من بعده تجذب العلماء ودولتهما التي جمعت الشام ومصر أضحت تمثل بالنسبة للمسلمين نوعاً من اليقظة الإسلامية الشاملة، كما تدفع العلماء والمؤرخين في الاتجاه نفسه للأمل في مجد إسلامي أكبر.

مما تقدم نستطيع أن نفهم بواعث أبي شامة في الاهتمام بنور الدين وصلاح الدين واقتصاره على الفترة التي حكما فيها. وفعلاً تدل حوادث التاريخ على أن عوامل الضعف بدأت تدب في الدولة التي ناضلا كي تكون موحدة قوية الجانب. إذ تحولت جهود خلفائهما من بعدهما إلى كسب انتصارات محلية ينتزعون بها بعض الإمارات والبلاد أو القرى من بعضهم البعض. وبذلك انفرط العقد الذي نجحا، بجهودهما المتواصلة، في نظمه حول راية واحدة، وتفككت وحدة الدولة التي جاهدا حتى جعلا علمها يرفرف في قوة وثبات على ربوع الجزيرة العراقية والشام ومصر واليمن والحجاز.

حقيقة استطاع بعض الأمراء الأيوبيين أن يجمع غالبية الصفوف ويوحد معظم القوى في هذه الدولة، ونعني بهذا البعض الملك العادل سيف الدين، وابنه الملك الكامل لكن الوسائل التي استخدماها لتحقيق هذه الوحدة لم تكن خالية من المآخذ والشوائب. فلكي يستطيع الملك العادل توحيد القوى تحت رايته، عمد إلى سياسة فرق تسد وإلى إذكاء نار الفتنة بين أبناء أخيه صلاح الدين الثلاثة وهم: العزيز

صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر صاحب حلب، حتى يتمكن من استغلال الاضطراب والقلق لتحقيق مطمعه، ولكي يتمكن الكامل من تجميع الصفوف حول عرشه، اضطر إلى مواجهة جميع الأمراء الأيوبيين الذين اتحدوا ضده ليحدوا من جبروته، كما تحالف في مناسبة أخرى مع فردريك ملك الفرنجة وسلمه بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ دون قتال حتى يستطيع التفرغ لحصار دمشق، وطرد الملك الناصر الأيوبي منها وضمها إلى منطقة نفوذه، وبهذا لا يمكن أن نقول بأن عصر هذين السلطانين، العادل والكامل، كان امتداداً لعصري نور الدين وصلاح الدين اللذين جاهدا لتحقيق وحدة هدفها المصلحة العامة لا المطامع الشخصية، ووسيلتها تأييد الرأي العام لا التحالف مع الفرنجة أو إثارة الفتن والاضطرابات.

وفي هذا الجو المشبع بالقلاقل والانقسامات والحروب التي اصطلى بنارها الإخوة والأقربون، ولد أبو شامة سنة ٥٩٩هـ، أي بعد وفاة صلاح الدين بعشر سنين وشب واكتهل فتألم لما كان يجري، وفي أثناء دراسته للتاريخ استرعى انتباهه وملك عاطفته تلك الجهود العظيمة التي قام بها نور الدين وصلاح الدين لتخليص البلاد من الذلة التي شملتها والفوضى التي عمتها وقارن ذلك بالظروف التي تمر بها البلاد كما رآها وشهدها في وقت كان فيه العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى الوحدة والتكاتف لرد العدوان الصليبي المتمادي، فعزم «على إفراد ذكر دولتيهما (دولتي نور الدين وصلاح الدين) بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك»[1].

ولكي نعرف إلى أي حد نجح أبو شامة في تحقيق غرضه من تأليف هذا الكتاب، وفي عرض صورة صادقة لعصري نور الدين وصلاح الدين، يحسن أن بنا أن نستعرض الموضوعات التي تحدث عنها أو تطرق بها.

كانت البلاد الشامية قد سارت شوطاً كبيراً في طريق التكتل والوحدة بفضل الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي بن آق سنقر منذ تولى إمارة الموصل سنة ٥٣١هـ. فلما توفي وهو يحاصر قلعة جعبر خلفه ابنه نور الدين محمود في المدة بين سنتي ٥٤١ ـ ٥٦٩هـ حيث اتخذ حلب عاصمة له. ثم شاركتها دمشق عندما افتتحها عام ٥٤٩هـ فأصبحت عاصمة أخرى له حتى توفي سنة ٥٦٩هـ. وبعد وفاة نور الدين مباشرة نرى صلاح الدين، الذي كان قد استقر في مصر منذ سنة ٥٦٤هـ يضم دمشق إلى ممتلكاته، تاركاً حلب العاصمة الثانية لنور الدين وما تبعها، تحت

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤.

سيطرة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، السلطان الراحل لكنه أخذ يحد من نفوذ الملك الصغير تدريجياً حتى حصره في حلب، ثم لم يلبث بعد وفاة الصالح إسماعيل أن مدّ سلطانه على حلب في سنة ٥٧٧.

وأبو شامة في الروضتين يوجه اهتمامه إلى تاريخ ثلاثة من أهم أعلام المسلمين في تلك الفترة ونعني بهم: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وذلك لأنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتوحيد وتكتيل بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر، معتبراً جهودهم مجهوداً واحداً متصلاً استهدف وحدة العرب والمسلمين في هذه المنطقة التي يعتبرها قلب العالم الإسلامي، وذلك لصد الخطر الصليبي المداهم الذي أفاد من الفوضى التي شملت تلك المنطقة ليؤسس إمارات له في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة هي مملكة بيت المقدس. وليوطد أقدامه فيها، ولذلك فالمجال الزمني لكتاب الروضتين هو تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية وبصورة خاصة تاريخ الفترة التي حكم فيها الرجال المشار إليهم.

ومن جهة أخرى نجد أن المجال المكاني لحوادث الروضتين، يبدأ محدوداً بذلك الذي شهد نشاط عماد الدين في مراحله الأولى، ثم يتدرج بالشمول والاتساع مع امتداد سلطانه، وسلطان خليفتيه، حتى ينتهي، في أوسع مدى له، عند حدود الجزيرة والعراق وآسيا الصغرى والحجاز واليمن والنوبة وإفريقيا، أي عند الحدود التي ضمتها إمبراطورية صلاح الدين ورفرف عليها علمه، أما ما عدا ذلك من الحوادث التي جرت في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي فلا مكان له في الروضتين، باستثناء الإشارة أحياناً إلى ذكر وفاة خليفة وقيام غيره ذلك لأهمية الخلافة كرمز لوحدة العالم الإسلامي الذي سعى أبطاله الثلاثة لتحقيقها. وكذلك الإشارة إلى وفيات بعض الأعلام المبرزين في خارج النطاق المكاني لكتابه لاهتمام أبي شامة بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء، وإذا ما كان أبو شامة قد تعرض في إحدى المناسبات للحديث عن شمالي إفريقيا، وذلك عندما توغل قراقوش التقوي مملوك تقي الدين عمر الأيوبي، في مقاطعة برقة، لكن حديثه كان عرضياً ومختصراً، لم يقصد به شمال إفريقيا لذاتها، بل أريد به الحديث عن شخص وثيق الصلة بالأسرة الأيوبية، فهو لهذا السبب داخل في نطاق الموضوعات التي قصد أبو شامة أن يتحدث عنها. أما الخطاب الذي أرسله صلاح الدين إلى يوسف بن عبد المؤمن الموحدي صاحب إفريقيا، في أثناء معركة عكا، فلا صلة له بإفريقيا، إلّا لأنه مرسل من صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن الذي أعلن نفسه خليفة في المغرب وموضوع هذا الكتاب يدور حول معركة عكا ومتاعبها ويعرض رغبة صلاح الدين

في مساعدة ابن عبد المؤمن له. لذلك فهو يدخل أيضاً في نطاق المجال المكاني الذي حدّده أبو شامة لكتابه.

وضمن إطار مجالي كتاب الروضتين، الزمني والمكاني، تناول أبو شامة موضوعات تتعلق بتنقلات الجيوش وسير المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية وتطورات القتال وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالحروب، سواء ما كان منها بين الأمراء المحليين في سبيل توحيد الجبهة الداخلية، أو ما دار بينهم وبين الفرنجة، المقيمين والوافدين وهو في هذا كله يستعين بالوثائق الحكومية وبالأشعار التي تسجل المعارك وتهنئ السلطان وتصف الغنائم والأسلاب، وتبشر بالنصر فيما يجد من حروب واشتباكات ومن جهة أخرى نجد أن نور الدين وصلاح الدين لم ينتزعا إعجاب أبي شامة لنشاطهما الحربي فقط، بل أيضاً لعدلهم بين الناس وتخفيفهم الأعباء المالية الثقيلة عن كاهل الرعية وتأسيسهم المدارس الكثيرة لنشر العلم، هذه المآثر هي التي أراد أبو شامة أن يظهرها لملوك عصره علّهم يتأسّون بها. ولهذا كان لها نصيب في حديثه في الروضتين وإن اقتصر الحديث على ضرب الأمثلة الموضحة، كإنشاء دار الكشف أو دار العدل للنظر في مظالم الرعية وشكاواهم من الأمراء والقادة، وكالمنشورات التي تقرأ على المنابر وفي الأسواق معلنة تخفيف الضرائب وإزالة المكوس، وكالمدارس والربط والزوايا التي تنشأ هنا وهناك لطلاب العلم أو للصوفية أو للعلماء المجاهدين.

وإلى جانب هذا لا يفوت أبا شامة أن يسجل قرارات تولية الأمراء والنواب والحكّام في الولايات المختلفة صغيرة أو كبيرة، مؤيداً هذا التسجيل بمنشور حكومي أو مرسوم سلطاني، وكتاب الروضتين سجل مفصل لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية من الناحية الحكومية حرباً وسياسة وإدارة وهذه الناحية الغالبة على الكتاب، أما الجانب الشعبي، فلا مجال له في الكتاب إلّا بما يتعلق بمقدار تأييد الشعب، والعلماء بصفة خاصة، للخطوات الحربية التي اتخذها السلطان، أو يذكر عدد الجنود الذي جمعهم أمير ما من أمراء الإقطاع ليمد بهم سلطانه في معاركه الحربية، أو بغير ذلك من الأمور التي تجيء عرضاً وتكمل جانباً من جوانب التاريخ الزمني لإبطال الكتاب.

يبدأ الكتاب في تكوينه العام، بمقدمة قصيرة وضح أبو شامة فيها الحوافز التي دفعته إلى تأليفه بعد أن صرف بعض عنايته إلى دراسة التاريخ. وذكر في هذه المقدمة المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها عند تدوينه. ثم عقد فصلاً خاصاً جعل موضوعه الدولة النورية؛ ولكنه لم يتحدث في هذا الفصل إلّا عن قضايا عامة لها

صلة مباشرة بنور الدين محمود وبصفاته الشخصية التي جعلت منه حاكماً محبوباً جديراً بالتقدير؛ ومن هذه الصفات عدله، ورحمته، وجهاده، وشجاعته، وحزمه، وسياسته، وفي الحديث عن هذه الصفات يورد الأمثلة الكثيرة التي تؤكد امتياز نور الدين بها. ثم يتبع أبو شامة هذا الفصل بآخر يجمع فيه كثيراً من المدائح الشعرية التي أنشدها شعراء عصره، محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأحمد بن منير الطرابلسي، والمسلم بن الخضر بن قسيم الحموي وبانتهاء هذا الفصل ينتهي الحديث العام المجمل عن الدولة النورية، وهو حديث يصطبغ في مجموعه بصبغة عاطفية تميل إلى تمجيد نور الدين وإبراز مميزاته الخلقية.

ويبدأ بعد هذا الحديث المفصل الذي يسوق الحوادث التي وقعت في عهد نور الدين ويوضحها ويؤرخها. وهنا يجد أبو شامة نفسه مضطراً إلى الحديث عن أصل بيت نور الدين ونشأته فيفرد له ثلاثة فصول قصار، يتبعها بالحديث عن عماد الدين زنكي، والد نور الدين وعن عصره وجهاده الذي امتد سحابة عشرين عاماً من سنة ٥٢١ إلى سنة ٥٤١هـ، وانتهى باستشهاده عند قلعة جعبر، ثم بتقسيم دولته بين ولديه سيف الدين غازي الذي استقر بالموصل، ونور الدين محمود الذي استقر بحلب، وبهذا التقسيم نجد أن عبء جهاد الفرنج وتوحيد كلمة الشام يقع على نور الدين، الذي أثبت أنه كفؤ لتحمل هذه المسؤولية، مقدر لتبعاتها، فأخلص في جهاده وأبلى في دفاعه، حتى أصبح يعد من أبطال الإسلام المعدود.

وبولاية نور الدين محمود لحلب سنة ٥٤١هـ، يتزايد اهتمام أبي شامة به، الذي كان من أهداف تأليفه كتاب الروضتين تمجيد هذه الشخصية الفذّة؛ فيبدأ في تفصيل الحديث عنه معتمداً على المصادر المعاصرة، ومؤيداً حديثه بما استطاع الوصول إليه من الوثائق الحكومية، أو من الأشعار والقصائد التي سجلت مراحل جهاده، وتتّبعت معاركه بالتفصيل والتقريظ، ويلتزم أبو شامة في هذا الحديث نظام الحوليات، الذي اتبعه كثير من المؤرخين في عصره مبتدءاً بسنة ٥٤٢هـ، وهي السنة التالية لتاريخ استشهاد والده عماد الدين عند قلعة جعبر. لكن أبا شامة لا ينسى أن يفرد فصولاً خاصة، طويلة أو قصيرة لبعض الأحداث التي تستحق من وجهة نظره هذا التخصيص، وذلك داخل نطاق النظام الحولي؛ بمعنى أن الحديث عن سنة بعينها قد يجيء في فصول متتابعة، يخْتص كل منها بحادثة أو بعدة حوادث، غير أنه لا يتجاوز هذه السنة إلى السنة التي تليها، ويستمر أبو شامة في حديثه، بهذه الطريقة، عن عصر نور الدين، ثم عن عصر خليفته في حمل رسالة التوحيد الإسلامي وراية الدفاع عن الإسلام في وجه الغزو الصليبي السلطان صلاح

الدين يوسف بن أيوب، الذي تلقى وأهله دروس الجهاد في بلاد نور الدين، ثم حمل راية الجهاد بعده ليكمل رسالته طيلة حياته حتى لبى نداء ربه سنة ٥٨٩هـ، بعد انتهاء معركته مع جموع الصليبيين في حملتهم الثالثة بشهور قليلة.

وهنا يعامل أبو شامة بطله الثاني صلاح الدين بنفس الطريقة التي عامل بها نور الدين في أول الكتاب، فيعقد فصلاً خاصاً يتحدث فيه عن صفات صلاح الدين التي تميّز بها، فوضعته في صفوف الأبطال المجاهدين، والحكام المشهود لهم بحسن السيرة وصدق العزيمة ونبل المقصد، ويختم أبو شامة كتابه بفصول قصار متتابعة يتحدث فيها عن تطورات الأمور في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وبخاصة في فترة النزاع بين أبنائه وبني عمهم العادل سيف الدين؛ ولا يتقيد أبو شامة في هذا الحديث بالتسلسل التاريخي إلّا فيما يقتبسه عن العماد الأصفهاني في كتابه «خطفة البارق وعطفة الشارق» إذ إنه يعود إلى اتباع طريقة الحوليات في اختصار شديد.

وبهذا الاقتباس ينهي أبو شامة كتاب الروضتين، بعد أن سجل تاريخاً مفصلاً لدولتي نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين يوسف الأيوبي، تتبع فيه نشاطهما ومجهودهما الذي جعل منهما في المتأخرين مثلاً يحتذى، والذي رفع مكانهما حتى صارا في زمانهما كالعُمَرين في عصرهما، عدلاً وديانة وجهاداً.

مصادر كتاب الروضتين

إن معرفة المصادر التي اعتمد عليها أبو شامة كفيلة بإظهار القيمة التاريخية لكتاب الروضتين، ومقدار دقته وصدقه في تصوير العصر الذي تعرّض له. ومن حسن الحظّ أن أبا شامة يوفر علينا كثيراً من العناء ويجعل مهمتنا مُيَسَّرة إلى حد كبير فهو يذكر في مقدمة الكتاب المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها وهي تاريخ دمشق لابن عساكر، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وتاريخ الأتابكة لعز الدين بن الأثير. والفتح القدسي والبرق الشامي للعماد الأصفهاني، والنوادر السلطانية لابن شداد، ورسائل القاضي الفاضل، وكثيراً من الأبيات الشعرية من دواوين العماد الأصفهاني وغيره[١]. كما أن أبا شامة يعرِّج على ذكر هذه المصادر مجدداً حين كاد ينتهي من تدوين حوادث كتابه بعد الفراغ من الحديث عن صلاح الدين، إذ يقول[٢]:

«واستوفينا ما في كتابي البرق والفتح القدسي والتاريخ الأتابكي وكتاب

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢٤١.

القاضي أبي المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات».

ومن يستعرض الروضتين يتأكد ممّا ذكره أبو شامة في مصادره، كما يقف على مصادر ثانوية أخرى اقتبست مرة أو مرتين، أو نحو ذلك، وهي تدخل بذلك في قوله: «وانضافت إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنّفات ودواوين ومراسلات».

ومما تجدر ملاحظته أن هناك مصدراً يأتي في المقدمة بين المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها أبو شامة في الجزء الأول، والنصف الأول من الجزء الثاني من كتابه الروضتين ومع ذلك فهو لا يذكره في مقدمة الروضتين بين المصادر الرئيسية التي اعتمدها، كما لا يشير إليه في عبارته المجملة التي أوردها آنفاً، علماً أن أبا شامة يقتبس هذا المصدر في مناسبات أكثر عدداً، وفي موضوعات أعظم أهمية، وفي عبارات أكثر طولاً، من تلك المناسبات التي اقتبس فيها غيره، وهذا المصدر هو كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبي طي الحلبي. ومع أن أبا شامة أشار في مناسبات الاقتباس إلى أنها منقولة عن ابن أبي طي، كما فعل هذا ببقية المصادر الأخرى حتى تلك التي اقتبس منها مرة واحدة، لكن مما يؤاخذ عليه أبو شامة أنه لم يُشر إلى هذا المصدر إشارة واضحة، ولم يذكر صاحبه إلى جانب من ذكرهم من المؤرخين الذين اعتمد عليهم كابن الأثير وابن شداد وغيرهم وسنستعرض هذه المصادر تبعاً لأسبقيتها الزمنية.

أ ـ تاريخ دمشق:

عني كثيرون من مؤرخي المسلمين بتأليف كتب تناولوا فيها تاريخ قطر من الأقطار العربية الإسلامية أو تاريخ بلاد أخرى أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال أو الدول. ويغلب على الظن أن اهتمام أولئك المؤرخين بقطر واحد أو بمدينة واحدة كان نتيجة أنهم من أبناء ذلك القطر أو تلك المدينة. وقد اهتم مؤرخو ذلك الفرع بكتابة سيرة الشخصيات الفذة التي نشأت في القطر أو المدينة التي عنوا بكتابة تاريخها. ومؤرخو البلدان كثيرون ومن بينهم ابن عساكر الذي يعتبر تاريخه لمدينة دمشق من تآليفه.

هو الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الشافعي. ولد في مستهل رجب سنة ٤٨٩ (٩/٣/١١٠٦) في دمشق. وتلقى علم الحديث في المدرسة النظامية التس أسسها نظام الملك وزير ألب

رسلان وملكشاه السلجوقيين، وفي المدن الكبرى في فارس. ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث عيّن معلماً في مدرسة نور الدين زنكي المعروفة بالمدرسة النورية وقد اعتبر في حياته في طليعة فقهاء، الشافعية. وكانت وفاته بدمشق في الحادي عشر من رجب سنة ٥٧١هـ (٢٦/ ١/ ١١٧٦). وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي وراء نعشه ولابن عساكر مصنفات عديدة ذكرها بروكلمان ومنها كتابه عن تاريخ دمشق وهو تاريخ مشاهير الدمشقيين والعلماء الذين أقاموا بدمشق زمناً، وبعض الأنبياء أيضاً كسليمان وشعيب. وهو يقتدي في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد، وقد نشر صلاح الدين المنجد منه مجلدين، الأول سنة ١٩٥١ والثاني سنة ١٩٥٤ ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. كما هذّبه بترتيب جديد واختصار في الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران المتوفى سنة ١٣٤٦ (١٩٢٧) تحت عنوان «تهذيب تاريخ ابن عساكر» وقد نشرت المجلدات الخمسة الأولى بدمشق فيما بين سنتي ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ ونشر أحمد عبيد المجلدين السادس والسابع سنتي ١٣٤٩ ـ ١٣٥١ (حتى عبد الله بن سيّار) وقد ذكر لنا أبو شامة سبب اهتمامه بتاريخ ابن عساكر كونه احتوى على ترجمة حسنة لنور الدين محمود زنكي، كما يذكر أنه اختصره وهذّبه وزاد عليه، كما وقف عليه العلماء وسمعه الشيوخ والفضلاء[1].

ب ـ ذيل تاريخ دمشق:

هذا الكتاب لحمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد المعروف بابن القلانسي. ولي رياسة ديوان دمشق مرتين وتوفي في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ (٢٨/ ٣/ ١١٦٠).

ألّف كتاب ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ليكون ذيلاً على التاريخ العام الذي ألّفه هلال الصابي والذي ينتهي سنة ٤٤٧هـ. وينتهي ذيل تاريخ دمشق في سنة ٥٥٥هـ وهي السنة التي توفي فيها المؤلف. أما بدايته فموضع اختلاف، فبينما يذكر ياقوت أنه يبدأ سنة ٤٤١هـ يذكر ابن عساكر أن سنة ٤٤٨هـ هي مبدأ الذيل. وتاريخ أبي يعلى، على كلا القولين، يعالج فترة تزيد على القرن ببضع سنوات تنتهي في سنة ٥٥٥هـ.

ويذكر أبو شامة في مقدمة كتاب الروضتين سر اهتمامه بكتاب الرئيس أبي يعلى حين يقول له: «شمل قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية». ونور الدين

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٣ ـ ٤.

تولى حلب بعد وفاة والده عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١هـ. وبهذا نجد أن كتاب ابن يعلى يشمل نحو أربع عشرة سنة من عهد نور الدين زنكي تبدأ بولايته حلب وتنتهي بنهاية الكتاب. وفي حديثه عن هذه الفترة، يعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً على أبي يعلى. فيبدأ اقتباسه في كتابه بعد وفاة زنكي مباشرة ويواصل الاعتماد عليه بعد ذلك حتى يصل عدد الاقتباسات منه سبعاً وثلاثين مرة تنتهي بنهاية الذيل سنة ٥٥٥هـ.

وترجع أهمية الكتاب، كذلك، إلى أن مؤلفه حين يتحدث عن دمشق، إنما يتحدث حديث عليم يمد القارئ بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية، فأبو يعلى من مواطني دمشق المقيمين بها. وقد كان إلى جانب ذلك من رجالها الرسميين المسؤولين، لأنه تولى رياسة ديوانها مرتين، فأتاحت له هذه الصفة الرسمية الاتصال المباشر بالتقلبات السياسية والاجتماعية والحربية التي حدثت في دمشق أو التي كانت دمشق طرفاً فيها، وبهذا يتبيّن أن هذا الكتاب الذي ألّفه أبو يعلى مصدر محلي معاصر مهم، فليس هناك أولى منه في معرفة تاريخ دمشق، وما يتّصل بها في هذه الفترة من عصر نور الدين، وهي تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ الدولة النورية الذي تعرّض له أبو شامة بالتأليف.

ج ـ رسائل القاضي الفاضل:

هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي ابن القاضي السعيد البيسالي اللخمي، العسقلاني المولد، المصري الدار الملقب بمجير الدين والمعروف بالقاضي الفاضل ولد القاضي الفاضل في منتصف جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ (٣/ ٤/ ١١٣٥م). وكان أبوه قاضي عسقلان أبان خلافة الحافظ لدين الله الفاطمي. فأرسل ولده عبد الرحيم إلى مصر، فاتصل بأبي الفتح بن قادوس واستفاد منه كثيراً. ثم صار كاتباً لقاضي الإسكندرية. وما لبث أن استدعاه العادل رزيك إلى القاهرة للعمل في ديوان الجيش، وقد حافظ على وظيفته خلال الاضرابات التي صاحبت سنتي الفاطميين الأخيرة، إلى أن ولّاه صلاح الدين، وكان لا يزال وزيراً، ديوان الإنشاء وقد هيّأت له صلته بصلاح الدين أن يمكّن نفوذه ويُظهر عن كفائته، حتى أصبح الساعد الأيمن له يستشيره ويعتمد عليه في كل ما يتعلق بشؤون دولته، بل نراه يستمده النصح في أخص شؤونه العائلية.

وقد تزايدت أهمية القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين حيث عهد إليه إصلاح النظام المالي للجيش. كما أنابه صلاح الدين عنه في إدارة شؤون مصر بين

سنتي ٥٨٥ ـ ٥٨٨هـ، أيام الحملة الصليبية الثالثة. ولم يكتف بذلك، بل اعتمد عليه في التصرف بكثير من المشكلات التي سبّبها بعض قواد الجيش الأيوبي وأمرائه في ميدان المعركة بالشام. وقد عبّر صلاح الدين عن تقديره للقاضي الفاضل بقوله: «ما فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بكلام الفاضل»[1].

وعند موت السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣)م، نشبت الحرب بين ابنيه الملك الأفضل بدمشق والملك العزيز بمصر، فانضم القاضي الفاضل إلى العزيز. ثم توسط بين الإخوة لإحلال السلام سنة ٥٩١هـ (١١٩٥)، ولازم بيته بعد ذلك إلى أن توفي في السادس أو السابع من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ (٢٦ أو ٢٧ كانون الثاني ١٢٠٠م).

عرف القاضي الفاضل بغزارة إنتاجه الأدبي. وقد كانت ظروف الحرب الصليبية تُحتّم عليه، كقائم على ديوان الإنشاء، أن يكثر من تحرير الرسائل في شتى الأمور إلى الملوك والأمراء والحكام والنواب، ومن سوء الحظ أن معظم رسائله قد ضاع ولم يصلنا إلّا جزء يسير منها هي: «الفاضل من كلام الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» جمعها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر. و«فصوص الفصول وعقود العقول» جمعها ابن سناء الملك كما وصلت إلينا في كتب متفرقة مثل نهاية الأدب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة والنكت العصرية لعمارة اليمني وغيرهم.

وإلى جانب هذه الرسائل نجد في خطط المقريزي مقتبسات عدة مأخوذة عن القاضي الفاضل يصدرها المقريزي بكلمة «متجددات» أو «مجلدات» أو «مياومات» وبالمقارنة بين الرسائل والمتجددات نلحظ أن موضوع الرسائل، كما نجدها في الروضتين وفي غيره هي عبارة عن حوادث معينة محدودة، سياسية أو حربية، أو مكاتبات للأفراد أو للخليفة، أو للسلطان. وكل رسالة من هذه الرسائل وحدة مستقلة بذاتها تتناول موضوعاً معيناً له مناسبته الخاصة. أما المتجددات، كما نجدها في الخطط، فتختلف في طبيعتها عن الرسائل، فهي لا تتعلق بمناسبة معينة أو موضوع معيّن يعالجه الفاضل على شكل رسائل. هذا إلى أنها تبدأ بذكر تاريخ معين، ثم تتحدث عن موضوعات لها في الغالب، الصبغة الحكومية والإدارية. وعلى هذا فالمياومات أو التعليقات، أو المتجددات، أسماء لمؤلّف أو مؤلّفات غير الرسائل التي اقتبسها أبو شامة في كتابه وإنما هي كتاب في التاريخ سجّل فيه

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٣٢٤.

القاضي الأعمال التي قام بها أو أشرف عليه مدة رئاسته لديوان الإنشاء، كما تدل على ذلك المقتبسات التي أوردها المقريزي في خططه.

د ـ مؤلفات العماد الأصفهاني:

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين الأصفهاني، ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م). وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية ببغداد. وولاه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة نظر البصرة، ثم نظر واسط. ولما توفي الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦١هـ (١١٦١م) فقد العماد مكانته وأودع السجن، ومع أنه أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، فلم يستطع أن يسترد مكانته بالعراق، فانتقل إلى دمشق وهناك قدّمه كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي قضاة دمشق، إلى نور الدين محمود بن زنكي فعيّنه في ديوان الإنشاء سنة ٥٦٣ وبقي فيه حتى نقل إلى وظيفة أخرى في سنة ٥٦٧هـ تتناسب مع نشاطه العلمي قبل قدومه إلى الشام، وهي وظيفة الأستاذية بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، والتي نسبت إليه، لسكناه بها، فقيل لها العمادية ثم ولاه في السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء.

وتدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين، ذلك أن ابنه وخليفته الملك الصالح إسماعيل، الذي ولي الملك سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) وهو في الحادية عشرة من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه، وطرده من البلاط، فخرج العماد من دمشق قاصداً بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، وهناك بلغه أن صلاح الدين استولى على مصر، وأنه خرج منها قاصداً دمشق ليستولي عليها، فلاقاه العماد في حمص، واتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره عند صلاح الدين، فعيّنه في ديوان الإنشاء، لينوب عن القاضي الفاضل وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته، واكتسب حظوته من جديد، ومن ذلك التاريخ لازم العماد صلاح الدين، في رحلته أو إقامته، وقام له بمثل ما كان القاضي الفاضل يقوم به من الأعمال، وإن لم يصل إلى نفس المكانة السامية التي صارت للفاضل، عشير صلاح الدين ويده اليمنى في جميع أعمال الإدارة والسياسة والحرب، بل في أخص الشؤون العائلية للأسرة الأيوبية. ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) اضطر العماد إلى ملازمة بيته وأقبل على التصنيف حتى توفي في الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ (٢٠/٦/١٢٠١م).

ويقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني في وثائقه التي كتبها باسم السلطان،

عندما كان يعمل في ديوان الإنشاء، إلى الجهات المختلفة، ويقتبسه كذلك في كتاب الفتح القدسي وكتاب البرق الشامي، وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق، وفي خريدة القصر وجريدة أهل العصر وفي بعض رسائل أخرى قصيرة، وطائفة من أشعاره التي نقلها عن ديوانه.

أما كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي فهو تاريخ سبع سنوات فقط من حياة صلاح الدين (٥٨٣ ـ ٥٨٩) وهو العام الذي فتح صلاح الدين فيه بيت المقدس. والقاضي الفاضل هو الذي أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسماه الفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس، والفتح القسي، نسبة إلى قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب في الجاهلية وكان قس معروفاً إذ ذاك بالسجع، وكان العماد الأصفهاني قد جعل كتابه هذا سجعاً من أوله إلى آخره، فاستحسن القاضي الفاضل هذه التسمية. وقصده منها إن الله فتح على العماد في سجعه هذا كما فتح على قس بن ساعدة من قبله في السجع والبلاغة أيضاً.

وكتاب الفتح القسي تسجيل تاريخي منظم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين بين سنتي ٥٨٣ ـ ٥٨٩هـ وهي فترة الجهاد الأكبر الذي قام به لتطهير فلسطين وبلاد الشام عامة من الاحتلال الصليبي. وقد استعاد صلاح الدين بهذه الحروب كثيراً من معاقل الصليبيين، وفي مقدمتها بيت المقدس، كما واجه جموعهم في حملتهم الثالثة بزعامة فريدريك بربروسا ملك ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب ملك فرنسا. وهذه الحملة انتهت بصلح الرملة قبيل وفاة صلاح الدين بشهور قليلة.

وفي مقدمة كتاب الفتح القسي يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة ٥٨٣هـ لتكون بداية للكتاب فيقول عن خروج الجيوش الإسلامية للحرب.

«وأنا أرّخت بهجرة ثانية، وهي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس. وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وأعظم الكرّتين».

والفرق بين فتوح الشام، في رأي العماد، والفتوح الإسلامية الأولى فرق بيّن تبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض، من الفجر، فإن الشام فتح والعهد بالرسول غير بعيد، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والضخامة التي كان عليها أيام الفتح الصلاحي، هذا بالإضافة إلى أنه فتح للقدس بعد أن طغى عليها الكفر وانحسر عنها الإسلام.

أما الفترة التي يشملها البرق الشامي فتبدأ سنة ٥٦٢هـ، وتنتهي عند وفاة

صلاح الدين وهذا الكتاب أكبر حجماً من الفتح القسي وأوسع مجالاً. وقد بدأه بذكر انتقاله من العراق إلى الشام، واتصاله بخدمة نور الدين عن طريق كمال الدين الشهرزوري، الذي قدّمه أيضاً لنجم الدين أيوب، فساعد بهذا على تجديد الصلة بين الأيوبيين وأسرة العماد، تلك الصلة التي بدأت بتكريت عندما اتصل عم العماد، العزيز، بنجم الدين أيوب صاحب قلعة تكريت حينذاك والفتح القسي موجود بكثرة، مخطوطاً ومطبوعاً. أما البرق الشامي فلا يوجد منه إلّا مخطوطة للجزأين الثالث والخامس في مكتبة بودليان بأوكسفورد. ومما يذكر أن الفتح كتب للمرة الأولى في مجلدين، بينما كتب البرق في سبعة مجلدات. ولعلّ الفارق في الحجم بين الكتابين عائد إلى الفارق في الفترة الزمنية التي يتعرض لها كل منهما وأسلوب الكتابين واحد تميّز به العماد في جميع ما كتب، حتى وفي شعره، فهو يعتمد على الإكثار من استعمال المحسنات البديعية، بدرجة مملة مرهقة تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منها أمراً صعباً ومهمة شاقة. ولكن صدق هذه المعلومات يستحق ما يُصرف في سبيل استخلاصها من العناء، فالعماد يتحدث عمّا شاهده أو سمعه بنفسه، أو عمّا وقف عليه في أثناء عمله بديوان الإنشاء. وهو يؤيد حديثه أحياناً بالوثائق التي كتبها بنفسه، أو التي وصلت إليه. كما لم يقتبس العماد في الفتح وثيقة واحدة لرئيسه القاضي الفاضل، على حين نجد في البرق الشامي بعضاً من هذه الوثائق الفاضلية. وقد يكون السبب في هذا أن الفتح في أغلبه وصف للحوادث التي وقعت في فلسطين والشام عامة، في فترة الفتوح العظيمة ثم في فترة الحروب الصليبية، وقد شهدها العماد بنفسه، أما القاضي الفاضل، فإنه لم ينزل إلى ميدان المعركة في هذه الفترة، بل قضى بعضاً منها بعيداً عنها، في مصر، نائباً عن صلاح الدين، وهذان الكتابان يتفقان في الطريقة إذ يتبعان نظام الحوليات، ولا يتعرضان لترجمة الأعلام الراحلين من العلماء أو غيرهم، إلّا فيما ندر.

وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة الفطرة فهو تاريخ للسلاجقة ووزرائهم، وترجمة مختصرة بأسلوب إنشائي مسجوع للكتاب الفارسي المفصل الذي صنّفه شرف الدين أنوشروان المتوفى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م). وقد اختصره أبو الفتح البنداري في كتاب سماه «زبدة النصرة ونخبة العصرة». وأسرة السلاجقة بدأ نجمها بالظهور على مسرح تاريخ الدولة العباسية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري حين خلفت الأسرة البويهية المنهارة. ثم توزع سلطان هذه الأسرة بتأثير عوامل المطامح الشخصية لأمرائها. وكان العماد قد اتصل بهؤلاء السلاجقة قبيل قدومه على

الشام. وتولى التدريس ببعض المدارس التي أنشأوها، كما تولى في ظلهم منصباً إدارياً في مدينة واسط بالعراق. وقد حملته صلته هذه على تدوين تاريخهم في مؤلف خاص اقتبسه أبو شامة في مناسبات قليلة جداً. وهو لهذا السبب لا يعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر الروضتين الذي لا يهتم اهتماماً مباشراً بتاريخ السلاجقة.

وللعماد مؤلف آخر له طابع أدبي صرف. وهو كتاب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» وهو تراجم لأدباء مصر والشام والمغرب والعراق والجزيرة، ممن عاصروا العماد، والخريدة ذيل على كتاب «دمية القصر» للباخرزي، وهذا الكتاب الأخير ذيل الكتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي.

ويقع كتاب الخريدة في عدة مجلدات يستقل واحد منها أو أكثر بجهة من الجهات وقد اقتبسه أبو شامة أيضاً في مناسبات قليلة عند الحديث عن بعض الشخصيات للتعريف بقيمتها الأدبية، وذلك مثل الصالح طلائع بن رزيك، أو الجليس بن الحباب، أو ابن المهذب الزبيري، من رجال الدولة الفاطمية.

وللعماد ديوان شعر، وقد ضاع، لكن أبو شامة سجّل بالروضتين جملة قصائد من نظم العماد في مدح نور الدين وصلاح الدين، تهنئهما بانتصارهما على الصليبيين، وفي رثاء كل منهما عند وفاته. كما ضاعت رسائله ولم يصل لنا منها سوى قدر ضئيل ومن كتبه أيضاً «رسالة العتبى والعقبى» عن الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) وقد ذكره أبو شامة، كما ذكر كتاباً آخر له هو «خطفة البارق وعطفة الشارق» عن الأحداث من سنة ٥٩٣هـ حتى موته.

هـ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية:

للمؤرخ بهاء الدين أبا الحسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتّاب الأسدي الذي يكنى بأبي المحاسن، وينسب لأخواله من بني شداد وذلك لأنه تربى في كنفهم لوفاة أبيه وهو صغير السن. وكان شداد جده لأمه. ولد في الموصل في العاشر من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (٦/ ٣/ ١١٤٥م) وتلقى العلم بها. وقد ذكر في بعض تآليفه أسماء المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم. وبعد أن أتم دراسته في مسقط رأسه انحدر إلى بغداد حيث عيّن مدرساً في المدرسة النظامية، ثم عاد إلى الموصل ليتولى التدريس في المدرسة العالية هناك. وفي سنة ٥٨٣هـ ذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام وزار في طريق عودته بيت المقدس والخليل. ووفد على دمشق وصلاح الدين مقيم على حصار قلعة كوكب. فلما اتصل به أعجبه ودخل في خدمته منذ سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) حيث ولّاه قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس.

وعند وفاة صلاح الدين انتقل ابن شداد إلى حلب لجمع كلمة أولاد سلطان بني أيوب ودخل في خدمة الظاهر غياث بن صلاح الدين صاحب تلك المدينة حيث ولّاه قضاءها وأوقافها ومنحه إقطاعاً درّ عليه أرزاقاً كثيرة لأنه لم يكن له أولاد. وقد عمّر ابن شداد مدرسة في حلب للشافعية، كانت تقع أمام مدرسة نور الدين زنكي، كما عمّر بجانبها مدرسة للحديث، وأعدّ بينهما مكاناً ليدفن به.

تمتع ابن شداد بنفوذ كبير في عهدي الظاهر والعزيز ابني صلاح الدين. وقد استغل نفوذه هذا في الإكثار من المدارس ووقف المال عليها. وما لبث ابن شداد أن اعتزل الناس والحكومة لمنافسة كانت بينه وبين آخرين معه على قضاء حلب ولازم داره إلى أن وافاه الأجل سنة ٦٣٢هـ (١٢١٤م).

ألّف ابن شداد كتباً عديدة منها: ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، وهو كتاب للقضاة وكتاب «دلائل الأحكام» وقد ذكر فيه الأحاديث التي تستنبط الأحكام منها، وكتاب «المعجز في الفقه» وغيرها.

على أن الكتاب الذي من أجله سقنا الحديث عن ابن شداد هو كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهو في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي. ألّفه بعد وفاته، وهو من المصادر الهامة الرئيسية لكتاب الروضتين. وكتاب ابن شداد صغير الحجم نسبياً إذا ما قورن بالفتح القدسي أو بما تحت أيدينا من كتاب البرق الشامي، لكنه خال من الزخرف والتزويق اللذين يميزان كتب العماد الأصفهاني لكن صغر حجم النوادر لا يقلل من قيمته التاريخية. وعلى العكس نجد هذا الكتاب حاوياً لكثير من الحقائق التاريخية المسجّلة في عبارات محدودة.

يقع كتاب النوادر السلطانية في قسمين، خصص ابن شداد أولهما للحديث عن نشأة صلاح الدين وأخلاقه، بينما يفصّل في القسم الثاني ما جرى في أيامه من وقائع وفتوحات. وقد جاء القسم الأول في فصول قصار يتحدث كل منها في صفة من صفات السلطان صلاح الدين، كوقاره وعدله وديانته، بعد أن يمهد لذلك بآية قرآنية أو حديث نبوي، أو بهما معاً، كفاتحة وعنوان للفصل، ثم يذكر ما علمه من تمسك السلطان بهذه الصفة ويذكر طرفاً من نوادره في ذلك. ثم يختم الحديث في هذه الصفة بالدعاء للسلطان أن يرحمه رحمة واسعة. والواقع أن هذا القسم الأخير لا يعدو كونه تمهيداً للغرض الأصلي الذي ألّف الكتاب من أجله، وهو تفصيل الحديث عن نشاط صلاح الدين وجهاده وحروبه التي جعلت منه بطلاً ومجاهداً.

أما في القسم الثاني من الكتاب فيتحدث ابن شداد عن وقائع السلطان حديثاً يمتاز عن حديث غيره من المؤرخين بناحية هامة. وهي أنه كان كثيراً ما يعتمد على

مشاهداته ومعلوماته، لا على الروايات المختلفة التي اعتمد عليها غيره كابن واصل وأبو شامة وغيرهما. ولذلك نجده يقول أثناء حديثه عن حوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين.

«ومن هذا التاريخ ما سطّرت إلّا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان»[١].

كما نجده يقول في أثناء الحديث عن السنة السابقة لهذه السنة، أي سنة ٥٨٣هـ، بعد رواية قصة مقتل البرنس أمير الكرك بيد صلاح الدين: «وهكذا بلغني عن ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة»[٢].

وهكذا نجد أن كتاب النوادر السلطانية يعتبر مصدراً معاصراً هاماً في المدة التي تقع بين سنوات ٥٨٤ ـ ٥٨٩هـ، كما أنه يرقى باعتماده على الثقات في رواية ما سبق هذه الفترة إلى مرتبة المصادر الرئيسية الأولى التي اعتمد عليها أبو شامة من خلال ما تقدم، نلاحظ أن كلاً من ابن شداد والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني كان على صفة بمجريات الأحداث بمقدار أهمية كل منهم في الجهاز الحكومي. على أن العبء الأكبر والمكانة الأولى كانت للقاضي الفاضل. أما ابن شداد فلم يتصل بصلاح الدين إلّا في سِنِيِّه الأخيرة عندما مر بدمشق سنة ٥٨٣هـ في طريقه إلى الحج فأعجب صلاح الدين به ثم مر بها مرة أخرى في عودته في السنة التالية، فعرض عليه السلطان أن يوليه قضاء العسكر فقبل، ولازم ابن شداد صلاح الدين منذئذٍ حتى تم له فتح القدس فولّاه قضاءها. وبقي على صلته القوية بالسلطان الذي توفي سنة ٥٨٩هـ، فاتصل بعد ذلك بابنه الملك الظاهر صاحب حلب. وهكذا نجد أن شخصية ابن شداد هي التي مهدّت له بطريق غير مباشر سبيل التقدم لدى صلاح الدين الذي اختصه، منذ اتصل به، بكثير من الرعاية والتقدير. وكانت منزلة العماد بين المنزلتين، وصلته بالجهاز الحكومي تزيد عن صلة ابن شداد، وتقصر عن صلة القاضي الفاضل، أهم الرجال الثلاثة بلا جدال. وبهذا يشترك العماد وابن شداد والقاضي الفاضل في أن كلاً منهم، كان من معاصري الفترة التي يتحدث عنها أبو شامة في كتاب الروضتين، ومن ثم تعتبر المؤلفات التي كتبها كل منهم في المرتبة الأولى من الأهمية، كمصادر معاصرة محلية، في تصوير الحوادث وتسجيلها.

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٢٧.

(٢) ابن شداد: المرجع السابق ص٦٣ ـ ٦٤.

و ـ الباهر في الدولة الأتابكية:

ومصنف هذا الكتاب هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم أثير الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم عز الدين الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، والملقب بعز الدين، ولد رابع جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ (١٣/ ٥/ ١١٦٠م) بجزيرة ابن عمر في أرض الرافدين. وانتقل مع أسرته إلى الموصل سنة ٥٧٦ (١١٨٠م) فأتمّ تعليمه فيها. وفي سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) اشترك في حروب صلاح الدين مع الصليبيين في سوريا. واستزاد من العلم بالحديث والتاريخ في بغداد التي أتاها مرة في طريقه للحج. ومرة رسولاً من أمير الموصل. وفي سوريا والقدس اللتين يبدو أنه جاءهما سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م). وعاش بعد ذلك في الموصل متفرغاً للعلم. وفي سنة ٦٢٦هـ (١١٢٩م) اجتمع به ابن خلكان في حلب حيث كان ابن الأثير ضيفاً على شهاب الدين طُغْرِل أتابك الملك العزيز. وفي سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) ذهب إلى دمشق ثم عاد في السنة التالية إلى حلب. وبعد إقامة قصيرة فيها عاد إلى الموصل ثانية وفيها مات في شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠هـ (أيار أو حزيران سنة ١٢٣٣م).

اشتهر ابن الأثير في علم الحديث واعتبر من أعلامه، وفي حفظ التواريخ القديمة والمتأخرة وعُدَّ خبيراً في أنساب العرب وأيامهم وأخبارهم. وقد صنّف عدة كتب ذكرها ابن خلكان في ترجمته وأهمها الكامل في التاريخ، وأسد الغابة في معرفة الصحافة، والباهر في الدولة الأتابكية، كما اختصر كتاب الأنساب للسمعاني.

ويعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً، في حديثه عن تاريخ الجزيرة وحوادثها، على كتاب الباهر الذي خصصه ابن الأثير للحديث عن أسرة زنكي. وقد أهدى ابن الأثير كتابه هذا إلى الأمير القاهر مسعود الذي ولي الموصل سنة ٦٠٧هـ اعترافاً بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير، وتوجيهاً له حتى يتخذ من أسلافه مثلاً يُحتذى في حسن السيرة وعدالة الحكم. ويشمل هذا الكتاب المدة الواقعة بين سنتي ٤٧٧ ـ ٦٩٧هـ، أي منذ ولاية آق سنقر صاحب الموصل، والد عماد الدين زنكي، حتى بدء ولاية القاهر مسعود الذي أهدى إليه الكتاب. وابن الأثير مصدر رئيسي للحوادث التي يسجلها في الخمسين سنة الأخيرة التي يشملها الكتاب، أما حوادث السنوات التي سبقت فقد استقاها من الثقات الذين يعتمد عليهم، كما يقول، وفي مقدمتهم والده، الذي يتردد ذِكرُه في الكتاب كمصدر خمساً وعشرين مرة، ويذكر ابن الأثير أن والده حكى له معظم ما جاء في هذا الكتاب وإن كان هو دوّنه، مما حفظه بعد وفاة والده، الأمر الذي أدى إلى نسيانه لكثير مما قصّه عليه، ونادراً ما يذكر ابن الأثير المصادر الأخرى التي استقى منها معلوماته التي سجّلها في هذا الكتاب.

ومن هذا القبيل نجده يذكر ابن عساكر مرتين، وأسامة بن منقذ مرة واحدة. وكذلك كمال الدين بن العديم والعماد الأصفهاني، وقد نجده يتعمد تعمية المصدر أحياناً، مشيراً إليه بقوله: «وذكر لي أعلم أهل زمانه بالأنساب» أو «وذكر لي من أثق في صدق روايته».

ويقصر ابن الأثير حديثه في الكتاب على تاريخ أتابكة الموصل من آل زنكي، دون أن يتعداه إلّا إلى ذكر وفاة خليفة أو سلطان وولاية غيرهما. وهو إذا ذكر شيئاً عن حملات شيركوه على مصر، لا يعدو أن يكون مقرراً لحوادث لها صلة بقائد من قواد نور الدين محمود سار بأمر منه ينفِّذ تعليماته. وقد يستطرد ابن الأثير فيتحدث عن موضوعات، أو أشياء لا تتصل اتصالاً مباشراً بالأتابكة، لكنه سرعان ما يتنّبه إلى هذا الأمر فيعرض عنه صراحة قائلاً: «وسنذكر هنا ما يتعلق بشؤون الموصل معرضين عن غيره حتى لا يخرج بنا عن الغرض من الكتاب».

ويشمل كتاب ابن الأثير الآخر: «الكامل في التاريخ»، وهو أكبر حجماً وأوسع مجالاً، من الناحيتين المكانية والزمانية، من كتاب الباهر، ضمن محتوياته الفترة التي اختصها بكتاب الباهر؛ بل إننا نجد الكثير من أوجه الشبه بين الكتابين في العبارات والألفاظ، مع بعض الزيادة في أحدهما بذكر حوادث جديدة، أو بالتوسع في الحديث عن حادثة معيّنة، والسبب في ذلك أن ابن الأثير كتب أولاً كتابه «الكامل» الكبير في صورته الأولى، لكنه لم يخرجه في صورته الأخيرة بعد تصحيحه ومراجعته إلّا بعد سنة ٦٠٩، في حين أنه أخرج كتابه عن الأتابكة سنة ٦٠٧هـ معتمداً فيه على ما سجله في مسودات كتاب الكامل.

ز ـ مؤلفات ابن أبي طي الحلبي:

لا نعرف عن هذا المؤرخ الشيعي شيئاً ما أكثر من أن تاريخه يعتبر من أهم مصادر الدولة الفاطمية في العصر الأخير من عصورها، نشأ في حلب في وسط شيعي الصبغة، وإن كان قد تلقى من الثقافة ما شاع منها في الأوساط العلمية عندئذٍ. فقد درس القرآن على والده ودرس الموطأ في الحديث كما برع في دراسة علوم البلاغة والأدب والتصوف واللغويات. ويذكر عنه ياقوت «أنه جعل التصنيف حانوته ومنه مكسبه وقوته». ويبدو أن ميوله الشيعية التي أدّت إلى نفي والده مرة عن حلب سنة ٥٤٣هـ جعلته مضطهداً من العلماء، غير محبوب منهم، ولعله لهذا السبب لم يجد الطريق مفتوحاً أمامه ليشغل أيّ منصب حكومي أو يقوم بالتدريس في مدارس حلب أو في مساجدها، أو في غيرها من أماكن التعليم والتثقيف.

وكتب ابن أبي طي كثيرة جداً، تدل مراجعة أسمائها على تنوعها وشمولها.

فقد ألّف في الفقه والقراءات والأدب، والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والتراجم. ومن مؤلفاته التاريخية، كتاب كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين، وكتاب معادن الذهب في تاريخ حلب وذيله، وكتاب سيرة ملوك حلب، وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، وكتاب مختصر تاريخ المغرب.

وابن أبي طي من أهم مصادر كتاب الروضتين. ولا ندري على وجه التحديد أيّ هذه الكتب اقتبسه أبو شامة في كتابه. وذلك لتنوع هذه المقتبسات، فمنها ما يتعلق بالشام عامة وبحلب خاصة. ومنها ما يتعلق بالجزيرة ومصر والمغرب، وممّا يجعل إعطاء الرأي في هذه المسألة عسيراً ضياع جميع المؤلفات التي كتبها ابن أبي طي، وإغفال أبي شامة في مقدمته ذكر المصدر الذي اعتمد عليه منها، بل وإهماله ذكر ابن أبي طي بين مصادره إهمالاً تاماً، مكتفياً بالإشارة العامة في عبارته التي تقول: «وقد انضاف إلى ذلك قطعة كبيرة في مواضع متفرقة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات» ويبدو من تنوع الموضوعات التي يقتبسها أبو شامة من ابن أبي طي أنه يقتبسه في كتبه التاريخية جميعاً؛ إلّا إذا كان كتاب سيرة صلاح الدين وقد اقتبسه مرة واحدة بالاسم، قد احتوى على تفصيلات شاملة لجميع الجهات حتى بلاد المغرب.

وأسلوب ابن أبي طي كما نجده في مقتبساته للروضتين، أسلوب سهل مجرد من الزخرف واقعي، مختصر، مباشر في معالجته للموضوع، وهو يشبه من هذه الناحية ابن شداد. كما نلاحظ من مقتبساته أنه يعتمد في كثير من الأحيان على والده. ولا ينسى أن يؤيد حديثه، في بعض الحالات، بالوثائق التي كتب الفاضل بعضها.

ح ـ الوثائق الرسمية

من المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها أبو شامة، الوثائق الرسمية لأهميتها في التعبير عن وجهة النظر الحكومية في الحوادث الجارية. وقد سبق أبا شامة إلى استعمال هذه الوثائق، من مؤرخي عصره، العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين الذي كتب كثيراً من المراسم والمنشورات والكتب السلطانية. واقتبس منها شيئاً في كتابيه الفتح القسي والبرق الشامي، كما اعتمد ابن أبي طي، وهو من مصادر الروضتين كذلك في مؤلفاته التاريخية، على بعض الوثائق التي ينقلها عن العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل.

وتدل دراسة الوثائق، التي وردت في كتاب الروضتين، دراسة إحصائية على أنها ترجع جميعها إلى عصري نور الدين وصلاح الدين، أي ترجع في تاريخها إلى

السنوات ٥٤١ ـ ٥٨٩هـ. ومع هذا لا نجد منها أكثر من عشر وثائق تتحدث عن أمور حدثت في عصر نور الدين، على حين يتعلق بقيتها بعصر صلاح الدين. وهذه تبلغ مائة وستاً وتسعين وثيقة. وقد أورد أبو شامة في الجزء الأول من كتابه الذي ينتهي بنهاية سنة ٥٧٣هـ أربعين وثيقة، بينما أورد الباقي في الجزء الثاني من الكتاب. وهنا نلاحظ أن الوثائق التي تتعلق بعصر نور الدين قليلة العدد، وأن عدد الوثائق يتزايد تدريجياً بعد وفاة نور الدين. كما نلاحظ أن ما يتعلق منها بالقسم الأول من عصر صلاح الدين وهو القسم الذي يختص بفترة وزارته للخليفة العاضد أقل عدداً من الوثائق التي تتحدث عن بقية عصره، ويفسر هذه الظاهرة أن معظم الوثائق التي يقتبسها أبو شامة مأخوذة من مجلدات الرسائل الفاضلية، التي خلّفها القاضي الفاضل، ومن وثائق العماد الأصفهاني التي أوردها في كتابي الفتح القسي والبرق الشامي، أما القاضي الفاضل فإنه لم يصبح شخصية هامة في الأوساط الحكومية، رغم اتصاله المبكر بالأيوبيين عندما التحق بخدمة شيركوه في مصر إلّا بعد أن تأكد سلطان صلاح الدين ونفوذه وشخصيته، وذلك بعد أن قلّ اعتماده على نصائحه من أقاربه وخلفائه الذين كان يتصدرهم والده نجم الدين أيوب، ولم تكن للقاضي الفاضل صلة بنور الدين أو بحكومته في يوم من الأيام ولذا نجد أن الوثائق التي يكتبها القاضي الفاضل تتزايد عدداً وقيمة عندما يشتد اعتماد صلاح الدين عليه في حكومته، بينما يقل عددها في الفترة اللاحقة. وقد برهن القاضي الفاضل على أنه جدير بالمكانة التي وصل إليها والثقة التي وضعت فيه.

ويختلف العماد الأصفهاني عن القاضي الفاضل في أنه اتصل بخدمة نور الدين ثم بخدمة صلاح الدين، ولكن، رغم ذلك، لا نجد له وثائق كثيرة عن عصر نور الدين، ذلك أنه لم يلتحق بديوان الإنشاء إلّا كأحد الكتّاب ولفترة قصيرة، ثم انصرف عنه للعمل الذي كان يتقنه أكثر من غيره، في ذلك الحين، وهو التدريس. ثم ازدادت أهميته عندما عاد إلى ديوان الإنشاء مساعداً للقاضي الفاضل ونائباً عنه عندما كان يلازم صلاح الدين في تنقلاته وإقامته في بلاد الشام.

أما موضوعات هذه الوثائق فمتنوعة فهي تتناول أمور السياسة والحرب والإدارة وتنظيم الجيوش وتعيين الولاة، والتبشير بفتح جديد أو انتصار حربي، كما يؤكد بعضها ولاء السلطان للخلافة العباسية في مناسبات متعددة بعد إبلاغها بأبناء الانتصارات أو عند التماس تأييدها في بعض الإجراءات التي يتخذها السلطان ضد بعض الأمراء المحليين. ويختص بعض هذه الوثائق بإعادة توزيع الولايات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، أو بمعالجة بعض المشكلات الأيوبية ذات الصلة

بالمجهود الموحد الذي يقوم به صلاح الدين ويتعرض بعضها للأوقاف أو للأخوانيات.

إن هذا الحصر الموضوعي لوثائق الروضتين لا يعني أنها تنقسم انقساماً محدداً إلى مجموعات متميزة يعالج كلاً منها موضوعاً خاصاً، ذلك أن كثيراً منها يعالج موضوعات متعددة في وقت واحد وبخاصة ما تعلق منها بالحرب؛ إذ إن هذا النوع من الوثائق يعالج المشكلات السياسية في كثير من الأحوال إلى جانب الموضوعات الحربية.

ومما يلفت النظر خلال استعراضنا لهذه الوثائق، أنه من النادر أن نجد بينها وثيقة كاملة، ذلك أن أبا شامة لا يقتبس من هذه الوثائق إلّا الأجزاء المتعلقة بالموضوعات التي يتحدث عنها ليعطي هذه التقريرات العادية قوة، خاصة عندما يؤكدها بوثيقة رسمية. ومن الحالات النادرة التي يقتبس بها أبو شامة الوثيقة اقتباساً كاملاً، الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن صاحب المغرب يستنصره على الفرنج[١] وذلك عندما اشتدت الحرب بينه وبينهم في موقعة عكا التي استمرت طويلاً قاسى خلالها جنوده مهاجمين أو محاصرين، الشيء الكثير من العنت. وفي هذه المناسبة ينقل أبو شامة خطاب صلاح الدين كاملاً، كما ينقل الخطاب الذي وجهه إلى رسوله[٢] يرشده فيه إلى السلوك الذي يجب عليه اتباعه عند لقاء ابن عبد المؤمن.

وتبين الدراسة الموضوعية لهذه الوثائق التي أوردها أبو شامة في كتابه الروضتين، أنه يستخدمها لأغراض شتى، فهو قد يسوق تقريراً معيناً عن حادثة ما، يقتبسه عن ابن شداد أو عن ابن الأثير أو غيرهما. ثم يتبع هذا التقرير بآخر يقتبسه عن مصدر آخر غير السابق. وعندئذٍ قد يجد من الوثائق ما يؤكد هذين التقريرين، فيورد ما عثر عليه منها حتى يقوي جانب ما اقتبسه من تقريرات. وفي حالة أخرى قد يجد في الوثيقة ما يزيد الحادثة تفصيلاً وتوضيحاً، أو ما يضيف بعض الحقائق التي أغفلها المصدر الذي اقتبس عنه، وحينئذٍ يورد هذه الوثيقة لتحقّق الغرضين معاً، فتقوي التقرير المقتبس وتكمله، أو تزيده شرحاً وتفصيلاً، وفي حالة ثالثة يقتبس وثيقة معينة لتصحيح تقرير اقتبسه في بعض وقائعه، أو في جميع ما احتواه. ووجود هذه الوثيقة، في مثل هذه الحال، يشجع أبا شامة على التعرض للمصدر

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٧٠.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر ص١٧١ وما بعدها

الذي يستمد منه تقريره بالنقد والاعتراض. وهناك استعمال رابع للوثائق وذلك عندما يعتمد المؤلف على الوثيقة وحدها للحديث عن موضوع خاص، دون أن يسبقها تقرير أو اقتباس من مصدر آخر. من هنا نجد أن وظيفة الوثيقة هو إمدادنا بحقائق جديدة في موضوعات مستقلة غير موجودة في مصادر أخرى.

ط ـ المصادر الثانوية:

إلى جانب المصادر الرئيسية التي ذكرنا، هناك مصادر أخرى، مكتوبة أو شفهية، اعتمد عليها أبو شامة، واقتبس كلاً منها مرة أو مرتين، وهذه المصادر هي تاريخ إربل لابن المستوفى الإربلي، وتاريخ حلب لكمال الدين بن العديم، وذيل تاريخ بغداد لابن سعد السمعاني، وتذييل تاريخ ابن الجوزي لابن القادسي، وتاريخ الغرباء الذين دخلوا مصر لابن سعيد بن يونس، وسيرة نور الدين لابن بنجة الأشتري، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب الوشي المرقوم لابن الأثير الجزري، وكتاب الإفصاح ليحيى بن هبيرة، ثم من المصادر الشفهية نجد أبو شامة يذكر أبا الحسن السخاوي، والأمير أبو الفتوح بن العاضد، والشيخ تاج الدين الكندي.

ك ـ استخدام أبي شامة للمصادر:

من خلال العرض التفصيلي للمصادر التي اعتمد عليها أبو شامة يتبين أنه وضع لنفسه مبدءاً هاماً طبّقه بكل دقة واتبعه دون انحراف، ذلك هو مبدأ الاعتماد على المصدر المحلي المعاصر في تفصيل الحوادث التي يتعرض لتسجيلها. كما يلاحظ أن كتاب الروضتين يتكون من أقسام واضحة، يتميز كل قسم منها بمجموعة من المصادر.

وأول هذه الأقسام يبدأ بأول الكتاب وينتهي عند تعيين عماد الدين زنكي ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١هـ. ويختص هذا القسم بتعداد مآثر نور الدين وتقدير صفاته التي جعلت منه شخصية لها مكانتها الممتازة في تاريخ الإسلام. وهذا الحديث له صفة التعميم، يتعرض فيه أبو شامة لعدالة نور الدين وشجاعته وحزمه وديانته وغير ذلك، من غير اهتمام بتفصيل حوادث معيّنة. وهو في هذا كله يعتمد على مصادر ثلاث رئيسية هي ابن الأثير وابن شداد والعماد الكاتب، فيقتبس ابن الأثير ثماني عشرة مرة، ويقتبس ابن شداد ثلاث مرات، ويقتبس العماد مثلها. وأبو شامة اعتمد على ابن الأثير أكثر من صاحبيه في هذه الفترة لتخصّصه في تاريخ أتابكة الموصل، فهو من جزيرة ابن عمر بالموصل. ولأسرته صلة قوية بأسرة

زنكي، والد نور الدين، وابن آق سنقر مؤسس هذه الأسرة الزنكية. أما القسم الثاني فيبدأ بولاية زنكي لإمارة الموصل في سنة ٥٢١هـ وينتهي أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٥٥هـ. وهي السنة التي توفي فيها أبو يعلى المعروف بابن القلانسي، أهم المؤرخين الذين اقتبسهم أبو شامة في هذه الفترة، فانتهى الاقتباس منه عند الحديث عنها. وهذه الفترة هامة جداً وطويلة شهدت جهاد عماد الدين زنكي حتى وفاته عند قلعة جعبر سنة ٥٤١. ثم ما جرى بعد ذلك من تقسيم ولايته بين ولديه، غازي الذي تولى الموصل، ونور الدين الذي تولى حلب، والموضوعات التي يتحدث عنها أبو شامة في هذه الفترة الطويلة تختص بالموصل ودمشق وحلب باعتبارها مراكز عواصم للقوى الرئيسية الثلاثة في هذه المنطقة، ونعني الجزيرة وجنوبي الشام وشماليّه. ويعتمد أبو شامة في حديثه عن الجزيرة على كتاب الأتابكة لابن الأثير وعن جنوبي الشام على أبا يعلى، صاحب ذيل تاريخ دمشق. وعن شمالي الشام على يحيى بن أبي طي الحلبي، فيقتبس الأول اثنتين وخمسين مرة، ويقتبس الثاني سبعاً وثلاثين مرة، ويقتبس الثالث خمس عشرة مرة: ويظهر بين هؤلاء مصادر ثانوية أخرى كالعماد الذي اقتبس منه ست مرات، وعمارة اليمني الذي اقتبس منه مرة، وابن عساكر الذي اقتبس منه مرتين. وينتهي القسم الثالث عند سنة ٥٦٢هـ، وهي السنة التي قدم فيها العماد الأصفهاني إلى الشام، حيث اتصل بخدمة نور الدين، وتتركز مصادر أبي شامة في شخصيتين: ابن الأثير، الذي لا يزال مصدراً ممتازاً، ولذا يقتبسه أبو شامة أربع عشرة مرة، لأن الحديث لا يزال عن منطقتي الشام والجزيرة، والعماد الأصفهاني الذي يبدأ في الظهور، فيقتبسه أبو شامة إحدى عشرة مرة كما لا يزال هناك مجال للمصادر الثانوية، فيقتبس عمارة مرتين، وأسامة بن منقذ مرة، وابن عساكر مثلها، وابن شداد أربع مرات، وابن أبي طي الذي يتقهقر في هذا القسم إلى الصفوف الخلفية فيُقتبس مرة واحدة.

وينتهي القسم الرابع بنهاية الجزء الأول، أي بنهاية الحديث عن حوادث سنة ٥٧٣هـ. ويشهد هذا القسم تطورات هامة في تاريخ المنطقة، ذلك أن مجال نشاط نور الدين يتسع ليشمل فلسطين، ثم يمتد إلى مصر، بعد استنجاد وزيرها شاور به، لذا نراه يتدخل في شؤونها ثم يفتحها. وفي سنة ٥٦٩هـ ينتهي عهد نور الدين بوفاته، ويخلفه ابنه الصالح إسماعيل. ويبدأ صلاح الدين قائد نور الدين ووزير الفاطميين في الوقت ذاته، زحفه من مصر إلى الشام والجزيرة لمقابلة الصالح إسماعيل والصليبيين معاً، أي أن مركز القوة انتقل من دمشق وحلب، عاصمتي نور

الدين، إلى القاهرة عاصمة صلاح الدين، ولهذا يتقهقر ابن الأثير من مركز الصدارة، كمصدر لأبي شامة في هذه الفترة، ليتقدم العماد الأصفهاني، من رجال حكومة نور الدين ثم من بعده من رجال صلاح الدين. ويشارك العماد في الصدارة يحيى بن أبي طي، على قدم المساواة، رغم زيادة عدد المقتبسات التي يأخذها أبو شامة من العماد عنها من ابن أبي طي حيث اقتبس العماد في هذه الفترة مائة وخمساً وعشرين مرة واقتبس ابن أبي طي ستاً وثلاثين مرة، وابن الأثير ثلاثين مرة.

ويدل على أهمية ابن أبي طي في هذه الفترة، أن أبا شامة يسوق الحديث عن الحملات التي قام بها شيركوه على مصر بعد استنجاد شاور بنور الدين، معتمداً على ابن الأثير والعماد الكاتب، ويواصل هذا الحديث معتمداً عليهما حتى يتولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي، ثم يعقب على هذه الأمور بقوله: «وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية. فأوجب ذكره مختصراً. . .» ويُتبع أبو شامة هذا بفصل كامل عن هذه القصة حيث لم يعامل أبو شامة أي مصدر من المصادر التي اعتمد عليها في كتاب الروضتين بمثل هذه المعاملة المتميزة التي تدل على تقدير خاص، باستثناء ما عقَّب به على وفاة صلاح الدين بإشارة مختصرة إلى ما تبعها من حوادث في إمبراطوريته الواسعة معتمداً في ذلك على رسائل قصيرة للعماد الأصفهاني في كاتب الإنشاء لصلاح الدين وذلك قريباً من نهاية الكتاب.

ويبدأ القسم التالي ببداية الجزء الثاني من الكتاب، أي بحوادث سنة ٥٧٢هـ وينتهي بحوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين وليشاهد جميع معاركه الحربية. ويسجل ابن شداد ما سبق هذا التاريخ ثم ما شاهده بعد ذلك في كتاب خاص بسيرة صلاح الدين حيث يشير في مقدمته وفي أثناء الحديث من سنة ٥٨٤هـ إلا أنه يعتبرها حداً فاصلاً بين نوعين من الكتابة التاريخية التي اشتمل عليها كتابه، فيقول: «ومن هذا التاريخ سطّرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان». وهذا ما يحمل أبا شامة على اتخاذ ابن شداد مصدراً أولياً يعتمد عليه ويضعه على قدم المساواة مع العماد الأصفهاني. والواقع أن العماد وابن شداد لازماً صلاح الدين في حروبه وإقامته في هذه الفترة، ملازمة لا تكاد تنقطع، وقد دوّنا ما شاهداه بأعينهما عن تطورات هذه المعارك.

وفي الحوادث التي جرت ما بين سنتي ٥٧٤ و٥٨٤، يتأكد مركز العماد كمصدر أول لأبي شامة الذي يقتبسه مائة وخمس عشرة مرة. ويبدأ ابن شداد في

شق طريقه ليحتل المرتبة الثانية بين مصادر الروضتين حيث يقتبسه أبو شامة ست عشرة مرة، وبهذا يزاحم ابن أبي طي الذي يقتبس عشر مرات ليتوارى بعدها نهائياً من بين مصادر الروضتين، فلا يقتبس بعد هذا مرة واحدة. أما ابن الأثير فيتضاءل شأنه وتقل مكانته حتى لا يتردد ذكره أكثر من أربع مرات، لأن سجل الحوادث التي يؤرخ لها أبو شامة بعيد عن الجزيرة موطن ابن الأثير.

واعتباراً من سنة ٥٨٤هـ يقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني خمساً وتسعين مرة، وابن شداد تسعاً وستين مرة. ويلاحظ أن المقتبسات المنقولة عن العماد تتمثل في مقتطفات من كتابي البرق الشامي والفتح القسي، ومن الوثائق التي صدرت عن ديوان صلاح الدين. أما ابن شداد فلم يكن له إلّا كتاب واحد هو النوادر السلطانية.

والقسم الأخير الذي يختم به أبو شامة كتابه يتعرض فيه في اختصار لما أصاب الإمبراطورية الواسعة التي تركها صلاح الدين بعد وفاته. والمصدر الوحيد الذي يعتمد عليه أبو شامة في هذا القسم هو العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين، الذي تضاءلت مكانته الحكومية وتدهورت أحواله، فقلّ نفوذه، ثم ترك خدمة الحكومة مصاباً بالإحباط والألم لما أصاب الدولة وأصيب هو شخصياً. وقد سجل شعوره ومشاهداته في رسائل قصار اعتمد عليها أبو شامة في تصوير الحال وهي: العتبى والعقبى، ونحلة الرحلة، وخطفة الشارق.

ما تقدم يسمح لنا بفهم طريقة أبي شامة في اختيار مصادره، فهو يهتم باختيار المصدر الذي تتوفر له صفتان: المحلية والمعاصرة، فابن الأثير مواطن موصلي من الجزيرة، معاصر لكثير من حوادثها التي سجلها في تاريخ أتابكة الموصل، ولذا يقتبسه أبو شامة في حوادث الموصل والجزيرة. وأبو يعلى مواطن دمشقي وواحد من المسؤولين الحكوميين في الشام، وهو يتحدث عما شاهده، فهو لهذا المصدر الرئيسي لتاريخ الشام، وبخاصة ما يتعلق بدمشق وأعمالها، وابن أبي طي من أهل حلب، ولذا يعتمد عليه أبو شامة في الحديث عن تاريخها وما يتصل بها. والعماد كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين، وهو ملازم لهما متنقّل معهما. لذا يصلح ما يكتبه ليقتبسه أبو شامة في كتابه.

وبهذا اطمأن أبو شامة إلى أنه وفر لكتابه المصادر الثقة التي يُعتَدُّ بها، فاقتبسها مرتاحاً لصدقها، ولذا لم يتعرض لما يقتبسه منها بالنقد أو المناقشة أو التصحيح، فكل مصدر منها معاصر للحوادث التي يرويها، مشاهدٌ لها، أما أبو شامة فلم يعاصرها ولم يشهد شيئاً منها ولهذا لا يرضى بأن يتعرض لها بالنقد أو

المناقشة، وإنما يكتفي بأن يصدّر مقتبساته عن الحوادث التي يسوقها ويسجلها باسم المراجع الذي اعتمد عليها، محملاً المسؤولية كلها لراوي الحادثة، ولا يشذ أبو شامة عن طريقته هذه إلا في حالة من حالتين: **الأولى**: إذا كانت هناك وثيقة رسمية تخالف تقريراً بعينه، **والثانية**: إذا هيّأت له الدراسة التي تخصّص بها في دراسة الحديث أو نحوه، طريق الحكم القطعي الصادق على ما يرى أنه موضع اعتراض أو نقص.

ومن أمثلة الحالة الأولى ما أورده ابن الأثير في كتاب الأتابكة عن بعض الأعمال الخيرية التي قام بها نور الدين محمود، وذلك عندما قال: «إن أعظم البيمارستانات التي أنشأها، ذلك الموجود بدمشق. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»[١]. وقد اقتبس أبو شامة هذه العبارة في كتابه، لكنه لم يسكت عما تضمنته، بل حاول الوصول إلى وثيقة الوقف التي تحدث عنها ابن الأثير. وقد وجدها أبو شامة وقرأها ثم علّق على كلام ابن الأثير بقوله: «وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أجده مُشعراً بذلك، وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة. وإنما صرّح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع عنه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء» ويستمر أبو شامة في نقض كلام ابن الأثير مستنداً إلى دراسته لهذه الوثيقة فيقول: «وقد خصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، ولا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين»[٢]. ومن أمثلة الحالة الثانية ما ذكره العماد في أثناء الحديث عن المعارك التي دارت قرب مدينة قيسارية بعد رحيل الصليبيين إليها من عكا عام ٥٨٧هـ في شعبان، إذ يقول: «وأصبح على تبنى وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تُبنى، وزرنا بتبنى قبر أبي هريرة رضوان الله عليه»[٣].

وحين يقتبس أبو شامة هذه الحادثة عن العماد، نرى أنه لا يرضى بهذا الاستطراد الذي ذكره عن وجود قبر أبي هريرة عند تُبنى، ويعقب على ذلك بقوله: «واعتمد العماد في هذا على ما اشتهر عند العامة عن ذلك. أما أهل العلم المصنّفون في أخبار الصحابة، رضوان الله عليهم، كابن سعد وغيرهم فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة ولم يذكروا غيره»[٤].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٩.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.
(٣) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٩١.
(٤) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

ونلاحظ في كتاب الروضتين، أن أبا شامة يتوخى الدقة في اقتباسه من المصادر المختلفة. وهو في سبيل هذا يعمد إلى اقتباس هذه المصادر اقتباساً حرفياً في الكثير الغالب، فلا يتناولها بشيء من التغيير. وفي الحالات القليلة التي يعمد فيها إلى الاختصار أو التلخيص، أو الحذف، فإنه لا يحيد عن هذه الخطة، فهو يحافظ فيما أبقى عليه من الأصل، على حرفية العبارات التي يقتبسها. ولا يحيد أبو شامة عن هذه القاعدة إلّا عندما يقتبس العماد الأصفهاني، ذلك أنه يختصره اختصاراً شديداً قد يبقى على سطر واحد أو سطرين من صفحة كاملة مما كتبه، وهو لا يفعل ذلك دون أن يكون هناك مبرر لما يفعل، بل نراه يصرّح بالدافع له على اتباع هذه السياسة مع العماد إذ يقول:

«إلّا أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يملُّ الناظر فيه، ويذهل طالب المعرفة، معرفة الوقائع عما سبق من القول ويُنسيه. فحذفت تلك الأسجاع إلّا قليلاً منها استحسنتها في مواضعها. ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع... وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام».

وإذا كان كتاب الروضتين يسير على نظام الحوليات في المدة الواقعة بين ٥٤٢ ـ ٥٨٩هـ، أي مدة ولايتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، مع ما يقتضيه هذا النظام من الحديث عما يجري في نطاق سنة معينة من حوادث، على أن يتوقف المؤرخ في حديثه عنها إذا انتهت هذه السنة ليستأنف الحديث عن تطوراتها في السنة التالية بعد الإشارة إلى بدئها. وقد يبالغ بعض المؤرخين في اتباع هذه الطريقة في مجال السنة الواحدة، فيتحدثون عن أخبارها شهراً فشهراً، من غير ضرورة الإشعار ببدء شهر جديد، أو مع الإشعار بذلك أحياناً ومعنى هذا أن يقطع المؤرخ تقريره عن حادثة معينة بانتهاء الشهر الذي بدأت فيه، وذلك ليتحدث عن أخرى حدثت في نفس الشهر، ثم يستأنف ما قطعه في الشهر التالي وهذه هي الطريقة التي يلجأ إليها أبو يعلى في بعض الحالات في كتابه ذيل تاريخ دمشق في حوادث سنة ٥٤١هـ مثلاً. وعندما يقتبس أبو شامة مثل هذا المصدر، لا يرضى عن هذه الطريقة بل أنه يتتبع الحادثة المعيّنة بجميع تطوراتها داخل نطاق السنة الواحدة، فيجمع هذه التطورات بعضها إلى بعض في تقرير متصل يقطعه أحياناً بالإشارة إلى المصدر فقط بمثل قوله: قال، أو قال أبو يعلى، وهو يعني بذلك أنه إنما يبدأ فقرة جديدة من الاقتباس: فإذا انتهى من هذه الحادثة المعينة بدأ غيرها، وعاملها بمثل هذه المعاملة حتى يقف عند بداية سنة جديدة. ولتوضيح

هذه القضية نسوق تقرير أبي يعلى عن سنة ٥٤٨هـ واقتباس أبي شامة. فالموضوعات التي وردت في هذا التقرير طبقاً لأبي يعلى هي على التوالي: مقتل ابن السلار، حصار الفرنج مدينة عسقلان والتحالف الفاشل بين حلب ودمشق لمواجهة الموقف، اضطرابات داخلية في دمشق، سقوط عسقلان بين الفرنج وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، تطورات هذه الاضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، أما هذه الموضوعات فقد وردت عند أبي شامة بالترتيب التالي: حصار الفرنج مدينة عسقلان وتحالف فاشل لمواجهة الموقف بين حلب ودمشق، سقوط عسقلان في يد الفرنج، اضطرابات داخلية في دمشق، تطور هذه الاضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، مقتل ابن السلار، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته.

وهكذا نجد أن أبا شامة يرتب الحوادث التي يتعرض لها في كتابه طبقاً لتقديره الخاص لأهميتها، دون تقيد بالترتيب الذي وردت به في الأصل الذي ينقل عنه، وذلك داخل النظام الحولي العام، كما نراه لا يرضى عن المبالغة في اتباع هذا النظام داخل إطار السنة الواحدة بل يتّتبع الحادثة المعيّنة بتطوراتها المختلفة حتى يقف بها عند بداية سنة جديدة ثم يعود إلى غيرها ليعالجها بنفس الطريقة.

كتاب «المذيل على الروضتين»

لقد وضع أبو شامة كتاب الروضتين عن قصدٍ وتصميم وعزمٍ على إفراد ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين في كتاب. ولكنَّ الرجل لم يعزِف عن تدوين الأحداث اللاحقة. فوضع كتابه التاريخي الثاني الذي سماه «المذيّل على الروضتين» والذي نشره محمد زاهد بن الحسن الكوثري (وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً) بعنوان «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، وأضاف «المعروف بالذَّيل على الروضتين» (القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م).

وقد بيّن أبو شامة السبب في وضعه هذا الكتاب، فقال: «... أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبراً، وفي ذكرها عن الغرور مزدجراً، لا سيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان. فإنَّ ذلك مما يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه.

«وكان أن سهل الله تعالى عليَّ، وحبب إليّ، أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيراً من الحوادث الواقعة زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما، وأصلح ما بعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعاً لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم.

ثم خطر لي أن أجمع كتاباً يتضمن كثيراً من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ما تدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح. وكان فيما حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلباً على الآخرة يساعف (...) فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها ما فاتني في كتاب الروضتين، سنة بعد سنة (...) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين»[1].

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٥.

وقد تبدو في هذا الكتاب فوضى قليلة إذا قورن بالروضتين، لكننا نرى أن أبا شامة كان هنا يدوِّن مذكرات، ولعله لم تتح له الفرصة لتنظيمها، وخاصة أنَّه دوَّن الأحداث إلى حين وفاته.

ويعتمد أبو شامة، في القسم الأول من كتابه هذا، على سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م) في كتابه مرآة الزمان، وعلى ما سمعه مباشرة. لكنه بعد سنة ٦١٣هـ (بدءاً من ص ٩٢ من تراجم)، نجده يُكثر من استعمال «قلتُ» و«حضرتُ» و«صليتُ» و«اجتمعتُ»، بحيث تصبح المشاهدة والعيان أساس كتابته. ومن هنا، فإنَّه يكاد يقتصر، في ذكر الحوادث، على دمشق وأرباضها، وإن كان لا يتردد في إيراد خبرٍ أو حادثةٍ هامةٍ حدثت في مصر أو العراق أو بقية أنحاء بلاد الشام. ولعلّ أول مناسبة تدخل فيها شخصيته في الرواية هي قوله: «وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب، وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين [الكندي]، إنَّه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعاً مع طلبته، يخاطب كلاً منهم بقوله يا سيدنا»(١). وقد ذكر هذا لمناسبة تأريخه لوفاة الشيخ تاج في سنة ٦١٣هـ. وكان أبو شامة في ذلك الوقت في سن الرابعة عشرة. فهل أخبره صاحبه جمال الدين ذلك في تلك السنة؟ أم هل كان الإخبار، فيما بعد، ثم أضاف أبو شامة ذلك هنا فيما بعد أيضاً؟ إننا نرجح هذه، ولكنَّها على كلٍ إشارة أولى إلى المشاركة العامة.

ونحن عندما نقرأ صفحات المذيّل (تراجم) واحدةً بعد الأخرى، نجد أن الأمور، والقضايا، والمشاكل، والأحداث التي كان أبو شامة يشترك فيها هي بشكل عام، من النوع الذي يشترك فيه أهل الطبقة الوسطى، إذا جاز التعبير بالنسبة إلى ذلك الزمن. ولعلّ أكثر الأنباء وروداً عنده هي أخبار الوفيات (والكتاب وضع أصلاً، كما رأينا، لإثبات موت المعارف). وهو إذ يذكر وفاة أحد من الناس يترجم له إن كان ذا شأنٍ (في العلم أو في الإمارة). والمثل على أهل العلم هو ترجمته لشيخين توفيا في سنة واحدة (٦٢٠هـ) هما شيخ الشافعية فخر الدين أبو المنصر ابن عساكر (وهو غير المؤرخ الذي وضع تاريخ دمشق)، وشيخ الحنابلة أبو محمد عبد الله موفق الدين بن محمد بن قدامة المقدسي(٢). والترجمة لهما طويلة (نسبياً)، وفيها ما سمعه ووعاه. والذي وعاه بشكل خاص هو ما قرأه على هذين الشيخين. فقد سمع أبو شامة على الشيخ الفخر «معظم كتاب دلائل النبوة

(١) أبو شامة: المذيّل ص٩٨.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص١٣٦ ـ ١٤٢.

للحافظ أبي بكر البيهقي وغيره»، ويضيف أبو شامة «وكتبت إليه أبياتاً أطلب منه فيها إجازةً برواية ما يجوز له عنه روايته، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فأجابني نظماً أيضاً بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها. وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخط يده وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصدُه ... وأسعده بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم ... بصير بما فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها ... ويلقّه فيها سنيّ مراده[1]

ويترجم لموفق الدين، ويقول: «سمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله وفاتني منه نحو ورقتين عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبي زرعة. وسمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين وغير ذلك». ولعلَّ من أطرف ما ورد في ترجمة موفق الدين، في إشارة أبي شامة إلى كون المترجم له حنبلياً، ما يلي: «كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل، صنف كتباً كثيرة حساناً في الفقه وغيره. ولكنَّ كلامه، فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات والكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه. فسبحان من لم يوضح له الأمر له فيها، على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار والآثار»[2] وترجمة اليونيني من مثل هذا النوع، (تراجم ص١٢٥ ـ ١٢٨).

على أن أبا شامة حريص، شأنه في ذلك شأن علماء زمانه، يذكر الذين سمع عنهم عندما يورد خبر وفاتهم، بقطع النظر عما كان لهم من مكانةٍ خاصةٍ. (ويمكن الرجوع إلى تراجم ص١٥٤ و١٥٦ و١٥٨ و١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٧٤ للحصول على نماذج من هذه الإجازات).

ويُشيرُ مراتٍ كثيرةً إلى وفياتٍ لأشخاصٍ من الجيران أو ما إلى ذلك، ويعلق على ذلك بقوله: «وحضرت الجنازة». أو قدْ يذكر أنّه لم يحضر الجنازة لأنه كان مريضاً (تراجم ص١٦٣).

وما دمنا بذكر الوفيات فأبو شامة يذكر خبر وفاة والدته سنة ٦٢٠هـ (ص١٣٤)، ووالده سنة ٦٣٨هـ (ص١٧٠)، وأولاده (راجع ص١٧٦ مثلاً حيث يذكر خبر وفاة اثنين من أولاده). ومع ذلك فلا يراه يتوجع أو يتألم، أي أنه لا يعبر عن ذلك. فالعبارة عن والدته هي: «توفيت والدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل...» وقال عن وفاة والده: في ثالث عشر ربيع الأول ـ ٦٣٨ ـ توفي

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٣٧.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص١٣٩.

والدي رحمه الله». هذا مع العلم بأنه يتحرق لوعة وأسى عند ذكره وفياتٍ أخرى.

كان أبو شامة قليل السفر. وهو يذكر في «المذيّل» أخبار أسفاره. وأسفاره كانت حجتين، وزيارة لبيت المقدس، وزيارة لمصر. وكانت أول إشارة إلى الحج تتعلق بالأسرة تلك التي ذكر فيها أنَّ أباه حج تلك السنة (٦١٨هـ) بصحبة أمير حج الشام الذي اسمه «شقيقات» (ص١٣٠) ثم يصل إلى سنة ٦٢١هـ فيقول: «وفيها حججت من الشام مع والدي رحمه الله على طريق تبوك والعلاء. وهي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئاً مريئاً من رخص الأسعار والأمن في الطريق الشامية وبالحرمين. أما في المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم عيسى [حكم ٦١٥ ـ ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٢٧م]، فكان يدبر الحرس على الحاج الشامي ليلاً. وأمّا مكّة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملية المسعودية [حكم المسعود في اليمن ٦١٢ ـ ٦٢٦هـ/ ١٢١٥ ـ ١٢٢٩م] فانقمع بها المفسدون وسهّل على الحاج أمر دخول الكعبة. فلم يزل بابها مفتوحاً ليلاً نهاراً مدة مقام الحاج فيها. وكان الملك قد أرضى بني شيبة سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عوضاً عما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا. وكان الناس ينالون من ذلك شدّة، ويزدحمون عند فتح الباب، ويتسلّق بعضهم على رقاب بعض، لأنَّ الباب مرتفع عن الأرض بنحو قامةِ رجلٍ، فيقع بعضهم على بعض فيموت بعضٌ وينكسر بعضٌ ويشجُّ بعضٌ. فزال ذلك عن الناس بتلك السنة وما بعدها مدة بقاء مكّة في المملكة الكاملية. وكان قد بلغني صعوبة ذلك وكنت حاملاً همه. فلما دخلت من باب بين شيبة ووقع نظري على البيت، شرفه الله تعالى، إذ الباب مفتوحٌ والسلم منصوبٌ، والناس طالعون إليه ونازلون من غير ازدحام. فمن فرحي بذلك وخوفي من أنَّه لا يدوم، عجّلت في الطواف القدوم، ودخلت البيت، عظمه الله تعالى، وقضيت منه وطري اللائق بذلك الوقت. وعندي من الشوق المبرّح ما كفى. ثم كرّرت الدخول إليه ليلاً ونهاراً، فكنت أصادف نحو العشرة وما دونها... ونظمت في طريقي في تلك السفرة قصيدة ميميّة ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات، أولها:

ما زلت أشتاق حج البيت والحرم　　　وأن أزور رسول الله ذا الكرم

وهي طويلة، أقول فيها تعبيراً عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعاً:

وشرعوا نحو ذاك البيت حاسرة　　　رؤوسهم بين مطواف ومستلم[1]

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٤٢ ـ ١٤٣.

وقد حجَّ أبو شامة في السنة التالية (٦٢٢هـ) «راكباً في المحمل السلطاني المعظمي. وكان أيضاً حجاً مباركاً كثير الخير والأمن في الطريق والحرمين، وباب الكعبة مفتوحٌ للحاج مدّة مقامهم ليلاً ونهاراً» (ص١٤٤).

ونظم أبو شامة هذه السنة أيضاً قصيدة، لكنَّه لم يذكر منها هذه المرة سوى صدر البيت الأول قال:

«يا حبذا وطن الحبيب النائي»

والقصيدة، كما يقول أبو شامة، فيها وصف الأمير الحج، ومنازل الطريق التبوكية (ص١٤٥).

ويحدثنا أبو شامة عن زيارته لبيت المقدس فيقول: «وفيها [سنة ٦٢٤هـ] في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام وغيره على سبيل الزيارة للأقصى والخليل وما بتلك الديار من الآثار. ورجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوماً» (ص١٥١).

ولا شك في أن واحدنا يأسف لأنَّ أبا شامة لا يصف طرق أسفاره بشيء من التفصيل الذي نتوق إليه ـ سواء في ذلك طريق الحج أو طريق بيت المقدس وكم كنا نحبُّ أن نعرف أين أقام في طريقه من دمشق إلى بيت المقدس؟

ومثل هذا يقال عن سفرته الأطول في زيارته للديار المصرية: إذ لا يعطينا أي تفاصيل تتعلق بسفره وحلّه وترحاله، ومراحل الطريق، وأي طريق اتبع. فهو يقول: «وفيها [سنة ٦٢٨هـ] في آخر ربيع الآخر سافرت إلى الديار المصرية فدخلت دمياط في جمادى الأولى، والقاهرة ومصر في جمادى الآخرة، والإسكندرية في ذي الحجة (...) ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة وأنا بالإسكندرية (...) ورجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر» (ص١٦٠). ويتحدث عن بعض من لقي هناك، ومن توفي. فقد «توفي الزين النحوي (...) الزواوي رحمه الله بالقاهرة وأنا بها... حضرت دفنه والصلاة عليه. وكان آية في حفظ كلام النحويين» (ص١٦٠).

على أن أبا شامة يتحدث عن دمياط في مناسبة سابقة. فهو إذ يذكر خبر أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأولى من سنة ٦١٥هـ [١٢١٨م] يضيف «وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة [بدمياط] وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله، ورأيته يضرب يداً على يدٍ ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عز الدين بن

عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية. وصدق رحمه الله تعالى. فإنّي لما رأيته في سنة ثمان وعشرين [وستمائة]، كما سيأتي ذكره بأن لي صحة ما أشار الشيخ إليه. وذلك أنه برج عالٍ مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه. وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة (كذا)، وتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو. فهو قفل البلاد بالديار المصرية، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها. ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان» (ص١٠٩).

وأبو شامة يشارك الدمشقيين بعض آلامهم وصفاً. فهو يتحدث عن الغلاء الذي أصاب المدينة بسبب قطع الخوارزمية الطرقات سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) فيقول «ففي ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية (. . .) وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم (. . .) وكان ذلك في تاسع آذار. وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات. كانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج. وشاهدت ذلك بعيني (. . .) واشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة. ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم [أي الرطل بستة دراهم!] وخبز الشعير كل كيل بخمسين درهماً (. . .) وبيع الدقيق كل أوقية وربع بدرهم (. . .) وبيع الشعر كل كيل بخمسين درهماً (. . .) والزبيب كل أوقيتين بدرهم ثم بيع أوقية ونصف بدرهم، وكذا الدبس (. . .) وبيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم وربع (. . .) والفحم الرديء كل رطل بستة دراهم (. . .) وفي يوم عيد النحر بيع رطل الخبز بسبعة دراهم (. . .) ثم أن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر (. . .) فبيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين واللحم كذلك»[1].

وهناك حادثتان تتعلقان بأبي شامة شخصياً أوردهما: **الأولى**: حدثت سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) إذ إنه «في رابع عشر رمضان جرت عليَّ حكاية من نائب التتار واسمه ايل سبان لعنه الله وإياهم إهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً. فلم تمض بعد ذلك اليوم إلاّ عشرة أيام حتى كسر التاتار بعين جالوت . . . كسرة عظيمة مشهورة». (ص٢٠٩).

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٧٨، راجع أيضاً ص٢١١، وفي ص٢١٩، يتحدث أبو شامة عن الإرجاف بوصول التتار (المغول) في سنة ٦٦٠هـ، وما حدث في دمشق من بيوع واستعداد للهرب.

أما الحادثة **الثانية** فقد كانت اعتداء على حياته، وذلك في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م. وقد دوَّنها بقوله: «وفي سابع عشر جمادى الآخرة جرت لي محنة بداري بطواحين الأشنان [إذ تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا. وقد اعتديا عليه وضرباه ضرباً مبرّحاً بعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به (. . .) وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً] فألهم الله الصبر وفعل الله تعالى فيها من اللطف ما لا نقدر على التعبير عنه بوصف. وكان قيل لي قم واجتمع بولاة الأمر، فقلت فوضعت أمري إلى الله، فما أغير ما عقدته مع الله، وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكَّل عليه فهو حسبه. ونظمت في ذلك ثلاثة أبيات:

قلت لمن قال لي أما تشتكي ... ما قد جرى فهو عظيم جليل

يقيض الله تعالى لنا ... من يأخذ الحق ويشفي الغليل

إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيل»

م (ص٢٤٠).

ويقول ابن كثير: «وكأنهم [الذين ضربوه] عادوا إليه مرَّة ثانية وهو في المنزل المذكور فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر من رمضان رحمه الله. ودفن من يومه بمقابر الفراديس»[1].

أشرنا، من قبل، إلى أن أبا شامة كان يسجل أخبار وفيات أفراد أسرته كما لو كان يدوِّن خبراً في جريدة، إلا أنه شذّ في حالة واحدة إذ خرج عن وقارة فنظم قصيدة طويلة في زوجته «ست العرب». وقد قدَّم لها بقوله: «وفي هذه السنة [٦٥٥هـ] نظمت قصيدتي في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده» (ص١٩٦) وهي قصيدة طويلة في ستةٍ وأربعين بيتاً. وهو إذ يمتدح أخلاقها ونبلها ومهارتها وحضانتها. ولما نظم القصيدة كانت قد مرت عليها عشر سنوات وهي زوجته. ولسنا ننوي أن ننقل القصيدة بكاملها هنا، ولكنَّنا نودُّ أن نقول إنَّ هذه القصيدة فيها حسٌّ مرهفٌ لهذا العالم المؤرخ. فالبيت التالي حري بالنظر:

تقل نظيراً في نساء زماننا ... فلا تعذلوني في محبتها عذلا

(ص١٩٧).

وقد نقلنا من قبل بضعة أبيات من قصيدته المتعلقة بالفلاحة. ونود أن نؤكد

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٠٨.

هنا ثانيةً أنَّ أبا شامة أراد من هذه القصيدة لا أن يمتدح «الاستقلال الاقتصادي» عن طريق العناية بالأرض والزراعة، ولكنَّه أراد أن يبعد الناس، والعلماء بوجه خاص، عن الوظائف، كائنةً ما كانت تلك الوظائف، لأنَّها كلها تؤدي بالمرء إلى المصانعة، والمداهنة، وتحمله على أن يقبل الوقوف في مواقف بعيدة عن الاحترام. والقصيدة تزيد أبياتها عن المائة بيت؛ ولولا خشية الإطالة لنقلنا منها أمثلة غير ما ذكرنا قبلاً.

في ص٣٧ من المذيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) دوَّن أبو شامة ترجمة له.

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ لله الذي بلطفه تصلُح الأعمال، وبكرمِهِ وجوده تُدْرَكُ الآمال، وعلى وَفْقِ مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغيَّر الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزَّه عن الحلول والانتقال، عالم الغيبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعال، ذو العرش والمعارج والطَّوْل[1] والإكرام والجلال؛ نحمَدُه على ما أسبغَ مِنَ الإِنعام والإِفضال، ومَنَّ به من الإِحسان والنَّوال، حمداً لا تُوازنه الجبالُ، مِلْءَ السَّموات والأرض وعلى كلِّ حال، ونصلِّي على رسوله ونبيّه وخيرته مِن خَلْقه وصفيِّه وخليله ووليِّهِ وحبيبه المِفْضَال؛ سيدِنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشَّرف الباذخ، والعِلْم الراسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلَّى الله عليه وعلى الملائكة المقرَّبين والأنبياء والمرسلين، وعِتْرتهم الطَّيِّبين، ما أَفَلَ كوكبٌ وطلَعَ هلال، وعلى آل محمدٍ وصحبه خيرِ صحبٍ وأكرمِ آل، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياءِ والأبدال، وعفا عن المقصِّرين من أمته أُولي الكسل والمَلال، وحَشَرَنا في زمرته، متمسِّكين بشُرْعته، مقتدين بسُنَّته، مُتَّعِظين بما ضَرَبَ مِنَ الأمثال، مزدحمين تحتَ لوائه، في جُمْلة أوليائه، يومَ لا بيعٌ فيه ولا خِلال.

أما بعد، فإنه بعد أَنْ صرفت جُلَّ عُمري ومُعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عَنَّ لي أن أصرفَ إلى علم التاريخ بعضَه، فأحوز بذلك سُنَّةَ العلم وفرضَه؛ اقتداء بسيرة مَنْ مضى، مِنْ كلِّ عالم مُرْتَضَى. فَقَلَّ إمامٌ مِنَ الأئمة إلا ويُحكى عنه من أخبار مَنْ سَلَف فوائدُ جمَّة؛ منهم إمامُنا أبو عبد الله الشَّافعي[2]، رضي

---

(١) الطَّوْل: القدرة.

(٢) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩هـ، فتوفي فيها سنة ٢٠٤هـ (الأعلام ٦/ ٢٦).

الله عنه. قال مُصْعَب الزُّبيري[١]: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بأيام النَّاس مِنَ الشافعي. ويُروى عنه أنه أقام على تعلُّم أيام الناس والأدب عشرين سنةً، وقال: ما أردتُ بذلك إلا الاستعانة على الفِقْه.

قلتُ: وذلك عظيمُ الفائدة، جليل العائدة. وفي كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مِنْ أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبرٌ لذوي البصائر، واستعدادٌ ليوم تُبْلَى السَّرائر. قال الله عزَّ وجلَّ وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤، ٥].

وحدَّث النبيُّ ﷺ بحديثِ أُمِّ زَرْع[٢]، وغيرِهِ مما جرى في الجاهلية، والأيام الإسرائيلية. وحكى عجائبَ ما رآه ليلة أُسري به وعرج، وقال: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج»[٣]. وفي «صحيح مسلم» عن سِمَاك بنِ حَرْبِ قال: قلتُ لجابر بن سَمُرَة: أكنتَ تجالسُ رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً؛ كان لا يقوم من مُصَلَّاه الذي صلَّى فيه الصُّبْح أو الغَدَاة حتى تطلُعَ الشمس، فإذا طَلَعَتْ قام، وكانوا يتحدَّثونَ فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ، ﷺ[٤].

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: كان نبيُّ الله ﷺ يحدِّثنا عن بني إسرائيل حتى يُصبح، ما يقوم إلا إلى عُظْمِ صلاةٍ[٥].

قلتُ: ولم يزل الصَّحابة والتابعون فَمَنْ بعدهم يتفاوضون في حديث مَنْ مضى، ويتذاكرون ما سبقَهُمْ من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلَّبون الآثارَ والأخبار؛ وذلك بَيِّنٌ من أفعالهم لمن اطَّلع على أحوالهم، وهم السَّادة القُدْوة، فلنا بهم أُسوة. فاعْتَنَيْتُ بذلك وتصفَّحْته، وبحثتُ عنه مدَّةً وتَطَلَّبْتُه،

(١) هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، المعروف بالزبيري المصري، المتوفى سنة ٢٣٣هـ (كشف الظنون ٦/ ٤٦٢).

(٢) حديث أم زرع أخرجه البخاري في النكاح باب ٨٢، حديث رقم ٥١٨٩، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، وأبو داود في العلم باب ١١، والترمذي في العلم باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٥٩، ٢٠٢، ٢١٤، ٤٧٤، ٥٠٢، ٣/ ١٣، ٤٦، ٥٦.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٨٦، وأبو داود في الصلاة باب ٢٠٢، والنسائي في الصلاة باب ٥٥٢.

(٥) أخرجه أبو داود في العلم باب ١١.

فوقفتُ ـ والحمد لله ـ على جُمْلة كبيرة من أحوال المتقدِّمين والمتأخرين؛ من الأنبياء والمرسلين، والصَّحابة والتابعين، والخلفاء والسَّلاطين، والفقهاء والمحدِّثين، والأولياء والصَّالحين، والشُّعراء والنَّحْويين، وأصناف الخَلْق الباقين. ورأيتُ أن المطَّلع على أخبار المتقدِّمين كأنه قد عاصرَهُمْ أجمعين، وأنه عندما يفكِّر في أحوالهم أو يَذْكُرُهم كأنه مُشاهِدُهم ومحاضِرُهم؛ فهو قائمٌ له مقام طولِ الحياة، وإن كان متعجِّل الوفاة. قال نُعيم بن حَمَّاد[1]: كان عبدُ الله بنُ المبارك[2] يكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه! وفي رواية قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، تكثر القعودَ في البيت وحدَك! فقال: أنا وَحْدي؟! أنا مع النبي ﷺ وأصحابه ـ يعني النظرَ في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان!

قلتُ: وقد أنشدتُ لبعضِ الفُضَلاء: [المتقارب]

كتابٌ أطالعُهُ مُؤْنِسٌ ... أحبُّ إليَّ مِنَ الآنِسَهْ
وأَدْرُسُه فيريني القرونَ ... حُضُوراً وأَعْظَمُهُمْ دارِسَهْ

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخرَ الأُمم، وأطلعنا على أنباء مَنْ تَقَدَّم، لنتَّعظَ بما جرى على القرون الخالية ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ⑧﴾ [الحاقة: ٨] ولنقتديَ بمن تقدَّمنا من الأنبياء، والأئمة الصُّلحاء، ونرجو بتوفيق الله عَزَّ وجلَّ أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نُقِلَ إلينا عنهم، وذلك على رَغْم أنف من عَدِمَ الأدب، ولم يكن له في هذا العلم أَرَب، بل أقام على غَيِّهِ وأكبَّ، والمرء مع من أحبّ.

هذا، وإن الجاهلَ بعلم التاريخ راكبُ عمياءَ، خابطٌ خَبْطَ عَشْواء؛ ينسب إلى مَنْ تقدَّم أخبارَ من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدَبَّر، وإن رُدَّ عليه وَهْمُه لا يتأثر، وإن ذُكِّر فلجهله لا يتذكَّر؛ لا يفرِّق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفةٍ وأمير، وسُلْطان ووزير؛ ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبيٌّ مُرْسَل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصَّدر الأوَّل! الذين بذكرهم

(١) هو أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي الأعور المروزي الفقيه، نزيل مصر، انتقل إلى بغداد وتوفي بسر من رأى سنة ٢٢٨هـ (كشف الظنون ٦/ ٤٩٧).

(٢) الحافظ، شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الكثيرة والرحلات. أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، توفي سنة ١٨١هـ. بهيت (على الفرات) منصرفاً في غزو الروم (الأعلام ٤/ ١١٥).

ترتاح النفوس، ويذهب البُؤس. ولقد رأيتُ مجلساً جَمَعَ ثلاثةَ عشرَ مدرِّساً، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم - وأنا أسمع - ذِكْرُ مَنْ تحرُمُ عليه الصَّدقة؛ وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعُهُمْ: بنو هاشم وبنو عبد المطَّلب. وَعَدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجَّبْتُ من جهلهم؛ حيث لم يفرقوا بين عبد المطَّلب والمطَّلب، ولم يهتدوا إلى أن المطّلب هو عمُّ عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كلِّ لائم، إذ هذا أصلٌ من أصول الشريعة قد أهملوه، وبابٌ من أبواب العلم جهلوه، وَلَزِمَ مِنْ قولهم إخراج بني المطَّلب من هذه الفضيلة. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأَنِفْتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محجَّتها؛ فإنَّ كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفته نسبتها إلى أربابها، وإنْ نَسَبَها خَلَّط فيها وصَرَفَها عن أصحابها. وهو بابٌ واسِعٌ غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زَلَّتْ فيه قَدَمُ كثيرٍ من نَقَلَةِ الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردتُ أَنْ أجمعَ من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حَصَّلْتُه، وأتقنُ فيه ما خَبِرْتُهُ، فَعَمَدْتُ إلى أكبر كتابٍ وُضِعَ في هذا الفن على طريقة المحدِّثين، وهو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله عَزَّ وجلَّ»؛ الذي صنَّفَه الحافظ الثقة أبو القاسم عليّ بنُ الحسن العَسَاكري[1] رحمه الله؛ وهو ثماني مائة جُزْء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائدَ من كتبٍ أخرى جليلة، وأتقنته، ووقَفَ عليه العلماءُ، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخُّر زمانه، وتغيّر خِلَّانه. ثم وقفتُ بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده، الملكِ الناصر صلاح الدين، فوجدتُهما في المتأخِّرين، كالعُمَرَيْن - رضي الله عنهما - في المتقدِّمين؛ فإنَّ كل ثانٍ من الفريقين حذا حَذْوَ من تَقَدَّمه في العَدْل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد. وهما ملِكا بلدتنا، وسُلْطانا خُطَّتنا، خَصَّنا الله تعالى بهما، فوجَبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهما. فعزمتُ على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أُبعد أنهما حُجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين، ومن حذا حَذْوَهُمْ من الأئمة

---

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني صاحب الأنساب، توفي في دمشق سنة ٥٧١هـ (الأعلام ٤/ ٢٧٣).

السَّابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعْجِزَ عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسدَّد. وأخذتُ ذلك من قول أبي صالح شُعيب بن حَرْب المَدَائني[1] رحمه الله ـ وكان أحدَ السادة الأكابر في الحِفْظ والدين ـ قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثَّوْري[2] يومَ القيامة حُجَّةً من الله تعالى على هذا الخَلْق؛ يُقال لهم: إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟! وهكذا أقول: هذانِ حُجَّةٌ على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِلَّهِ دَرُّهُما مِنْ مَلِكَيْنِ تعاقبا على حُسْنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعيّ، شفى الله بهما كلَّ عِيّ، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العُمر ومدَّة الولاية، وهذه نكتة قَلَّ من فَطِن لها ونبَّه عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها؛ وذلك أن نور الدين رحمه الله، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وستين، ووُلد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين. فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنةٍ واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملَكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النوريّة عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، تُمحى فيها السيئة وتُكْتَب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدةٍ معينة لملكين متعاقبين، مع قُرب الشبه بينهما في سيرتيهما، والفضل للمتقدِّم؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محلِّه، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّدَ الأمور بعَدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفَتَح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَن بعده على الحقيقة، سلوكُ تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثرُ جِهاداً، وأعم بلاداً، صبرَ وصابر،

---

(١) شعيب بن حرب البغدادي، أصله من خراسان، سكن المدائن، يروي عن الثوري وشعبة، كنيته أبو صالح، روى عنه أهل العراق، وكان من خيار عباد الله، مات في ولاية محمد الأمين (كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ٣٠٨).

(٢) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الكوفي الثوري الفقيه ولد سنة ٩٧هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ (كشف الظنون ٥/ ٣٨٧).

ورابط وثابر، وذَخَر الله له من الفتوح أنفَسه، وهو فتح الأرض المقدسة. فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشَّاعر: [السريع]

كَـم تَـرَكَ الأوَّلُ لـلآخـر[1]

[البسيط]

وألبسَ الله هاتيكَ العِظامَ، وإن بَلِينَ تحتَ الثرى عفواً وغُفرانا[2]

سقَى ثرًى أُودِعُوه رحمةً ملأَتْ مثوى قبورِهمُ رَوْحاً وَرَيْحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعةٌ من العلماء، والأكابر الفضلاء. فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدِّمَشْقي في «تاريخه»[3] ترجمةً حسنة لنور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، ولأجله تمَّم ذلك الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في «مذيل التاريخ الدُّمشقي» قطعةً صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وصنَّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجَزَرِي ـ عُرف بابن الأثير[4] ـ مجلَّدةً في الأيام الأتابكية كلها، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصَّلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرِّعة عنها.

وصنَّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المَوْصلي ـ عُرِف بابن شَدَّاد[5] ـ قاضي حلب مجلَّدة في الأيام الصَّلاحية،

---

(١) صدره:

يـقـول مـن تـقـرع أسـمـاعـه

والبيت لأبي تمام في ديوانه ٢/ ١٦١.

(٢) البيتان لأسامة بن منقذ في ديوانه ص٣٠٩.

(٣) أي كتاب «تاريخ مدينة دمشق».

(٤) هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، عز الدين، أبو الحسن الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير، الفقيه المؤرخ الشافعي ولد سنة ٥٥٥هـ، وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ. من تصانيفه: «أداب السياسة»، «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، «تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل»، «تحفة العجائب وطرفة الغرائب» في التاريخ، «الجامع الكبير» في علم البيان، «كامل التواريخ» «كتاب الجهاد». «اللباب في تهذيب الأنساب»، وهو تلخيص أنساب السمعاني (كشف الظنون ٥/ ٧٠٦).

(٥) هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ثم الحلبي. القاضي بها، المعروف بابن شداد الفقيه الأديب الشافعي، ولد سنة ٥٣٩هـ، وتوفي بحلب سنة ٦٣٢هـ، من تصانيفه: «الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة»، «دلائل الأحكام فيما يتعلق بالأحاديث المستنبعة منها الأحكام»، «فضائل الجهاد»، «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» =

وساق ما تيسَّر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى.

وصنَّف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني[١] كتابين كلاهما مسجوعٌ متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما «الفتح القدسي»، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. والثاني «البرق الشَّامي»، ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمسمائة إلى سنة وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعةٍ كبيرة من أخبار أواخر الدَّولة النوريّة. إلا أن العماد في كتابيه طويلُ النَّفَس في السَّجْع والوصف، يُمِلُّ الناظر فيه، ويُذْهِلُ طالبَ معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفتُ تلك الأسجاع إلا قليلاً منها، استحسَنْتُها في مواضعها، ولم تك خارجةً عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما ستراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار، من بين تلك الرسائل الطِّوال، والأسجاع المفضية إلى المَلال، وأردت أن يفهم الكلامَ الخاصُّ والعام. واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ممَّا يتعلق بالقَصَص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلَّدات من «الرسائل الفاضلية»[٢]، وعلى جُملةٍ من الأشعار

= «الموجز الباهر في الفروع»، «النوادر السلطانية في سيرة صلاح الدين الأيوبي» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٣ _ ٥٥٤).

(١) هو محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الرجاء حامد بن محمد، عماد الدين أبو عبد الله، الكاتب الأصبهاني الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٩، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧، من تصانيفه: «البرق الشامي» في التاريخ، «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» في ذيل الدمية، «خطفة البارق وعطفة الشارق» في التاريخ، «ديوان دوبيت»، «ديوان الرسائل»، «ديوان شعره»، «زبدةُ النصرة ونخبة العصرة» في التاريخ، «السيل على الذيل لتاريخ بغداد للسمعاني»، «العتبى والعقبى» رسالة في التاريخ، «القدح القسي في الفتح القدسي»، «نحلة الرحلة» في التاريخ، «نصرة الفترة وعصرة القترة» في أخبار السلجوقية، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠٥).

(٢) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف. علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني، مجير الدين أبو علي العسقلاني، الشهير بالقاضي الفاضل، من وزراء صلاح الدين الأيوبي، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «تاريخ مرتب على الأيام»، «سيرة الملك المنصور»، وغير ذلك من المنظوم والمنثور. (كشف الظنون ٥/ ٥٦٠).

العمادية مما ذكره في «ديوانه» دون «بَرْقه»[١]، وعلى كتبٍ أُخَر من دواوين وغيرها، فالتقطتُ منها أشياء مما يتعلَّق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرِّجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات. فاختصرت جميعَ ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدَث في مُدَّتهما من وفاة خليفةٍ أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قَدْر خطير، وغير ذلك. فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلُح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته «كتاب الرَّوضتين في أخبار الدولتين». ولله دَرُّ حبيب بن أوس حيث يقول: [الكامل]

ثُمَّ انقضَتْ تلك السِّنُونُ وأهلُها ... فكأنَّها وكأنَّهم أَحْلامُ[٢]

فصل

[الدولة النورية]

أما الدولة النورية فَسُلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أَتابك وهو أبو سعيد زَنْكي بن قسيم الدَّوْلة آق سُنْقُر التركي. ويلقب زَنْكي أيضاً بلقب والده قَسِيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم. وسنتكلَّم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدمتُ من إجمال أحواله ما يُستدلُّ به على أفعاله:

ذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وأن جدَّه آق سُنْقُر وَلي حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زَنْكي بالعراق، ثم ولي ديار المَوْصِل والبلاد الشامية، وظهرت كفايتُه في مقابلة العدوِّ عند نزوله على شَيْزَر حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها، والمَعَرَّة، وكَفْر طاب، وغيرها من الحصُون الشاميّة، واستنقذَها من أيدي الكُفَّار. فلما انقضى أجلُه قام ابنُه نور الدين مقامَه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. ثم قصد نور الدين حلب فملَكَها، وخرَج غازياً في أعمال تل باشر، فافتتح حصوناً كثيرة من جُملتها قلعة عَزَاز، ومَرْعَش، وتل خالد، وكَسَر إبرنس أَنْطَاكية، وقتلَه وثلاثة آلاف فرنجي معه، وأظهر بحلب السُّنَّة وغيَّر البِدْعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقَفَ الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصَر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورَها وحصَّن سُورها، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح

(١) أي البرق الشامي.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص٢٦٣، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص٧٦.

طُرقَها، ووسَّع أسواقها، ومنعَ مِن أَخْذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرِها. وعاقب على شُرب الخمر، واستنقَذ من العدو ثَغْر بانياس والمُنَيْطِرَة وغيرهما. وكان في الحرب ثابتَ القَدَم، حسن الرَّمي، صَلِيب الضَّرْب[1]، يَقْدُم أصحابَه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بُطُون السِّباع وحواصِل الطير. ووقَفَ رحمه الله تعالى وقُوفاً على المرضى ومُعَلِّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطعَ أمراء العرب لئلا يتعرَّضوا للحُجَّاج، وأمر بإكمال سُور المدينة واستخراج العَيْن التي بأُحُد، وبنى الرُّبُط والجُسور والخانات، وجدَّد كثيراً من قُنيِّ السَّبيل. وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملَكَها. ووقَفَ كُتُباً كثيرة، وحَصَلَ في أسره جماعةٌ من أمراء الفرنج، وكسر الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم، وكان عِدَّتُهم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارِم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتح الدِّيار المِصْرية وكان العدوُّ قد أشرف على أَخْذها، ثم أظهر بها السُّنَّة وانقمعت البِدْعة. وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكتب الدينية، متَّبعاً للآثار النبويَّة، مُوَاظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتِصداً في الإِنفاق، متحرِّياً في المطاعم والملابس، لم تُسمع منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمةُ حقٍّ يسمَعُها أو إرشاد إلى سُنَّةٍ يتبَعُها.

وقال أبو الحسن بن الأثير[2]: قد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدِّمين قبل الإِسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادِل نور الدين، ولا أكثر تحرِّياً للعدل والإِنصاف منهُ. قد قَصَرَ ليلَه ونهاره على عدلٍ ينشرُه، وجهادٍ يتجهَّز له، وَمَظْلمة يُزيلُها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يُوليه، وإنعام يُسْديه. ونحن نذكر ما نعلمُ به محلَّه في أمر دنياه وأُخراه، فلو كان في أُمَّة لافتخرَتْ به، فكيف بيتٌ واحد؟

[زهد نور الدين وعبادته]

أما زهده وعبادَتُه وعِلْمه فإنَّه كان مع سَعَة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يَلْبَسُ ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا مِنْ مِلْك كان له قد اشتراه مِن سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المُرصدة لمصالح المسلمين؛ أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحِلِّه، ولم يتعدَّه إلى غيره

(١) صليب الضرب: أي شديدة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ١٠/٥٦ ـ ٥٧ (طبعة دار الكتب العلمية).

البتّةَ، ولم يلبس قط ما حَرَّمه الشَّرع من حريرٍ أو ذهبٍ أو فِضَّةٍ. ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يحُدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كُلُّ الناس عنده فيه سواء.

حدّثني صديقٌ لنا بدمشق كان رضيعَ الخاتون ابنة معين الدِّين[1]؛ زوجة نور الدين، ووزيرَها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختصِّ به، وتقوم في خِدْمته لا تتقدَّم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختصُّ بها، وينفرد هو، تارةً يطالعُ رِقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتابٍ أتاه ويجيب عنهما. وكان يصلي فيطيل الصَّلاةَ، وله أورادٌ في النهار، فإذا جاء الليل وصَلَّى العِشاء ونام، يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكْرة، فيظهر للركوب ويشتغِلُ بمهامِّ الدولة. قال: وإنها قلَّت عليها النفقة، ولم يكفها ما كان قرَّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها. فلما قلتُ له ذلك تنكَّرَ واحمرَّ وجهه، ثم قال: من أين أُعطيها؟ أما يكفيها مالُها! والله لا أخوضُ نارَ جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مُرَصَّدَةٌ لمصالحهم، ومُعَدَّة لفتقٍ إن كان من عدوِّ الإسلام، وأنا خازنُهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتُها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدرٌ قليل[2].

قال ابن الأثير[3]: وكان رحمه الله، لا يفعل فعلاً إلا بنيّة حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصَّالحين، كثير العبادة والورع، شديدُ الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّبُ الخيلَ لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخطِّ يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبَطَرُ، إنما نحن في ثَغْر، العدو قريبٌ منا،

---

(١) هو معين الدين أنر. قال ابن الأثير الجزري في الكامل في التاريخ ٩/ ٣٦٤: توفي معين الدين آنر سنة ٥٤٤هـ. وهو نائب أبق صاحب دمشق، وهو كان الحاكم والآمر إليه، وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها.

(٢) في «الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٥٧: ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينار، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

(٣) المرجع السابق.

وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذْ لا بدّ من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً[1] لا قُدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكرّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامها وتتعوَّد سُرعَة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يَفْعَلُه بنيَّةٍ صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القُرُبات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنيَّة صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكي لي عنه أنَّه حُمل إليه من مصر عِمامة من القصَب الرفيع مُذْهبة، فلم يحضرها عنده، فَوصِفَتْ له فلم يلتفت إليها. وبينا هم معه في حديثها، وإذا قد جاءه رجل صوفيّ، فأمر بها له، فقيل له: إنها لا تصلُح لهذا الرجل، ولو أُعطي غيرها كان أنفع له. فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أُعَوَّض عنها في الآخرة. فسُلِّمت إليه، فسار بها إلى بغداد، فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت: قرأتُ في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المُعْطَى إياها قال: أعطاها لشيخ الصُّوفية عماد الدين أبي الفتح بن حَمُّويه[2] بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى هَمَذَان، فبيعت بألف دينار.

قال ابنُ الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين عليُّ بن السُّكَّري ـ وكان خصيصاً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصِّبا وأنس به، وله معه انبساط، قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدَّمَنا الظِّل، فلما عُدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي والتفتُ ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا؛ تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها.

قلتُ: رضي الله عن ملكٍ يفكر في مثل هذا. وقد أُنشدتُ بيتين في هذا المعنى: [الرمل]

مَـثَـلُ الـرِّزْقِ الـذي تـطـلـبُـه ... مَـثَـلُ الـظِّـلِّ الـذي يـمـشـي مَـعَـكْ

---

(١) الجمام: الراحة. وجم الفرس يجم جماً وجماماً: ترك فلم يركب.

(٢) هو عمر بن علي بن محمد بن حموية، ولّاه نور الدين خوانق الشام، وكان يحترمه ويحبه ومات سنة ٥٧٧هـ (انظر المذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦١٧هـ).

أنــتَ لا تــدركــهُ مــتَّــبــعــاً   فــإذا ولَّــيــتَ عــنــه تَــبــعَــكْ

قال ابن الأثير: وكان - يعني نورَ الدين - رحمه الله، يصلّي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر ويقرأ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب: [الكامل]

جَمَعَ الشَّجَاعة والخشوع لربِّه   ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ليس عنده تعصُّب[1]، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباع سُنَّة العَدْل والإِنصاف، وتَرْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية: هَمُّ أحدهم بطنُه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه «ومَنْ سَنَّ سُنَّة حسنةً كان له أَجْرُها وأجر مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[2].

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبيَّ الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيِّد الزَّاهدين في زمانه. ونبيُّنا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشَّام إلى العراق، وهو على الحقيقة سَيِّد الزاهدين. قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها.

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً؛ فمن عدله أنه لم يترك في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْساً[3] ولا عُشْراً، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والمَوْصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المَكْس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، وهذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرَّى العدل وينصفُ المظلوم من الظَّالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ ولا أمير. فلا جَرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغَرْبها.

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٥، والزكاة حديث ٦٩، والنسائي في الزكاة باب ٦٤، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخلون البلد من التجار، جمعه: مكوس.

[عدل نور الدين]

قال: ومن عدله أنه كان يُعظِّم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنساناً يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحُكْم يحاكمني على المِلْك الفلاني. فعاد إليه ولم يتجاسر يعرِّفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يَكْتُمُه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجُوكان[1] من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو حينئذٍ كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[2]، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى خصمه وخاصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبتَ المِلك لنور الدّين، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر: هل ثبتَ له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلك الذي قد حاكمني عليه، وهو له دوني، وقد كنت أعلم أن لا حقّ له عندي، وإنما حضرتُ معه لئلا يظن بي أني ظلمتُه، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبتُه له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة إلى الحق، الواقفة معه.

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحُكْم جماعةٌ من المتقدِّمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في «التاريخ الكبير»[3]، وفيه عن عبد الله بن طاهر[4] قريبٌ من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمضِ إليه. وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدْعِيَ مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجِّباً، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجُّبه، وقام رحمه الله

---

(١) الجوكان: هو المحجن (وهو العصا المعوجة كالصولجان) الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً (انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

(٢) توفي سنة ٥٧٢هـ. انظر الجزء الثاني.

(٣) التاريخ الكبير، هو مختصر تاريخ ابن عساكر. انظر ترجمة المؤلف في «المذيل على الروضتين» حين يعدد مؤلفاته.

(٤) عبد الله بن طاهر، ولي إمرة الشام، وولاه المأمون خراسان، توفي سنة ٢٣٠هـ (وفيات الأعيان ٣/ ٨٣ ـ ٨٩).

مسرعاً، ووجد في أثناء طريقه ما مَنَعه من العبور من حَفْر جُبٍّ بعض الحشوش واستخراج ما فيه، فوكّل مِن ثَمَّ وكيلاً، وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع.

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظِّنة والتُّهَمَة، بل يطلب الشهود على المُتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبةَ الشرعية من غيرِ تَعَدٍّ. فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدَّة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظِّنة، وأمِنت بلاده مع سَعَتها، وقلَّ المفسدون ببركة العَدْل، واتباع الشرع المُطهَّر.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر بردِّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردَّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادلُ عنه فقولوا له عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرةً أخرى، فرآه، فأنكر على النُّوَّاب، وقال: ألم أقل لكم: يُعاد هذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قولَ كمال الدين، فردَّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته ـ وهو من أعجب ما يُحكى ـ أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخَلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلّا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيَّب قلبه ووهبَه شيئاً وأنصَفَه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنه تعلَّمناه.

قلتُ: ومن عدله أن بنى دار العَدْل. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف، وسمَّاها دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه ـ وفيهم أسد الدين شِيركُوه، وهو أكبر أميرٍ معه، وقد عَظُمَ شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في الملك ـ واقتنوا الأملاك

وأكثروا، وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شِيركُوه، فأنهى الحالَ إلى نور الدين، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في مِلك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شِيركُوه. فعرَّفه الحال، فسجَدَ شكراً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنَها، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها، وإلى هذه السياسة ما أَسَدَّها، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله وحسنُ نيته.

[شجاعة نور الدين وحسن رأيه]

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبرُ الناس في الحرب وأحسنُهم مكيدةً ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يُضرب المثل في ذلك. سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أُحصيهم أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسنَ منه، كأنه خُلِقَ عليه لا يتحرَّك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛لم يُرَ جُوكانه[1] يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا تُرَى والجُوكان فيها، بل تكون في كُمِّ قَبَائه استهانةً باللعب. وكان إذا حضَرَ الحرب أخذ قوسين وتَرْكَشَيْن[2]، وباشر القتال بنفسه،

(١) تقدم التعريف بالجوكان قبل قليل.

(٢) التركاش: لفظ فارسي الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب (التعريف بمصطلحات الصبح ٧٦، ونزهة النفوس ٣/ ٢٥١).

وكان يقول: طالما تعرَّضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين النَّيسَابوري[1] الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادُهم، ولئن أُصبتَ ـ والعياذ بالله ـ في معركة لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقالَ له هذا؟! قبلي من حَفِظَ البلاد والإسلام؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخِدَاع مع الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ وأكثر ما ملَكه من بلادهم به. ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأَرْمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله، حتى جعله في خدمته سَفَراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسلك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألُّف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمتنا وساعدَنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه غيرَ هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسع لا يُمكن رقعه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلَّف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضاً يثبت أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحَهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوَهْن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عِياناً.

---

(١) هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي نزيل دمشق، يعرف بالنيسابوري، ولد سنة ٥٠٥، وتوفي سنة ٥٧٨، من تصانيفه عقيدة أهداها للملك صلاح الدين الأيوبي. «الهادي في الفروع» (كشف الظنون ٦/ ٤٢٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

[ما فعله نور الدين من المصالح]

قال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثيرٌ عظيم؛ من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشَّام جميعها وقلاعها، فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين، وشَيْزَر، ومَنْبِج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمحُ به النفوس. وبنى أيضاً المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشَّافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعُه في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلَّاء[1] رحمه الله؛ وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا ولَّيت العمل بعضَ أصحابي من الأجناد والكُتَّاب اعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفِقْه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم؛ إما بزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد؛ ومن أعظمِها البيمارَسْتان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير.

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليَقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْفٌ على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي. ورُوي أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي، والله أعلم.

وبلغني[2] في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره

---

(١) الشيخ عمر الملّاء: هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ. له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

(٢) وبلغني: هو من قول أبي شامة، وليس من قول ابن الأثير.

بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نورُ الدين أمراءه، فكلٌّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع لهم الحُسْنَيَيْن، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان، ومنعَ المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات في الطرق، فأَمِنَ الناس وحُفِظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ[1] من البرد والمطر. وبنى أيضاً الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرِهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعاً.

قال: وبنى الرُّبُط والخانقاهات[2] في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرَّ عليهم الإِدْرارات الصالحة، وكان يُحْضِرُ مشايخَهُم عنده، ويقرِّبُهُمْ، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته، ويُقبلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر؛ فقصدوه من البلاد الشَّاسعة، من خُرَاسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النَّيْسَابوري[3]؛ الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوماً عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكرها؛ وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئةَ هذا ـ إن صحَّتْ ـ

---

(١) الكنّ: الستر.

(٢) الخانقاه: كلمة فارسية معناها «بيت» وأصلها: «خونقاه» أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (المقريزي، الخطط ٢/ ٤١٤).

(٣) قطب الدين النيسابوري: تقدمت ترجمته قبل قليل.

مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإِحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتبَ للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلِّميهم الجرايات الوافرة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعلٌ لم يُسبق إليه. بلغني من عارفٍ بأعمال الشام أن وقوفَ نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمانٍ وستمائة ـ كل شهر تسعة آلاف دينار صورية[1]، ليس فيها مِلْك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزَنَ ثمنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمَه.

[هيبة نور الدين ووقاره]

قال: وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان، كما قيل: «شديد في غير عُنْفٍ، رقيق في غير ضَعْف». واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخِدْمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شِيركُوه، ومجد الدِّين بن الداية، وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصُّوفي أو الفقير يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقربُ الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدَهم شيئاً يقول: إنَّ هؤلاء لهم في بيت المال حقٌّ، فإذا قَنِعُوا منا ببعضه فلهم المِنَّةُ علينا. وكان مجلسه كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تُؤْبنُ فيه الحُرَمُ[2]. وهكذا كان

---

(١) الدينار الصورية: أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٢) الحديث رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/ ١٧ بلفظ: في وصف مجلس رسول الله ﷺ: لا تؤبن فيه الحرم. أي لا يذكرن بقبيح، كان يصان مجلسه عن رفث القول. يقال: أَبَنْتَ الرجل آبنه إذا رميته نحلة سوء، فهو مأبون، وهو مأخوذ من الأُبَنِ، وهي العُقَدُ تكون في القسي تفسدها وتعاب بها.

مجلسُه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدَّى هذا. بلغني أن الحافظ ابنَ عساكر الدِّمَشْقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللَّغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حَدَّ عليه، فشرع يحدِّث صلاحَ الدين كما كان يحدِّث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدِّثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مُدَّة لا يحضُر المجلس الصلاحيّ، وتكرَّر من صلاح الدين الطلب له، فحضَر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزَّهتُ نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة؛ لا يُسْتَمع إلى قائل، ولا يُرَدُّ جواب متكلِّم، وقد كنا بالأمس نحضُر مجلسَ نور الدين، فكنا - كما قيل - كأنما على رؤوسنا الطَّير، تعلونا الهيبةُ والوقار، فإذا تكلَّم أنصتنا، وإذا تكلَّمْنا استمعَ لنا. فتقدَّم صلاحُ الدِّين إلى أصحابه أنه لا يكونُ منهم ما جَرَت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحوالُه جميعها رحمه الله مضبوطةً محفوظة.

[حفظه لأصول الدين ومحاربته للبدع]

وأما حِفْظ أُصول الدِّيانات، فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يُمكِّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحقّ، ومتى أقدم مُقدمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعته. وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطُّرق من لصٍّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظُ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل!

قال: وحُكي أن إنساناً بدمشق يُعرف بيوسف بن آدم، كان يُظهر الزُّهد والنُّسُك وقد كَثُرَ أتباعُه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه. فطيف به في البلاد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء مَنْ أظهر في الدين البِدَع. ثم نفاه من دمشق، فقصدَ حَرَّان، وأقام بها إلى أن مات.

قال: ويسوق الله القِصَار الأعمار إلى البلاد الوَخِمة[١].

[قدوم عماد الدين الكاتب إلى دمشق]

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه: «البرق الشَّامي»[٢] أنه قَدِمَ دمشق

(١) وخم المكان: كان غير موافق لأن يسكن، واستوخم المكان: استثقله ولم يوافقه سكنه.

(٢) طبع جزآن فقط من كتاب البرق الشامي وهما الثالث والخامس. طبعتهما مؤسسة عبد الحميد شومان عام ١٩٨٧. فالجزء الثالث يعالج الفترة الزمنية الممتدة ما بين أول سنة ٥٧٣هـ حتى ربيع أول سنة ٥٧٥هـ. وقد حققه الدكتور مصطفى الحياري. والجزء الخامس يعالج الفترة =

في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشَّام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعفّ الملوك وأتقاهم، وأثقبهم رأياً وأنقاهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيِّباً، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة، وجدّه منزَّه عن الهَزْل، ونوّابه في أمن من العَزْل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة[1] مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة، والإنصاف صافٍ، والإسعاف عاف، وأزر الدين قويّ، وظمأ الإسلام رَوِيّ، وزَنْد النُّجْح وَرِيّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشِّرك مخذول، وللتُّقى شروق، وما للفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب الكفر، وبلغ الضُّر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفّى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدَّد سلوكهم، وصان الثغور منهم، وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأئمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات للصُّوفية، وكثَّرها في كل بلد وكَثَّر وقوفَها، وقرَّر معروفها، وأدنى للوافدين من جِنان جنابه قطوفها، وأجَدَّ الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق[2]، وأمر في الطرقات ببناء الرُّبُط والخانات، وضافت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها.

= الزمنية ما بين أول ٥٧٨هـ و٥٧٩هـ. وهو من تحقيق الدكتور فالح صالح حسين. وكتاب «البرق الشامي» يعالج بمجمله الفترة الزمنية الواقعة بين سنتي ٥٦٢هـ و٥٨٩هـ. على عدة أجزاء لم يبق منها سوى الجزأين الثالث والخامس كما هو معروف. وتختلف الآراء في عدد أجزاء الكتاب، إذ يرد أنها تقع في سبعة مجلدات، أو ستة مجلدات، ويذكر ياقوت في معجم الأدباء أنه في بضعة مجلدات، بينما يذكر السخاوي في جواهر الدرر أنه يقع في تسعة أجزاء، وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٢٣٩، أنه كتاب كبير في سبع مجلدات.

(١) مصوبة: أي ممطرة، من الصوب، وهو نزول المطر.

(٢) حمى الحقائق: أي حمى ما يحق عليه أن يحميه.

[أوقاف نور الدين وصدقاته]

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين ـ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ـ قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصَّدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخرَاج، وما تحصل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج. قال: وأمرني بِكتْبَةِ مناشير لجميع أهل البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحَسَبْنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصَّدَقة أن يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلِّ محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان برسم نفقة الخاص في كل شهرٍ من جزية أهل الذِّمة مبلغ ألفي قرطيس، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أُجرة خَيَّاطه، وجامكية[1] طباخه، ويستفضل منه ما يتصدَّق به في آخر الشهر. وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرَّف في شيء منه، لا قليلٌ ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة. وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعَيَّن له وقوفاً.

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلدٍ لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد. ومُشاهدة أبنيته الدالَّة على خلوص نيته تغني عن خبرها بالعِيان، ويكفي أسوار البُلْدان فضلاً عن الرُّبُط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طَوْلِه طُول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعَّاظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النَّيْسَابوري[2]، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر[3]، وبسط له في كل أسبوع المنبر،

---

(١) الجامكية: من الفارسية: جامة بمعنى اللباس. والجامكية في الاصطلاح الجزية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية منحة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٥٩).

(٢) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر: هو عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، المتوفى سنة ٥٦٧هـ. أما أبو النجيب فهو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه (بفتح العين وضم الميم وتشديدها) ابن سعد الصديقي البكري، ضياء الدين، أبو النجيب =

وشاقه وعظُه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شَوَرْوَه، وما أيمنَ تلك الأيام، وأبركَ تلك الشَّتْوة.

قال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشِّحَن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين بن الشَّهْرَزُوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس على الشريعة.

قال: ولم يكن لمال المواريث الحَشْرية[1] حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثُلُث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفَّرَه نوابه وكثَّروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرَّفَ بالمعروف. وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلتُ: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله[2] أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج متقلِّداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هُم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والنَّاس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلدٌ السيف وجميع عسكره

= السهروردي، الفقيه الصوفي، كان يدرس ويملي الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد، ولد سنة ٤٩٠هـ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ ببغداد، صنف «آداب المريدين» في التصوف والأخلاق (كشف الظنون ٥/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧. وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٧٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٧٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٥).

(١) المواريث الحشرية: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٣٢: وهي مال من يموت وليس له وارث خاص، بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له.
وقال المقريزي في الخطط ١/ ١١١: وأما المواريث فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم بتوريث ذوي الأرحام وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم واستولت الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، وهي التي يستحقها بيت المال.

(٢) هو الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحَسن الشافعي المعروف بزين الأمناء ابن عساكر. المتوفى سنة ٦٢٧هـ (انظر ترجمته في الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٧هـ).

كذلك. فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم، اتباعاً لما بلغه عن نبيّه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن.

ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القَيْسَراني الشَّاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العَشَّار المكَّاس. وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام. يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها. قرأتُ في «تاريخ إِرْبِل»[1] لشرف الدين بن المُسْتَوْفي[2] رحمه الله: قال المنتجب الواعظ ـ هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، ورد إربل، ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زَنْكي بن آق سُنقُر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملةً من مال فلم يقبلها وردَّها عليه. أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدةً عملها في نور الدين، وحلف أنه سمعها من لفظه ـ: [الكامل]

مـثِّـلْ وقـوفَـك أيـهـا الـمـغـرور ... يـومَ الـقـيـامـةِ والـسـمـاءُ تـمـورُ
إن قـيـلَ نـور الـديـن رحـت مـسـلَّـمـاً ... فـاحـذر بـأن تـبـقـى ومـا لَـكَ نـورُ
أَنَهَيْتَ عن شُرْبِ الخمور وأنت من ... كـأسِ الـمـظـالـم طـافـحٌ مـخـمـورُ
عـطَّـلْـتَ كـاسـاتِ الـمُـدَام تـعـفُّـفـاً ... وعـلـيـكَ كـاسـاتُ الـحـرامِ تـدورُ

(١) تاريخ إربل: لأبي البركات مبارك بن أحمد بن المستوفي الإربلي، وهو كبير في أربع مجلدات سماه «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل» (كشف الظنون ١/ ٢٨١).

(٢) هو المبارك بن أبي الفتوح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، شرف الدين أبو البركات الإربلي، الوزير المعروف بابن المستوفي، المتوفى بالموصل سنة ٦٣٧هـ، ومولده سنة ٥٦٤هـ. له من المصنفات: «أبو قماش» في الأدب جمع فيه من النوادر ما لا يحصى في مجلدين. «إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل»، «ديوان شعره»، «سر الصنيعة»، «كتاب في أحكام النجوم»، «نباهة البلد الحافل بما ورد من الأماثل» وهو كتاب تاريخ إربل، «النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام» في عشر مجلدات وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٣، معجم البلدان ١/ ١٣٨، وفيات الأعيان ٤/ ١٤٧ ـ ١٥٢، الأعلام ٥/ ٢٦٩).

مـاذا تـقـولُ إذا نُـقـلـت إلـى الـبِـلـى ... فَـرْداً وجـاءك مُـنْـكَـرٌ ونـكـيـرُ
وتَـعَـلَّـقَـتْ فـيـك الـخـصـومُ وأنـت فـي ... يـومِ الـحـسـاب مُـسَـحَّـبٌ مـجـرورُ
وتَـفَـرَّقَـتْ عـنـك الـجـنـودُ وأنـت فـي ... ضـيـق الـلُّـحـود مُـوَسَّـدٌ مـقـبـورُ
وَوَدِدْتَ أنـك مـا وَلِـيـتَ ولايـةً ... يـومـاً ولا قـال الأنـامُ: أمـيـرُ
وبـقِـيْـتَ بـعـد الـعـزِّ رَهْـنَ حُـفـيـرةٍ ... فـي عـالـم الـمـوتـى وأنـتَ حـقـيـرُ
وَحُـشِـرْتَ عُـريـانـاً حـزيـنـاً بـاكـيـاً ... قَـلِـقـاً ومـا لَـكَ فـي الأنـام مُـجـيـرُ
أَرَضِـيْـتَ أَنْ تـحـيـا وقَـلْـبُـك دارسٌ ... عـافـي الـخـراب وجـسـمُـك الـمـعـمـورُ
أرضـيـت أن يـحـظـى سـواكَ بـقُـرْبِـهِ ... أبـداً وأنـت مُـبَـعَّـدٌ مـهـجـورُ
مـهِّـدْ لـنـفـسـك حُـجَّـةً تـنـجـو بـهـا ... يـومَ الـمَـعـاد لـعـلَّـكَ الـمَـعْـذُورُ

قلتُ: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحرِّكة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفَّق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خَطِّ الصَّاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جَرَادة[1] في كتاب «تاريخ حلب»[2] الذي صنفه، وسمعتُ من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جَعْبر،

(١) هو عمر ابن القاضي مجد الدين أحمد بن هبة الله بن جرادة العقيلي، كمال الدين، أبو حفص (كذا في كشف الظنون: أبو حفص، وليس أبي القاسم)، المعروف بابن العديم، ولد سنة ٥٨٦هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ. من تصانيفه: «الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة»، «بغية الطلب في تاريخ حلب»، «تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد»، «الدواري في ذكر الذراري»، «رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري»، «زبدة الحلب المنتخب من بغية الطلب»، له «ضوء المصباح في الحث على السماح»، «كتاب الخط وآدابه ووصف طروسه وأقلامه»، «منهاج في الأصول والفروع على مذهب أبي حنيفة»، «الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٧، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٦٦٠هـ).

(٢) هو كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب»، قال الذهبي في العبر: هو من نحو ثلاثين مجلداً، ثم انتزع منه كتاباً وسماه «زبدة الطلب». و«البغية» كتاب كبير في عشر مجلدات. والذيل عليه لأبي الحسن علي بن محمد بن سعد الحلبي الجبريني، المعروف بابن خطيب الناصرية، المتوفى سنة ٨٤٣هـ، رتب الأعيان على الحروف وسماه «بالدر المنتخب في تاريخ حلب»، ثم ذيله موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبراهيم بن محمد الحلبي الشافعي سبط العجمي المتوفى سنة ٨٨٤هـ، وسماه «كنوز الذهب في تاريخ حلب» وضمنه ذكر الأعيان والحوادث معاً. ثم صنف الشيخ محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنفي، المشهور بابن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١، تاريخاً باسم «در الحبب في تاريخ أعيان حلب» ضمنه أعيان المائة التاسعة (كشف الظنون ١/ ٢٤٩).

وقُتِلَ عليها، قصد حلب وصَعِدَ قلعتها، وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرَّعية، وبثَّ العدل، ورفع الجَوْر، وأبطل البدع، واشتغل بالغزو، وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدَّث بحلب ودمشق عن جماعةٍ من العلماء أجازوا له، منهم: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السَّعْدي المِصْري[١]. روى عنه جماعةٌ من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد[٢]، وأبي البركات الحسن[٣]، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشَّافعي[٤].

قال: ووقفتُ على رُقعة بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القَيْسَرَاني كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلتُ جميع ما فيها من خطيهما. قال: وكان رحمه الله كتب رقعةً يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله. ونسخة الورقة بخطِّ خالد: أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلَّغه آماله في نفسه وذُرِّيَّته، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنِّه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرُّقعة، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه، والقُرْب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير. وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدَك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المُعْتَصِم بقوَّتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنْكي بن آق سُنْقُر، ناصرَ أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذبٌ ولا تزيُّد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرُّقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي ألَّا يُكذب على المنبر، أنا بخلافِ كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم! الذي كتبتَ جيد هو، اكتب به نسخ حتى نسيِّرَه إلى جميع البلاد. وكتب في آخر الرقعة: ثم يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحقَّ حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفِقْه؛ من هذا الجنس.

---

(١) توفي سنة ٥٦١هـ. (طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٢٤).

(٢) هو تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن الحسن، المتوفى سنة ٦١٠هـ. ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٦١٠هـ.

(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٤) هو فخر الدين ابن عساكر، كان شيخ الشافعية في الشام، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٦٢٠هـ.

قال: وحدّثني والدي[١] قال: استدعانا نور الدين أنا وعمُّك أبو غانم[٢] وشرف الدين بن أبي عَصْرُون[٣] إلى الميدان الأخضر وأشهدَنا عليه بوقف حوانيت على سور حِمْص. فلما شهدنا عليه التفتَ إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البِرِّ والخير، دلُّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال شرف الدين بن أبي عَصْرُون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحدٍ بعده فعل خير إلا وقد سبقَه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر، فمات بها، وخلَّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً. فكتب بعضُ مَنْ بحلب إلى نور الدين يذكر له أن قد مات هاهنا رجل تاجرٌ موسر، وخلَّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين. وحسَّن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصَّغير، ويُرضى منه بشيء، ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رُقْعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمَّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً.

وحدّثني الحاج عمر بن سُنْقُر عتيق شاذبخت النُّوري قال: سمعت الطَّواشي[٤] شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسُنْقُرجا واقفَيْنِ على رأس نور الدين وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكّر فكراً عظيماً، وجعل ينكث بأصبعه في الأرض. فتعجَّبنا من فكره وقلنا: تُرى في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فَطِنَ بنا، فرفع رأسه فقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً.

---

(١) هو أحمد بن هبة الله بن أبي غانم، أبو الحسن بن العديم، كان يخطب بالقلعة في حلب أيام نور الدين، تولى القضاء سنة ٥٧٥هـ. وعزله صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ، لأنه حنفي المذهب، والدولة شافعية، توفي سنة ٦١٣هـ. (معجم الأدباء ١٦/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) أبو غانم: هو محمد بن هبة الله بن أبي غانم، خطيب جامع حلب، توفي سنة ٦٢٨هـ (معجم الأدباء ١٦/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٣) هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، نزيل دمشق، ولد سنة ٤٩٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥، من تصانيفه: «إرشاد المغرب في نصرة المذهب»، «الانتصار لمذهب الشافعي»، «التنبيه في معرفة الأحكام»، «تيسير في الخلاف»، «الذريعة إلى معرفة الشريعة»، «رسالة في نفي قضاء الأعمى وجوازه»، «صفوة المذهب من نهاية المطلب لإمام الحرمين»، «فتاوى» «فوائد المهذب»، «مأخذ النظر» مختصر في الفرائض، «مرشد في الفروع»، «مسلسلات» في الحديث، «الموافق والمخالف». (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٤) الطواشي: هو الخادم من خواص السلطان، وكان للطواشي في دولته المكانة الجليلة، ومن الطواشية من كان أرباب الوظائف الخاصة بالسلطان (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١ ـ ٥٥٢).

فقال: بحياتي قولا لي. فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والٍ ولّيتُهُ أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم ـ وإلّا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قِصَّة ترفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعاها إليّ.

وسمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم[١] قال: كان نور الدين ينفّذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلّاء[٢] شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قَدِمَ المَوْصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلّاء. قال: وكان نور الدين لما صارتْ له المَوْصِل قد أمر كُمُشْتِكِين؛ شِحْنة المَوْصِل ألا يعمل شيئاً إلا بالشَّرْع إذا أمره القاضي به، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلّاء. قال: فكان لا يُعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية. فجاء أكابر الدَّوْلة وقالوا لكمشتكين: قد كَثُرَ الدُّعّار وأربابُ الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصَّلْب، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلتَ له في ذلك. فقال لهم: أنا لا أكتبُ إليه في هذا المعنى، ولا أجسر على ذلك، فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتبَ إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعّار والمفسدين وقُطّاع الطريق قد كثروا، ويُحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مالُ إنسانٍ في البرية مَنْ يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخَلْقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعةً، وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شَرَعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجةٌ إلى زيادةٍ على ما شَرَعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر المَلّاء أهلَ المَوْصِل، وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزّاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد!

وسمعت صقر المُعَدَّل[٣] يقول: سمعت مقلَّداً ـ يعني الدَّوْلعي ـ يقول: لما مات الحافظ المُرادي[٤]، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمنا من

---

(١) هو ابن شداد، تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) هو صقر بن يحيى، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٦٥٣هـ.

(٤) هو علي بن سليمان بن أحمد المرادي، القرطبي الشافعي، فقيه محدث، توفي في حلب سنة ٥٤٤هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٨٧ ـ ١٨٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون، وكان بالمَوْصِل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن نستدعي القُطْبَ النَّيْسَابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدَّس، ثم عاد إلى بلاد العَجَم، فوقع بيننا كلامٌ بسبب ذلك، ووقعت فتنةٌ بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعةَ الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجدُ الدِّين ـ يعني ابنَ الدَّاية ـ عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناءِ المدارس إلا نَشْرَ العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسنُ ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطَّائفتين، ونستدعي شرفَ الدين بن أبي عَصْرُون، وقطبَ الدين النَّيْسَابوري. فاستدعاهما جميعاً، وولَّى مدرسة ابن أبي عَصْرُون لشرفِ الدين، ومدرسة النَّفَّري لقُطْب الدين.

[نظر نور الدين في أمور الرعية]

قال: وعلقتُ أيضاً من خَطِّ فقيهٍ كان معيداً بالنِّظَامية يقال له: أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأَشْتَرِي[1] ـ وكان ورَدَ دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة ـ قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العَدْل للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً للثواب والزُّلْفَى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلِّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويَعْجزُ الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشَّريعة، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشَّريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروفٌ إلى مصالح النَّاس، والنظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرُّبُط والمدارس والمساجد حتى أن بلاد الشَّام كانت خالية من العلم وأهله،

---

(١) هو بنجير بن علي بن بنجير، أخذ عن الإمام أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكروخي الهروي المتوفى سنة ٥٤٨هـ. توفي بنجير سنة ٥٧٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٥).

وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصُّوفية، لصَرف همته إلى بناء المدارس والرُّبُط وترتيب أمورهم، والنَّاس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أَوْعَدَ عفا، وإذا تحدَّث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى. ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحدٌ من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعةٍ يُعتمد على قولهم إنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصُّوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القُدْس للزيارة حكايةً عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سِرٌّ؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جُنْده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤْله، وما يردُّ يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدّثنا الشَّيخ داود المَقْدِسي، خادم قبر شُعَيْب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرتُ في دار العَدْل في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَةَ، فقلت في نفسي: هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمةُ الخير معروف بالسَّداد والصَّلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البَيَان[١]. وكان قد أُودِعَ عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودِع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالرَّدِّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حُكْمَ الشَّرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل

(١) أبو البيان: هو نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، شيخ الطائفة البيانية المنسوبة إليه بدمشق، كان إماماً عالماً زاهداً، توفي في ربيع الأول سنة ٥٥١هـ. قال ابن السبكي في تاريخه: له تصانيف مفيدة ومجاميع حسان نظماً ونثراً (كشف الظنون ٦/ ٤٨٩).

المودِع يشنِّعُ عليه ويقول: إنه حلف كاذباً. ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمُّس[1] وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومَنِ الذي يقدر أن يقول في حقي هذا. ويتعرَّض بالتماسه من الملك العادل التقدُّم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جَعْبته في دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك العادل: أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؟ فإذا كان هو يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز، فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكونَ مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس كان ستونَ منها بدينار، فصار سبعةٌ وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر، تارةً ستين بدينار، وتارةً سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدَّنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليَّة. فسكت ساعة وقال: إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنّي خَرَّبت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ على أُجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصُّوفي؛ وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأُجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه.

---

(١) التنمّس: أي النميمة والاحتيال.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي[١] قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكَرْدَري[٢] قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحْضِر الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعضُ التجار، وادَّعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكَرْدَري لسويد المذكور: امضِ إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْه أنه حضر شخصٌ يطلب حضورَه. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخِزَنْدار فوجده، فتقدَّم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي ـ وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين ـ وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخِزَنْدار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين الكَرْدَري وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: ٥١]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امضِ إلى القاضي تاج الدِّين، وسلِّم عليه وقل له: إني جئتُ إلى هاهنا امتثالاً لأمر الشَّرْع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجَّهَتْ عليَّ يمين أحضر إن شاء الله. قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين، فقال الكَرْدَري: قد توجهت اليمين فليحضر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

---

(١) هو عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب بن الحسين الهاشمي، افتخار الدين الحلبي الحنفي المتوفى سنة ٦١٦هـ. له «شرح الجامع الكبير للشيباني» في الفروع، في مجلدات (كشف الظنون ٥/ ٦٢٢)، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٦١٦هـ.

(٢) هو عبد الغفور (وقيل عبد الغفار) بن لقمان بن محمد الخوارزمي الكردري، تاج الدين، أبو المفاخر، الفقيه الحنفي، قاضي حلب، المتوفى بها سنة ٥٦٢، من تصانيفه: «أصول الفقه»، «الانتصار لأبي حنيفة في أخباره وأقواله»، «حيرة الفقهاء في المسائل التي تحير في فهمها العلماء»، «شرح الجامع الصغير للشيباني»، «شرح الجامع الكبير» أيضاً، «شرح الزيادات» أيضاً للشيباني، «كتاب في بيان ألفاظ الكفر»، «المفيد والمزيد في شرح التجريد للكرماني» (كشف الظنون ٥/ ٥٨٧).

[إبطال نور الدين للمكوس]

سمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك النَّاصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شِيركُوه ـ وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ـ فقال: امضِ وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذْ رأيه في ذلك. قال: فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لي. فقال: امض وقل له: يا مولانا إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغَزَاة وخروج العساكر؟ فقال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعِدْه عليه. فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فعدت إلى نور الدين، فأنهيت إليه ما قال لي عمي، فقال: امض إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج. قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال. فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبِّطَه عن ذلك، فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مُدَّة، ثم أمضى ما كان عَزَمَ عليه.

قال لي صقر بن يحيى[1]: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأنَّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين، فتمعَّر[2] وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعتُ عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبتُّ عليكم ما أثبته الله تعالى عليكم. قال: فكتبَ موفق الدين توقيعاً.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه[3] يقول: سمعت أبي يقول: لما كسر نور الدين؛ يعني كسرة البقيعة، تكلَّم البرهان البَلْخي[4] فقال: أتريدون أن تُنْصَروا وفي عسكركم الخمور والطُّبول والزمور! كلا. وكلاماً مع هذا. فلما سمعه

---

(١) هو صقر المعدّل، تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٢) تمعّر: أي تغيّر وعلته الصفرة.

(٣) هو شيخ ابن العديم، وتلميذ أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»، توفي خليفة في حلب سنة ٦٣٨هـ. (الجواهر المضيئة ٢/ ١٧٦).

(٤) هو علي بن الحسن بن محمد، برهان الدين، أبو الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨هـ. وسيذكره المؤلف في وفيات سنة ٥٤٨هـ. (مرآة الزمان ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٦، الجواهر المضيئة ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٢).

نور الدين قام، ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الإفرنج.

وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النُّوري[(١)] وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه ـ يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يَلْبَس في الليل مِسْحاً، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحمِ العَشَّار المكَّاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سيَّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدَّم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا من التُّجَّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه؛ يعني من أموالهم، فتقدَّم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدِّين حين خرج لأخذ شَيْزَر خرج أبو غانم بن المنذر صحبتَه، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسِنْجار والرَّحْبة وعَزَاز وتل باشر وعِدَاد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تَقَرَّبَ به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن عَلِمَ ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفَّار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفةً بالمسلمين المثاغرين[(٢)]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنَهُمْ بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأعاد عليهم ما اغتُصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمَريَّة، وأقرها في الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظَّلَمة المتقدِّمين، واسترجعه بسيفه من الكَفَرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر، وهدم أركان التعدِّي، وأقر الحق مقرَّه. لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

(١) هو إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري التونسي الصوفي الحنفي، شمس الدين، أبو طاهر. من تلاميذ الشيخ محيي الدين العربي. توفي في حدود سنة ٦٤٦. صنف: «تحفة التدبير لأهل التبصير» في الكيمياء، «شرح عمدة الحقائق للنسفي»، «كتاب الصلاة»، «كتاب النجاح من حجب الأشباح في شرح كل مشكل»، «لواقح الأسرار ولوائح الأنوار» في سبعة أجزاء (كشف الظنون ٥/ ٢١٢).

(٢) المثاغرون: أي سكان الثغور.

عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيَّده بنصره، وقمع به عادية الكُفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطَّاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيلٍ غير مُقَاد، وهاربٍ ممنوع الرُّقاد، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٨ ـ ٤٠]. عَلِمَ أنَّ الدُّنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى مُلْكَه الزَّائل بأن قدَّمه أمامه، وجعله ذُخْراً للمَعَاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد، وجادَّةٌ واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]. فصفح لكافَّةِ المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرَائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه، وحَرَّمها على كل متطاولٍ إليها، ومتهافتٍ عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ـ اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيِّه محمد ﷺ ـ في كل سنة من العين مائة ألف وستةً وخمسين ألف دينار، جهة ذلك: حلب خمسون ألفَ دينار، عَزَاز ـ عن مكس جدَّدته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين ـ عشرة آلاف دينار، تل باشر أحد وعشرون ألف دينار، المعرة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة ـ لمَّا استنجد به أهلها واستصرخ مَنْ فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدوِّ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمُّونه الفسة ـ عشرون ألف دينار، حِمْص ستة وعشرون ألف دينار، حَرَّان خمسة آلاف دينار، سِنْجار ألف دينار، الرَّحبة عشرة آلاف دينار، عِدَاد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدَّق به وأجراه في سُبُل الخيرات ووجوه البِرِّ والصَّدَقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقَفَه على المدارس الحنفية والشَّافعية والمالكية والحنبلية وأئمَّتها ومدرِّسيها وفُقَهائها، وما وقفه على آدُر الصُّوفية والرُّبُط والجسور والبيمارَسْتانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز، وما وقفه على فَكَاك الأسرى، وتعليم الأيتام، ومقرِّ الغُرَباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعَبَّاسيين، وما ملَّكه لجماعةٍ من الأولياء والغُزَاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثُّغور حَرَسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدَّم ذكرُها، فإنَّه يضاهي هذا المبلغ وزيادةً عليه، جعل ذلك ذريعةً عند الله تعالى وتقرُّباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغَزَاة والجهاد، واستئصال شَأْفة الكُفْر والعناد، من خزانته المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة، طلباً لما عند الله ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فالواجب على كلِّ

إمام عادل وسلطان قادر أن يَمُدَّه ويَوَدَّه، ويشدَّ عَضُدَه، ويقوِّي عزمه، وينفِّذَ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصلَه بالدُّعاء، آناء اللَّيل وأطرافَ النهار، وكتب خادم دولته وغَذِيُّ نعمَته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبِّدين، وكافَّةِ التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدَّد إلى أغراض الخير تفويقَهُمْ. ليُشعروا بذلك من حضرهم من التُّجَّار، والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار، ليعرفوا قَدْرَ ما أنعم الله به عليه وعليهم ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويمدُّوه بأدعيتهم ويبرؤوا ذمته مما سبق من أَخْذِ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه بِرٍّ، وتجهيزِ جيشٍ، ومعونة مجاهد، وردع كافرٍ ومعاند، فهم شركاؤه في الثَّواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقفَ نور الدين على قوله: ويبرؤوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً، ووعدَه بإقطاعٍ حسنٍ، واتفق موته بعد ذلك.

قلت: ونقلت من خَطِّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخَضِر بن الحسين بن عَبْدَان الأزدي الدِّمَشْقي[1]: وقف المولى نور الدين بُستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليّه بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدَّدها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرَّمَّاحين، المسجد المُعَلَّق بسوق الصَّاغة، مسجد دار البطيخ المعلَّق، مسجد العَبَّاسي بسوق الأحد، مسجد جدَّده نور الدين جوار بيعة اليهود، جامع الصَّالحين بجبل قاسيون. يبتاع بذلك طيب وعود ويُفَرَّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزءٌ واحد، تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صَفَر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو

---

(١) في التكملة للمنذري ١/٩٣: أبو الحسين، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ.

الحسن علي بن محمد بن يحيى القُرَشي[١]، والفقهاء: الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[٢]، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد[٣]، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن الماسح[٤] الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهَّاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي[٥]، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي؛ رئيس دمشق ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء؛ متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصَّائن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والسَّاكت منكم مُصَدِّقٌ للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدونَ به، وعلى هذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم، يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين. فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارَسْتان، وقُنِيُّ السَّبيل وما يجري مع ذلك أن يَقْرَأ عليه بمحضرٍ من

---

(١) هو والد أبي المعالي محمد بن علي بن محمد، المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها. ولد علي بن محمد سنة ٥٠٧هـ. تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة ٥٥٥هـ. وأقام ببغداد حتى توفي سنة ٥٦٤هـ. (وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥١٩).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) هو الخضر بن شبل بن الحسين، عز الدين، أبو البركات، المعروف بابن عبد، ولد سنة ٤٨٦هـ، ودرّس الفقه وأفتى سنة ٥١٨هـ. وكان سديد الفتوى، ودرّس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرّس في المدرسة المجاهدية الجوانية، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج. سمع منه القاسم ابن عساكر، ولزم درسه مرة، توفي سنة ٥٦٢هـ. (مرآة الزمان ٨/ ١٦٨، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٨٣).

(٤) كان فرضياً نحوياً، وله حلقة كبيرة بالجامع الأموي للإقراء والفقه والنحو، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨. طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢١٤). والماسح. هو من يتصدى لقياس أرض الزراعة، وهو فاعل من مسح الأرض يمسحها مساحة إذا ذرعها (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٨).

(٥) كان شيخ الحنابلة في وقته، ولد سنة ٤٩٨هـ، أفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، توفي سنة ٥٨٦هـ، ودفن بسفح قاسيون، (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٣).

المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أن للمصالح دون الوَقْف. فافتتح بالسُّوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارَسْتَان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من وقفِ الجامع؛ لأنه أُحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدَّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالح أيضاً ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشَّامي من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخَوَّاصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتاً متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقَّاعي، وحوانيت اللَّبادين، والتي بحضرة الفَوَّارة، وتحت اللَّبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرْب التَّمَّارين، وحانوت بقنطرة الشَّمَّاعين في الصف الشَّامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلُّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشْتُري بمالِ الوقف والمصالح، وبعضه أُخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أُحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهمَّ المصالح سَدُّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم. فصوَّبوا ما أشار إليه، وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوَهَّاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّي في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون الشَّافعي: لا يجوز أن يُصْرَفَ وقفُ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح،

ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبي عَصْرُون نورَ الدين: هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلّاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرَّصَاص المعمَول على سطح الرواق الشَّامي من الجامع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنْفِقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري.

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرت المجلس المذكور ـ عمره الله وَزَيَّنه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه ـ وشهدت على ما تضمَّنه من المشورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلَّ بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيَّدْته بالحاجة وفراغِ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عَبد الوَهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

فـصـل

[مدائح في نور الدين]

وقد مُدح نور الدين رحمه الله بأشعارٍ كثيرة، وأوصافه فوقَ ما مُدِحَ به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير[1]، وأبو الحسن أحمد بن منير[2]، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةٌ منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أُقدِّم منها شيئاً هنا.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، توفي سنة ٥٤٨هـ. له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٩٦ ـ ١٦٠. وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح، مهذب الدين، أبو الحسين (وليس أبي الحسن، كما سماه هنا المؤلف)، الطرابلسي الشاعر، نزيل حلب، ولد سنة ٤٧٣هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ، ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

قرأتُ في «ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَراني»: كتب إلى نور الدين: سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على مَنْ عصم ثغر العواصم، وخصم بحجَّته الدَّهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوفَ الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العُبَّاد والزُّهّاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مَلَكته[١]، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النَّصْر، وممالك الإسلام متوَّجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأَزِمَّة القهر، ومن رأى الحِكَمَ دارسة فبنى مدارسها، والهممَ يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة[٢] فأمكن من صَهَوَاتها فوارسَها؛ ومن عمر رَبْعَ[٣] السُّنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن مَنْ كان منها على شفى، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيَّام العَدْل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ النَّاسُ به من الزمان توقيع الأمان: [الخفيف]

ذو الـجِـهَـادَيْـنِ مِـنْ عـدوٍّ ونَـفْـسٍ ... فـهـو طـول الـحـيـاةِ فـي هَـيْـجـاءِ
أيـهـا الـمـالـكُ الـذي ألـزم الـنَّـا ... سَ سـلـوكَ الـمـحـجَّـة الـبـيـضـاءِ
قد فَضَحْتَ الملوكَ بالعَدْل لَمَّا ... سِرْتَ في النَّاس سيرةَ الخُلَفاءِ
قاسماً ما مَلَكْتَ في النَّاس حتى ... لقسمت التُّقَى على الأتقياءِ
شيم الصَّالحين في جنَنِ التُّر ... ك[٤] وكم من سكينةٍ في قَباءِ
أنتَ حيناً تقاس بالأسد الوَرْ ... دِ وحيناً تُعَدُّ في الأولياءِ
صاغَك الله من صميم المعالي ... حيث لا نسبة سوى الآلاءِ
وكأَنَّ القَباء منكَ لما ضمَّ (م) ... مِنَ الطُّهْرِ مَسْجدٌ بقُباءِ
أنت إلَّا تكنْ نبياً فما فا ... تَك إلَّا خلائقُ الأنبياءِ
رأفةٌ في شهامةٍ وعفافٌ ... في اقتدارٍ وسَطْوَةٌ في حياءِ
وجمالٌ ممنطقٌ بجلالٍ ... وكمالٌ مُتَوَّجٌ ببهاءِ
وإذا ما الملوكُ خافت سهام الذّ (م) ... مِّ زَرَّتْ عليك درع الثَّناءِ

(١) ملكته: أي عبيده.
(٢) شامسة: شمس اليوم ونحوه شموساً: ظهرت شمسه، أو قويت، وشمست الدابة شموساً: جمحت ونفرت.
(٣) الربع: المنزل والدار والوطن.
(٤) جنن الترك: أي دروع الترك. والجُنن: مفردها جُنَّة، وهي الدرع.

عَجِبَ النَّاس منك أنك في الحر ... بِ شهابُ الكتيبة الشَّهْبَاءِ
وكَأَنَّ السيوفَ من عَزمِكَ الما ... ضي أفادتْ ما عندها من مَضَاءِ
وَلَعَمْرِي لو استطاع فَدَاكَ الـ ... ـقومُ بالأمَّهات والآباءِ

وله فيه: [الكامل]

لـلَّـهِ عَزْمُكَ أي سيفِ وَغى ... طُبِعَتْ مضاربُه على القَهْرِ
ما زُفَّتِ الحربُ العَوَانُ[1] به ... إلَّا انجلتْ عن مَعْقِلٍ بِكْرِ
هل وَجْهُ نور الدين غير سنًى ... صَدَعَ الدُّجى عن خَجْلَةِ البَدْرِ
ملكٌ مهابتُه طليعتُه ... أبداً أمامَ جيوشِهِ تَسْري
كم فَلَّ كيدَهم بصاعقةٍ ... شَغَلَتْ قلوبَهُمُ عن الفِكْرِ
تركتْ حصونَهُمُ سجونَهُمُ ... فالقومُ قبل الأسر في أَسْرِ
عَصَمَ العَواصِمَ فهي ضاحكةٌ ... تجلو الظُّبى ثَغراً على الثَّغْرِ
وإذا سرايا خَيْلِهِ قَفَلَتْ ... نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ
ورمى القِلاعَ بمثلِ جَنْدَلِها ... حتى استكانَ الصَّخْرُ بالصَّخْرِ
يا سائلي عن نَهْجِ سيرتِهِ ... هل غيرُ مَفْرِقِ هَامةِ الفَجْرِ
عَدْلٌ حقيقٌ مَنْ تأمَّلَه ... أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذِّكْرِ
وشهامةٌ في الله خالصةٌ ... عَقَدَتْ عليه تمائمَ الأَجْرِ
ونَدَى يدٍ ما ضَرَّ وارِدَها ... ألَّا يبيتَ مجاورَ البَحْرِ
هذا المخيِّم في ذُرا حَلَبٍ ... وثناؤه أبداً على ظَهْرِ

وله فيه وقد وصف داره: [السريع]

دار تَغَارُ الشَّمْسُ في أفقها ... من حُسْنِها والشمسُ مِغْيارُ[2]
يزأرُ فيها ضَيْغَمٌ ما لَه ... غير سيوف الهندِ أَظْفارُ
تمسي وتُضْحي وهو جارٌ لها ... والله ذو العَرْشِ له جارُ
لسيفه الباترِ من دَهْرِه الـ ... ـجائرِ ما يَهْوَى ويختارُ
قد ملأ الأسفارَ من ذِكْرِه ... نَشْرٌ له في الرَّوْضِ إسفارُ

---

(١) الحرب العوان: الحرب التي يتكرر فيها القتال.
(٢) مغيار: أي شديدة الغيرة.

حَمْدٌ يَضُوعُ الجوُّ من طيبه ... كأنما راويه عَطَّارُ
إنْ خَطَرَتْ في قلبه خطرةٌ ... أجابها ماضٍ وخَطَّارُ(١)
وإن دعا داعيه يومَ الوغى ... سيوفَه لبَّتْه أقدارُ
كأنما صارمه مُرْسَلٌ ... له من التأييد أنصارُ
يا مالك الدُّنيا ولكنَّها ... دنيا لها في الدين آثارُ
ويا جواداً ما لآلائه ... غيرَ فضاء الحمد مِضْمارُ

وله فيه: [الوافر]

تدارك ملَّةَ العربيِّ ذَبًّا ... إلى أنْ عَدَّه منه مَعَدُّ
وحَلَّ ذُرى العَوَاصِم وهي نُهْبَى ... فأجلى الشِّرْكَ حتى ليس ضِدُّ
ثنى يدَه عن الدُّنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زُهْدُ
رأى حَطَّ المكوس عنِ الرَّعايا ... فأهدَرَ قَبْلُ ما أنشاه بَعْدُ
ومدَّ لها رِوَاقَ العَدْلِ شَرْعاً ... وقد طُوِيَ الرِّواقُ ومن يَمُدُّ
وبات وعند باب العَرْشِ منها ... لدولتِهِ دعاءٌ لا يُرَدُّ

وله فيه: [الخفيف]

مَلِكٌ أشبه الملائكَ فَضْلاً ... وشبيه بمالكِ الأمرِ جُنْدُهْ
عَمَّ إحسانُه فأصبحَ يُتْلى ... شكرهُ في الورى ويُدْرَسُ حَمْدُهْ
فَسَقَى الله ذِكْرَه أينما حلَّ (م) ولا فاتَه مِنَ النَّصْرِ رِفْدُهْ

وله: [الكامل]

ضحكت تباشيرُ الصَّباح كأنَّها ... قَسَماتُ نور الدين خير النَّاسِ
المشترِي العُقْبَى بأنْفَسِ قيمةٍ ... والبائع الدُّنيا بغير مِكاسِ
وسرى دعاءُ الخَلْقِ يحرس نَفْسَه ... إن الدُّعاء يُعَدُّ في الحُرَّاسِ
راض الخطوب الصُّمَّ بعد جماحها ... وألانَ من قلبِ الزَّمان القاسي
وأعاد نورَ الحقِّ في مِشْكاته ... وأقام وَزْنَ العَدْلِ بالقِسْطاسِ
واختار مجدَ الدِّين سائسَ مُلْكه ... فحمى الرِّياسة منه طودٌ راسي
فهو الخبيرُ بكلِّ داء مُعْضِلٍ ... يأسو جراحَ زماننا ويواسي
وأذلَّ سُلْطان النِّفاق بعزَّة ... خضعت لها الآساد في الأخياس(٢)

---

(١) الماضي: السيف القاطع، والخطّار: الرمح.
(٢) الأخياس: مفردها خيس، وهو موضع الأسد، وتأتي أيضاً بمعنى المجتمع من كل شجر.

وَعَـرَتْـه أقـرانُ الـخُـطُـوبِ فَـصَـدَّهـا ... ألـوى يـمـارسُـهـا أشـدَّ مِـرَاسِ
ولـو أنَّ فَـيْـضَ الـنِّـيـل فـائـض نَـيْـلِـهِ ... لـم تـفـتـقـر مِـصْـرٌ إلـى مِـقْـيـاسِ
سكَّنْتَ شَغْبَ الدَّهر بعد تخمُّطٍ(١) ... وأَلَنْتَ مِنْ عِطْفيه بعد شِماسِ
وفـتـحـتَ بـابَ الـحـظِّ بـعـد رِتـاجـه ... وأَذِنْـتَ لـلأطـمـاع بـعـد الـيـاسِ
حتـى مـنـحـتَ الـخـلـقَ كـلَّ مَـسَـرَّةٍ ... فـالـنَّـاسُ فـي عُـرْسٍ مـن الأعـراسِ

وله: [الكامل]

سـام الـشَّـآم ويـا لـهـا مـن صَـفْـقَـةٍ ... لـولاه مـا عـنَّـتْ عـلـى يـد سـائـمِ
وَلَشَمَّرَتْ عنها الثُّغور وأصبحتْ ... فيها العواصم وهي غيرُ عواصم
تلك التي جَمَحَتْ على مَنْ راضَها ... ودعوْتَ فانقادَتْ بغير شكائمِ(٢)
وإذا سـعـادتـك احـتَـبَـتْ فـي دولـةٍ ... قـامَ الـزَّمـانُ لـهـا مـقـامَ الـخـادمِ
حـصِّـنْ بـلادك هـيـبـةً لا رهـبـةً ... فـالـدِّرْع مـن عُـدَدِ الـشـجـاع الـحـازمِ
هـيـهـاتَ يَـطْـمَـعُ فـي مـحـلِّـكَ طـامـعٌ ... طـال الـبـنـاءُ عـلـى يـمـيـن الـهـادمِ
كـلَّـفْـتَ هِـمَّـتَـكَ الـسُّـمُـوَّ فـحـلَّـقَـتْ ... فـكـأنـمـا هـي دعـوةٌ فـي ظـالـمِ
وأظـن أنَّ الـنَّـاس لـمـا لـم يَـرَوْا ... عَـدْلاً كـعـدلـك أَرْجَـفُـوا بـالـقـائمِ(٣)

وله: [السريع]

قـلـتَ بـقـولِ الـلَّـهِ لا خـائـفـاً ... مَـعْ حَـكَـم الـقـرآن حُـكْـمَ الِـقـرانْ(٤)
لا رَاقِـبَ الـنَّـجْـم ولا سـائـلاً ... مـا فـعـلَ الـسَّـعْـدَانِ والـنَّـيـرانْ
بـل غِـرْتَ لـلإسـلام حـتـى لـقـد ... دانَ لـه مـن بـالـطَّـواغـيـت دانْ
رُغْـتَ نـوامـيـس نـواقـيـسـهـا ... بـجـلـبـةِ الآذان وقـتَ الأذَانْ
تـمـحـو تـصـاويـر الـدُّمَـى عـن يـدٍ ... تبني المحاريبَ خلالَ المَجَانْ(٥)
هـذا وكـم أنـشـأتَ مـن مِـنْـبَـرٍ ... فـارسُـه فـارسُ سِـحْـرِ الـبـيـانْ
مَـنْ نـال بـالإخـلاص مـا نِـلْـتَـه ... كـان مـن الله مـكـيـنَ الـمـكـانْ
يـا شـائـمـاً بـالـشَّـام صَـوْبَ الـحـيـا ... ودانـيـاً مـن كـلِّ قـاصٍ ودانْ

---

(١) التخمط: الاضطراب.
(٢) الشكائم: مفردها شكيمة، وهي في اللجام، الحديدة المعترضة في فم الفرس.
(٣) القائم: هو المهدي المنتظر.
(٤) القران: هو كسوف الشمس، وهو وجود القمر بين الشمس والأرض.
(٥) المجان: جمع مجن، وهو الترس.

هـذي سُجُوف الـمـلـك مرفوعـةً ... عـن مـلـكٍ أخـبـاره كـالـعِـيَـانْ
أوضـح سُـبْـلَ الـعَـدْلِ مُـفْـتَـنَّـةً ... فـلـلـبـرايـا بـالـدُّعـاء افـتـنـانْ
أَلْـغَـى حـقـوقـاً كـلُّـهـا بـاطـلٌ ... إلـى ضـمـانٍ حـطّ مـال الـضّـمـانْ
عـطـفـاً ورِفـقـاً بـالـرَّعـايـا وإن ... أصـبـح تـأديـبَ مـلـوكِ الـزَّمـانْ
كـم بـيـنَ مَـنْ نَـامَ عـلـى نـشـوةٍ ... وسـاهـدٍ فـي صـهـوةٍ مـن حِـصـانْ
فـي كـلّ يـومٍ يـبـتـنـي سـيـفُـه ... بـبـلـدةٍ بِـكْـرٍ وأُخـرى عَـوَانْ

وقرأتُ في ديوان أحمد بن منير الطَّرابُلُسي من قصائدَ يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى: [المتقارب]

يـا مـحـيـي الـعَـدْل ويـا مُـنْـشِـرَه ... من بين أطباقِ البِلى وقد هَمَدْ
وركـنَ الإسـلام الـذي وَطَّـده ... طالَ وأرسى العِزَّ فيه وَوَطَدْ
وشـارعَ الـمـعـروفِ إذ لا شـفـةٌ ... تجنحُ للقَوْل ولا تشمخُ يَدْ
محوتَ ما أثبتَهُ الجَوْرُ مضى ... عليه إخلادُ اللَّيالي فَخَلَدْ
مِنْ كُلِّ مكَّاسٍ يظلُّ قاعداً ... لِمَا يسوءُ المسلمينَ بالرَّصَدْ
كانتْ لأرجاسِ اليهودِ دولةٌ ... أزالها منك الهَصُور ذو اللِّبَدْ
الملك العادل لفظٌ طابقَ الـ ... ـمعنى وفي الوَصْفِ مُعَارٌ مُسْتَرَدْ
خَيْرُ النُّعوت ما جرى الوصفُ على ... صفحته جَرْيَ النَّسيم في الوَمَدْ[(١)]
عَدْلٌ جنيتَ اليومَ حُلْوَ رَيْعِهِ ... وسوفَ يُجنى لك أحلى منه غَدْ
لا زالَ للإسلام منك عُدَّةٌ ... تقيمُ منه كلَّ زَيْغٍ وَأَوَدْ
النَّاسُ أنتَ والملوك شَرَط[(٢)] ... تُعَدُّ ليثاً ويُعَدُّونَ نَقَدْ[(٣)]
مثلكَ لا يسخو به زمانُهُ ... وَمِثْلَ ما أُوتيتَ لم يُؤْتَ أَحَدْ

وله: [المتقارب]

أيـا نـورَ دَيْـنٍ خَـبـا نـورُه ... وَمُـذْ شـاعَ عَـدْلُـكَ فـيـه اتَّـقَـدْ
رآك الـصَّـلـيـبُ صـلـيـبَ الـقـنـاة ... أمـيـنَ الـعِـثَـار مـتـيـنَ الـعَـمَـدْ
تـهـمُّ فـتـسـلُـبـه مـا اقـتـنـى ... وَتَـذْأى فَـتُـثْـكِـلُـه مـا احْـتَـشَـدْ[(٤)]

---

(١) الومد: ندى يجيء من البحر في شدة الحر وسكون الريح.
(٢) الشرط، محركة: الدون من الناس.
(٣) النقد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه، يقال: هو أذل من النقد.
(٤) ذأى يذأى: أي مرّ مراً خفيفاً سريعاً.

زَبَنْتَهُمُ[١] أمس عن صَرْخَدٍ ... ففضُّوا كأنَّ نعاماً شَرَدْ
ويومَ العُرَيْمَةِ[٢] أقبلتهم ... عُراماً تشعلَبَ منه الأسَدْ
جَنَبْتَ مليكَهُمُ في الصِّفادِ[٣] ... وعفوكَ عنه أعَمُّ الصَّفَدْ[٤]
وقَبْلُ أزَرْتَهُمُ في الرُّها ... موازق مَزَّقْنَ جُرْدَ الجَرَدْ
بقيتَ ترقِّعُ خَرْقَ الزَّمانِ ... قياماً لأبنائه إن قَعَدْ
تثقِّفُ من زيغه ما التَوَى ... وتصلِحُ من طبعِهِ ما فَسَدْ

وله: [الطويل]

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحِلِ[٥] والذي ... له الأرضُ دارٌ والبريَّةُ أعْبُدُ
وليستْ بدعوى لا يقوم دليلُها ... ولكنَّه الحقُّ الذي ليس يُجْحَدُ
أخو غَزَواتٍ كالعقُودِ تناسَقَتْ ... تَحُلُّ بأجيادِ الجياد وتُعْقَدُ
لسانٌ بِذِكْرِ الله يكْسُو نهارَه ... بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ
وبَذْلٌ وعَدْلٌ أغرقا وتألَّقا ... فلا الوِرْدُ مثمودٌ[٦] ولا البابُ مُوْصَدُ
مَرَامٌ سمائيٌّ وحَزْمٌ مُسَدَّدٌ ... ورأيٌ شِهابيٌّ وعَزْمٌ مُؤَيَّدُ

وله: [الكامل]

أبداً تَنَكَّبُ عن ضلالٍ سادراً ... بثقوب زَنْدِكَ أو تدلُّ على هُدَى
سُدْتَ الكُهولَ مِنَ الملوكِ مراهِقاً ... وشأوت شِيبَهُمُ البوازِلَ أمْرَدا[٧]
إنْ شَيَّدوا صَرحاً[٨] أنافَ منارةً ... أو أسْجَدُوا للكأس جَدَّد مَسْجِدا
وإذا استهزَّتْهُمْ قلائدُ مَعْبَدٍ[٩] ... هَزَّتْهُ موعِظَةٌ فَعَرَّفَ مَعْبَدا

---

(١) زبنتهم: أي دفعتهم.
(٢) يوم العريمة: هو يوم افتتح نور الدين حصن العريمة سنة ٥٤٣هـ. وسيأتي على ذكر هذا اليوم المؤلف في أحداث سنة ٥٤٣هـ.
(٣) جنبت مليكهم في الصفاد: يقال: جنب الأسير: أي قاده إلى جنبه، والصفاد: ما يوثق به الأسير من قيد وغل.
(٤) الصفد: العطاء والمنحة.
(٥) الحلاحل: السيد في عشيرته، الشجاع الركين في مجلسه.
(٦) مثمود: يقال: ثمد الماء ثمداً: قلّ فهو ثمدٌ.
(٧) شأوت شيبهم: أي سبقتهم. والبوازل: الطاعنون في السن. من بزل البعير: إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة، وليس بعد البازل سن تسمى.
(٨) شيدوا صرحاً: أي قصراً.
(٩) معبد: هو معبد بن وهب، أبو عباد المدني، من أكبر المغنين في العصر الأموي، توفي سنة ١٢٦هـ، (الأغاني ١/٣٦ ـ ٥٩).

قسماً لشَامَ الشَّامُ منك مُهَنَّداً ... أرضاه مشهوراً وراعَ مُقَلَّدا
وَتَمسَّك الإسلامُ منكَ بعروةٍ ... اللَّهُ أَبْرَمَ حبلَها فاستصحدا[١]
أشفى فكنتَ شفاءه من حادثٍ ... غاداه عارِضُه مُرَدًّى بالرَّدى
كنتَ الصَّباحَ لليلِهِ لمَّا دَجا ... والغوث كفٌّ لظاه حين توقَّدا
للَّهِ يومٌ أطلعتكَ به النَّوى ... تجتابُ[٢] من مُهَجِ الأصافر[٣] مِجْسَدَا[٤]
نشوانُ غنَّتْكَ الظُّبى مفلولةً ... وأمالَ عِطْفَيْكَ الوشيح[٥] مُقَصَّدا[٦]
في مَعْرَكٍ ما قام بأُسكَ دُونَه ... إلا أقامَ المشركينَ وأقْعَدَا
ولكَمْ مَكَرٍّ قُمْتَ فيه مُعلَماً ... أرْضى إلهكَ والمسيحَ وأخْمَدا
يوم العُرَيمة والخطيم وحارم ... وشِعاب باسوطا وهاب وصَرْخَدَا
لا يَعْدَمِ الأشراكُ حدَّك إنهُ ... ما سُلَّ فيهم حاكماً إلا اعتدى
أَهمَدْتَهُمْ مِنْ بعد ما ملؤوا الملا ... زَجَلاً فهل كانتْ سيوفُكَ مُرْقِدا[٧]؟
طَلَعَتْ نجومُ الحقِّ مِنْ آفاقها ... وأعادها كَرُّ العُصُورِ كما بَدَا
وهوى الصَّليبُ وحزبُه وتبختر الْـ ... ـإسلامُ مِنْ بعد التَّسافُفِ أغيدا
سَبْقَ المجلِّي للخطيِّ فَرَفْعُهُ ... نَسَقٌ بثُمَّ وقد رُفِعْتَ بالابتدا

وله: [الكامل]

محمودٌ المُرْبي على أسلافه ... إن زاد في حَسَبِ الحسيبِ نِجارُ
مَلِكٌ إذا تُليَتْ مآثرُ قومِهِ ... كَسَدَ اللَّطيم وهُجِّنَ النُّوَّارُ[٨]
ملأَ الفِرَنْجَةَ جَوْرُ سيفكِ فيهمُ ... فلهم على سِيْفِ المحيط جُؤَارُ[٩]
يوماً يُزيرك جونَ عِزقة معلماً ... جونٌ له خَلْفَ الدُّروبِ أُوارُ
ويجرُّ في الأُرْدُنِّ فَضْلَةَ ذَيْلِهِ ... نَقْعٌ بأكناف الأرنط مُثَارُ

---

(١) فاستصحدا: كذا في الأصل، ولعلها: فاستحصدا، أي استحكم، ومنه: حبل محصد: أي محكم مفتول.
(٢) تجتاب: تقطع.
(٣) الأصافر: أي بنو الأصفر، وهم الصليبيون وكان العرب يسمون الروم بني الأصفر.
(٤) المجسد: القميص الذي يلي البدن.
(٥) الوشيح: كذا بالأصل، ولعله الوشاح: وهو السيف والقوس.
(٦) مقصّدا: أي مستوياً بين غير مشرف ولا ناقص.
(٧) الملا: الفلاة. وزجلاً: أي صوتاً، والمرقد: شراب يشرب فينوم من شربه ويرقده.
(٨) اللطيم: المسك. وهجّن: قبّح. والنوّار: كالنور، وهو الزهر.
(٩) سيف المحيط: أي ساحل المحيط، وجؤار: صياح وعويل.

إما يبيحُ حريمَ أنطاكيَّةِ … أو يَفجأُ الدَّارومَ منكَ دمارُ
عفى جِهَادُكَ رَسْمَ كلِّ مَخُوفَةٍ … وعَفَتْ بصفوة عَدْلِكَ الأكْدَارُ
ومحا المظالمَ منكَ نظرةُ راحمٍ … لله في خَطَراتِهِ أسرارُ
غَضْبَانُ للإسلامِ مالَ عمودُهُ … فَلِنُورِه ممَّا عَرَاه نِوَارُ
وَجَذَمْتَ كلَّ يدٍ تسورُ على يدٍ … فَأَحَلْتَ ذاكَ السُّورِ وهو سِوَارُ[(١)]
لم يبقَ ماكسُ مُسْلمٍ سِلَعاً ولا … ساعٍ لمظْلَمَةٍ ولا عشَّارُ
هَمَدُوا كما هَمَدَت ثمودُ وقادهم … لخَسَارِهم ممَّا أتوه قُدَارُ[(٢)]
العارُ في الدُّنيا شَقُوْا بلباسه … ولباسُهُمْ يومَ الحِسَابِ النَّارُ
كم سيرةٍ أَحْيَيْتَهَا عُمَريةٍ … رُفِعَتْ لها في الخافِقَيْنِ مَنَارُ
ونوافلٍ صَيَّرتَهُنَّ لوازماً … بأقلِّها تُسْتَعْبَدُ الأحرارُ
لا زلتَ تقفو الصَّالحين مُسَابِقاً … لهُمُ وتَطْلُعُ خَلْفَكَ الأبرارُ
نفس السِّيادَة زُهْدُ مثلكَ في الذي … فيه تَفَانَتْ يَعْرُبٌ ونزارُ
ومتَّى ادَّعى ما تدَّعيه محكَّمٌ … أَوْهَى مَعَاقِدَ دِينه دينارُ[(٣)]
للَّهِ ما ظَفِرَتْ به منك المُنَى … وتكنَّفَتْ من رُكْنكَ الأستارُ
وسقَى الغَمامُ ثرى أبيك فإنَّه … أزكى ثرًى قَطَرَتْ عليه قِطَارُ[(٤)]
شَهِدَتْ نَضَارةُ عُودكَ الغضِّ الجنى … أَنَّ الذي اسْتُخْلِصْتَ منه نُضَارُ[(٥)]
أما نهارُكَ فَهْوَ لَيْلُ مجاهدٍ … واللَّيل مِنْ طولِ القيام نَهَارُ
فلذلكَ النَّصْرِ العزيزِ أَدِلَّةٌ … أنَّى اتَّجَهْتَ وللفُتُوحِ أَمَارُ[(٦)]

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى: [المتقارب]

رأينا الملوكَ وقد ساجلوك … تمنَّوا منوناً وغَرُّوا غُرورا
أبى لكَ أَنْ يُذْرِكُوها أَبٌ … يَزِيرُ فَيُنْسِي الأُسُودَ الزَّئيرا

(١) جذمت: قطعت. وتسور: أي تثور.
(٢) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.
(٣) المحكم: الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. ومعاقد: مفردها معقد، وهو موضع العقد من الحبل.
(٤) القطار: جمع قطر، وهو المطر.
(٥) النضار: الخالص من كل شيء، وهو أيضاً اسم للذهب.
(٦) أمار: أي علامة.

وَجَـدٌ إذا جَـدَّ يـوم الـرِّهـا ... نِ أبـقـى لـتـالـيـه جَـدّاً عَـثُـورا
تَـصُـبُّ عَـصـا عـلـى مَـنْ عـصـا ... ك يـومـاً عبـوسـاً بـهـا قَـمْـطَـرِيـرا[1]
لـقـد أَلْـبَـسَ الـشَّـامَ هـذا الإبـاءُ ... لَـبُـوسـاً مـن الأَمْـنِ لَـيْـنـاً وثـيـرا
تَـدَارَكْـتَ أَرْمـاقَـهُ والـقـلـوبُ ... نـوافِـرُ أَنْ تـسـتـجـنَّ الـصُّـدُورا[2]
أَقَـمْـتَ جـثـاثـاً وكـانـت جُـثَـى ... وشِـدْت قُـصُـوراً وكـانـت قُـبُـورا
وكـم لـكَ مـن غَـضْـبَـةٍ لـلـهُـدَى ... تـمـيـتُ الـهـوى وتَـجُـبُّ الـذُّكُـورا[3]
إذا قَـطَّـبَ الـبـأْسُ كـانـت ردى ... وإن ضَـحِـكَ الـعـفـو عـادَتْ نُـشُـورا
كَـمُـلْـتَ فَـوَفَّـيْـتَ عـيـنَ الـكـمـال ... تُـبـيـد الـسِّـنـيـن وتُـفْـنـي الـعُـصُـورا
وجـادَ لـنـا بـكَ رَبٌّ بـرا ... كَ لـلـكُـفْـر نـاراً ولـلـدِّيـن نُـورا
إذا مـا خُـدِمْـتَ فـمـولـى كـريـمـاً ... وإمَّـا عَـبَـدْتَ فـعـبـداً شَـكُـورا
أمـامَ الـمـحـاريـبِ بَـرّاً حَـصُـوراً ... وتـحـتَ الـحـروبِ هِـزَبْـراً هَـصُـورا[4]
تـبـاركَ مـن شـادَ هـذي الـخـلا ... ل فـي ظِـلَّـة الـمـلـك طَـوْداً وقـورا
وأَلَّـف فـي مَـعْـقِـد الـتَّـاج مـنـ ... ـك سـطـواً سـعـيـراً وعـفـواً نَـمِـيْـرا

وله: [الخفيف]

عَـقَـلَ الـحـقُّ أَلْـسُـنَ الـمُـدَّعِـيْـنـا ... أنـتَ خَـيْـرُ الـمـلـوكِ دُنْـيـا ودِيـنَـا
وأَسَـدُّ الأنـام قـولاً وأفـعـا ... لاً ونَـفْـسـاً ونـيَّـةً ويـقـيـنَـا
أنـتَ أَسْـنَـاهُـمُ إبـاءً وأبـاً ... وامـرأً حـيـر وأمـروعُ حـيـنَـا
بَـسَـطَ الـرِّزْقَ فـي الـبـسـيـطـةِ كَـفًّـا ... ك فـكـلـتـا يـديـك تُـلْـفَـى يـمـيـنـا
فَـيَـدٌ تـحـسِـمُ الـنَّـوائِـبَ عَـنَّـا ... وَيَـدٌ تَـقْـسِـمُ الـرَّغـائـبَ فـيـنـا
أيُّـهـا الـبـحـرُ لـو تـسـاجِـلُـكَ الأبـ ... ـحُـرُ عـامـت فـي سـاحِـلَـيْـكَ سـفـيـنـا
ولـكـانَ الـمـحـيـطُ مـنـهـا مُـحَـاطـاً ... مِـثْـلَ نـونِ الـهـجـاءِ أو خِـيـلَ نـونـا
مَـشْـرَعـاً مُـتْـرعـاً ومـنًّـا مُـهَـنَّـا ... وربَـاعـاً فِـيْـحـاً وكـفًّـا لَـبُـونـا

---

(١) القمطرير: يقال: يوم قمطرير: أي مشتدّ، وفي القرآن الكريم: **﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾** [الإنسان: ١٠].

(٢) الأرماق: مفردها: رمق، وهو بقية الحياة.

(٣) تجبّ الذكورا: تقطعها.

(٤) الحصور: الذي لا إربه له في النساء. والهزبر والهصور: من أسماء الأسد.

وَمُحَيَّا طَلْقاً ومالاً طليقاً ... وانتهاجاً قَصْداً وحَبْلاً متينا
بين ذَبٍّ يميت عادِيَةَ الشِّر ... ك وَهَبٌ يحيا به المسلمونا
تتسنّى من الفُتُوح ألوفاً ... أنتَ أعلى من أَنْ تَعُدَّ المئينا
كلما خرت ثوبَ نَصْرٍ عزيز ... من مَرَام أَقْبَلْتَ فتحاً مبينا
صَرَفَ الله عنك صَرْفَ زمانٍ ... أنتَ عَلَّمْتَ صَرْفَه أَنْ يَهُونا
يا ابنَ مَنْ طَبَّقَ البسيطةَ آثا ... راً وعَلَّ المُنَابذيه الأُجونا[1]
وغَدَتْ حُصْنُه على سَرْجِ هذا الدِّ(م) ... ين من شِكَّةِ الأعادي حُصُونا[2]
كم تعالى صهيلُها في رُبَا الشَّا ... م فأعلى خَلْفَ الخليجِ الرَّنينا
كان صِنْوَ الرَّشيد أبقاك للحِكْـ ... ـمَةِ والبَأْسِ بعده المأمونا
سَمِعَ الله فيكَ دَعْوَةَ سَكْنٍ ... أَوطنوا من حِماك حِصْناً حصينا
غرّقتهم مُدَى الخُطوبِ فأحييـ ... ـتَ رُفاتاً مِنَ التُّرابِ دفينا[3]
لَبِسُوا عَدْلَك المدبَّجَ فاختا ... لوا بناتٍ في وَشْيِهِ وبنينا
سَهِرَتْ عينُك الكَلُوءُ وناموا ... تحتَ أكنافِ رعيها آمنينا

قلتُ: فهذا أُنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه، مع أَنَّهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قبل أن يفتحَ نورُ الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقَّى كل عام في ازدياد، من جهادٍ واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح مع أنه قد تولَّى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المُسْلم بن الخَضِر بن قُسَيم الحَمَوي[4] من قصيدةٍ فيه: [الكامل]

تبدو الشجاعةُ من طلاقة وجهِهِ ... كالرُّمحِ دَلَّ على القَساوةِ لينُهُ
ووراء يقظته أناةُ مجرِّبٍ ... لله سطوةُ بأسِهِ وسكُونُهُ
هذا الذي في الله صَحَّ جهادُه ... هذا الذي بالله صَحَّ يقينُهُ
هذا الذي بَخِلَ الزَّمان بمثلِهِ ... والمُشْمَخِرُّ إلى العُلا عِرْنينُهُ

(١) الأجون: من الآجن، وهو الماء المتغير الطعم واللون.
(٢) الشكّة: السلاح.
(٣) المدَى: جمع مدية، وهي السكين والشفرة.
(٤) هو ابن قسيم الشاعر، مسلم بن خضر بن قسيم الحموي الشاعر المتوفى سنة ٥٥٥هـ له ديوان شعر (كشف الظنون ٦/ ٤٣٢)، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٣٣ ـ ٤٨٠).

مَلَكَ الورى مَلِكٌ أغَرُّ متوَّجٌ لا غَدْرُهُ يُخشى ولا تلوينُهُ
إن حَلَّ فالشرفُ التليدُ أنيسُهُ أو سار فالظَّفَرُ الطَّريفُ قرينُه
فالدَّهْرُ خاذل مَنْ أرادَ عِنَادَه أبداً وجَبَّارُ السَّماءِ مُعِيْنُهُ
والدِّينُ يشهدُ إنه لَمُعِزُّهُ والشِّرْكُ يعلمُ إنَّه لمهينُهُ
ما زال يُقْسِمُ أن يبدِّدَ شملَه والله يكْرَهُ أَنْ تَمِينَ يمينُهُ
فَتَحَ الرّها بالأمسِ فانفتحتْ له أبوابُ ملكٍ لا يُذال مصونُه

وممادحُ نور الدين رحمه الله كثيرة.

وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليلَ الابتهاج بالشِّعْر. ومات حادي عشر شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمسمائة، ودُفِنَ بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قُبَّته بمدرستِهِ جوار الخَوَّاصينَ.

قلتُ: وقد جُرِّبَ استجابة الدُّعاء عند قبره. وهذا ذِكْرُ طرفٍ من مناقبه جُملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصَّلة مرتبة، وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

فصل

[أصل البيت الأتابكي]

أصلُ البيت الأتابكي هو قسيم الدَّولة آق سُنْقُر؛ جدُّ نور الدين، رحمه الله، فنذكره وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده زَنْكي وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولدَه محمود بن زَنْكي، ثم نذكر ما بعدَه وهي الدَّوْلة الصَّلاحيَّة الأيوبيّة وما تمَّ في أيامها فنقول:

كان آق سُنْقُر[١] تركياً من أصحاب السُّلْطان ركن الدين مَلِكْشَاه بن أَلْب أَرْسلان[٢] ـ وهو عَمُّ دُقَاق بن تُتُش بن ألب أرسلان[٣] الذي كان سُلْطانَ دمشق، وقبره بقُبَّة الطواويس بها، بَنَتْهُ والمشهدَ والدتهُ[٤] ـ وكان السُّلطان مَلِكْشاه من

(١) انظر أخبار قسيم الدولة آق سنقر البرسقي في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٨/ ٤٦٢ ـ ٤٩٥، ٩/ ١٢٤ ـ ٢٣٧. وخبر مقتله في ٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) انظر أخبار ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٧٦ ـ ٤٨٤.
(٣) توفي سنة ٤٩٧هـ. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٩/ ٦٧، ٧٤.
(٤) هي صفوة الملك، توفيت سنة ٥١٣هـ. (ذيل تاريخ دمشق ص٣٢١).

جُملة الملوك السَّلْجوقية المتغلِّبين على البلاد بعد بني بُوَيه بالعراق، فكانَ قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه، وممن رُبي معه في صغره، واستمرَّ في صحبته إلى حين كبره. فلما أفضتِ السلطنة إليه بعد أبيه جعلَه من أعيان أمرائه وأخصِّ أوليائه، واعتمد عليه في مهمَّاته، وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نِظَام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان وتمكُّنه من المملكة. فأشار نظامُ الملك على السلطان أن يولي آق سُنْقُر مدينةَ حلب وأعمالها؛ وأراد بذلك أن يبعدَه عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده بذلك يداً.

قال ابن الأثير: ومن الدّليل على علوِّ مرتبته تلقُّبُه قسيم الدولة، وكانتِ الألقاب حينئذٍ مصونةً لا تعطى إلا لمستحقِّيها.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سيَّر السُّلطان مَلِكْشَاه الوزيرَ فخر الدولة بن جَهِير[1]؛ وزير الخليفة إلى ديار بكر ليتملَّكها، وسيَّر عميدَ الدولة بن فخر الدولة بن جَهِير[2] ـ وكان زوجَ ابنة نظام الملك ـ إلى المَوْصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدَّم على الجيش قسيمَ الدولة آق سُنْقُر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أُرْتُق التُّركماني[3] ـ جد ملوك الحصن ومارِدِين ـ فاستصحبوه معهم، فحصروا المَوْصل، وصالحوا من بها وتسلَّموها، وسار صاحبُها إلى السُّلطان فردَّها عليه، وكانت يومئذٍ لأحد أمراء بني عُقَيْل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العُقَيْلي[4] ـ وكان ملكه من السِّنْدية بالعراق على نهر عيسى إلى مَنْبِج وما بينهما من البلاد الفُراتية كهِيت والأنبار وغيرها، وملك المَوْصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينةَ حلب، وكان عادلاً حسنَ السِّيرة عظيم السياسة ـ واتَّفق أن وَقَعَ بينه وبين صاحب أنطاكية؛ وذلك أن أنطاكية كان الرُّوم قد استولوا عليها سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة[5]، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قُتُلْمِش[6]؛ وهو جدُّ الملك غياث الدين كِيخُسْرو[7] صاحب قُونية وغيرها. وكان لشرفِ الدولة صاحبِ حلب على صاحب

(١) انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٨٣ ـ ٤٦٤.
(٢) توفي سنة ٤٩٣هـ، انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) توفي سنة ٤٨٤هـ. انظر «وفيات الأعيان» ١/ ١٩١.
(٤) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٥٥ ـ ٤٣٧.
(٥) في «الكامل في التاريخ» ذكر أن استيلاء الروم على أنطاكية كان سنة ٣٥٩هـ في المحرم. وهو المشهور. (انظر «الكامل» ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٤).
(٦) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٣٥ ـ ٤٤٤.
(٧) قتل سنة ٦٠٧هـ. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٢٩٥ ـ ٣٢٨.

أنطاكية الرُّومي جزية يأخذها كلَّ سنة، فانقطعت عنه بسبب أَخْذ سليمان البلد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الرُّوم ويهدِّده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك، والخُطْبة والسِّكَّة لك، ولستُ بكافرٍ حتى أُعطيك ما كنتَ تأخذه من الرُّوم. فلجَّ شرف الدولة في طلب المال، فالتقيا، فقُتِلَ شرفُ الدولة، وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصَرها، وسار إليها من دمشق تاجُ الدَّوْلة تُتُش بن ألب أرسلان[1] أخو السلطان مَلِكْشَاه. فالتقى عسكر تُتُش وسليمان، فقُتِلَ سليمان وانهزم عسكره، وملك تُتُش مدينةَ حلب دون القلعة، فأرسل أهلُ القلعة إلى مَلِكْشَاه ليسلِّموها إليه، وهو يومئذٍ بالرُّها ـ وكان سببُ مسيره إليها أن ابن عُطَيْر النُّميري[2] كان قد باعها من الرُّوم بعشرين ألف دينار وسلَّمها إليهم، فدخلوها، وأخرجوا المساجد، وأجلوا المسلمين عنها. فسار مَلِكْشَاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بُزَان ـ فلما أتاه رُسُل أهل قلعة حلب بالتَّسْليم سار إليهم، فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلبَ إلى دمشق ووصل السلطانُ إلى حلب، وبالقلعة سالم بن مالك بن بَدْران العُقَيْلي[3]؛ وهو ابنُ عَمِّ شرف الدولة، فسلَّمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جَعْبر، وكان قد ملكها في هذه السَّفْرة من صاحبها جَعْبَر النُّميري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالمٍ وأولاده إلى أن أخذَها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي.

فلما ملك السُّلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بنُ علي بن المقلَّد بن مُنْقذ الكِنَاني[4]؛ صاحب شَيْزَر، ودخل في طاعته، وسلَّم إليه اللَّاذقية، وفامية، وكفرطاب.

ثم إن نظامَ المُلْك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماة ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سُنْقُر، فأقطعه الجميع، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة كما سيأتي. وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سغان.

(١) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤١٨ ـ ٥٠٢.

(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» تسلم ابن عطير النميري الرها في حوادث سنة ٤١٦هـ. بعد قتل والد عطير، ثم سلمها للروم سنة ٤٢٩هـ. وأورد أن اسمه ابن وثاب. انظر «الكامل» ٨/ ١٢٦، ٢٢٠.

(٣) سالم بن مالك بن بدران العقيلي، شمس الدولة صاحب قلعة جعبر، وتعرف قديماً بقلعة دوس، توفي سنة ٥١٩هـ. (انظر «الكامل» ٩/ ٢٣٤).

(٤) توفي سنة ٤٧٩هـ. انظر «الكامل» ٨/ ٤٤٤.

ولما استقرَّ قسيمُ الدولة في الشام ظهرت كفايتُه وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إنَّ السلطان استدعاه إلى العراق، فقَدِمَ إليه في تجمُّلٍ عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ محلُّه عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها[1].

فلما مات السلطان مَلِكْشَاه سَيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تَكْرِيت فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم الدولة شَيْزَر فنهبها وعاد إلى حلب.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين اجتمع قسيمُ الدولة وبُزان وحصروا مدينة حِمْص فملكوها، ومضى ابنُ ملاعب[2] إلى مصر.

وفي سنة أربعٍ وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشَّام، وملك الرحبة.

فـصـل

[مقتل الوزير نظام الملك]

وفي عاشر رمضان سنة خمسٍ وثمانين قُتِلَ الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق[3]، قتله صبيٌّ دَيْلَمي بعد الإفطار وقد تفرَّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرُهم من أصناف الناس، وحمل في مِحَفَّةٍ لِنِقْرِسٍ[4] كان به إلى خيمة الحَرَم، فلقيه صبيٌّ ديلمي مستغيثاً به، فقرَّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُتِلَ الصبيُّ أيضاً. فَعَدِمَتْ الدنيا واحدَها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه. فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي وإياه أطلب.

وبلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره. وكان عالماً فقيهاً ديِّناً خيِّراً متواضعاً عادلاً، يحبُّ أهلَ الدين ويكرمهم ويجزل صِلاتهم. وكان أقربَ الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد من

---

(١) وذلك في سنة ٤٨٤هـ. انظر «الكامل» ٨/ ٤٦٦ ـ ٤٧٧.

(٢) هو خلف بن ملاعب الكلابي، قتل سنة ٤٩٩هـ. انظر خبر قتله في «الكامل» ٩/ ٩٣ ـ ٩٥.

(٣) انظر خبر مقتله في الكامل ٨/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٤) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمّى: داء الملوك.

شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر - التي هي في زاوية من الأرض لا يُؤْبه لها - بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين. وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ، ولا توضأ إلا صلَّى. وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة، حتى أنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وكان قد وزر للسُّلْطان عضد الدولة أَلْب أرسلان(١) والد مَلِكْشَاه(٢) قبل أن يلي السَّلْطنة، في حياة عمه السُّلْطان طُغْرُلْبَك(٣)؛ أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفي طُغْرُلْبَك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه أَلْب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرَّتْ السلطنة له، وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان مَلِكْشاه إلى أن قتل. وكان قد تحكَّم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه؛ لكثرة مماليكه ومحبَّة العساكر له والأمراء، وميل العامَّة والخاصَّة إليه لحُسْن سيرته وعَدْله. هذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب «المعارف المتأخرة» - ويسمَّى «عنوان السِّيَر»(٤) - لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهَمَذاني(٥) قال: وزر نظامُ الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطُّوسي للسُّلْطان أَلْب أرسلان ولولده السلطان مَلِكْشَاه أربعاً وثلاثين سنة، وقُتِلَ بالقرب من نهاوَنْد وعمره ستٌّ وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره. قال: وقيل: إن السلطان مَلِكْشَاه ولَّف عليه مَنْ قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر

---

(١) هو عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل، واسمه محمد، وإنما غلب عليه ألب أرسلان، قتل سنة ٤٦٥هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٥٠ - ٣٩٥، وانظر خبر مقتله في «الكامل» ٨/ ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) توفي سنة ٤٨٥هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٩٤ - ٤٨٤.

(٣) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، توفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ. وكان عقيماً لم يلد ولداً. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٢٢٦ - ٣٦٢.

(٤) في كشف الظنون كتاب «عنوان السير» هو غير كتاب «المعارف المتأخرة». وانظر الحاشية التالية.

(٥) هو محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد الهمداني، أبو الحسن الشافعي المؤرخ، ولد سنة ٤٦٣هـ، وتوفي سنة ٥٢١هـ، من تصانيفه: «أخبار الوزراء»، «تاريخ هراة»، «ذيل على تاريخ أبي شجاع» «ذيل على تاريخ الطبري»، «طبقات الفقهاء»، «عنوان السير في محاسن البدو والحضر»، «المعارف المتأخرة» في التاريخ (كشف الظنون ٦/ ٨٥).

وخمسة أيام. وقد تقدَّم نظام الملك في الدنيا التقدُّمَ العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعَمَّ الناسَ بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشَّافعي رضي الله عنه، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدِّين على مَنْ تقدَّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحدٌ منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقَّعَ على العامل بأنطاكية بما يُصرف إلى الملَّاحين، وملك من الغِلْمان الأتراك ألوفاً، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتَّاكه من مماليكه.

قلتُ: وأنشد أبو سعد السَّمْعاني[١] في «ذيل تاريخ بغداد» قال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السَّمْعاني[٢] غير مَرَّةٍ من لفظه للأمير شبل الدَّوْلة؛ يعني مقاتلَ بنَ عطية بن مقاتل البكري[٣]: [البسيط]

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ثمينةً[٤] صاغها الرحمنُ مِن شَرَفِ
عَزَّتْ ولم تعرفِ الأيامُ قيمتَها فردَّها غَيْرَةً منه إلى الصَّدَفِ

---

(١) أبو سعد السمعاني: هو عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تاج الإسلام، الحافظ أبو سعد المروزي الشافعي، ولد سنة ٥٠٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ، من تصانيفه: «الأخطار في ركوب البحار»، «أدب الطلب»، «الأدب في استعمال الحسب»، «الإسفار عن الأسفار»، «الارتياب عن كتابة الكتاب»، «أفانين البساتين»، «أمالي الخمسمائة»، «الإملاء والاستملاء» «الأنساب»، «بغية المشتاق إلى ساكني العراق»، «تاريخ مرو»، «التحايا والهدايا»، «التحبير في المعجم الكبير»، «التحف والهدايا»، «تحفة العيدين»، «تحفة المسافر» «تاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة»، «التذكرة والتبصرة»، «تقديم الخفان إلى الضيفان»، «حث الإمام على تخفيف الصلاة مع الإتمام»، «الحث على غسل اليد»، «دخول الحمام»، «الدعوات الكبيرة»، «الدعوات المروية عن الحضرة النبوية»، «ذكرى حبيب يرحل وبشرى منيب ينزل»، «ذيل تاريخ بغداد للخطيب»، «الربح والخسارة في الكسب والتجارة»، «رسائل الوسائل»، «رفع الارتياب عن كتابة الكتاب»، «سلوة الأحباب ورحمة الأصحاب»، «السد والعد لمن اكتنى بأبي سعد»، «الصدق في الصداقة»، «طراز الذهب في أدب الطلب»، «عز العزلة»، «فرط الغرام في ساكني الشام»، «فضل الديك»، «فضل صلاة التسابيح»، «فوائد الموائد»، «فضائل سورة يس»، «فضائل الشام»، «كتاب الحلاوة»، «كتاب التحبير في المعجم الكبير»، «كتاب في صوم أيام البيض»، «كتاب المساواة والمصافحة»، «المجير الكبير»، «معجم البلدان»، «معجم الشيوخ»، «مقام العلماء بين يدي الأمراء»، «مناسك الحج»، «النزوع إلى الأوطان»، «الهريسة» (كشف الظنون ٥/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩).

(٢) هو أحمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو القاسم السمعاني، توفي سنة ٥٣٤هـ، له من التصانيف: «روح الأرواح» (كشف الظنون ٥/ ٨٣، الأنساب ٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٣) هو من ولد أبي بكر الصديق، كان نظام الملك قد زوجه ابنته، توفي في حدود سنة ٥٠٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢/ ١٣٠، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٠٤.

(٤) في «الكامل في التاريخ»: «يتيمة» بدل «ثمينة». انظر «الكامل» ٨/ ٤٧٩.

فصل

[وفاة السلطان ملكشاه]

عاش السلطان مَلِكْشاه بعد نظام الملك خمسةً وثلاثين يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين، وعمره ثمانيةٌ وثلاثون عاماً ونصف عام. وكانت مملكته قد اتَّسعت اتساعاً عظيماً، وخُطب له من حدود الصّين إلى الداروم من أرض الشَّام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ الخرَاج من ملك القُسْطنطينية، وأطاعه صاحب طِرَاز وأسبيجاب وكاشْغَر وبلاسغون وغيرها من الممالك البعيدة، ومَلَكَ سَمَرْقَنْد وجميعَ ما وراء النَّهر. ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه، فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغرَ هرب صاحبُها منه، فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه، واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السُّلطان من الخيرات وأبواب البرِّ كثيراً؛ منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحَفَر من الآبار، وبنى مدرسةً عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يُعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسَمَرْقَنْد أيضاً. قيل: إنه خرج سنةً من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العُذَيب وبلغ السبعية بقرب الواقِصَة، وبنى هناك منارةً نُزِّل في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحُمُر الوحشية التي اصطادها في طريقه.

[بداية ظهور الفرنج وتولي السلطان محمد الملك بعد والده]

وبعد موته تنازع ابناه: بَرْكْيارُق[1] ومحمد[2]، ودامت الحروب بينهما نحو ثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بَرْكْيارُق، واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مُدَّة تلك الحروب ظهرت الفرنجُ بالسَّاحل، وملكوا أنطاكية أولاً، ثم غيرها من البلاد. وكان السُّلطان قد أقطع أخاه تُتُش تاج الدولة مدينةَ دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي مَلِكْشاه طَمِعَ تاجُ الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة[3] فصالحه، وراسل بوزان؛ صاحبَ حرَّان، وياغي سغان

---

(١) في «الكامل» بركيارق بن ملكشاه بن ألب أرسلان، توفي سنة ٤٩٨هـ. وكانت مدة سلطنته ١٢ سنة وأربعة أشهر. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٨٤ ـ ٩/ ٧٨.

(٢) توفي سنة ٥١١هـ، وأول ما دُعي له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة ٤٩٢هـ. وكانت مدة سلطنته ١٢ سنة وستة أشهر. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٢١ ـ ١٦٩.

(٣) انظر الخبر في «الكامل» ٨/ ٤٨٨.

صاحب أنطاكية، فسارا معه نحو الرَّحبة ونَصِيبين فأخذهما، وراسل صاحب المَوْصل إبراهيم بن قُريش بن بدران يأمره بالخطبة له، وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع، فالتقيا، فَهُزِمَ صاحبُ المَوْصل. وقُتِلَ وأخذت بلاده. وسار إلى مَيَّافِارقين، فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أَذْرَبِيجان، فالتقى هو وابن أخيه بَرْكِيارُق بن مَلِكْشاه، فانتقل قسيمُ الدولة وبوزان إلى بَرْكِيارُق، فرجع تاجُ الدولة إلى الشَّام، ورجعا إلى بلادهما بأمرِ بَرْكِيارُق ليمنعا تاجَ الدولة عن البلاد إن قصدها. فجمع تاجُ الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيمُ الدولة وبوزان وأمدَّهما السلطان ركن الدين بَرْكِيارُق بالأمير كربوقا ـ وهو الذي صار فيما بعد صاحب المَوْصل ـ فالتقوا بالقرب من تَلِّ السُّلطان، وبينه وبين حلب نحوٌ من ستة فراسخ، فانهزم جيشُ قسيمِ الدولة وأُخذ أسيراً، فقتله تاجُ الدولة صبراً. ودخل بوزان وكربوقا حلبَ، فحصرهما تاجُ الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين. وأرسل إلى حَرَّان والرُّها ـ وكانتا لبوزان ـ فامتنع مَنْ بهما من التسليم، فقَتَلَ بوزان وأنفذ رأسه وتسلَّم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحِمْص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رِضْوان بعد قتلِ أبيه تاج الدولة.

[مقتل قسيم الدولة آق سنقر]

قال ابن الأثير: وكان قسيمُ الدولة أحسنَ الناس سياسةً لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عَدْلٍ عام ورُخْص شامل وأمنٍ واسع، وكان قد شَرَطَ على أهل كلِّ قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهما قَفَل أو أحدٌ من الناس غَرِمَ أهلُها جميعَ ما يؤخذ من الأموال من قليلٍ وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا؛ فأمِنَتْ الطرق وتحدَّث الرُّكْبان بحُسْن سيرته.

[وفاة المقتدي بأمر الله وخلافة المستظهر بالله]

وفي المحرَّم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدي بأمر الله فجأةً[١]. وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسعٌ وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام[٢]، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة

(١) انظر خبر وفاته في «الكامل» ٨/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٢) في «الكامل» ٨/ ٤٩٣: كان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

أشهر[١]، وأمُّه تركية[٢]. وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد بن القائم والد المقتدي بالله الذَّخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زَنْكي[٣]

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبارَ نور الدين على ترتيب السنين.

لما قُتِلَ قسيمُ الدولة آق سُنْقُر لم يخلِّف من الأولاد غير واحدٍ وهو عماد الدين زَنْكي؛ والد نور الدين، وكان حينئذٍ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليكُ والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي[٤]، وهو صبيٌّ أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا[٥] خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة[٦]، وتوجَّه إلى حَرَّان وقد اجتمع معه عسكرٌ صالح فملكها، ثم سار إلى نَصِيبين فملكها، ثم إلى المَوْصل فملكها، وأزال عنها عليَّ بن شرف الدولة العُقَيلي، وسار نحو مارِدِين فملكها، وعَظُمَ شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بَكْيارُق.

فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سُنقُر، وأمرهم بإحضار عماد الدين زَنْكي وقال: هو ابن أخي وأنا أَوْلى الناس بتربيته. فأحضروه عنده، فأقطعهم الإقطاعات السَّنية، وجمعهم على عماد الدين زَنْكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمِد، وصاحبها من أُمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سُقْمان بن أُرْتُق[٧] جَدِّ صاحب الحصن، فكسرهم قِوَام الدولة كربوقا، وهو أول مصافٍّ حضره زَنْكي بعد قتل والده. ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة[٨]. وملك

(١) في «الكامل»: وثمانية أشهر غير يومين.

(٢) في «الكامل»: أمه أم ولد أرمينية تسمى أرجوان، وتدعى قرة العين. أدركت خلافته وخلافة ابنه المستظهر بالله وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله.

(٣) قتل لخمس مضين من ربيع الآخر، سنة ٥٤١هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ١٧٥ ـ ٣٤١.

(٤) هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري، توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٨.

(٥) هو قوام الدين أبو سعيد كربوقا. توفي في ذي القعدة سنة ٤٩٥هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٦) في «الكامل» (٨) ٥٠٢ ـ ٥٠٣. قتل تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان في صفر سنة ٤٨٨هـ.

(٧) توفي سنة ٤٩٨هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ١٩، ٦٢ ـ ٨٤.

(٨) في «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥، توفي كربوقا في ذي القعدة سنة ٤٩٥هـ.

بعده موسى التركماني[١] فلم تطل مدته وقُتِل. وملك المَوْصِل شمس الدولة جكرمش[٢]، وهو أيضاً من مماليك السلطان مَلِكْشاه، فأخذ زَنْكي فقرَّبه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة ـ فلا جَرَمَ أن زَنْكي رعى هذا لجكرمش لَمَّا ملك المَوْصل وغيرَها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدَّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، واتخذه صهراً ـ ثم ملك المَوْصل بعد جكرمش جاولي سقاوه[٣]، فاتصل به عماد الدين زَنْكي ـ وقد كَبُرَ وظهرت عليه أمارات السَّعادة والشهامة ـ ولم يزل معه حتى عصى على السُّلْطان محمد. وكان جاولي قد عبر إلى الشَّام ليملكه من الملك فخر الملك رِضْوان، فأرسل السلطان إلى المَوْصل الأمير مودوداً، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة. فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زَنْكي وغيرُه من الأمراء.

فلما استقرَّ مودود بالمَوْصل، واتصل به زنكي أكرمه، وشَهِدَ معه حروبه، فسار مودود إلى الغَزَاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان ـ كانت للفرنج ـ وقتل من كان بها منهم. ثم سار إلى الرُّها فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرَّة النُّعْمان فحصَرَها، ثم حضر عنده أتابك[٤] طُغْتِكِين[٥]؛ صاحب دمشق، فسار إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زَنْكي شجاعةٌ لم يُسمع بمثلها؛ منها أنه كان في نفرٍ وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلَّفوا عنه، وتقدَّم وحده وقد انهزم مَنْ بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثَّر فيه وقاتلهم عليه، وبقي ينتظر وصولَ من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً.

---

(١) قتل أيضاً في سنة ٤٩٥هـ. قتله الغلمان القوامية في قرية تسمى كرابا، ودفن على تل هناك يعرف الآن بتل موسى. انظر «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) قتل سنة ٥٠٠هـ، بقرية باكلبا، قتله جاولي سقاوو. انظر «الكامل» ٩/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) في «الكامل» اسمه جاولي سقاوو. توفي سنة ٥١٠هـ. انظر «الكامل» ٩/ ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٤) أتابك: أصله في التركي أطابك، ومعناه الوليد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ. ولقبه بألقاب منها هذا، وقيل: أطابك، معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكامل (صبح الأعشى ٣/ ١٨).

(٥) أتابك صغتكين، صاحب دمشق، وهو مملوك الملك تتش بن ألب أرسلان، توفي ثامن صفر سنة ٥٢٢هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٢٤٨.

[مقتل مودود أمير الموصل]

ثم التقى الجمعان[1] فَهُزِمَ الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيقٍ دون طبرية، فاحتموا به، وجاءتهم نجدة، فأَذِنَ الأميرُ مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرَّقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلّي الجمعة، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتِكِين وثب عليه إنسانٌ فضربه بسكينٍ معه، فجرحه أربع جراحات ـ وكان صائماً ـ فَحُمِلَ إلى دار طُغْتِكِين، واجتهَدَ به ليفطِرَ فلم يفعل، وقال: لا لقيتُ الله إلا صائماً، فإنني ميتٌ لا محالة سواء أفطرتُ أو صمتُ. وتوفي في بقيَّة يومه رحمه الله.

فقيل: إن الباطنية بالشَّام خافوه فقتلوه، وقيل: بل خافه طُغْتِكِين فوضع عليه من يقتله. وكان خَيِّراً عادلاً حَسَنَ السيرة.

قال ابن الأثير: فحدَّثني والدي رحمه الله، قال: كتَبَ ملك الفرنج إلى طُغْتِكِين: إن أمةً قتلت عميدَها يومَ عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدَها.

فلما قُتِلَ الأمير مودود أقطع السُّلْطانُ البلاد؛ المَوْصل وغيرها، للأمير جيوش بك[2]، وسيَّر معه ولده الملك مسعود إلى المَوْصل. ثم إنه جَهَّزَ آق سُنْقُر البُرْسُقي في العساكر، وسيَّره إلى قتال الفرنج، وكتب إلى عساكر المُوصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زَنْكي؛ وكان يعرف في عساكر العجم بزَنْكي الشَّامي. فسار البُرْسُقي إلى الرُّها في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل مَنْ بها من الفرنج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سُمَيْسَاط؛ وهي أيضاً للفرنج، فأخرب بلدها وبلد سَرُوج، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج. وأبلى زنْكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدَّث بما فعله، وعاد البُرْسُقي إلى بغداد، وأقام زَنْكي بالمَوْصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وقد علا قدرُه وظهر اسمه.

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ١٤٩ ـ ١٥٠، أحداث سنة ٥٠٧هـ.

(٢) جيوش بك، صاحب الموصل، قتله السلطان في رمضان سنة ٥١٦هـ، على باب تبريز. انظر «الكامل» ٩/ ٢١٧.

فصل

[ولادة نور الدين
ووفاة السلطان محمد بن ملكشاه]

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله تعالى.

وفيها غرقت سِنْجَار من سَيْلِ المطر، وهلك منها خَلْق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل، فَعَلِقَ المهد في شجرة، ونقص الماء، فسَلِمَ ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسِّباحة.

وفيها أيضاً زلزلت إربِل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلةً عظيمة.

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي السُّلطان غياث الدين محمد بن مَلِكْشاه وعمره سبعٌ وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام[1]. وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحِجَّة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقُطعت خطبته عِدَّة مرار، ولقي من المشاقِّ والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بَرْكيارُق[2]، فحينئذٍ استقرت له السَّلْطنة، وصفت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتماعُ الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلاً حسنَ السيرةِ شجاعاً، وأطلق المكوس والضَّرائب في جميع البلاد. ومن عَدْله أنه اشترى عِدَّة مماليك من بعض التُّجَّار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزِسْتان، فأوصل إليه البعضَ ومطل بالباقي، فحضر التاجر مجلس الحُكْم، وأخذ غلامَ الحاكم، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حالهَ، فعاد الحاجب وأعلم السُّلْطان حاله، فَعَظُمَ عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يُحْضَرَ عامل خُوزِسْتان ويُلْزَمَ بمال التَّاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحُكْم، ولو فعلتُه لاقتدى بي غيري، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير؛ وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي؛ فإن الملك العادل نورَ الدين محمود بن زَنْكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه ـ وقد تقدَّمَ ذلك ـ ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبةَ العدل وأداء

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) توفي بركيارق. سنة ٤٩٨. «الكامل» ٩/ ٧٧.

الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأَمِنَ الناس وظهر العدل.

[ولاية السلطان محمود بن محمد]

وولي بعد السلطان محمد ولدُه محمود، وعمره يومئذٍ أربع عشرة[١] سنة، فقام بالسَّلْطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر[٢] حربٌ انهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهدٍ فأكرمه وأقطعه من البلاد من حَدِّ خُرَاسان إلى الداروم بأقصى الشَّام؛ وهي من الممالك: هَمَذَان وأصبهان وبلد الجبال جميعه، وبلاد فارس وكرمان وخُوزِسْتان والعراق وأَذْرَبِيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مُضَر وديار ربيعة والشَّام وبلد الرُّوم الذي بيد قليج أرسلان[٣] وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الأثير: ورأيتُ منشورَه بذلك.

[وفاة المستظهر بالله]

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العَبَّاس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام. وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحدَ عشر يوماً[٤].

ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خُطِبَ لهم ببغداد من السَّلْجوقية؛ وهم أخو مَلِكْشاه تاج الدولة تُتُش، وركن الدَّوْلة بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، وأخوه غياث الدِّين محمد بن مَلِكْشاه[٥].

وكان المستظهر رحمه الله كريمَ الأخلاق، ليِّنَ الجانب، مشكورَ المساعي، يحبُّ العلم والعلماء، وصنِّفت له التَّصَانيف الكثيرة في الفِقْه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسنَ الخَطِّ،

---

(١) في «الكامل» ٩/ ١٦٧: وعمره قد زاد على أربع عشرة سنة.

(٢) سنجر بن ملكشاه (السلطان)، توفي سنة ٥٥٢هـ. في ربيع الأول. أصابه قولنج ثم بعده إسهال فمات منه. انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥.

(٣) لعله قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، صاحب الموصل، قتل سنة ٥٠٠هـ. «الكامل» ٩/ ١٠٦ ـ ١٠٧. ولعل هنا سقط من الأصل، بحيث تكون: بيد أولاد قليج أرسلان.

(٤) انظر «الكامل» ٩/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٥) قال ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ١٧٣: من غريب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله.

جيدَ التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولدُه المسترشد بالله، ودُفن في حُجْرة كانت له يألفها.

وفي أيامه توفي جماعةٌ من العلماء؛ ففي شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المُظَفَّر الشَّامي[١]. وفي ذي القَعْدَة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القَزْويني المُعْتزلي[٢]، مصنِّف «حدائق ذات بهجة»[٣] في تفسير القرآن يزيد على ثلاثمائة مجلد. قال ابن الأثير: رأيتُ منه تفسير الفاتحة في مجلَّدٍ كبير. وفي ذي الحجَّة منها توفي الإمام أبو نَصْر الحُمَيْدِي[٤] مصنِّف «الجمع بين الصحيحين»[٥]. وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طِرَاد بن محمد الزَّيْنَبي[٦]، وله نحو تسعين سنة وفي سنة

(١) هو محمد بن المظفر بن بكران بن عبد الصمد بن سليمان الشامي الحموي، أبو بكر الشافعي الزاهد، قاضي القضاة ببغداد، ولد ببغداد سنة ٤٠٠هـ وولي القضاء بها سنة ٤٧٨هـ. ولم يأخذ على القضاء رزقاً، وكان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، وكان ورعاً زاهداً على حدة فيه، توفي سنة ٤٨٨هـ، له كتاب «البيان في أصول الدين» (كشف الظنون ٦/ ٧٦، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٥، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٠٢).

(٢) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني، القاضي أبو يوسف الحنفي المعتزلي، ولد سنة ٤١١هـ، وتوفي سنة ٤٨٨هـ. صنف: «حدائق ذات بهجة» في تفسير القرآن ثلاثمائة مجلد. (كشف الظنون ٥/ ٥٦٩، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦١٦ ـ ٦٢٠).

(٣) العنوان مقتبس من الآية الكريمة: **﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾** [النمل: ٦٠]. وقال الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٣٠٢: قال ابن النجار: جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشى فيه الغرائب والعجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة وهي قوله تعالى: **﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾**.

(٤) هو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الحميدي، الحافظ، أبو عبد الله الأزدي الأندلسي المالكي المحدث، ولد قبل سنة ٤٢٠هـ، واستوطن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٨٨هـ. له من التصانيف: «الأماني الصادقة»، «بلغة المستعجل في التاريخ»، «تذكرة»، «تسهيل السبيل إلى علم الترسيل»، «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس»، «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم»، «جمل تاريخ الإسلام»، «ذم النميمة»، «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، «الفوائد المنتقاة»، «ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار»، «مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء»، «من ادعى الأمان من أهل الإيمان» (كشف الظنون ٦/ ٧٦ ـ ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٠ ـ ١٢٧).

(٥) هو كتاب «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم» انظر الحاشية السابقة.

(٦) هو طراد بن محمد بن علي الهاشمي، أبو الفوارس الزينبي، نقيب العباسية ببغداد، توفي سنة ٤٩١هـ، من تصانيفه: «العوالي» (كشف الظنون ٥/ ٤٣٢، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٧ ـ ٣٩).

اثنتين وخمسمائة توفي أبو زكريا التَّبريزي اللُّغَوي[١]. وفي ذي الحِجَّة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن[٢]؛ صاحب الخطِّ الحسن المشهور. وفي سنة خمس وخمسمائة توفي الإمام أبو حامد الغزالي[٣]. وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن أحمد الشَّاشي الفقيه[٤]، رحمهم الله أجمعين.

فصل

[خروج مسعود على أخيه السلطان محمود]

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعوداً على المَوْصل مع أتابكه جيوش بك[٥]، فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسَّن له

(١) هو أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي، المعروف بالخطيب، نزيل بغداد، كان يدرس بالمدرس النظامية، أديباً لغوياً ولد سنة ٤٢١هـ، وتوفي سنة ٥٠٢هـ. من تصانيفه: «أسرار الصنعة» في النحو، «بصائر الكمالات»، «تفسير القرآن»، «تهذيب أصلاح المنطق»، «تهذيب غريب الحديث»، «شرح الحماسة» لأبي تمام، «شرح ديوان المتنبي»، «شرح سقط الزند» وهو ديوان أبي العلاء، «شرح شعر أبي تمام»، «شرح القصائد العشرة المختارة»، «شرح قصيدة بانت سعاد»، «شرح اللمع لابن جني»، «شرح المعلقات السبع»، «شرح المفضليات»، «شرح المقصورة لابن دريد»، «الكافي في علمي العروض والقوافي»، «مقدمات في النحو»، «الملخص في إعراب القرآن» (كشف الظنون ٦/ ٥١٩، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٦٩ ـ ٢٧١).

(٢) هو الحسين بن علي بن الحسين بن الخازن، أبو الفوارس، قال ابن الأثير في «الكامل» إنه توفي سنة ٤٩٩هـ. انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٩٨.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الطوسي الشافعي ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥، من مصنفاته: «الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة» «إحياء علوم الدين»، «مقاصد الفلاسفة»، «تهافت الفلاسفة»، «التبر المسبوك في نصائح الملوك»، «جواهر القرآن»، «السر المصون والجوهر المكنون»، «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، وغير ذلك الكثير (كشف الظنون ٦/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٤) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، فخر الإسلام، أبو بكر الشاشي، المعروف بالمستظهري، الشافعي، ولد بميافارقين سنة ٤٢٩هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ. من تصانيفه: «الترغيب» في الفروع، «حلية العلماء في مذاهب الفقهاء»، «الشافي شرح الشامل لابن صباغ» في الفروع، «الشافي شرح مختصر المزني» في الفروع، «العمدة» في الفروع، «المساعد على معرفة القواعد»، «المستظهري» في الفروع، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٨١. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

(٥) جيوش بك، صاحب الموصل، قتله السلطان سنة ٥١٦هـ. «الكامل ٩/ ٢١٧.

الخروج عن طاعته وطَلَبِ السلطنة، فأظهر العصيان وخَطَبَ للملك مسعود بالسَّلْطنة. وكان زَنْكي يشير بطاعة السلطان وتَرْك الخلاف عليه، ويحذِّرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزَمَ عسكرَ مسعود، وأسر جماعةً من الأمراء والأعيان، منهم الأُستاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطُّغْرائي[1]؛ وزير مسعود فقتله السُّلْطان محمود وقال: قد صحَّ عندي فساد اعتقاده ودينه. وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسنَ الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل: إنه قُتِلَ سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمسمائة. وقيل: إنَّ الذي قتلَه هو السُّلْطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشاه. ذكر ذلك كلَّه أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه» وسمَّاه الحسين بن علي بن عبد الصمد الدَّيْلَمي، وأنشد له أشعاراً حساناً، منها: [الوافر]

إذا ما لم تكن مَلْكاً مطاعاً ... فكن عبداً لمالِكِه مُطِيعا
وإنْ لم تَمْلُكِ الدُّنيا جميعاً ... كما تَهْوَاه فاتركْها جميعا
هما سيان مِنْ مُلْكٍ وَنُسْكٍ ... ينيلان الفتى الشَّرَفَ الرَّفيعا
وَمَنْ يقنعْ مِنَ الدُّنيا بشيءٍ ... سِوَى هذين يَحْيَ بها وَضِيعا

[ولاية آق سنقر البرسقي الموصل]

ثم استأْمَنَ مسعودٌ وأتابكه جيوش بك، فأمَّنهما السّلْطان، وأخذ المَوْصل منهما، فأقطعها آق سُنْقُر البُرْسُقي مع أعمالها، كالجزيرة وسِنْجار ونَصِيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد الدين زَنْكي وتقديمه والوقوف عند إشارته، ففعلَ البُرْسُقي ذلك وزاد عليه؛ لمكان زَنْكي من العقل والشجاعة وتقدُّم والده في الأيام الرُّكْنية. وكانت سيره مَلِكْشاه عندهم كالشَّريعة المُتَّبعة، فأعظَمُ النَّاسِ عندهم أكثرُهم اتباعاً لسيرته.

[ولاية زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة]

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زَنْكي مدينةَ واسط وشحنكية

---

(١) الحسين بن إسماعيل: كذا في الأصل، والصحيح هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقب بمؤيد الدين، أبو إسماعيل الأصبهاني، المعروف بالطغرائي، قتله السلطان سنة ٥١٥هـ، من مصنفاته: «الإرشاد للأولاد»، «تراكيب الأنوار» في الكيمياء، «جامع الأسرار وتراكيب الأنوار» في الإكسير، «الجوهر النضير في صناعة الإكسير»، «حقائق الاستشهادات» في الكيمياء، «ديوان شعره»، «الرد على ابن سينا» في الكيمياء، «لامية العجم» قصيدة مشهورة، «مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة» في الكيمياء (كشف الظنون ٥/ ٣١١ ـ ٣١٢).

البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عِظَماً. وهاب الأميرُ دُبَيْس بن صَدَقة الأسدي صاحبُ الحِلَّة ناحيتَه، وجَرَتْ بينَه وبين البُرْسُقي حروبٌ ومواقفات، وهمَّ دُبَيْس بقصد بغداد، فسار البُرْسُقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه، فانهزمَ عسكر دُبيس، وقتل منهم وأسر خَلْق كثير، وكان لعماد الدين زَنْكي أثرٌ حسنٌ في هذه الوقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك في أول المحرَّم سنة سبع عشرة. وأما دُبَيْس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل ابن السُّلْطان محمد، وصار معه من خواصِّ أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السُّلْطان محمود.

وأمر السلطان محمود البُرْسُقيَّ أن يرجع إلى المَوْصل، فعاد واستدعى زَنْكي من البصرة ليسيرَ معه إلى المَوْصل، فقال زَنْكي لأصحابه: قد ضَجِرْنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير، ونؤمر بالتصرُّف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارةً بالمَوْصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشَّام. فسار مِنَ البصرة إلى السُّلْطان محمود فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السُّلْطان عن يمينه لا يتقدَّم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

[ولاية زنكي شحنكية بغداد]

ثم أتى السلطانَ الخبرُ أن العرب قد اجتمعت ونهبتِ البصرة، فأمر زَنْكي بالمسير إليها، وأقطعه إياها لِمَا بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكرِ والحروب، ففعل ذلك، فعظُمَ عند السُّلْطان وزاد محلُّه. وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شِحْنة بغداد[1] وبين الخليفة المسترشد بالله نُفْرَة، فتهدَّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكياً من المسترشد، وحذَّر السلطان جانبه، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق. فسارَ السُّلْطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروبٌ ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولَّى ذلك زَنْكي مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السُّلْطان عن بغداد.

[مقتل آق سنقر البرسقي]

وفي سنة عشرين وخمسمائة قُتِلَ آق سُنْقُر البُرْسُقي بالجامع العتيق بالمَوْصل بعد الصلاة يوم الجمعة[2]؛ ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده

(١) ولي سعد الدولة يرنقش الزكوي شحنكية العراق سنة ٥١٨هـ. «الكامل» ٩/ ٢٢٩.
(٢) انظر خبر مقتله في «الكامل» ٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

منهم ثلاثة، وقُتِلَ رحمه الله. وكان عادلاً ليِّنَ الأخلاق حَسَنَ العشرة، وكان يصلِّي كل ليلة صلاةً كثيرة، ولا يستعين في وضوئه بأحد. فقرَّر السلطان ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال؛ وهي المَوْصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها. وكان شاباً عاقلاً، فضبط البلاد، ولم تطل أيامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصَّغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي؛ وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نِظام.

فصل

[في ولاية زَنْكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البُرْسُقي][1]

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين؛ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين بن البُرْسُقي لما توفي، وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرَّ البلاد عليه؛ وكان المُرْسَل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشَّهْرُزُوري[2]، وصلاح الدين محمد الياغبساني. فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين الصلاح وبين نصير الدين جَقَرَ[3] مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زَنْكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمتَ أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشَّام قد استولى الإفرنج على أكثرِها، وتمكَّنوا منها، وقويت شوكتُهُمْ، وكان البُرْسُقي يكفُّ بعضَ عاديتهم، فمنذ قتل ازداد طمعُهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بدَّ للبلاد من شَهْم شجاع يذبُّ عنها، ويحمي حوزَتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجريَ خلل أو وَهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى، واللوم من السلطان. فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: مَنْ تريان يصلُح لهذه البلاد؟ فذكرا جماعةً فيهم عماد الدين زنْكي، وعظَّما محلَّه أكثرَ من غيره. فأجاب السُّلْطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعها، وكتبَ منشوره بها، وسار من بغداد

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) هو علي بن القاسم بن المظفر الشهرزوري، توفي سنة ٥٣٢هـ. وسيرد ذكر وفاته بعد قليل.

(٣) هو جقر بن يعقوب، نصير الدين. نائب أتابك زنكي بالموصل، قتل سنة ٥٣٩هـ، انظر خبر قتله في «الكامل» ٩/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

إلى البوازيج ليملكها ويتقوَّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد. فلما استولى عليها، سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسَيَّره إلى الرَّحبة وأعمالها، وأقام هو بالمَوْصل يصلحُ أمورَها ويقرر قواعدها. فولَّى نصيرَ الدين دُزْدَارية قلعة المَوْصل، وفوَّض إليه أمرَ الولاية جميعها، وجعل الدُزْدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصَّلاح محمد الياغبساني أمير حاجب الدولة، وجعل بهاءَ الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظمَ النَّاس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطاً معه وقرباً منه، ورتَّب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

[ما استولى عليه الفرنج من البلاد، وحال المسلمين وقتئذٍ]

وكان الفرنج قد اتسعت بلادُهم، وكَثُرَتْ أجنادُهم، وعَظُمَتْ هيبتُهم، وزادت صولتهم، وامتدَّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفِّ عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوءَ العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم، وامتدَّت مملكتُهم من ناحية مارِدِين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحِمْص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمِد ومن ديار الجزيرة إلى نَصِيبين ورأس عين.

أما أهل الرَّقَّة وحَرَّان فقد كانوا معهم في ذُلٍّ وهوان، وانقطعت الطُّرق إلى دمشق إلا على الرَّحْبة والبر. ثم زاد الأمر وعَظُمَ الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خَراجاً وإتاوةً، يأخذونها منهم ليكّفوا أذيَّتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من الرُّوم والأرمن وسائر بلاد النَّصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرَّحا التي على باب الجِنَان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشَّام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زَنْكي، فغزا الفرنج في عُقْر ديارهم، وأخذ للموحِّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل: وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

فصل

[فتوح عماد الدين زنكي]

ثم شرع زَنْكي رحمه الله في أَخْذ البلاد؛ فافتتح جزيرة ابن عمر، ثم مدينة إِرْبِل في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى المَوْصل. وسار في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سِنْجار، فتسلمها، وسيَّر منها الشِّحَن إلى الخابور، فملكه، ثم قصد الرَّحْبة فملكت قسراً، ثم افتتح نَصِيبين وسار إلى حَرَّان. وكانت الرُّها وسَرُوج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج ـ لعنهم الله ـ وأهل حَرَّان معهم في ضيقٍ عظيم؛ فراسلوا زَنْكي بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مُدَّة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشَّامية والجزرية. وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، ومُلك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشَّامية[1]. فلما عبر الفرات ملك مدينة مَنْبج وحصن بزاعة، وحاصر حلب، ثم فتحت له فرتَّب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها، وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمِد مع صاحب حصن كَيْفا وغيرهما من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زَنْكي، فلقيهم، فهزمهم وملك سَرْجة ودارا. ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب[2]، وكان أضرَّ شيءٍ على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً، فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مُدَّة طويلة. ثم رجع إلى الحصن فملكه عَنْوَةً، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارِم فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك؛ لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشَّام بالأمن وحلول النصر، وسُيِّرت البشائر إلى البلاد بذلك.

[استيلاء زنكي على حماة]

وفيها استولى زَنْكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذه ورجالَه، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف

---

(١) انظر سبب وكيفية ملك حلب في «الكامل» ٩/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٢٥٤.

دينار، فاتفق حضور دُبَيْس بن صدقة بن مَزْيَد[١] أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زَنْكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

[وفاة السلطان محمود بن محمد]

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهَمذَان[٢]، وكان عمره نحو ثماني وعشرين سنة[٣]، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة[٤]، وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنُه داود بن محمود، وأخواه: مسعود وسَلْجُوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن مَلِكْشَاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروبٌ واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان وأصفهان والرَّي وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى المَوْصل في ثلاثين ألف فارس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زَنْكي على سائر قلاع الحُميدية وولاياتهم[٥]؛ ومنها قلعة العَقْر وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمِد ثم مدينة دمشق.

وفيها توفيت والدته بالمَوْصل.

[وفاة السلطان طغرل بن محمد
ومقتل المسترشد بالله، وخلافة الراشد بالله]

وفي المحرَّم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشَاه[٦]، فخرج السُلْطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكرَ الخليفة، وقبضَ عليه وعلى خواصِّه، وأنفذ

(١) قتل دبيس بن صدقة سنة ٥٢٩، قتله السلطان مسعود على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى، أمر غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه وهو ينكث الأرض بأصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر. انظر «الكامل» ٩/ ٢٨٥.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٢٥٩.

(٣) في «الكامل» كان عمره نحو سبع وعشرين سنة.

(٤) في «الكامل» كانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً.

(٥) في «الكامل» ٩/ ٢٧٤: استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية، سنة ٥٢٨هـ.

(٦) انظر «الكامل» ٩/ ٢٧٨.

السلطان شِحْنة إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعةٌ من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه[١]. وكتب السُلْطان إلى شِحْنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القَعْدة، ولقب بالرَّاشد.

وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهماً شجاعاً، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدَّمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك الدَّيْلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الدَّيْلم.

فلما ملك السَّلْجقية جدَّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام المُلْك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشِّحَن بالعراق كان إلى السُّلْطان، وكذلك العمداء وضُمَّان البلاد، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دَخْله.

وأما المسترشد فإنه استبدَّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب.

[مقتل الراشد بالله وخلافة المقتفي لأمر الله]

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الرَّاشد إلى المَوْصل صحبة زَنْكي ملتجئاً إليه؛ وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلوُّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدَّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئاً إلى زَنْكي، فسار به إلى المَوْصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الرَّاشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك، ولقب المقتفي لأمر الله.

---

(١) في «الكامل» ٩/ ٢٨٣: قصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه، فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً وقتل مع نفر من أصحابه منهم: أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة.

وأما الرَّاشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أَذْرَبيجان ثم إلى هَمَذان، فاجتمع إليه مُلوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم، فتصافوا، فانهزم الرَّاشد، وقصد أصبهان، فقتله الباطنية بها في السَّابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودُفِنَ بأصبهان[١].

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوَّج زَنْكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمسِ الملوك إسماعيلِ، وإخوته بني تاج الملوك بوري بن طُغْتِكِين أتابك؛ وهي أخت الملك دُقاق لأُمه ـ وإليها يُنْسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشَّرَف القبلي بأرض دمشق بأرض صنعاء ـ وتسلَّم قلعة حمص.

فصل

[في جهاد زَنْكي للفرنج]

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الرُّوم من القُسْطَنْطينية ومعه خَلْقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشَّام، فخافه النَّاس خوفاً عظيماً[٢].

وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذِكْرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها ـ وهي على مرحلة من حلب ـ وفتحها عنْوَةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر ـ وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً وأرسل صاحبها أبو العساكر سُلْطان ابن مُنْقذ[٣] إلى زَنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السَّرايا يتخطَّف من يخرج عن عساكرهم للميرة والنَّهب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زَنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شَرِّكم. ولم

(١) في «الكامل» ٩/ ٣٠٥: لما كان الخامس والعشرون من رمضان، وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة، ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.
(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٠٢: أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني.

يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الرُّوم بلقائه وقتاله، وهوَّنوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذٍ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يُراسل فرنج الشَّام، ويحذِّرهم ملك الرُّوم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملكَ الروم يتهدَّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كلُّ واحدٍ من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملكُ الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار زَنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلَّفوه ورفعه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكان المسلمون بالشام قد اشتدَّ خوفُهم، وعلموا أن الرُّوم إن ملكوا حصن شَيْزَر لا يبقى لمسلم معهم مقام، لا سيما مدينة حماة لقربها.

ولما يسَّر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراءُ الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحَمَوي[1]، له قصيدة، قد ذكرتُها في ترجمته في «التاريخ»، أولها[2]: [الوافر]

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصِّعاب وتستقيمُ

ألم تَرَ أَنَّ كلبَ الرُّومِ لمَّا ... تَبَيَّنَ أنه الملكُ الرَّحيمُ

فجاء يطبِّق الفلواتِ خيلاً ... كأَنَّ الجَحْفَلَ اللَّيْلُ البهيمُ

وقد نَزَلَ الزَّمانُ على رضاه ... فكان لِخَطْبِهِ الخَطْبُ الجسيمُ[3]

فحين رَمَيْتَه بكَ في خميسٍ ... تيقَّنَ أَنَّ ذلك لا يدُومُ

وأبصر في المفاضة منك جيشاً ... فاحزن[4] لا يسيرُ ولا يُقيمُ

كأَنَّك في العَجَاج شهابُ نورٍ ... توقَّدَ وهو شَيْطانٌ رجيمُ

---

(١) هو ابن قسيم الشاعر، تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/٣٠٣ ـ ٣٠٤، الأبيات الثمانية الأولى فقط. والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

(٣) رواية عجز البيت في «الكامل»:

ودان لخطبه الخطب العظيم

(٤) فاحزن: كذا في الأصل. وفي «الكامل»: فاحرب.

أراد بـقـاءَ مـهـجـتـه فـولّـى ... ولـيس سوى الـحِـمَام لـه حـمـيـمُ
يـؤمِّـلُ أن تـجـودَ بـهـا عـلـيـه ... وأنـت بـهـا وبـالـدُّنـيـا كـريـمُ
أَيَلْـتَـمِسُ الـفـرنـجُ لـديكَ عَـفْـواً ... وأنـتَ بِـقَـطْـعِ دابـرِهـا زَعـيـمُ
وكـم جَرَّعْـتَـهـا غُـصَـصَ الـمَـنَـايا ... بـيـوم فـيـه يَـكْـتَـهِـلُ الـفَـطِـيـمُ
ولـمَّـا أَنْ طـلَـبـتَـهُـمُ تَـمَـنَّـى الْـ ... ـمنـيَّـةَ جُـوسَـلِـيـنَـهُـمُ الـلَّـئـيـمُ
أقـام يـطـوِّف الآفـاقَ حـيـنـاً ... وأنـتَ عـلـى مـعـاقـلـه مـقـيـمُ
فـسـار ومـا يُـعـادلـه مـلـيـكٌ ... وعـاد ومـا يُـعـادلـه سـقـيـمُ
إذا خَـطَـرَتْ سـيـوفُـكَ فـي نـفـوسٍ ... فـأوَّل مـا تـفـارِقُـهـا الـجـسـومُ

وله أيضاً من قصيدةٍ يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحبَ حماة: [الطويل]

ومـا جاء كـلـبُ الرُّوم إلا لـيـحـتـوي ... حماة وما يسطو على الأسدِ الكَلْبُ
أرادَ بـهـا أَنْ يـمـلـكَ الـشَّـامَ عَـنْـوَةً ... وقد غُلبت عنه الضَّراغمة الغُلْبُ
ومـا ذَمَّ فـيـهـا الـعـيـش حتى صَدَمْتَه ... فمال جناحُ الجيشِ وانكسرَ القَلْبُ
فـولّـى وأطـرافُ الـرِّمـاح كـأنَّـهـا ... نـجـومٌ عـلـيـه بـالـمـنـيَّـة تَـنْـصَـبُّ

ولابن منيرٍ من قصيدة في مدح أتابك زَنْكي رحمه الله، سيأتي بعضها عند ذكر فتحه لمدينة الرُّها إن شاء الله تعالى: [الطويل]

ومـا يـومُ كَـلْـبِ الـرُّومِ إلا أخـو الـذي ... أَزَحْتَ به ما في الجَنَاجِنِ من تَبْلِ[١]
أتـاكَ بـمـثـل الـروم حـشـداً وإنـه ... لـيـفـضـل أضـعـافاً كـثـيراً عـن الـرَّمْـلِ
فـقـاتَـلْـتَـهُ بـالـلَّـهِ ثُـمَّ بِـعَـزْمَـةٍ ... تـصكُّ قلوبَ الـعـاشقينَ بما يسلي
تـوهَّـمَ أَنَّ الـشَّـامَ مـرعًـى ومـا درى ... بأنَّكَ أَمْضَى منه في الشَّزْر والسّحل[٢]
فـطـارَ وخـيـر الـمـغـنـمـيـن ذَمَـاؤه ... إذا رُدَّ عـنـه مغـنـم الـمـال والأهـلِ[٣]

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يُحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الرُّوم شَيْزَر قال الأمير مرشد بن علي؛ أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفاً، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق مَنْ أنزلته عليه إن قضيتَ بمجيء الروم فاقبضني إليك. فتوفي بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته.

---

(١) الجناجن، بجيمين ونونين: عظام الصدر، وقيل: رؤوس الأضلاع. والتبل: العداوة والحقد والزحل.
(٢) الشزر: إحكام الفتل وإبرامه، والسحل: دون ذلك، أي أمضى فيه في الأمور الكبار والصغار.
(٣) الذماء: بقية الروح في المذبوح.

ولما عاد الرُّومُ إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عِرْقة؛ وهو من أعمال طرابُلُس، فحصره وفتحه عَنوة، ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالماً غانماً.

وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش.

وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري[١]؛ قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده.

وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بِتَكْرِيت.

فصل

[في فتح شَهْرُزُور وبَعْلَبَك وحِصَار دمشق][٢]

قال ابن الأثير: كانت شَهْرُزُور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان مالكها نافذَ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً؛ فتحامى الملوك قصدَ ولايته، ولم يتعرَّضوا لها لحصانتها، فَعَظُمَ شأنُه وازداد جَمْعُه.

فلما كان سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلادَه؛ فهزم عسكره، وملك بلاد شَهْرُزور وغيرها، فأضافها إلى بلاده، وأصلح أحوال أهلها، وخفَّفَ عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشَّام؛ فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً؛ إمّا لردِّ عدوٍّ يقصده، وإمّا لقصد بلاد عدوّ، وإمّا لغزو الفرنج وسدّ الثغور. وكانت مياثر[٣] السُّروج آثر عنده من وثير المهاد، والسّهر في حراسة المملكة أحبّ إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذّ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كلّه عناء.

وفي هذه السنة ـ وهي سنة أربع وثلاثين ـ ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي[٤].

---

(١) هو عم القاضي كمال الدين المتوفى سنة ٥٧٢هـ. دفن في صفين. انظر وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٩، وطبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٢٨.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣١٣ ـ ٣١٥.

(٣) مياثر: جمع ميثرة، وهي فراش صغير يحشى بقطن أو صوف يجعل تحت السرج.

(٤) هو ابن أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، توفي في ١٩ رمضان سنة ٥٩٧هـ.

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرُزور إلى مدينة دمشق، فحصرها، وصاحبها حينئذٍ جمال الدين محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وكان محكوماً عليه، والغالب على أمره معين الدين أُنَر؛ مملوك جده طُغْتِكِين. وكان أتابك قد أمر كمال الدّين أبا الفضل بن الشَّهْرُزُوري بمكاتبةِ جماعةٍ من مقدَّمي أحداثها وزناطرتها[1] واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلات. ففعل ذلك، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرِّقين إلى كمال الدين، وجدَّد عليهم العُهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشَّهيد إلى البلد لِيفْتحوا له الباب ويسلِّموا البلد إليه. فأعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً؛ فإنَّ البلد ضيّق الطُّرُق والشَّوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكّنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثُر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم؛ لأنّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك، فيطمع فينا أهلُه. وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

[وفاة محمد بن بوري صاحب دمشق

وولاية ابنه مجير الدين أبق بن محمد]

ومن العجب أن محمد بن بُوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أُنَر الأمور وساس البلد، فلم يتغيّر بالنّاس حال، وأرسل إلى بَعْلَبَكّ، فأحضر ولدَه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، ورتَّبه في الملك مكان أبيه، فمشى الحال بتمكين معين الدين أُنَر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زَنْكي دمشق كما سيأتي.

ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بَعْلَبَكّ مُعين الدين أُنَر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عِدَّة شهور، فملكها عَنْوَةً، وترك بها نجمَ الدين أيوب، والد صلاح الدين دُزْداراً، وعزم على العَوْد عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خُطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي: واتّفق أن الأمراء لمَّا نزلوا من بَعْلَبَك أفسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زَنْكي، وقتل بعضَهم وصلبهم، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني. فحكى أنه أُحضر إليه في جملة الأمراء

= كما سيأتي في الجزء الرابع، وكان والده شاهنشاه قد قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ. انظر وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٢.

(١) الزناط، بالكسر: الزحام، وقد تزانطوا، والزناطرة: هم السكان المولعون بتحريك الفتن والقلاقل.

شيخ مليح الشيبة، ومعه ولدٌ له أَمْرَد كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت. وبكى، وكان نجم الدين أيّوب واقفاً، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاحَ الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفاً من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك، وسأله في الشَّيخ وولده، وقصَّ عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بَعْلَبَك.

وقيل: إنَّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك، فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولّاه بعلبك، وكتب له ثُلُثها ملكاً، واستقرَّ فيها هو وأهلُه، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زَنْكي، فأخرجَه منها على ما سنذكره.

ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق، فنزل البقاع، فوردت هدية صاحب دمشق، وطلب العود، ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زَنْكي بقبول ذلك، وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلدٌ عظيم، وقد أَلِفَ أهله هذا البيت وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك. فامتنع زَنْكي من قبول ما أشار به، ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

[فتح زنكي حصن بارين والمعرة وكفرطاب]

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين[1]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارِين[2]، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير[3]، ونصر اللّهُ المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن

---

(١) في «الكامل في التاريخ» ٩/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، ملك زنكي قلعة بارين سنة ٥٣١هـ.

(٢) في «الكامل» هي قلعة بعرين. وهي تقارب حماة من أمنع الحصون وأحصنها.

(٣) ليلة الهرير: هي من قولهم: هارّه وهرّ في وجهه، وشرٌّ أهرّ، يقال في ظهور أمارات الشر ومخايله، وهرّ يهرّه هريراً: كرهه. وليلة الهرير ويوم الهرير يوصف به اليوم الذي يشتدّ فيه القتال ويتواصل، وتطلق ليلة الهرير على إحدى ليالي القادسية سنة ١٤هـ، وإحدى ليالي صفين سنة ٣٧هـ. ويوم الهرير: يوم بين بكر بن وائل وتميم، قتل فيه الحارث بن بيبة سيد تميم (انظر القاموس المحيط: هرر. والكامل في التاريخ ٢/ ٣٢٨، ٣/ ١٩١).

بارِين، وفيهم ملك القُدْس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارِين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان ليَسْلَموا ويُسَلِّموا الحصن، فأبى إلا أخذَهم قهراً. فبلغه أنّ مَنْ بالسَّاحل من الفرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجدونهم، ويُنْهُون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً من ذلك لقوَّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم إنّا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَنّا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارِين من أضرِّ بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُدَّة مقامه على حصن بارِين سيّر جنده إلى المعرة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

قلت: وقد قال القَيْسَراني يذكر هزيمةَ الفرنج ويمدح زَنْكي قصيدةً أولها: [البسيط]

حَذار مِنّا، وأنّى ينفعُ الحذر ... وَهْيَ الصَّوارم لا تُبقي ولا تَذَرُ

وأين تنجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لا بل جُنْدُه القَدَرُ

سلُّوا سيوفاً كأغماد السُّيوفِ بها ... صالوا فما غَمَدُوا نَصْلاً ولا شَهَروا

حتى إذا ما عمادُ الدِّين أرْهَقَهُمْ ... في مأزق مِنْ سَنَاه يَبْرُقُ البَصَرُ

وَلَّوْا تضيقُ بهم ذَرْعاً مسالكُهم ... والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

وفي المسافة من دون النَّجاة بهم ... طُولٌ وإنْ كان في أقطارها قِصَرُ

وأصبحَ الدِّين لا عيناً ولا أثراً ... يخافُ والكُفْرُ لا عينٌ ولا أثَرُ

فلا تَخَفْ بعدَها الإفرنج قاطبةً ... فالقومُ إن نفروا ألْوَى بهم نَفَرُ

إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُربوا ... أو طاردوا طُرِدُوا أو حاصروا حُصِروا

وطالما استفحلَ الخَطْبُ البهيمُ بهم ... حتّى أتى مَلِكٌ آراؤه غُرَرُ

والسَّيْفُ مُفْترِعٌ أبكارَ أنفسهم ... ومِنْ هنالك قيل الصَّارِمُ الذَّكَرُ

لا فارَقَتْ ظِلَّ محيي العَدْل لامعةٌ ... كالصُّبْح تطوي من الأعداء ما نَشَرُوا

ولَا انثنى النَّصْرُ عن أنصار دَوْلته ... بحيثُ كان وإن كانوا به نُصِرُوا
حتّى تعودَ ثُغورُ الشّام ضاحكةً ... كأنما حَلَّ في أكنافها عُمَرُ

وقال ابنُ منير: [المتقارب]

فَدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها ... ودام لنقضك إبرامُها
وزلَّت لِعَيْنِك أَقْدَامُها ... وزَالَ لبطشك إقْدَامُها
ولو لم تُسلِّم إليكَ القلوبُ ... هواها لما صحَّ إسلامُها
أيا محيي العَدْل لَمَّا نعاهُ ... أيامَى البرايا وأيتامُها
ومُسْتَنْقِذَ الدِّين من أُمَّةٍ ... أذال المحاريب أصنامُها
دَلَفْتَ لها تقتفيك الأسُو ... دُ والبيض والسُّمر آجامُها
جَزَرْتَ[1] جزيرتَها بالسُّيو ... فِ حتى تشاءمها شامُها
وصارت عواريَّ أكنافِهِ ... متى شئت أَرْخَصَ مُسْتامُها

قال ابن الأثير: ولما وصل الرُّوم والفرنج إلى الشَّام، ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جَبْر مُصيبتهم بمنازلة بعض بلادِ المسلمين، فنازلوا حلب وحَصَرُوها، فلم يَرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريباً منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظُ أطرافَ البلاد من انتشار العدوّ فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضيَ كمال الدين بن الشهرزوري إلى السُّلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النّجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف أن تخرجَ البلادُ من أيدينا، ويجعل السلطانُ هذا حُجَّة ويُنفّذ العساكر، فإذا توسّطوا البلادَ ملكوها. فقال الشّهيد: إن هذا العدوَّ قد طمع في البلاد، وإنْ أخَذَ حلب لم يبقَ بالشَّام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أَوْلى بها من الكُفَّار. قال: فلمَّا وصلتُ إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرَّك فيه بشيء، وكُتُبُ الشَّهيد إليَّ متّصلةٌ يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطبُ فلا أُزاد على الوعد. قال: فلما رأيت قِلَّة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً ـ وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء ـ فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصَعِدَ الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوتٍ واحد: وَا إِسْلاماه! وادِينَ مُحمَّدَاه! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر

---

(١) جَزَرْتَ: قطعت.

يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعِد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عِمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النَّفر بالصّياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلّا مَن قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلُّهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهلُ بغداد وكلّ من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضّبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغَزَاة. فقال: أحضروا ابن الشَّهْرُزُوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلَّا أنّني قد عزمت على صِدْقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلمُ كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد. وعظَّمْتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: ارددْ هؤلاء العامة عنا، وخُذْ من العساكر ما شئتَ، وسِرْ بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرَّقوا. وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشَّهيد أُعرِّفُه الخبر، وأنّه لم يبق غيرُ المسير، وأُجدِّدُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثِّ على ذلك، فعَبَرتِ العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجَّابٌ من الشّهيد يخبر أن الرُّومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على انفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصَّل مع الوزير وأكابر الدولة حتّى أَعَدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشَّهيد[1].

قال ابن الأثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس - يعني كمالَ الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا هِمَّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويُوفّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إنَ هذا كمال الدّين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرَّأي تدبِّرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثُر له خمسمائة دينار! فإنّ شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مائة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى.

(١) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٢٩٨ - ٢٩٩، في حوادث سنة ٥٣١هـ.

فصل

[فتح زنكي قلاع الأكراد]

قال: وفي سنة سبع وثلاثين[١] سار الشهيد إلى بلد الهكّارِية[٢]، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جَقَر نائب السلطان الشهيد بالمَوْصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني؛ وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العِمَادية عوضاً عنها[٣]. وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه. فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمرٍ، فَبُني وسماه القلعة العمادية، نسبةً إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خُطب لأتابك بآمِد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن، والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فأجابه إلى ذلك.

وفيها ملك الشَّهيد مدينة عانة[٤].

[فتح زنكي حمص]

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد ولاية دمشق فشتى بها.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد المَوْصل بعساكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة. فترددت الرسل بينهما حتى استقرتِ الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السُّلْطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشَرَطَ عليه فتح الرُّها. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين؛ فإنها قد وليها قبله مثل

---

(١) وخمسمائة.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٢٦.

(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٢٦: في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية، وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فملكها فأمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضاً عنها.

(٤) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٠ ملك أتابك زنكي مدينة عانة، في أحداث سنة ٥٣٨هـ.

جاولي سقاوة، ومودود، وجيوش بك، والبُرْسُقي، وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يُمِدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك. فلم يُمدّه أحد من السلاطين بفارسٍ واحد ولا بمال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعزّ الإِسلام به.

ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويُقرِّبه، ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى المَوْصل، وأرسل إلى نائبه بالمَوْصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك. وألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسولٌ إلى السلطان يقول له: إنني لمّا بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم أجتمع به ورَدَدْتُه إلى بابك. فحلَّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد.

ولما استقر المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، فأطلقَ له الباقي استمالة له[1].

[مسير زنكي إلى ديار بكر وفتح عدة بلاد منها]

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عِدَّة بلاد منها طَنْزَة، وإسْعِرد، وملك مدينة المعدِن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حَيْزَان، وأخذ من أعمال مارِدين عدة مواضع، ورتَّب أمور الجميع، وملك مدينة حاني، وحاصر آمِد، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدَّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

[فتح مدينة الرها]

في فتح الشهيد الرُها في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[2].

وكانت لجوسلين، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم.

(١) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٢٨.
(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٣١، وفيه: في سادس جمادى الآخرة.

وكان مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسيّ عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية وقُسْطنطينية والرُّها.

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرٌ عظيم، وملكوا من نواحي مارِدين إلى الفرات على طريق شبختان عدة حصون كسَرُوج، والبِيْرَة، وجُملين، والمُوَزَّر. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمِد من ديار بكر، وماردين، ونَصِيبين، ورأس عين، والرَّقَّة. وأما حَرَّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبَّحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أَنِفَ منهم، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني وجبل جور وآمِد؛ فكان يقاتل مَنْ بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[1]، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. ووكَّل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشَّاميّة، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها.

ثم وصف ابنُ الأثير الجيش وأنشد: [الوافر]

بجيشٍ جاش بالفُرْسان حتى ... ظننتُ البرَّ بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العَذبات حُمْرٍ ... تخاطبنا بأفواه الرِّياحِ
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم ... وغُرَّتُهُ عمود للصباحِ
صَفوحٌ عند قُدْرته ولكن ... قليلُ الصفح ما بين الصِّفاحِ
فكان ثباتُه للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناحِ

وأَلَحَّ الشهيد في حصارها، فملكها عَنْوَةً، فاستَباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسُوسها ورُهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأَنِفَ لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فَرُدُّوا عن آخرهم، لم يُفْقَد منهم إلا الشّاذ والنّادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتَّب البلد وأصلح من

(١) يسرُّ حسواً في ارتغاء: هو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. ومعنى المثل: أي يظهر أخذ الرغوة وهو يحسو اللبن (لسان العرب: رغا).

شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كَسَرُوج وغيرها، وأخْلَى ديار الجزيرة من معرَّة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نَشْره، وشهده خَلْقٌ كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنَّهم رَأَوْا يوم فتح الرُّها الشّيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي؛ وكان من العلماء العاملين، والزّاهدين في الدّنيا، المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنّه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبْشِرٌ مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواننا أن أتابك زَنْكي فتح مدينة الرُّها، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال: ما يضرُّك يا زَنْكي ما فعلتَ بعد اليوم. يُردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح. ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشَّيخ وقالوا له: منذُ رأيناك على السّور تكبّر أيقنّا بالفتح. وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

قال: وحكى لي بعضُ العلماء بالأخبار والأنساب؛ وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صِقِلّية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصَّالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه، ويرجع إلى قوله، ويقدِّمه على مَن عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقتُ الذي فُتحت فيه الرُّها سيّر هذا ملكُ الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربي وقد نَعَس وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها. فتضاحك مَنْ عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليلٍ حتّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدةُ هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوِّ منزلة الرُّها عند النَّصرانية.

قال: وحكى لي أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم، أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ الشّهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرُّها[1].

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٣٢.

قلتُ: وهنأه القَيْسَراني عند فتح الرُّها بقصيدةٍ أولها[١]: [الطويل]

هو السَّيْفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأملاكَ إلا نِجادُهُ
وعن ثَغْر هذا النَّصْرِ فلتأخذِ الظُّبى ... سناها وإن فاتَ العيونَ اتقادُه
سمت قُبَّة[٢] الإسلام فخراً بطَوْله ... ولم يكُ يسمو الدِّينُ لولا عِمادُهُ
وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمِها ... عنِ الله ما لا يُسْتَطَاعُ ذيادُهُ
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عِزًّا واطمأنَّ مِهادُهُ
وفتحٌ حديثٌ في السماع حَدِيْثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعَادِ مُعادُه
أراحَ قلوباً طِرْنَ عن وُكُناتِها[٣] ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ ... على غير ما عند العُلُوج اعتقادُهُ
يُرَجُّون ميلاد ابن مريمَ نُصرةً ... ولم يُغْنِ عند القوم عنه ولادُه
مدينةُ إفْكٍ منذ خمسين حِجَّةً ... يفلُّ حديدَ الهند عنها حدادُهُ
تفوتُ مدى الأبصار حتى لوَ أنَّها ... ترقَّتْ إليه خانَ طَرْفاً سوادُهُ
وجامحةٌ عَزَّ الملوكَ قِيادُها ... إلى أنْ ثناها مَنْ يعِزُّ قِيَادُهُ
فأوسعَها حرَّ القِرَاعِ مُؤَيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدَادُهُ
كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حَوْلَه ... شَرَارٌ ولكنْ في يديه زِنادُهُ
فأضْرَمها نارَيْن: حَرباً وخَدْعةً ... فما راعَ إلّا سورُها وانْهِدادُهُ
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افْتضاضها ... وهيهات كان السيفُ حتماً سِفاده
فيا ظَفَراً عمَّ البلادَ صلاحُه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فسادُهُ
فلا مُطْلَقٌ إلا وَشُدَّ وثاقُه ... ولا مُوثَقٌ إلّا وحُلَّ صِفادُهُ
ولا مِنْبَرٌ إلا ترنَّح عُودُه ... ولا مُصْحَفٌ إلا أنار مِدَادُهُ
فإن يشكل الإبرنز فيها حياته ... وإلا فَقُلْ للنَّجْمِ كيف سُهادُهُ
وباتت سرايا القمص تقمص دونَها ... كما يتنزَّى عن حريقٍ جرادُهُ
إلى أينَ يا أسرى الضَّلالةِ بعدها ... لقد ذَلَّ غاويكُم وعَزَّ رشادُهُ
رُوَيْدَكُمُ لا مانعٌ من مُظَفَّرٍ ... يعانِدُ أسبابَ القضاءِ عِنادُهُ
مُصيبُ سهام الرأي لو أنَّ عَزْمَهُ ... رمى سَدَّ ذي القَرْنين أصمى سَدادُهُ

---

(١) بعض أبيات هذه القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) في «خريدة القصر» ١/ ١٥٥: «قبلة» بدل: «قبّة».

(٣) وكناتها: جمع وَكْن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

وقل لملوك الكُفْرِ تُسلِمُ بعدها ... ممالكها إن البلادَ بلادُهُ
كذا عن طريق الصُّبْحِ أيتُها الدُّجى ... فيا طالما غالَ الظلامَ امتدادُهُ
ومن كان أملاكُ السَّمواتِ جندَه ... فأيةُ أرضٍ لم ترضها[1] جيادُهُ
ولله عزمٌ ماءُ سَيْحانَ وِرْدُهُ ... وروضة قُسْطَنْطِينَةٍ مُستراده[2]

وله من قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوْري أوَّلُها: [الكامل]

هي جنة المأوى فهل مِنْ خاطب

يقول فيها: [الكامل]

إن الصَّفَائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أَشْوسَ ناكبِ[3]
فتح الفُتوح مبشِّراً بتمامه ... كالفَجْرِ في صَدْرِ النَّهار الآيبِ
لله أيَّةُ وقفةٍ بَذْرِيَّةٍ ... نُصرت صحابتها بأيمنِ صاحبِ
ظفرٌ كمال الدِّين كنتَ لقاحَه ... كم ناهضٍ بالحرب غيرِ مُحَارِبِ
وأمدَّكم جيشُ الملائك نُصرةً ... بكتائب محشوثة بكتائب
جنبوا الدَّبورَ وقُدْتُمُ ريحَ الصَّبا ... جندُ النُّبوة هَلْ لها من غالبِ[4]
أترى الرُّها الوَرْهاء يوم تمنَّعَتْ ... ظَنَّتْ وجوبَ السورِ سَوْرَةَ لاعبِ[5]
لا أين يا أسرى المهالك بعدَها ... ضاقَ الفضاءُ على نجاة الهارب
شدًّا إلى أرضِ الفرنجة بعدَها ... إن الدُّرُوبَ على الطَّريق اللَّاحب
أفغرَّكم والثَّارُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لحْظ الطَّالبِ
وإذا رأيت اللَّيث يَجْمَعُ نفسَه ... دونَ الفريسة فَهو عينُ الواثبِ

وقال ابن منبر: [البسيط]

صفاتُ مجدِكَ لفظٌ جلَّ معناه ... فلا استردَّ الذي أعطاكهُ الله
يا صارماً بيمينِ الله قائمُهُ ... وفي أعالي أعادي اللَّهِ حَدَّاه
أَصْبَحْتَ دُون ملوك الأرض مُنفرداً ... بلا شبيهٍ إذِ الأَملاكُ أشباه

---

(١) في «خريدة القصر» ١/ ١٥٥: «تطأها» بدل: «ترضها».
(٢) سيحان: نهر كبير، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم (معجم البلدان: سيحان). ومستراده: أي مكان ارتياده.
(٣) الأشوس: الجريء على القتال، الشديد.
(٤) الدبور: ريح تهب من نحو المغرب، وريح الصبا تقابلها من ناحية المشرق.
(٥) الورهاء: الخرقاء. ووجوب السور: أي سقوطه.

فـداك من حـاولَـتْ مسـعـاك هِـمّـتُـهُ ... جـهـلاً وقـصَّـرَ عـن مـسـعـاكَ مـسـعـاه
قُـلْ لـلأعـادي ألَا مـوتـوا بـه كـمـداً ... فـالـلَّـهُ خـيَّـبـكُـم والـلَّـهُ أعـطـاه
مَـلْـكٌ تـنـامُ عـن الـفـحـشاءِ هِـمَّـتُـهُ ... تُـقًـى وتَـسـهـرُ لـلـمـعـروفِ عَـيْـنَاه
مـا زال يَـسْـمُـكُ والأيـامُ تـخـدُمـه ... فـيـمـا ابـتـلاه وتُـدْنـي مـا تـوخَّـاه[1]
حتى تعالتْ عن الشِّعْرَى مشاعِرُهُ ... قَـدْراً وجـاوزتِ الـجـوزاءَ نَـعْـلاه[2]
وقد روى النَّاسُ أخبارَ الكرام مَضَوْا ... وأيـن مِـمَّـا رَوَوْه مـا رأيـنـاه
أيـن الـخـلائـف عـن فـتـح أُتـيـح لـه ... مـظـلَّـلٌ أُفُـقَ الـدُّنـيـا جـنـاحـاه
عـلا الـمـنـابـر مـن أنـبـائـه أَرَجٌ ... مـقـطـوبـةٌ بـفـتـيـق الـمِـسْـك ريَّـاه
فـتـحٌ أعـادَ عـلـى الإسـلام بـهـجَـتَـهُ ... فـافـتـرَّ مـبـسـمُـه واهـتـزَّ عِـطْـفَـاه
يُـهْـدَى بـمـعـتـصـم بـالله فـتـكـتـه ... حَـدِيْـثُـهـا نَـسَـخَ الـمـاضـي وأنـسـاه
إنَّ الـرُّهـا غـيـر عـمُّـوريـةٍ وكـذا ... مَـنْ رامـهـا لـيـس مَـغْـزَاهُ كـمـغـزاه
أخـت الـكـواكـب عِـزًّا مـا بـغَـى أحـدٌ ... مـن الـمـلـوكِ لـهـا وَقْـمـاً فـواتـاه[3]
حتّى دَلَـفْـتَ لـهـا بـالـعَـزْم يـشـحـذُه ... رأيٌ يـبـيـتُ فُـوَيْـقَ الـنَّـجْـم مـسـراه
مـشـمِّـراً وبـنـو الإسـلام فـي شُـغُـل ... عـن بَـذْءِ غَـرْسٍ لـهـم أثْـمـارُ عـقـبـاه
يـا مُـحـيـي الـعَـدْلِ إذ قـامـت نَـوَادِبُـه ... وعـامـرَ الـجُـودِ لـمـا مـحَّ مـعـنـاه[4]
يـا نـعـمـةَ الله يـسـتـصْـفي الـمزيد بـهـا ... لـلـشـاكـريـن ويـسـتـقـنـي صـفـايـاه
أبـقـاكَ لـلـدِّيـن والـدُّنـيـا تـحـوطُـهـمـا ... مـن لـمْ يُـتَـوِّجْـكَ هـذا الـتَّـاجَ إلا هـو

ولابن منير أيضاً من قصيدةٍ تقدَّم بعضُها: [الطويل]

أيَا ملِكاً ألقى على الشِّرْك كلكلاً ... أنـاخَ عـلـى أُمـاتـه كَـلْـكَـلُ الـثُّـكْـلِ[5]
جـمـعـتَ إلـى فَـتْـحِ الـرُّهـا سَـد بـابـه ... بِجَمْعِكَ بينَ النَّهْبِ والأَسْر والقَتْلِ[6]
هـو الـفَـتْـحُ أنـسـى كـلَّ فـتـح حـديـثُـه ... وتـوَّجَ مَـسْـطُـورَ الـرِّوايـة والـنَّـقْـلِ
فَـضَـضْـتَ بـه نـقـشَ الـخـواتـمِ بـعـدَه ... جُزيتَ جزاءَ الصِّدْقِ عن خاتَم الرُّسْلِ

---

(١) يَسْمُكُ: أي يعلو ويرتفع.
(٢) الشعرى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء.
(٣) وقماً: أي ذلاً.
(٤) محّ: خلق، ودرس.
(٥) أماته: جمع أم، وجمعها أمات وأمهات، وقيل: الأمهات: تقال لمن يعقل. والأمات: تقال لمن لا يعقل.
(٦) سدّ بابه: أي سدّ باب الشرك.

تـجـردت لـلإسـلام دُون مـلـوكـه تُبَتِّكُ أسبابَ المذَلَّةِ والخَذْلِ[١]
أخو الحَرْبِ غَذَّتْهُ القراع مفطَّماً يشوبُ بإقدامِ الفتى حُنْكَةَ الكَهْلِ

وله من قصيدة أخرى: [الرمل]

بعماد الدِّينِ أضحت عُروة الدِّ (م) ين معصوباً بها الفَتْحُ المبينْ
واستزادت بقسيم الدَّوْلة الْـ ـقسم من إدْحاض كيدِ المارقينْ
مَلِكٌ أسْهَر عيناً لم يزل همُّها تَشْريدَ هَمِّ الرَّاقِدينْ
لا خَلَتْ من كَحَل النَّصْرِ فقد فقأت غيظاً عيونَ الحاسِدينْ
كُلُّ يوم مَرَّ مِنْ أيامه فهو عيدٌ عائدٌ للمسلمينْ
لو جرى الإنصافُ في أوصافه كان أولاها أميرَ المؤمنينْ
ما روى الرّاوُون بل ما سطَّروا مثل ما خَطَّتْ له أيدي السنينْ
إذْ أناخَ الشِّرْكُ في أكنافه بمئي ألفٍ تلاها بمئينْ
وقعةٌ طاحَتْ بكلبِ الرُّوم من قطعه التِّين إلى قَطْعِ الوَتينْ[٢]
إن حمت مصرٌ فقد قامَ لها واضحُ البرهان أن الصِّين صينْ
والرُّها لو لم تكن إلَّا الرُّها لكَفَتْ حَسْماً لشكِّ المُمْترين
دَرَجَ الدَّهْرُ عليها مُعْصِراً لم تدنَّس بمرام اللَّامسين[٣]
هَمَّ قسطنطين أن يَفْرَعَهَا ومضى لم يَحوِ منها قِسْطَ طِينْ
ولكَم مِنْ مَلِكٍ حاولها فتحلَّى الحَيْنَ وسماً في الجبين[٤]
هي أختُ النجْمِ إلّا أنَّها منه كالنجْم لرأي المُبْصرين
مُنِيَتْ منه بليثٍ قائدٍ بعِرَانِ الذُّلِّ آسادُ العَرِينْ[٥]
زارها يزأَرُ في أُسْدِ وغًى تُبْدِلُ الأُسْد من الزأر الأنينْ
صولجوا البيضَ بِضَرْبٍ نَثَرَ الْـ ـهامَ في ساحاتها نَثْرَ الكُرينْ[٦]

---

(١) تبتّك: من تبك أي قطع الشيء من أصله.

(٢) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) المعصر: التي بلغت عصر شبابها وأدركت، ويقال: هي التي قاربت الحيض. واللامسون: جمع لامس، من اللمس، وهو كناية عن الجماع.

(٤) الحين: الهلاك.

(٥) العران: خشبة تجعل في وترة أنف البعير، وهو ما بين المنخرين.

(٦) صولجوا البيض: أي جعلوا السيوف صوالجة، وهي جمع صولجان. والكرين: جمع كرة، وهي التي يلعب بها الصولجان.

يَـا لَـهَـا هِـمَّـةُ ثَـغْـرٍ أضـحـكَـتْ ... من بني القُلْفِ ثغورَ الشَّامتين[١]
بَــرْنَــسَــتْ رأسَ بــرنــسٍ ذِلَّــةً ... بـعـدما جـاسَـتْ حـوايا جـوسـلـيـنْ
وسَــرُوج مُــذْ وعــت أســراجــه ... فَـرَّقَـتْ جُـمَّـاعـهـا عـنـهـا عِـضـيـنْ[٢]
تــلــك أقــفــال رمــاهــا الله مــن ... عزمه الـمـاضـي بـخـيرِ الـفـاتـحـينْ
شــامَ مــنــه الــشَّــامُ بــرْقــاً ودْقُــه ... مؤمـنُ الـخـوفِ مـخـيفُ الآمـنـيـنْ[٣]
كـم كـنـيـسٍ كُـنِـسَـتْ آرامُـهـا ... منه بـعـد الرَّوْح في ظل السَّفـيـنْ[٤]
دَنَــتِ الآجــالُ مــن آجــالــهــا ... فـأحَـلَّـتْـهـا الـقـطـا بـعـدَ الـقَـطِـيـنْ
ومــنــارٍ يُــجْــتَــلــى صُــلْــبــانُــهُ ... بـيـن بِـيْـضٍ تـتـبـارى فـي الـبُـريـنْ
قَــرَعَــتْــه الــبــيــضُ حــتــى بــدلَــتْ ... قـرعـةَ الـنَّـاقـوسِ تـثـويـبَ الأذيـنْ
بـالـقَـسـيـميَّات مـقـسـوماً لـهـا الدَّ (م) ... هـر فـي عَـلْـكِ لُـجَـيْـنٍ أو لَـجِـيْـن[٥]
سَـلْ بـهـا حَـرَّان كـم حَـرَّى سَـقَـتْ ... بَــرداً يــوم رَدَتْ مــن مــارِدِيــنْ
سُـمِـطَـتْ أمـسِ سُـمَـيْـسَـاطُ بـهـا ... نَـظْـمَ جـيـشٍ مُـبْـهِـجٍ لـلـنَّـاظـريـنْ[٦]
وغـداً يُـلْـقـى عـلـى الـقُـدْس لـهـا ... كَـلْـكَـلٌ يَـدْرُسُـهـا دَرْسَ الـدَّرِيـنْ[٧]
هِـمَّـةٌ تُـمْـسـي وتـضـحـي عَـزْمَـةٌ ... لـيـس حِـصْـنٌ إنْ نَـحَـتْـهُ بِـحَـصِـيـنْ[٨]
قُــلْ لــقــوم غَــرَّهُــمْ إمــهــالُــه ... سـتـذوقـونَ شَـذَاه بـعـدَ حـيـنْ
إنّــه الــمــوتُ الّــذي يُــدْرِكُ مَــنْ ... فَــرَّ مــنــه فـشـجـاً لـلـغـافـلـيـنْ
وهـو يُـحـيـي مُـمْـسـكـي عُـرْوتـه ... إنَّـهـا حَـبْـلٌ لِـمَـنْ تـابَ مـتـيـنْ
مَـنْ يُـطـع يـنـجُ ومـنْ يَـعْـصِ يَـكُـنْ ... مِــنْ غَــدَاةٍ عِــبْــرَةً لــلآخــريــنْ

---

(١) بنو القلف: هم الروم والصليبيون، وسموا بذلك لأنهم لم يختتنوا.

(٢) عضين: أي متفرقين، من عضيت الشيء، إذا فرقته وشتته، ومنه قوله تعالى: **﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** [الحجر: ٩١].

(٣) ودْقُه: الودق: المطر.

(٤) أرامها: جمع رئم، وهو الخالص من الظباء، وقيل: هو ولد الظبي، والجمع أرآم، فقلبوا وقالوا: آرام، والأنثى رئمة. والرَّوْح: السرور والفرح.

(٥) القسيمات: جمع قسامي، وهو الفرس الذي أقرح من جانب، وهو من جانب آخر رباع، يعني الذي استكمل أسنانه، وهو بعد في الرابعة. واللُجين، بضم اللام: الفضة، واللَجين، بفتح اللام: ورق الشجر يخبط، ثم يخلط بدقيق أو شعير فيعلف.

(٦) سُمطت: أي عُلّقت على السمط، وهو خيط النظم.

(٧) الدرين: حطام المرعى إذا قَدُمَ، وهو ما بلي من الحشيش.

(٨) نحته: قصدته.

بكَ يا شمسَ المعالي رُدَّتِ الرُّ (م) وحُ في الْمَيْتَيْن من دُنْيا ودِينْ
أقسم الجَدُّ بأن تبقى لكي تملكَ الأرض يميناً لا يمينْ
وتُفيض العَدْلَ في أقطارها مُنْسياً مُؤْلِمَ عَسْفِ الجائرينْ
لا تَزَلْ دارُك كيف انتقلَت كعبةً محفوفةً بالطَّائفينْ
كل يوم ينجلي جِيْدُها من نظيم المَدْح بالدُّرِّ الثَّمينْ
كلَّما أُخلص فيها دَعْوَةٌ لكَ قالتْ أَلْسُنُ الخَلْقِ أمِين

فصل

[مقتل جقر نائب الموصل]

لما فرغ الشَّهيد من أخذ الرّها وإصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البِيرة؛ وهي حصنٌ حصين مطلٌ على الفُرَات، وهو لجوسلين أيضاً، فَحَصَره، وضايقه، فأتاه الخبرُ بقتل نائبه بالمَوْصل والبلاد الشَّرْقية نصير الدِّين جَقَر بن يعقوب، فرحل عنها خوفاً من أن يحدث بعده في البلاد فتقٌ يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سيَّر إليها حُسام الدين تمرتاش بن إيلغازي[١]؛ صاحب مارِدين عسكراً، فسلَّمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النَّصير في ذي القَعْدة سنة تسع وثلاثين؛ وسببُه أن الملك ألْب أرسلان المعروف بالخَفَاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد، وهو أتابكه ومربيه، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان، وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالةٍ فإنما يقول: قال الملك كذا وكذا. وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه، ويخرج الأموال ويطلب السَّلْطنة، فعاجلته المنيَّة قبل ذلك. وكان هذا الملك بالمَوْصل هذه السنة، وبها نصير الدِّين ـ وهو ينزلُ إليه كلَّ يوم يخدِمُه ويقف عنده ساعة ثم يعود ـ فحسَّن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنك إن قتلتَه ملكت المَوْصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان عليك. فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلمّا دخل نصير الدين إليه على عادته وَثَبَ عليه جماعةٌ في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى

(١) توفي سنة ٥٤٧هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٨٣.

أصحابه، ظنًّا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرَّقوا، ويملك الملك البلاد. وكان الأمرُ بخلاف ما ظَنُّوا؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لمّا رأوا رأسه قاتلوا مَنْ بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرِّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغيَّر عليه بهذا الفتق شيء. وكان في جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري[١]، أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدَعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يُحسِّن له الصُّعود إليها، وحينئذٍ يستقرُّ له ملك البلد. فلما صَعِدَ القلعة سجنوه بها، وقُتل الغِلْمان الذين قتلوا النَّصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرِّفونه الحال؛ فسكن جأشه، واطمأنَّ قلبه، وأرسل زين الدين علي بنَ بُكْتِكين[٢] والياً على قلعة المَوْصل[٣] ـ وكان كثيرَ الثقة به والاعتماد عليه ـ فسلك بالنَّاس غير الطَّريق التي سلكها النَّصير، وسهَّل الأمر؛ فاطمأن الناس وأمنوا، وازدادت البلاد معه عمارة. ولمّا رأى الشَّهيد صلاحَ أمر المَوْصل سار إلى حلب فجهَّزَ منها جيشاً إلى قلعة شَيْزَر، وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ، فحصَرَها.

قلت: كذا وقع في كتاب ابن الأثير[٤]، وقد وَهِمَ في قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»[٥]، فإنه قال: كان مع زَنْكي ملكان من أولاد السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه، أحدهُما يسمَّى ألب أرسلان وهو في مَعْقِلٍ من معاقل سِنْجار، والآخر يسمّى فَرُّخشاه ويعرف بالخفاجي الملك، وهو بالمَوْصل، وكان هذا الملك مُسَلَّماً إلى الأمير دُبَيْس بن صَدَقة، فانتزعه منه زَنْكي في حربٍ جرت، فكانت زوجة زنكي خاتُون السُّكْمانيَّة تربيه حتى بلغ، وكان النَّصير يقبضُ عنانه، ويبسط فيه لسانه، ويقول: إنْ عقَل وإلا عقَّلتُه، وإن نقل طبعه وإلا نقَّلْته. فدبَّر في قتله مع أصحابه، فقطعوه في دهليز داره لمّا دخل للسَّلام على الملك. ثم

(١) قاضي جزيرة ابن عمر، كان فقيهاً بارعاً ولد سنة ٤٩٥هـ، وتوفي سنة ٥٥٦هـ. كذا في وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٥، وفي «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢ توفي سنة ٥٦٦هـ، وفي «الكامل» ٩/ ٤٠٢ توفي سنة ٥٥٠هـ.

(٢) هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري، توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٨.

(٣) انظر خبر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على قلعة الموصل، في «الكامل» ٩/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) هو كتاب «نصرة الفترة وعصرة القطرة» لعماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ. في أخبار السلجوقية ووزرائها وأكابر دولتها وظهور الترك. (كشف الظنون ٢/ ١٩٥٦).

أصعد القاضي تاجُ الدين الملكَ إلى القلعة فلم يُرَ له أثر، والتقط مماليكه. ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجَه من معقِله، وعُني بتفاصيل أمره وجُمَله، وضَرَبَ له نوبتيَّة ونوباً، ورَتَّبَ له في حالتي ركوبه وجلوسه رُتَباً، وأُغري بتولّي إكرامه وتوخّيه، وغرضُه خفاءُ ما جرى مِنْ هلاكِ أخيه. ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جَعْبر كما سيأتي.

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بإرسال عسكر إلى حصن فَنَك يحصره، فسيَّر خلقاً كثيراً من الفرسان والرَّجَّالة، فأقاموا عليه يحصُرونه إلى أن أتاهم الخبرُ بقتل الشهيد أتابك. وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البَشْنَويّة، وله معهم مُدَّة طويلة، يقولون نحو ثلاثمائة سنة، وهو من أمنع الحصون، مُطلٌّ على دِجْلَة، وله سَرَبٌ إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

[قصيدة لابن منير في عماد الدين زنكي]

قلت: وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرَّقَّة عماد الدين زَنْكي، يهنّئه بالعافية من مرضٍ عَرَضَ له في يده ورجله قصيدةً أوَّلها: [السريع]

يــا بَــدْرُ لا أفــلٌ ولا مُــحَــاقُ ... ولا يَــرِمْ مــشــرقــكَ الإشــراقُ[1]

بـالـدِّيـن والـدُّنـيـا الـذي تـشـكـو وهـل ... يـهـتـزُّ فَـرْعٌ لـم يُـقِـمْـه سـاقُ

لـن تُـورِق الـقُـضْـب ويـجـري ماؤُهـا ... فـيـهـا إذا مـا الـتـاثـتِ الأعـراقُ

إن الـرَّعـايـا مـا سَـلِـمْـتَ فـي حـمًـى ... لِـلْـخَـطْـب عـن طُـرُوقِـهِ إطـراقُ

غَـرَسْـتَ بـالـعَـدْلِ لـهـم خـمـائـلاً ... تـرتـع فـي حـديـقِـهـا الـحِـدَاقُ

يـا هـضـبـة الـدِّيـنِ الـتـي عـاذَ بـهـا ... فـعـادَ لا بَـغْـتٌ وَلَا إزهـاقُ

لـو لـم تَـحُـطْـهُ راجِـلاً وقـافـلاً ... أصـبـح لا شـامٌ ولا عِـراقُ

عـمـادُ ديـنٍ مُـذْ أقـام زيـغَـهُ ... حـيَّ ومـاتَ الـشِّـرْكُ والـنِّـفـاقُ

يـا مـحـيـي الـعَـدْلِ الـذي فـي ظـلِّـه ... تـسـربَـلَـتْ زيـنـتَـهـا الآفـاقُ

يَـفـديـك مَـنْ لَانَ مِـهـادُ جـنـبـه ... لَـمَّـا نـبـا بـجـنـبـكَ الإقـلاقُ

مـن بِـشَـبَـا سيـفـك أنْـبَـطْـتَ لـهُ الْـ ... ـعـذْبَ ومـاءُ عَـيْـشِـه زُعـاقُ[2]

(١) لا يرم: أي لا يبرح.

(٢) بشبا سيفك: أي بحد سيفك. وأنبطت: أي استخرجت. وماء زعاق: ماء مرّ غليظ لا يطاق شربه من أجوجته.

تـجـرَّع الـسَّـمَّ ولـوْ لَـم تـحـمـه ... بـحـدِّه لَـعـزهُ الـدِّرْيـاقُ[١]
مـلـوك أطـرافٍ حـمـى أطـرافَـهـا ... عـزمُـك هـذا الـلاحـقُ الـسَّـبَّـاقُ
لـوْ لَـم تـرق مـاءَ كـرى الـعـيـن لَـمَـا ... سـاغَـتْ بـأفـواهـهـم الأرْيـاقُ[٢]
شـقـقـتَ مِـن دونـهـم مَـوْجَ الـرَّدى ... وشَـقَّ أكـبـادَهُـمُ الـشُّـقـاقُ
أُقـسـم لـو كـلَّـفْـتـهـم أن يـسـمـعـوا ... حـديـثَ أيَّـامـك مـا أطـاقـوا
لـمَّـا اشـتـكـيـت دبَّ فـي أهـوائِـهـم ... تـوجّـسٌ لـلـسَّـمـع واسْـتِـراقُ
تـطـاولـوا لا عـدمـت آمـالُـهـم ... قـصـراً ولا جـانـبـهـا الإخـفـاقُ
تـوهَّـمُـوهـا غَـسَـقـاً ثـم انـجـلَـتْ ... والـصَّـفـوُ مِـن مـشـربـهـم غَـسَّـاقُ[٣]
لـئـن ألَـمَّ ألَـمٌ بِـقـدمٍ ... خَـدُّ الـسُّـهـا لـنـعـلـهـا طِـراقُ[٤]
أو كـان مَـدَّ يَـدَهُ إلـى يـدٍ ... تـجـري بـهـا الآجـالُ والأرْزَاقُ
فـالـنَّـصْـل يُـغْـلَـى صَـدَأً وتـحـتـه ... حـدٌّ حـسـام وسـنـاً رَقْـرَاقُ
رمَـى الـصَّـلـيـبَ بـصـلـيـب الـرَّأي عـن ... زوراءَ أوهـى نَـزْعَـهـا الإغـراقُ
ونَـوْمُ مَـنْ خـلـف الـخـلـيـج سَـهَـرٌ ... والـعـيـش فـي فـرنـجـةٍ سِـيـاقُ[٥]
مـاتـوا فـلا هـمـسٌ ولا إشـارة ... خـوف هـمـوس زارهُ إزهـاقُ
لا سَـلَـبَـتْ مـنـك الـلَّـيـالـي مـا كـست ... ولا عـرت جِـدَّتَـك الإخـلاقُ

فصل

[في وفاة زَنْكي رحمه الله][٦]

قال ابن الأثير: كانت قلعة جَعْبَر قد سلَّمها السلطان مَلِكْشَاه إلى الأمير سالم بن مالك العُقَيْلي[٧] لما ملك قسيم الدَّولة مدينة حلب، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين. فسار الشّهيد إليها فحصرها، وكان الباعث له على

(١) الدرياق: لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين.
(٢) الأرياق: جمع ريق، وهو اللعاب.
(٣) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم.
(٤) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.
(٥) السياق: نزع الروح عند الموت.
(٦) انظر خبر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته في «الكامل» ٩/ ٣٣٩ ـ ٣٤١.
(٧) توفي سنة ٥١٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٢٣٤.

حصرها وحَصْرِ فَنَك ألا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قلَّ، لِلْحَزْم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع[١] خمس ليالٍ. فبينا هو نائمٌ دخل عليه نَفَرٌ من مماليكه فقتلوه غيلةً ولم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله. فلما صَعِدَ أولئك النفر إلى القلعة صاح مَنْ بها إلى العسكر يُعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم وبه رمق. ثم ختم الله بالشهادة أعماله: [الكامل]

لاقى الحِمام ولم أكن مُستيقناً ... أنَّ الحِمام سيُبْتَلَى بحِمامِ

فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلَّى عنه العبيد والخول، فأيّ نجم للإسلام أفل، وأي ناصرٍ للإيمان رحل، وأيّ بحر ندًى نضب، وأيّ بدر مكارم غرب، وأي أسدٍ افترُس، ولم يُنْجِه قُلَّة حصن ولا صهوة فرس. فكم أجهدَ نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدَّبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيدُ الأمم، ومُفْنيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التّراب مُعفَّراً مقبوراً، رهينَ جَدَثٍ لا ينفعه إلّا ما قدَّم، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوقٌ في صورة مستسلم. ثم دُفن بصفِّين عند أصحاب عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.

قلتُ: وذكر العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»، قال: قصد زَنْكي، حصار قلعة جَعْبَر فنازلها، وكان إذا نام ينام حوله عدَّة من خُدَّامه الصِّباح، وهو يحبهم ويَخْبُوهم ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم، وهم أبْناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والرُّوم. وكان من دأبه أنّه إذا نقم على كبيرٍ أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده وخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران، فشرع الخُدّام في اللّعب فزجرهم، وزبرهم وتوعَّدهم، فخافوا من سطوته. فلما نام ركبه كبيرهم، واسمه يرنقش، فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرسَ النَّوْبَة مُوهِماً أنّه يمضي في مُهمّ، وهو لا يُرتاب به لأنه خاصّ زَنْكي. فأتى الخادمُ أهل القلعة فأخبرهم. وذكر الحديث.

قلت: ثم نقل إلى الرَّقَّة فَدُفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الأثير[٢]: وكان حسنَ الصُّورة أسمر، مليحَ العينين، قد وَخَطَه الشيب، طويلاً وليس بالطويل البائن، وخلَّف من الأولاد: سيف الدين غازياً، وهو الذي وَلِي بعده، ونور الدّين محموداً الملك العادل، وقُطْب الدّين مودوداً؛

(١) في «الكامل»: ربيع الآخر.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤٠.

وهو أبو الملوك بالمَوْصل، ونُصرة الدين أمير أميران، وبنتاً، فانقرض عقب سيف الدّين من الذكور والإناث، ونور الدّين من الذكور، ولم يبق الملكُ إلّا في عقب قطب الدّين. ولقد أنجب رحمه الله؛ فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم.

قلت: ومن عجيب ما حُكي أنه لما اشتدَّ حصار قلعة جَعْبَر جاء في الليل ابنُ حسَّان المنبجي[1]، ووقف تحت القلعة، ونادى صاحبها، فأجابه، فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزرٍ ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيَّتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تَنْتَظر؟! فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك. وكان بلك بن بَهْرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصار، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أي شيء تنتظر، ما تسلم الحصن؟! فقال له حسّان: أنتظر سهماً من سهام الله. فلما كان من الغد بَيْنا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سَهْمُ غَرْبٍ[2] وقع في لَبَّته فخرّ ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلّا ذلك المكان؛ لأنه كان قد لبس الدِّرع ولم يَزُرَّها على صدره. فلما سمع ابنُ حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جَعْبَر رجع عنه. وفي تلك الليلة قُتل أتابك، فكان هذا من الاتّفاقات العجيبة والعِبَر الغريبة. ذكر ذلك يحيى بنُ أبي طيّ[3] في كتاب «السِّيرة الصلاحية»[4].

فــصــل

[في ذكر بعض سيرة الشهيد أتابك زَنْكي]

وكانت من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

---

(١) في «الكامل» ٩/ ٣٣٩: الأمير حسان المنبجي، وليس ابن حسان المنبجي.

(٢) سهم غرب: أي لا يعرف راميه.

(٣) هو يحيى بن حميدة بن ظافر بن علي الغساني الحلبي الأديب المؤرخ المعروف بابن أبي طي، المتوفى سنة ٦٣٠هـ. له من الكتب: «حوادث الزمان» في التاريخ، «سلك النظام في تاريخ الشام»، «طبقات العلماء»، «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر»، «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين»، «مختار تاريخ العرب»، «معادن الذهب» في الطب، «مناقب الأئمة الاثني عشر»، «المنتخب في شرح لامية العرب» (كشف الظنون ٦/ ٥٢٣).

(٤) هو كتاب «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين» انظر الحاشية السابقة.

قال ابنُ الأثير[1]: حدَّثني والدي قال: قدم الشهيد أتابك زنكي إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام. وكان في جُمْلة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدُّبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الرأي عنده ـ فدخل الدُّبيسي البلدَ ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشَّهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأُخبر به، وكان الشهيد واقفاً والدُّبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدُّبيسي نظر مُغْضَب ولم يكلِّمْه كلمة واحدة، فتأخَّر القهقرى، ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطِّين. قال: فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأيّ حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تُغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرَّعية وتعدُّوا عليهم وغصَبوهم أملاكهم.

ثم ذكر ما تجدَّد في أيامه من عمارة البلاد، لا سيما بالمَوْصل؛ وذلك لحُسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة. وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدَّار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان. ثم رفع سورَها وعمق خندقها. وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكانت المَوْصل أقلَّ بلاد الله فاكهةً، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقصُّ به العنب لِقلَّته إذا أراد أن يزنه، فلما عُمرت البلاد عُملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن حُسْن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سيَّما دَرْكاه[2] السُّلْطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويُكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره؛ من حرب وسلم، وهَزْل وجِدّ، وغير ذلك، فكان يصل إليه كلّ يوم من عيونه عدَّة قاصدين. وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدَّوْلة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يُعرف الصغيرُ ليُمنع صار كبيراً.

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤٠.

(٢) دركاه: لفظ فارسي معناه: الساحة أو الحوش أو الفناء المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان، أو قلعة الجبل. والجمع: دركاوات (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٥).

وكان لا يُمكِّن رسولَ ملكٍ يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسولٌ في العبور في بلاده أذن له، وأرسل إليه من يُسيِّره، ولا يتركه يجتمع بأحدٍ من الرَّعية ولا غيرهم؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئاً.

وكان يتعهَّد أصحابه ويمتحنهم، سلَّم يوماً خُشْكنَانكة[١] إلى طِشْت دارٍ[٢] له، وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنةٍ لا تفارقه الخُشْكنَانكة خوفاً أن يطلبها منه. فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخُشْكنَانكة؟ فأخرجها في منديلٍ وقدَّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً لحصن. وأمر له بدُزْدَارية قلعة كَوَاشى، فبقي فيها إلى أن قتُل أتابك.

وكان لا يُمكِّن أحداً مِنْ خَدَمِهِ من مفارقة بلاده وكان يقول: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السِّياج يهابُ الدُّخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سيَّر طائفةً من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارُق إلى الشَّام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، ومَلَّكَهم كلَّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يُغَادون الفرنج بالقتال ويُرَاوحونهم، وأخذوا كثيراً من السَّواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أَوْدَعَ بعضَها بالمَوْصل، وبعضها بسِنْجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنتُ على سَدِّ الخرق بالمال في غيره.

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النِّهاية فيهما، وبه كان تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جُملةً؛ أن ولايته أحدَقَ بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها؛ بيت سُكْمان، وركن الدولة داود صاحب حصن كَيْفا، وابن عمه صاحب ماردِين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق. وكان ينتصفُ منهم ويغزو كُلّاً منهم في عُقْر داره، ويفتح من بلادهم، ما عدا السُّلْطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان

(١) الخشكنانكة: في صبح الأعشى ٣/ ٥٨٨: خشكنان، ويعرف في مصر «بالخشتنان» وهو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو بالفستق.

(٢) طشت دار: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/ ١٠: ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاذ والسجادات التي يصلي عليها وما شاكل ذلك، ولها أيضاً مهتار من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدّة غلمان يعرفون بالطشت دارية.

يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأما غَيْرَتُه فكانت شديدةً ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرُّض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرُّض إلى حُرَمهم هلكن وفَسَدْن.

قلتُ: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخُدْري، وذكر حديثَ رجم النبي ﷺ ماعِزاً، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً قال: «أَوَكُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً في سَبِيلِ الله تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيالنا له نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ[١]، عَلَيَّ أَنْ لا أُوتِي بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إلَّا نَكَّلْتُ بِهِ»[٢].

قال ابنُ الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصِّه وأقربِ النَّاس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرَّض للحُرَم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبساني أن يسير مُجِداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبةً لنظره بهما إلى الحُرمِ، ثم يصلبه. فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلدَ، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح، ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعليَ قدرك، ويرفع منزلتك، ويسلِّم إليك قلعة حلب، ويولِّيَك جميع البلاد الشَّامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى المَوْصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السُّفن ليحدرها إلى المَوْصل في دِجْلة. فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح، وأمضى فيه ما أُمر به، وأخذ جميع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدَّق كل جُمُعة بمائة دينار أميري ظاهراً، ويتصدَّق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به. وركب يوماً فعثرت به دابَّتُه فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن

---

(١) النبيب: صوت التيس عند السفاد.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود حديث ١٧، ١٨، ٢٠، وأبو داود في الحدود باب ٢٣، والدارمي في الحدود باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/٨٦، ٨٧، ١٠٢، ١٠٣.

يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصَّتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك. فلم تزل زوجته تراجعه وتُقَوِّي عزمه، فعرَّف النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصُرَّة الدَّنانير واحملها إليه فهي التي أراد. فقال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصُّرَّة. فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم. فأمره أن يتصدَّق به. فلمّا فرغ من الصَّدَقة قصد النَّصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر، يرسِلُ إلي يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أنَّ دابَّته عثرت به حتى كاد يسْقُط إلى الأرض، وأرسلك إلي، فعلمتُ أنه ذكر الصَّدقة.

قال: وحُكي لي من شدَّة هيبته ما هو أشدُّ من هذا. قال والدي: خرج يوماً الشَّهيد من قلعة الجزيرة من باب السِّرِّ خلوة وملَّاح له نائم، فأيقظه بعضُ الجاندارية[1] وقال له: اقعد. فحين رأى الشَّهيد سقط إلى الأرض فحرَّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوُّن والتنقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغيّر على أحدٍ من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلّا بذنب يُوجب التّغيُّر، والأمراء والمقدَّمون الذين كانوا معه أولاً هُم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غُربته فيعود كأنه آهل. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرّجال ذوي الهمم العليَّة، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسِّع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسنَ ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة: [مجزوء الرمل]

---

(١) الجاندارية: في صبح الأعشى ٤/ ٢ (الطبعة الأميرية) أن الجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين: أحدهما: جان، ومعناه السلاح، والثاني: دار، ومعناه ممسك، ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠: الكلمة فارسية مركبة من: جان، ومعناها: الروح. ودار: بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس. والكلمة في السياق أعلاه تفيد معنى مهمة الحراسة أكثر مما تفيد الاستئذان على السلطان.

فــي ذَرَا مَــلْــك هــو الــدَّهْــ ـرُ عــطــاءً واسْــتِــلابــا[1]
مــن لــه كــفٌّ تــبــذُّ الــ ـغــيــثَ سـحًّــا وانــسـكــابــا
فــاتــحٌ فــي كــلِّ وجــهٍ أَمَّــهُ لــلــنَّــصْــر بــابــا
تَــرْجُــف الــدُّنــيــا إذا حَــرَّ (م) كَ لــلــسَّــيْــر الــرِّكــابــا
وتــخِــرُّ الــمُــشْــمَــخِــرَّا تُ اخــتــلالاً واضــطــرابــا[2]
وتــرى الأعــداءَ مــن هَــيْـ ـبَــتِــهِ تــأوي الــشِّــعــابــا
وإذا مــا لَــفَــحَــتْــهــم نــارُه صــارُوا كــبــابــا
يــا عــمــادَ الــدِّيــن لا زِلْـ ـتَ عــلــى الــدِّيــن سـحــابــا
جــاعــلاً مــن دونــه سَــيْـ ـفَــكَ إنْ رِيــع حِــجــابــا
فــالــبسِ الــنَّــعــمــاء فــي الأمــ ـنِ الــذي طِــبْــتَ وطــابــا
واصــفُ عــيــشــاً إنَّ أعــدا ءكَ قــد صــارُوا تُــرابــا

وقال العماد الكاتب: استولى زَنْكي على الشَّام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرُّها عَنْوَةً، واحتلَّ بها من السعادة ذروة، فتسنَّى بفتح الرُّها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين، وعادَ جميعُها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقودُ الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورُها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلُها تُفْتَرَع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في فساد الأطراف، والعيث في سائر النَّواحي والأكناف؛ ونظمتُ في صفة هذا الحال أبياتاً من قصيدة[3]: [الطويل]

كذاكَ عماد الدِّين زَنْكي تنافَرَتْ سعادَتُهُ عَنْهُ وخَرَّتْ دعائِمُهْ
وكم بيتِ مالٍ من نُضَارٍ وجَوْهَرٍ وأنواعِ دِيباجٍ حَوَتْها مخاتِمُهْ
وأضحت بأعلى كلِّ حِصْنٍ مصونةً يُحامي عليها جُنْدُه وخوادِمُهْ
ومِنْ صافناتِ الخيلِ كلُّ مُطَهَّمٍ يَرُوعُ الأعادي حَلْيُه وبَراجِمُهْ
فلو رامتِ الكُتَّابُ وصفَ شِياتها بأقلامها ما أدرك الوصفَ ناظِمُهْ

(١) الذرا: الكنف والستر.
(٢) المشمخرّات: أي الجبال العالية.
(٣) القصيدة في «ذيل تاريخ دمشق» ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

وكم معقلٍ قد رامَهُ بسُيوفه ... وشامِخ حِصْنٍ لم تَفُتْه غنائِمُهْ
ودانَتْ وُلَاةُ الأرضِ فيها لأمره ... وقد أمَّنَتْهُمْ كُتْبُه وخواتمُهْ
وأمَّن مَنْ في كُلِّ قُطْرٍ بِهَيْبَةٍ ... يُراعُ بها أعرابُه وأعاجِمُهْ
وظالم قوم حين يُذْكَرُ عَدْلُه ... فقد زالَ عنهم ظُلْمُه وخصائِمُهْ
وأصبحَ سُلْطانَ البلادِ بسيفه ... وليس له فيها نظيرٌ يُزاحِمُهْ
وزاد على الأملاكِ بَأْساً وسطوةً ... ولم يبق في الأملاك مَلْكٌ يقاوِمُهْ
فلما تناهى مُلْكُهُ وجلالُه ... وراعتْ وُلَاةَ الأرضِ منه لوائِمُهْ
أتاهُ قضاءٌ لا تُرَدُّ سهامُه ... فلم تُنْجِهِ أموالُه ومغانِمُهْ
وأدركه للحين فيها حِمامُه ... وحامتْ عليه بالمَنُون حوائِمُهْ
وأضحى على ظَهْرِ الفراشِ مُجَدَّلاً ... صريعاً تولَّى ذَبْحَهُ فيه خادِمُهْ
وقد كان في الجيش اللُّهام مَبِيْتُهُ ... ومِنْ حَوْله أبطالُه وصوارِمُهْ[(١)]
وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفِّهم ... تذُود الرَّدى عنه وقد نام نائمُهْ
ومِن دونِ هذا عُصْبةٌ قد ترتَّبَتْ ... بأسْهُمها يُرْدَى من الطَّير حائِمُهْ
وكم رامَ في الأيام راحةِ سِرِّه ... وهِمَّتُه تعلو وتقوى شكائِمُهْ
وكم مَسْلكٍ للسَّفْر أمَّن سُبْلَه ... ومسرحِ حَيٍّ أن تُراعَ سوائمُهْ
وكم ثَغْرِ إسلام حواه بسيفه ... من الرُّوم لما أدْرَكَتْهُ مراحِمُهْ
فمن ذا الذي يأتي بهيْبة مثله ... وتنفُذُ في أقصى البلادِ مراسِمُهْ
فلو رُقيت في كلِّ مِصْرٍ بذكره ... أراقِمُهُ ذلَّتْ هناك أراقِمُهْ[(٢)]
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهْرِ سالماً ... إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُهْ
ومَن رام صَفْواً في الحياة فما يرى ... له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يُحاوِمُهْ
فإيَّاك لا تغبِطْ مليكاً بمُلْكِه ... وَدَعْهُ فإنَّ الدَّهْرَ لا شكَّ قاصمُهْ
وقل للذي يَبْني الحصونَ لحِفظه ... رُوَيْدَكَ ما تَبْني فَدَهْرُكَ هادِمُهْ
وفي مثل هذا عِبْرَةٌ ومواعظٌ ... بها يَتَنَاسى المرءُ ما هو عازِمُهْ

[مقتل يرنقش الخادم قاتل زنكي]

قال: وفي ثامن عشر جُمادى الآخرة من السَّنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زَنْكي، وانفصل من قلعة جَعْبَر لخوف صاحبها من طلبه منه، فوصل

(١) الجيش اللهام: أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢) الأرقم من الحيات: الذي فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات وأطلبها للناس.

دمشق متيقناً أنه قد أمن بها، ومدلاّ بما فعله، وظنًّا منه أنَّ الحال على ما توهَّمه، فقُبِضَ عليه، وأُنْفِذ إلى حلب صُحبَةَ من حفظه وأوصله إليها، فأقام بها أياماً، ثم حُمل إلى المَوْصل وذُكر أنه قتل بها.

قلت: وللحكيم أبي الحَكَم المغربي[1] قصيدةً في مرثية الشَّهيد عماد الدين زَنْكي رحمه الله، منها: [الخفيف]

عينُ لا تذخري الدموعَ وبَكِّي ... واستهِلِّي دماً على فَقْدِ زَنْكي
لم يَهَب شخصَه الرَّدى بعد أنْ كا ... نتْ له هيبةٌ على كل تُرْكي
خيرُ مَلْكٍ ذي هيبةٍ وبهاءٍ ... وعظيم بين الأنام بُزُرْكِ
يَهَبُ المالَ والجيادَ لمن يمَّـ (م) ... ـمَهُ مادحاً بغير تَلَكِّي
إنَّ داراً تمدُّنا بالرَّزايا ... هي عندي أحقُّ دارٍ بِتَرْكِ
فاسْكُبوا فوقَ قبره ماءَ وَرْدٍ ... وانضَحُوهُ بِزَعْفرانٍ وَمِسْكِ
أيُّ فتكٍ جرى له في الأعادي ... بعد ما استفتحَ الرُّها أيُّ فَتْكِ
كلُّ خَطْبٍ أَتَتْ به نُوَبُ الدَّهْـ ... ـرِ يسيرٌ في جَنْبِ مَصْرعِ زَنْكي
بعد ما كاد أنْ تدينَ له الرُّو ... مُ ويَحْوي البلادَ مِن غير شكِّ

فصل

[فيما جرى بعد زَنْكي من تفرُّقِ أصحابه وتمَلُّك ولَدَيْه غازي ومحمود][2]

قال الرئيس أبو يعلى: توجَّه الملك ولد السُّلْطان، المقيم كان معه، فيمن صحبه وانضمَّ إليه إلى ناحية المَوْصل، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين

---

(١) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد الباهلي المري، أبو الحكم الأديب الأندلسي المعروف بالمغربي، ولد باليمن سنة ٤٨٦هـ. عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي بدمشق سنة ٥٤٩هـ. له: «ديوان شعره»، «مقصورة هزلية»، «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» أيضاً ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٦٤٨، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦١٤ ـ ٦٢٧، خريدة القصر، القسم الرابع، الجزء الأول ص٣٦٩ ـ ٣٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٥، نفح الطيب ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

أتابك[١]، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك أياماً إلى حين تقرَّرت الحال بينهم. ثم فتح الباب، ودخل ولدُه، واستقام له الأمر، وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين ـ يعني محمدَ بنَ أيوب الياغبساني[٢] ـ في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زَنْكي، وحصل بها، وشرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدَّهماء. وفَصل عنه الأمير صلاح الدين، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمرٍ يُدَبَّر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهق نور الدين لزم خدمةَ والده إلى أن انتهت مُدَّته على قلعة جَعْبر، وسيَّر في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السُّلطان محمود إلى المَوْصل مع جماعةٍ من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى المَوْصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمورَ الشَّام وأتوجَّه إليكم. ثم قصد حلب، ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخِر، ورتَّبَ النُّوَّاب في القلعة والمدينة.

وقال ابن أبي طيّ[٣] الحلبي: لما اتَّصل قتل أتابك بأسد الدين شِيركُوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين[٤] قد أخذ عسكر الموصلِ وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين وقصدُه إلى المَوْصِل، وقد انضوى إليه جُلُّ العسكر، وقد أنفذ إليَّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أُعرِّج عليه، وقد رأيتُ أن أصيِّرَك إلى حلب، وتجعلَها كرسي مُلكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشَّام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشَّرْق. فركب وأمر أن يُنادَى في الليل في عساكر الشَّام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول. ولما دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمتُّ بأنه كان السَّبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشَّهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن

---

(١) توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٤١ ـ ٣٦٠.

(٢) في «الكامل» ٩/ ٣٤١: صلاح الدين محمد الباغيسياني.

(٣) هو يحيى بن حميدة بن ظافي، المعروف بابن أبي طي، المتوفى سنة ٦٣٠هـ. تقدمت ترجمته.

(٤) هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، جمال الدين وزير الموصل. توفي سنة ٥٥٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.

السُّلْطان محمود ـ وكان مع الشهيد ـ واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصَّلاح يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلكَ طريقاً نبقي به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايته ليَتَّسِعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُه. فأجابه الصلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصلاح، وقالا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطِيعُه. فقبل قولهما، وظنَّه حقاً، وقرَّبهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي ـ وهو ولد عماد الدين زَنْكي الأكبر ـ وإحضاره إلى المَوْصل، وكان بشَهْرُزُور، وهي إقطاعُه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شِيركُوه عليه بذلك، وقال الجمال للملك: إنَّ من الرأي أن تُسَيِّرَ الصلاح إلى مملوك نور الدين بحلب يدَبِّر أمره ـ وكانت حماة إقطاعَ الصلاح ـ فأمره فسار، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرَّقَّة فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل والنِّعَم الوافرةُ. وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلِّف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرَّقَّة عِدَّة أيام، ثم سار به إلى ماكِسين فتركه بها عدَّة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذَّاته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سِنْجار. وكان سيفُ الدين غازي قد دخل المَوْصِل واستقرَّ بها، فقوِي حينئذٍ جَنانُ جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سِنْجار، فأرسل إلى دُزْدَارها وقال له: لا تُسلِّم البلد ولا تُمكِّن أحداً من دخوله، ولكن أرسلْ إلى الملك وقل له: إنَّا تبع المَوْصِل، فمتى دخلتَ الموصل سلَّمتُ إليك. ففعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنَّا نسير إلى الموصل، فإنَّ مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذٍ نقبضُ عليه ونتسلَّم البلاد. فساروا عن سِنْجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقي في قِلَّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بَلَد، وعبر الملك دِجْلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسي في عسكرٍ إلى الملك في عسكر، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان

آخرَ العهد به. واستقرَّ أمر سيف الدين، وأقرَّ زين الدِّين على ما كان عليه من ولاية المَوْصل، وجعل الجمال وزيرَه. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرَّه على البلاد، وأرسل له الخِلَع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف.

قال ابن الأثير: فانظروا إلى فعل جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقامُ الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: النَّاس ألفٌ منهم كواحد. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

[استقرار غازي في الملك]

قال: ولما استقرَّ سيفُ الدين في الملك أطاعه جميعُ البلاد ما عدا ما كان بديار بكر: كالمعدِن وحِيْزَان وإسْعِرد وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلَّبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر في تلك النَّواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسلُه ويستميله، فكلَّما طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل واحدٍ خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره، في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده.

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين: [الوافر]

أيا خيرَ الملوكِ أباً وجَدًّا وأنقعهم حياً لغليلِ صادِ[1]

علَوْا وغلَوْا وقال الناسُ فيهم شواردَ من ثُناءٍ أو أُحادِ

وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم بمنصبك القَسيميُّ العِمادي

وهل حلبٌ سوى نَفْس شَعَاعٍ تقسَّمها التَّمادي والتَّعادي

نفى ابنُ عماد دين عنها[2] الشـ (م) ـكاةَ فأصبحَتْ ذاتَ العمادِ

تَبَخْتَرُ في كُسَا عَدْلٍ وبَذْلٍ مُدَبَّجة التَّهائم والنِّجادِ

وفي محرابها داودُ منه يهذِّبُ حكمه آياتِ صادِ

تجاوزتَ النجومَ فأينَ تبغي تَرَقَّ فلا خلوتَ من ازديادِ

فصل

[فيما جرى بعد وفاة زَنْكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين]

قال ابن أبي طي: في سابع يومٍ من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج ليومه في عساكر أنطاكية، وقسم عسكره قسمين: قسماً نفَّذه إلى جهة حماة، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها ـ وكان الناس آمنين ـ فقتل وسبى عالماً عظيماً، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبرُ إلى حلب، فخرج أسد الدين شِيركُوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدَّ في السير، ففاتَهُ الفرنج، وأدرك جماعةً من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم، واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنجُ أخذته، وسار مُجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد أَرْتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفَّراً.

وقال ابن الأثير[3]: لما قُتل الشَّهيد سار مجير الدِّين صاحب دمشق في عسكر إلى بَعْلَبَكَّ وحاصرهم، وبها نجم الدِّين أيوب والد السُّلْطان صلاح الدين،

---

(١) أنقعهم: أي أرواهم.

(٢) نفى ابن عماد الدين عنها: كذا في الأصل.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤٢.

فسلَّمها إليه، وأخذ منه مالاً، وملَّكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابنُ أبي طَيّ: اشتدَّ صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء ـ لما شاء الله ـ من حصن بَعْلَبَك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهله القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدَّ الأمر، فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحبُ دمشق نجمَ الدين، وأقرَّ له الثُّلُث الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقرَّه فيها. ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدَّاية حتى ولّاهُ جميع أموره وجميع مملكته، فشقَّ ذلك على أسد الدين.

قال الرَّئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زَنْكَي بمعين الدين أُنَر شرع في التأهُّب والاستعداد لقصد بَعْلَبَكَ، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات. فنزل عليها وضايقها، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قِلَّةً دعتهم إلى النزول على حكمه. وكان الوالي بها ذا حزم وعقل ومعرفةٍ بالأمور، فاشترط ما قام له به من إقطاعٍ وغيره، وسلَّم البلد والقلعةَ إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسلم ما فيه من غَلَّة وآلةٍ في أيام من جُمادى الأولى من السنة. وأرسل[1] معين الدين الوالي بحمص، وتقرَّرت بينه وبينه مُهادنة ومُوادعةٌ يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال. ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدِّين بحماة، وتقرَّر بينهما مثل ذلك. ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بَعْلَبَك، وترتيب من رَتَّبه لحفظها والإقامة فيها.

قال: ووردت الأخبار في أيامٍ من جُمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين[2] جمع الإفرنج من كلِّ ناحيَة، وقصد مدينة الرُّها، على غفلةٍ، بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقَتل مَنْ فيها مِنَ المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زُهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدَّوابُّ في الطرقات من شدَّة السَّير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السَّيف فيهم. وقُتِل من أرمن الرُّها والنَّصارى من قُتل، وانهزم إلى بُرْج يقال له برج الماء، فحصل فيه ابن جوسلين في تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحدق بهم

---

(١) وأرسل: كذا بالأصل، ولعلها: وراسل، لموافقتها سياق الخبر.

(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٤٢، وفيه: جوسلين وليس ابن جوسلين.

المسلمون، وشرعوا في النَّقْب عليهم حتى تَعَزْقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأُخذ الباقون، ومحَقَ السَّيفُ كلَّ من ظُفر به من نصارى الرُّها، واستُخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونُهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسَّبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

قال ابن الأثير[١]: لما قُتل زَنْكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهلَ الرُّها ـ وكان عامَّتُهم من الأرمن ـ وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجَدَّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذٍ بحلب، فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرُّها، ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نُهبت وخُرِّبت وخَلَت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهَّز العساكر إلى الرُّها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قال: ومن عجيب ما جرى أنَّ نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنَّ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرُّها مع الشهيد كان في جملة ما غنمتُ جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السَّبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير المَوْصِل، ذكر فيها فتح الرُّها؛ أولها[٢]: [المتقارب]

أمَا آنَ أنْ يَزْهَقَ الباطِلُ	وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ
إلى كم يُغِبُّ ملوكَ الضَّلا	لِ سيفٌ بأعناقِها كافِلُ
فلا تَحْفِلَنَّ بِصَوْلِ الذئاب	وقد زأرَ الأسدُ الباسِلُ
وهل يمنعُ الدِّينَ إلا فتى	يَصُولُ انتقاماً فيستاصل
أبا جعفرٍ أَشْرَقَتْ دولةٌ	أضاءَ لها بَدْرُكَ الكامِلُ

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١٠٨/١ ـ ١١١.

فـإمَّـا نُـصِـبْـتَ لـرفـع اسـمِـهـا ... فـإنَّـكـمـا الـفِـعـلُ والـفـاعِـلُ
لِـيَـهْـنِـكَ مـا أفـرج الـنَّـصْـر عـنـه ... ومـا نـالـه الـمـلـكُ الـعـادِلُ
فـقـل لـلـحِـقَـاق الـطَّـريـقَ الـطَّـريـقَ ... فـقـد دَلَـفَ الـمُـقْـرَمُ الـبـازِلُ[1]
وجـاهَـد فـي الله حـقَّ الـجـهـا ... دِ مُـحـتـسِـبٌ بـالـعُـلا قـافِـلُ
وهـل يَـمْـنـعُ الـسُّـورُ مـن طـالـع ... يُـشـايِـعُـه الـقَـدَرُ الـنَّـازِلُ
فـإنْ يـكُ فـتـحُ الـرُّهـا لُـجَّـةً ... فـسـاحِـلُـهـا الـقُـدْسُ والـسَّـاحِـلُ
فـهـل عَـلِـمَـتْ عِـلْـمَ تـلـك الـدِّيـا ... رِ أن الـمُـقِـيـمَ بـهـا راحِـلُ
أرى الـقُـمْـصَ[2] يـأمُـلُ فَـوْتَ الـرِّمـاح ... ولا بُـدَّ أنْ تـضْـرِبَ الـشَّـائِـلُ[3]
يُـقـوِّي مـعـاقـلَـه جـاهِـداً ... وهـلْ عـاقـلٌ بـعـدَهـا عـاقِـلُ
وكـيـف بِـضَـبْـطِ بـواقـي الـجـهـات ... لـمـن فـاتَ حِـسْـبَـتَـهُ الـحـاصِـلُ

ولابن منير من قصيدةٍ في نور الدين: [الخفيف]

مَـلِـكٌ مـا أذلَّ بـالـفـتـح أرضـاً ... قـطُّ إلا أعـزَّهـا إغـلاقُـهْ
والـوهَـى فـي الـرُّهـاءِ أزجـى إلـيـهـا ... عـارضـاً شَـيَّـبَ الـدُّجـى إبـراقُـهْ
جـأرَتْ جـارةَ إلـيـه فـحـلَّـى ... عُـطَّـلاً مـن أعـنـاقـهـا إعـنـاقُـه[4]
تـلـك بِـكْـرُ الـفُـتـوحِ فـالـشَّـام مـنـهـا ... شـامُـهُ والـعِـراقُ بَـعْـدُ عِـراقُـهْ
أيـن كـان الـمـلـوكُ عـن وَجْـهِـهـا الـطَّـلْـ ... ـقِ يُـريـنـا إضـاءةَ إطـلاقُـهْ
سُـنَّـةٌ سـنَّـهـا أبـوه بـكـلـب الـرُّ (م) ... وم لـمـا أظـلَّـه إرْهَـاقُـهْ
خـافـقـاً قـلـبُـه إلـى أمـلٍ عـا ... جَـلَـه دون نَـيْـلِـه إخْـفـاقُـهْ
قـسـمـت رايـة الـمـواضـي الـقـسـيـمـيـ (م) ... ـات وابـتـزَّ مـن لَـهَـاهُ عـراقُـهْ
وكـذا أنـت يـا بْـنَـه مـا عـدا مـن ... خُـلْـقـه فـيـك خَـصْـلَـةً خَـلَّاقُـهْ
وكـفـى الـبَـحْـرَ أنَّـه ابـنُ سـحـابِ ... مـا وَنَـى سَـحُّـه ولا إضْـعَـاقُـهْ
لـم يَـمُـتْ مـن سَـدَدْتَ ثُـلْـمَـتَـه يـا ... مَـنْ عـلـى الـدِّيـن كـظِّـه إشْـفَـاقُـهْ

---

(١) الحقاق: جمع حِقّ، بكسر الجيم وتشديد القاف، وهو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يركب ويحمل عليه. والبازل: هو البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذلل، ويسمى السيد الرئيس من الرجال المقرم لعظم شأنه وكرمه.
(٢) في «خريدة القصر» ١/ ١١١: «القس» بدل: «القمص».
(٣) في «خريدة القصر» ١/ ١١١: «السابل» بدل: «الشائل».
(٤) الإعناق: ضرب من السير.

رهبة لم تدَعْ على الأرضِ قلباً خَلْفَ صَدْرٍ يَنْشَقُّ عنه شِقَاقُهْ
كلما طنَّ ذكْرُها منه في السَّمْـ ـعِ تَكَمَّى في النَّافِقاء نفاقُهْ[1]
وجهادٍ عن حوزة الدين لم يأ لُ له ركضه ولا إنفاقُهْ

وله فيه من قصيدةٍ أخرى: [الوافر]

بنورِ الدين روَّضَ كلُّ مَحْلٍ من الدُّنيا وجُدِّدَ كلُّ بالِ
أقام على ثَنية كلِّ خوفٍ سُهاداً بات يكلأُ كُلَّ كالِ
وصوَّبَ عدلُه في كلِّ أَوْبٍ فعوَّضَ عاطلاً منه بحالِ
ينكِّسُ رايَهُ رايَ المحامي ويَقْتُل خوفُه قبلَ القِتالِ
لقد أحصدتَ للإسلام عِزًّا يفوت سَنامُهُ يدَ كلِّ قالِ
وأصبحتِ العواصمُ مُلْحَفَاتٍ عِصَاماً غيرَ منتكثِ الحبالِ[2]

فصل

[توقيع كتب عن الحافظ لدين الله]

وقفت على توقيع كُتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذٍ، وهو الملقب بالحافظ[3]، وعليه علامته: الحمد لله رب العالمين:

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد البَيْسَاني[4] ـ وهو والد القاضي الفاضل[5]، وكان يومئذٍ متولِّي القضاء والحُكْم بمدينة عَسْقلان ـ يقول فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثَغْرِ عَسْقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدُّون توقيعاتٍ بقبول أقوالهم من غير تزكيةٍ من

---

(١) تكمَّى: أي تغطَّى، والنافقاء: جحر الضب واليربوع.
(٢) العصام: الحبل يُعصم به الشيء.
(٣) هو الحافظ لدين الله العبيدي، عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، تملك الديار المصرية سنة ٥٢٤هـ، بعد موت الآمر بأحكام الله، كان كثير الفتك بوزرائه، توفي سنة ٥٤٤هـ (الأعلام ٤/ ١٥٠، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٢).
(٤) هو القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني. كذا في ترجمة القاضي الفاضل، عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني.
(٥) القاضي الفاضل، تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول. أنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لا يُسمع قولُ شاهدٍ، وَلَا مَنْ تقدّم لِخَطَابةٍ ولا لصلاة بالناس، ولا لتلاوةٍ في موضع شريف، إلا من زكّاه أعيانُ شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان؛ فعَدَّ ثمانية أنفس: عبد السَّاتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا من أحسن ما يؤرَّخ عن أيام تلك الدولة المباينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبو يعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين تردَّدت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أُنَر إلى أن استقرَّت الحال بينهما على أجمل صفةٍ وأحسن قضية، وانعقدت الوُصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكَّدت الأمور على ما اقترح كلٌّ منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوَّال، وشُرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجَّهت الرُّسل عائدةً إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواصِّ الأصحاب، في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجَّه معين الدين إلى ناحية صَرْخَد وبُصْرى بالخيل والرَّجْلِ وآلات الحرب، ونزل على صَرْخَد، وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدَّوْلة كُمُشْتِكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً[1].

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية قبلي الجامع بدمشق.

قال: وكانت نفس ألتونتاش قد حدَّثته بجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صَرْخَد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم، فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نورَ الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرِّزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعِنَّة وأغذَّ المسير، فوصل دمشق في السَّابع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياماً يسيرة.

---

(١) توفي سنة ٥٤١هـ، وخوطب بالأتابكية سنة ٥٣٠هـ، وكان أميراً جليلاً. انظر ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٣.

[تسلم معين الدين بصرى وصرخد وانهزام الفرنج]
ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجَّه نور الدين نحو صَرْخَد، ولم يُشاهد أحسنُ من عسكره، وهيئته وعُدَّته، ووفور عِدَّته. واجتمع العسكران، وأرسل مَنْ بصَرْخَد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمُّع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم، مجدِّين السير إلى ناحيةَ بُصرى، وعليها فرقة وافرةٌ من العسكر محاصرةً لها. فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها. ووقعت العين على العين فانهزم الكُفَّار، ووَلَّوْا الأدبار، وتسلَّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صَرْخَد فتسلَّمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرَّم. وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش ـ الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله ـ إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُّماً منه أنه يُكرم ويُصطنع بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام. فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خُطْلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعُقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القِصاص، فَسُمِل كما سَمَل أخاه، وأُطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها.

قلت: وقد ذكر ابنُ منير وقعة بُصْرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدَّم بعضها منها: [الخفيف]

أيَّ شأْوٍ أدركتَ يا نورَ دينِ الـ ... ـله أعيا على الملوكِ لحاقُهْ
نَطَقَ الحاسدونَ بالعَجْزِ عن مَلْـ ... ـكِ محلَّى بالنَّيِّرات نِطَاقُهْ
غَضَّ أبصارَهُمْ لحاقُ جَوَادٍ ... ليس إلا إلى المعالي سِبَاقُهْ
سَلْ بصيراً كم أَعْتَقَتْ يومَ بُصْرى ... من إسارِ الموتِ الزُّؤامِ عِتَاقُهْ[1]
كم غُرَامٍ على العُرَيمة شَبَّتْ ... ضاقَ منه على الصَّليبِ خِنَاقُهْ
ولكم هَبْوَةٍ بهاب وأُخْتَيْـ ... ـها لها صَكَّتِ الأسارى رِبَاقُهْ[2]
بَسَطَ الذُّلَّ فوقَ بسطة باسو ... طا ولكن طواه عنه ارتفاقُهْ

---

(١) عتاقُه: جمع عتيق، وهو الفرس الكريم.
(٢) رباقُه: جمع ربق، وهو حبل فيه عدة عُرى تُشَدُّ به الغنم.

وفي هذه السنة ولد بِبَعْلَبَكَّ الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زَنْكي الرُّها.

قال أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الفقيه شيخ الإسلام أبو الفتح نصرُ الله بن محمد بن عبدالقوي المِصِّيصي[١] بدمشق، وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشَّافعي، ولم يخلِّف بعده مثله.

قال: وفي جُمادى الآخرة تقرَّرت ولاية حِصْن صَرْخَد للأمير مجاهد الدين بُزان بن مامين[٢] على مبلغ من المال والغَلَّة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهلُ تلك الناحية به لما هو عليه من حُبِّ الخير والصلاح، والتَدَيُّنِ والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان أظلم الجو، ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغَدِرة[٣] بين العشاءين، وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الوَرْس[٤]، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة، وكل ما يُنظر إليه من حيوانٍ وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرَّعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدَّات المزعجة، والرَّجفات المُفْزِعة، ما ارتاع لها الشِّيْبُ والشُّبَّان، فكيف الولدان والنسوان؟! وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبارٌ في رقة الهواء، بين البياض والغُبْرة.

قال ابن الأثير[٥]: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أَرْتاح بالسَّيف، وحصن باراة[٦]، وبصرفوث[٧]، وكَفْر لاثا. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردُّون ما أخذ منهم، فلما رأَوْا من نور الدين هذا الجِدَّ علموا أنَّ ما أمَّلوه بعيد.

---

(١) كان متجنباً أبواب السلاطين، ولد باللاذقية سنة ٤٤٨هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/١١٨ ـ ١١٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/١٢٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).

(٢) توفي في صفر سنة ٥٥٥هـ، ستر د ترجمته في صفحة لاحقة من هذا الجزء.

(٣) الغدرة: يقال: ليلة غدرة: أي شديدة الظلمة تحبس الناس في منازلهم، فيغدرون أي يتخلفون.

(٤) الورس: نبات مثل نبات السمسم لونه أصفر.

(٥) انظر «الكامل» ٩/٣٤٨.

(٦) في «الكامل»: «حصر مابولة» بدل «حصن باراة».

(٧) في «الكامل»: «بصرفوت» بالتاء، بدل «بصرفوث» بالثاء.

فصل

[في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى عنها]

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القُسْطنطينية وبلاد الفرنج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛ منهم الألمان والفُنش، وجماعةٌ من كبارهم في العدد الذي لا يُحصر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفيرَ النَّفيرَ إليها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عدَّتهم ألف ألف من الرَّجَّالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسْطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدُّخول في مُدَاراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفات والمِيَر وغلاء السعر ـ إذا وجدوه ـ ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

[الحرب بين الفرنج والمسلمين]

ودخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مائة ألف، وقصدوا البيت المقدَّس، فَقَضَوْا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلقُ العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين،

فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنَوْا من البلد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها، فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المِزَّة فخيَّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورَجْلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفُتَّاك وأحداث البلد والمطوِّعة والغُزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقَربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكَّن أحدٌ من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستُشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفِنْدَلاوي المالكي[1]، رحمه الله، قريبَ الرَّبوة على الماء؛ لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم؛ اتَّبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم[2] وقال: بعنا واشترى[3]، وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزَّاهد[4]، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى.

قلت: وذكر الأمير أسامة بن مُنْقذ[5] في «كتاب الاعتبار»[6] أن ملك الألمان

---

(١) هو حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي، أصله من المغرب، قدم دمشق حاجاً، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها مذهب الإمام مالك، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي (انظر: معجم البلدان ٤/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٢، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١].

(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٥٣: وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي، كان شيخاً كبيراً فقيهاً صالحاً، فلما رآه معين الدين وهو راجل، قصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل، وقال له: قد بعت واشترى مني، فوالله لا أقلته ولا استقلته، يعني قول الله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١].

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي (وليس الحلحول كما في المتن) نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بحلب، وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى قتل شهيداً (معجم البلدان ٢/ ٢٩٠).

(٥) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، مجد الدين، أبو المظفر الشيزري، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ، من تصانيفه: «أزهار الأنهار»، «البديع في علم البلاغة»، «التجاير المربحة والمساعي المنجحة»، «ديوان شعره»، «كتاب الاعتبار» (كشف الظنون ٥/ ١٩٦).

(٦) انظر «كتاب الاعتبار» ص١١٧.

الفرنجي لما وصل إلى الشَّام اجتمع إليه كلُّ من بالشام من الإفرنج، وقصد دمشق، فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفِنْدلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلْحُولي ـ رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين ـ فلما قاربوهم قال الفقيه: يا عبد الرحمن، أما هؤلاء الرُّوم؟ قال: بلى. قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله. فتقدَّما فقاتلا حتى قُتلا في مكان واحد، رحمهما الله تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتَّحصُّن بها، وهدُّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والرَّوْع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحَرِجَتْ معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم، ولا ينثني عن ذيادهم. ولم تزل رحا الحرب دائرةً بينهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تتهيأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كلٌّ منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفِّذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجَّالة الأطراف تتتابع. وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم، وزال عنهم رَوْعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ[1]، بحيث يقع في مخيَّمهم في راجل أو فارس، أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجَّالة كثيرة من الرُّماة، فزادت بهم العِدَّة، وتضاعفت العُدَّة. وانفصل كل فريق إلى مستقرِّه في هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصَّنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنُّشَّاب، وحذْفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظُنَّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبِّرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النَّفر اليسير من الخيل والرَّجْل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برِشْقة أو طعنة. وطمع

(١) الجرخ: آلة حربية كرمي السهام والحجارة والنفط، والقائم على تشغيلها يسمى جرخي.

فيهم نفر كثير من رَجَّالة الأحداث والضِّياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويُحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها. وحصل من رؤوسهم العدد الكثير. وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحُلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرَّحيل، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدَّوابِّ العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عَدَدَ له ولا حَصْر يلحقه، بحيث لها أرابيح من جيفتهم تكاد تَصْرع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرَّبوة والقُبَّة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشُّكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدَّة. فللَّه الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرَّحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للإنجاد لها.

وقال ابن الأثير[1]: خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرةً من الفرنج إلى بلاد الشَّام، فاتفق هو ومَنْ بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشكُّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً. فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين[2]، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتِكِين؛ وهو معين الدين أُنَر، فهو كان الحاكم والمدبِّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيِّراً حسنَ السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس المَغْرِبي الفِنْدَلاوي[3] شيخ المالكية بدمشق ـ وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً ـ خرج راجلاً، فرآه معينُ الدين، فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٣.
(٢) في «الكامل»: «طغدكين» بدل: «طغتكين».
(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل، وفي «الكامل»: يوسف بن ذي باس الفندلاوي.

القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نَسْتَقيله. يعني قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] الآية. وتقدَّم فقاتل الفرنج حتى قُتِلَ، رحمه الله، عند النَّيْرَب شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدَّموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعُفَ أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدَّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجدّاً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يُطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوَّابي وأصحابي وكانت الهزيمة ـ والعياذ بالله ـ علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوُّ عنها، وأعود إلى بلادي. فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدَّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوِّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدَّس. وبذل لهم أن يسلِّم إليهم بانياس إن رحَّلُوا ملك الألْمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسَّاحل. فأجابهم إلى الرَّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود، رحمه الله، كما سنذكره[١].

قلتُ: وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، رحمه الله، في «تاريخه» أن الفقيه الفِنْدَلاوي رُؤي في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرُرٍ متقابلين.

(١) فتح نور الدين محمود حصن بانياس سنة ٥٦٠هـ.

وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصَّغير من ناحية حائط المُصَلَّى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

وأما عبد الرحمن الحَلْحُولي[١] فقبره في بستان الشَّعْباني في جهة شرقه، وهو البُسْتان المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مُقامه في حياته في ذلك المكان، رحمه الله.

وقرأتُ قصيدةً في شعر أبي الحَكَم الأنْدَلُسي[٢] شَرَحَ فيها هذه القصَّة، منها: [الهزج]

بشطَّيْ نهر داريَّا ... أمورٌ ما تواتينا

وأقوام رأَوْا سَفْكَ الدّ (م) ... ما في جِلّقٍ دينا

أتانا مئتا ألفٍ ... عديداً أو يزيدونا

فبعضهمُ مِنَ أنْدَلُسٍ ... وبعضٌ من فِلَسْطينا

ومن عكًّا ومن صورٍ ... ومن صَيْدا وتِبْنِينا

إذا أبصرتَهُمْ أبْصَرْ ... تَ أقواماً مجانينا

ولكنْ حرَّقوا في عا ... جلِ الحال البساتينا

وجازوا المَرْجَ والتعديـ ... ـلَ أيضاً والميادينا

تخالهمُ ـ وقد ركبوا ... فطائرها ـ حراذينا

وبين خيامهم ضمُّوا الـ ... ـخنازر والقرابينا

ورايات وصُلْباناً ... على مسجدِ خاتونا

وقُلْنا إذْ رأيناهُمْ ... لعلَّ اللَّهَ يكفينا

سَمَا لهُم مُعينٌ قد ... أعانَ الخَلْقَ والدِّينا

وفتيانٌ تخالهمُ ... لدى الهيجا شَياطِينا

فولَّوْا يطلبونَ المرْ ... جَ من شرقيِّ جِسْرِينا

ولكنْ غادروا إليا ... سَ تحت التُّرْبِ مدفونا

وشيخاً فِنْدَلاويّاً ... فقيهاً يعضُدُ الدِّينا

وفتياناً تفانَوْا من ... دمشقَ نحو سَبْعينا

ومنهم مئتا عِلْجٍ ... وخيلٍ نحو تسعينا

وباقيهم إلى الآنَ ... مِنَ القَتْلِ يفرُّونا

(١) عبد الرحمن الحلحولي، تقدمت ترجمته.

(٢) أبو الحكم الأندلسي، عبيد الله بن المظفر، تقدمت ترجمته.

وللعرقلة حسَّان[١] في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذٍ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج، أوّلها: [الكامل]

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي ... بنسيمِها، وبذكرِ سُعْدى مُسْعِدي

يقول فيها:

مَنْ قاتلَ الإفرنجَ ديناً غيرهُ ... والخيلُ مِثْلُ السَّيْلِ عند المَشْهَدِ
ردَّ الأمانَ بكلِّ نَدْبٍ باسلٍ ... وَمِنَ الجيادِ بكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ[٢]
ومِنَ السُّيوفِ بكلِّ عَضْبٍ أبيضٍ ... ومِنَ العَجَاجِ بكلِّ نَقْعٍ أسودِ
حتى لوى الإسلامَ تحتَ لوائه ... وغدا بِحمْدٍ مِنْ شريعةِ أحمدِ

وقرأت في ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَراني قصيدةً في مدح تاج الملوك بُوري جدِّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين.

أول القصيدة: [البسيط]

الحقُّ مبتهجٌ والسَّيْفُ مُبْتَسِمُ ... ومالُ أعداء مجير الدين[٣] مُقْتَسَمُ

يقول فيها: [البسيط]

قُدْتَ الجيادَ وحصَّنْتَ البلادَ وأمَّـ (م) ـنْتَ العبادَ فأنت الحِلُّ والحَرَمُ
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ... معاقد الحزم في أوساطها الحُزَم
حتى إذا ما أحاط المشركونَ بنا ... كاللَّيْلِ يلتهم الدُّنيا له ظُلَم
وأقبلوا لا مِنَ الإقبالِ في عددٍ ... يؤود حاسبَهُ الإعياءُ والسَّأَمُ
أجريتَ بحراً من الماذيِّ معتكراً ... أمواجه بأواسي البأس تَلْتَطِمُ[٤]
وسُسْتَ جُنْدَكَ والرَّحمن يكلؤه ... سياسةً ما يُعَفِّي إثرها نَدَمُ
وقفتَ في الجيش والأعلام خافقةٌ ... بالنَّصْرِ كلُّ قناةٍ فوقها عَلَمُ

---

(١) العرقلة حسان: هو حسان بن نمير بن عبد الرحمن الدمشقي، الأديب النحوي المعروف بعرقلة الشاعر، ولد سنة ٤٨٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ. له ديوان شعره. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨ ـ ٢٢٩. وفي كشف الظنون ٥/ ٢٦٥، توفي عرقلة سنة ٥٩١هـ.

(٢) رجل ندب: خفيف في الحاجة، نجيب.

(٣) مجير الدين: كذا في الأصل. ولعله تحريف. إذ لقب بوري بن طغتكين، فخر الدين، وليس مجير الدين.

(٤) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي: خالص الحديد وجيده. وأواسي: جمع آسية، وهي الدعامة والسارية.

يحوطك اللَّهُ صوناً عن عيونهم ... والله يَعْصِمُ مَنْ بالله يَعْتَصِمُ
حتى إذا بَدَتِ الآراءُ ضاحكةً ... وأقبلَتْ أَوْجُهُ الإقبالِ تَبْتَسِمُ
أتْبَعْتَ جِنَّ سراياهم مُضَمَّرَةً ... فيها نجومٌ إذا جدَّ الوغى رَجَمُوا
والنَّصْرُ دانٍ وخيل الله مقبلةٌ ... ترجو الشَّهادةَ في الهيجا وتَغْتَنِمُ
صابَ الغمامُ عليهم والسِّهامُ معاً ... فما دَرَوْا أيُّما الهَطَّالة الدِّيَمُ
سَرَوْا لينتهبُوا الأعمار فانْتُهِبوا ... قتلاً ويَغْتَنِمُوا الأموالَ فاغْتُنِمُوا
وأقبلت خيلُنا تَرْدِي بخيلهم ... مجنوبَةً وعلى أرماحنا القِمَمُ
وأدْبَرَ المَلِكُ الطَّاغي يُزَعْزِعُه ... حَرُّ الأسِنَّة وَهْوَ البارِدُ الشِّيَمُ
وَافَوْا دمشقَ وظنُّوا أنَّها جِدَةٌ ... ففارقوها وفي أيديهم العَدَمُ
وأيقنوا مع ضياءِ الصُّبْحِ أنَّهُمُ ... إنْ لم يَزُولُوا سِرَاعاً زالَتِ الخِيَمُ
فغادروا أكثر القُربانِ وانجفَلُوا ... وخلَّفُوا أكبرَ الصُّلْبانِ وانهزَمُوا
مُسْتَسلِمين لأيْدِي المُسْلمين وقد ... أغرى القَنَا بتمادي خَطْفِهِمْ نَهَمُ
لا يملكُ الجسمُ دَفْعاً عن مَقَاتله ... كأنه حين يغشاهُ الرَّدى صَنَمُ
وحاولُوا المسجدَ الأدنى فما عَبَرَتْ ... عن مَسْجِدِ القَدمِ الأقصى لهم قَدَمُ

فصل

[فتح نور الدين حصن العريمة]

قال ابن الأثير[١]: لما رحل الفرنجُ عن دمشق سار معين الدين أُنَر إلى بَعْلَبَكَّ، وأرسل إلى نور الدين، وهو مع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضُرَ عنده، فاجتمعا، فوصل إليهما كتاب القُمْص صاحب طرابُلُس يشير عليهما بقصد حصن العُرَيْمة[٢] وأَخْذه ممن فيه من الفرنج. وكان سبب ذلك أن ولد الفُنش صاحب جزيرة صِقِلِّية خرج مع ملك الألمان إلى الشَّام، وتغلَّب على العُرَيمة وأخذها من القُمْص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً ـ وجدُّ هذا الذي ملك العُرَيمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب ـ فلما استولى هذا على العُرَيمة كاتَبَ القَوْمص نورَ الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مُجدَّيْن، فصبَّحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد، فأمدَّهما. فحصروا الحصن وبه ابن

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٤ ـ ٣٣٥.
(٢) في «الكامل»: «حصن العزيمة» بدل: «حصن العريمة».

الفُنش، ونقَّبوا السُّور فأذعن الفرنجُ واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كُلَّ مَنْ به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين.

وافتتح نور الدين أيضاً باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قُتل أكثر من كان فيه ـ يعني في حصن العُرَيمة ـ وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه، ونُهب ما فيه من العُدد والخيول والأثاث. وعاد عسكر سيف الدين إلى مُخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمه ومن أُسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجَّه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد فامية، وظفر بعِدَّة من الحصون والمعاقل الإفرنجية، وبعُدَّة وافرةٍ من الإفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمعَ الفرنج وقصده على حين غفلة منه، فَنَال من عسكره وأثقاله وكُراعه[1] ما أَوْجَبَتْه الأقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعةٍ وافرة من الإفرنج. وأقام بحلب أياماً بحيث جَدَّد ما ذهب له من البَرَك[2]، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل: لم يَعُد[3].

وذكر ابن أبي طيّ أن أسدَ الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدَّاية عليه لم ينصح يومئذٍ، وهي وقعةَ يَغْرا، ومَرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟! فقال: يا خُوند[4]، أيش ننفع نحن؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيَّب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقَّه، وأصلح بينهما.

قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهِنْشَاه بن أيوب، أخو الملك النَّاصر، وقيل في كسرة البقيعة[5].

---

(١) الكراع: السلاح، وقيل: الخيل والسلاح.

(٢) البرك، بالتحريك: كذا في الأصل، ولعلها: البَزك، بسكون الراء، وهو المتاع والثقل والكراع والسلاح، ولعلها: اليزك، ومعناها الطلائع. انظر صبح الأعشى ٧/ ٢٢٣.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٥.

(٤) الخوند: لفظة عجمية بمعنى السيادة، (صبح الأعشى ٦/ ٧٨).

(٥) في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ٤٥٢، أن شاهنشاه بن أيوب قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ.

قلت: وهو والد عز الدين فَرُّخْشاه، وتقي الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها المدرسة العذراوية داخل باب النَّصْر بدمشق، وقبره الآن بالتُّربة النَّجمية جوار المدرسة الحُسَامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدةٍ تقدَّمت اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال: [الخفيف]

لم يَشِنْهُ من ماء يغرا أن فرَّ (م) الأشاباتُ ذادَ عنها انذلاقُهْ[1]
كان فيها ليثَ العرينِ حمى الأشْـ ـبَالَ منه غضبانُ كالنَّارِ ماقُهْ[2]
وشبيه النبيّ يوم حُنَيْنٍ إذ تلافى أدواءَهُمْ دِرْيَاقُهْ[3]
وهي الحَرْبُ فحلُها يُحْسِنُ الكرَّ (م) ة إنْ عَضَّ بأسُها لا نِيَاقُهْ

[وقعة يغرا]

وقال ابنُ الأثير[4]: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى بُصرى[5]، وقد اجتمع بها الفرنج في قَضِّهم وقضيضهم، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل الله نصرَه على المسلمين، وانهزمَ الفرنج، وكانوا بين قتيلٍ وأسير، وفي هذه الوقعة يقول القَيْسَرَاني من قصيدةٍ أولها: [السريع]

يا ليتَ أن الصدود[6] مَصْدُودُ أوْ لَا فليتَ النَّوْمَ مَرْدُودُ
إلى متى تُعْرِضُ عن مُغْرَمٍ في خَدِّه للدَّمْعِ أُخْدُودُ
قالوا عيونُ البيضِ بيضُ الظُّبى قلتُ ولكنْ هذه سُودُ
يُخافُ منها وهي في جَفْنِها والسَّيْفُ يُخْشَى وَهْوَ مَغْمُودُ

ثم خرج إلى المدح فقال: [السريع]

وكيف لا نُثْني على عَيْشِنا الـ ـمحمودِ والسُّلْطانُ محمودُ

(١) الأشابات: الأخلاط من الناس، يقال: أوباش من الناس، وأوشاب من الناس.
(٢) ماقُه: مخففة من مأق، وهو مؤخر العين.
(٣) الدرياق: لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين.
(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٦.
(٥) بصرى: كذا في الأصل، وفي «الكامل»: «يغرى» وهو الصحيح.
(٦) أن الصدود: كذا بالأصل، وهو بهذا اللفظ مخل بوزن البيت، ولعلها: أن الصدَّ، ليستقيم الوزن.

فـلـيشـكـرِ الـنـاسُ ظـلالَ الـمـنـى ... إنَّ رِوَاقَ الـعـدْلِ مـمـدودُ
ونَـيِّـرَاتُ الـمُـلْـكِ وهَّـاجـةٌ ... وطـالـعُ الـدَّولـةِ مَـسْـعُـودُ
وصـارمُ الإسْـلامِ لا يـنـثـنـي ... إلا وشِـلْـوُ الـكُـفْـرِ مَـقْـدُودُ
مـنـاقـبٌ لـم تـك مـوجـودةً ... إلا ونـورُ الـديـن مـوجـودُ
مُـظَـفَّـرٌ فـي دِرْعِـهِ ضَـيْـغَـمٌ ... عـلـيـه تـاجُ الـمُـلْـكِ مَـعْـقُـودُ
نـالَ الـمـعـالـي حـاكـمـاً مـالـكـاً ... فَـهْـوَ سـلـيـمـانٌ وداودُ
تَـرْتَـشِـفُ الأفـواه أَسْـيَـافَـهُ ... إنَّ رُضـاب الـعِـزِّ مَـوْرُودُ
وكـم لـه مِـنْ وَقْـعَـةٍ يـومُـهـا ... عـنـد مـلـوكِ الـشِّـرْكِ مَـشْـهُـودُ
والـقـوم إمـا مُـزْهَـقٌ صُـرْعَـةٌ ... أو مُـوثَـقٌ بـالـقـدِّ مَـشْـدُودُ
حـتـى إذا عـادوا إلـى مِـثْـلِـهـا ... قـالـتْ لـهـم هَـيْـبَـتُـهُ عُـودُوا
طـالِـبُ بـثـأرٍ ضَـمِـنَـتْـه الـظُّـبـى ... فـكـلُّ مـا تَـضْـمَـنُ مَـرْدُودُ
والـكَـرُّ والـفَـرُّ سِـجـالُ الـوغـى ... فـطـاردٌ طَـوْراً ومَـطْـرُودُ
وإنَّـمـا الإفـرنـجُ مِـنْ بَـغْـيِـهـا ... عـادوا وقـد عـاد لـهـا هُـودُ
قـد حَـصْـحَـصَ الـحـقُّ فـمـا جـاحـدٌ ... فـي قـلـبـه بَـأْسُـكَ مـجـحـودُ
فـكـلُّ مِـصْـرٍ بـكَ مُـسْـتَـفْـتَـحٌ ... وكُـلُّ ثَـغْـرٍ بـك مَـسْـدُودُ

وقال أيضاً قصيدةً في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الإفرنج على يَغْرا[1] وهزمهم إلى حِصْن حارِم، وقد كانت الفرنجُ هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها: [الوافر]

تـفـي بـضـمـانِـهـا الـبِـيْـضُ الـحِـدَادُ ... وتَـقْـضـي دَيْـنَـهـا الـسُّـمْـرُ الـصِّـعَـادُ[2]
وَتُـدْرِكُ ثـارَهـا مِـنْ كـلِّ بـاغ ... فـوارسُ مـن عَـزَائـمـهـا الـجِـلادُ
ويَـغْـشـى حَـوْمَـةَ الـهَـيْـجَـا هُـمـامٌ ... تَـشُـدُّ بِـضَـبْـعِـهِ الـسَّـبْـعُ الـشِّـدادُ[3]
أظَـنُّـوا أنَّ نـارَ الـحَـرْبِ تـخـبـو ... ونـورُ الـديـن فـي يَـدِهِ الـزِّنـادُ!
وَجُـنْـدٌ كـالـصُّـقُـورِ عـلـى صُـقُـورٍ ... إذا انـقـضُّـوا عـلـى الأبـطـالِ صـادُوا
إذا أَخْـفَـوا مَـكِـيْـدَتَـهُـمْ أخـافُـوا ... وإنْ أَبْـدَوْا عَـدَاوَتَـهُـمْ أبـادُوا
وَنُـصْـرَة دولـةٍ حـامـيـتَ عـنـهـا ... وهَـلْ تَـخْـشـى وأنـتَ لـهـا عِـمـادُ

(١) تقدم قول المؤلف قبل قليل: بصرى، وهنا يغرا، وهو الصحيح.
(٢) السمر الصعاد: أي القنا المستويات اللواتي لا يحتجن إلى تثقيف.
(٣) الضبع: وسط العضدد.

وإنْ نُـتْـلِ الـقـوافـي مـا تَـلَـتْـهُ ... بـإنِّـب مـا يـؤبِّـنُـهـا سِـنَـادُ(١)
جَـرَتْ بـالـنَّـصْـرِ أقـلامُ الـعـوالـي ... ولـيـس سوى النَّجِيع لـهـا مِـدَادُ(٢)
وطـالـتْ أرؤُسُ الأعـلاجِ خِـضْـبـاً ... فـنـادى السَّـيْـفُ: قـد وَقَـعَ الـحَـصَـادُ
أحـطـتَ بـهـم فـكـانَ الـقَـتْـلُ صبراً ... ولا طَـعْـنٌ هـنـاكَ ولا طِـرَادُ
ولـلإبـرنـز فـوقَ الـرُّمْـحِ رأسٌ ... تَـوَسَّـدَ والـسِّـنـان لـه وِسَـادُ
تـرجَّـل لـلـسَّـلامِ فـفـرَّسـوه ... ولـيـس سـوى الـقَـنَـاةِ لـه جَـوَادُ(٣)
غَـضِـيـضُ الـمُـقْـلَـتـيـن ولا نُـعـاسٌ ... وغـائِـرُهـا ولـيـس بـه سُـهـادُ
فَـسِـرْ وَاسْـتَـوْعِـبِ الـدُّنـيـا فـتـوحـاً ... فـلا هَـضْـبٌ هـنـاك ولا وِهـادُ
وزُر ببـنـي الـوغـى مـثـوى حـبـيـب ... فـمـا عـن بـابِ مـسـلـمـةٍ ذيـادُ(٤)
ولا فـي بـاب فـارس غـيـر ثـكـلـى ... بـفـارسـهـا يـضـيء بـهـا الـحِـدَادُ
أأنـطـاكـيَّـة تـحـمـي ذَرَاهـا ... وقـد دانـتْ لِـسَـطْـوَتِـكَ الـبـلادُ
وأذعـنـتِ الـمـمـالـكُ واسـتـجـابـتْ ... مُـلَـبِّـيَـةً لِـدَعْـوَتِـكَ الـعِـبَـادُ

قلت: ووقعة إنَّب هذه كانت عظيمةً، وقد كَثُرَ ذكر الشعراء لها، وسيأتي ذكرها قريباً.

فصل

[إبطال نور الدين «حي على خير العمل»]

قال أبو يعلى التَّميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأنَّ صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال «حيَّ على خير العمل» في أواخر تأذين الغَدَاة، والتظاهر بسبِّ الصَّحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعدَه على ذلك جماعةٌ من السُّنَّة بحلب، وعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيُّع، وضاقت له صدورُهم، وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النوريَّة المشهورة، والهيبة المحذورة.

---

(١) ما يؤنِّبها سناد: أي ما يعيبها سناد، والسناد على أنواع وهو من عيوب القوافي.

(٢) النجيع: الدم.

(٣) ففرّسوه: لعلها من تفرّس في الشيء: نظر وتثبّت، ويقال: تفرّس فيه الخير: رأى فيه مخايل الخير. ولعلها: جعلوه فارساً، والفارس الماهر في ركوب الخيل.

(٤) حبيب: هو حبيب النجار، كان قبرة يزار بأنطاكية يقال: إنه نزلت فيه الآية الكريمة: **﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾** [يس: ٢٠] (معجم البلدان ١/ ٢٦٩).

قلت: وأنشده ابن منير في شهر رمضان: [السريع]

فِـدَاكَ مَـنْ صَـامَ ومـن أفـطـرا وَمَـنْ سـعـى سَـعْـيَـك أو قـصَّـرا
ومـا الـورى أهـلاً فَـتُـفْـدَى بـهـم وهـل يـوازي عَـرَضٌ جَـوْهَـرا
عَـدْلٌ تـسـاوَى تـحـتَ أكـنـافِـهِ مَـطَـافِـلُ الـعـيـنِ وأُسْـدُ الـشَّـرى[1]
يـا نـورَ ديـنِ الله كـم حـادثٍ دَجَـا وأَسْـفَـرْتَ لـه فـانْـسَـرى
وكـم حِـمًـى لِـلـشِّـرْكِ لا يـهـتـدي الـ ـوَهْـمُ لـه غـادَرْتَـه مَـجْـزَرَا
يـا مَـلِـكَ الـعـصـر الـذي صَـدْرُه أفـسـحُ مـن أقـطـارِهـا مَـصْـدَرا
وابْـنَ الـذي طـاول أفـلاكَـهـا فـلـم يـجـد مِـنْ فـوقـه مَـظْـهَـرا[2]
مـنـاقـبُ تـكـسِـرُ كِـسْـرى كـمـا تَـقْـصُـرُ عـن إدراكـهـا قَـيْـصـرا
مـا عـامَ فـي أوصـافِـهـا شـاعـرٌ إلا رأى أوصـافـهـا أَشْـعَـرا
لله أصـلٌ أنـت فَـرْعٌ لـه مـا أطـيـبَ الـمـجـنـى ومـا أَطْـهَـرا
مـا حـلـبُ الـبـيـضـاء مُـذْ صُـنْـتَـهـا إلا حَـرَامٌ مـثـل أُمِّ الـقُـرَى
شـيِّـدْتَ فـي مـعـمـورِ أرجـائـهـا لـكـلِّ بـاغـي عُـمْـرَةٍ مَـشْـعَـرا
فـأصـبـحَ الـشَّـادي إذا ثـوَّبَ الـ ـدَّاعـي لـه هـلَّـلَ أو كـبَّـرا[3]
لا عَـدِمَ الإسـلامُ مَـنْ كَـفُّـه كـهـفٌ لِـمَـنْ أُرهـق أو أُحـصِـرا
كـأنَّـمـا سـاحـتُـه جَـنَّـةٌ أجـرت بـهـا راحـتُـه كَـوْثَـرا
تَـصَـرَّمَ الـشـهـرُ الـذي كـنـتَ فـي أوقـاتِـهِ مِـنْ قَـدْره أَشْـهَـرا
جِـهـادُ لـيـلٍ فـي نـهـارٍ فَـفُـزْ إذْ كـنـتَ فـيـه الأصْـبـرَ الأشـكـرا
أصـدقُ مـا يـرشُـفُـه سـامـعٌ مـا هـزَّ مـن أوصـافِـكَ الـمِـنْـبَـرا
أبـقـاكَ لـلـدُّنـيـا ولـلـدِّيـن مَـنْ خَـلَّاكَ فـي لـيـلـهـمـا نَـيِّـرا
حـتـى تـرى عـيـسـى مـن الـقُـدْسِ قـد لـجـا إلـى سـيـفِـك مُـسْـتَـنْـصِـرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أُذِنَ لمن يتعاطى الوعظ بالتكلُّم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرَّسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم

(١) مطافل العين: أي أولاد بقر الوحش، والشرى: موضع تكثر فيه الأسود.
(٢) مظهراً: أي مصعداً.
(٣) ثوّب: رجّع، وثوّب: دعا، وثوّب الداعي: ثنّى الدعاء، ويقال: ثوّب بالصلاة: دعا إلى إقامتها، ومنه تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين فقال: الصلاة رحمكم الله، يدعو إليها عوداً بعد بدء.

وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجَّه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد، وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكَثُرَ فسادُ الفرنج المقيمين بصور وعكًا والثغور السَّاحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم، وخَيَّم في ناحية حوران بالعسكر، وكاتبَ العرب، واستدعى جماعةً وافرةً من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النِّكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجدِّدت المهادنة في المحرَّم مُدَّة سنتين، وأنفذ نورُ الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد بَرَزَ في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسَّة إلى معاضدته. فندب معينُ الدين مجاهدَ الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان.

[وقعة إنب وتسمى أيضاً وقعة الخطيم]

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنِّب، وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس مقدَّمهم صريعاً بين حُماته وأبطاله، فعرف وقُطع رأسُه وحُمل إلى نور الدين[1]. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الحِيَل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية، وقد خلتَ من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأُمهلوا. ثم رتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتَّب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأُمِّنوا على أنفسهم، وسلَّموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة مَن في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرُب من الأعمال الحلبيَّة له، وما قرُب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمَّة. وفصَل عنه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذِّكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأي، والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طيّ: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقَتَلَ البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحروب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحلبيين بقصيدةٍ يقول فيها: [البسيط]

إنْ كـانَ آلُ فـرنـجٍ أدركـوا فَـلَـحـاً ... في يوم يَغْرا ونـالـوا مُنْيَةَ الظَّفَرِ[1]

ففي الخَطيم خَطَمْتَ الكُفْرَ مُنْصَلِتاً ... أبا الـمُظَفَّرِ بـالـصَّـمْـصَـامـة الذَّكَرِ

نـالـوا بـيـغـرا نِـهـابـاً وانْـتَـهَـبْـتَ لـنـا ... على الخطيم نفوسَ المعشر الأَشِرِ

واستقودوا الخيلَ عُرْياً واستَقَدْتَ لنا ... قَوامِص الكُفْرِ في ذُلٍّ وفي صَغَرِ[2]

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عَظُمَ أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير[3]: سار نور الدين إلى حصن حارِم، وهو للفرنج، فحَصَره

---

(١) أدركوا فلحاً: أي فوزاً، ويوم يغرا، وقع في سنة ٥٤٣هـ.

(٢) استقود والخيل عرياً: أي لا سروج عليها. والقوامص: جمع قومس، وهو الأمير، وتكتب بالسين: قومس، والصاد: قومص.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

وخرَّب رَبَضَه، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن إنَّب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية، وساروا إليه ليُرَحِّلُوه عن إنَّب فلم يرحل، بل لقيهم وتصافَّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصَّبر في الحرب على حداثة سِنِّه ما تعجَّب منه الناس، وأجلت الحربُ عن هزيمة الفرنج، وقَتَلَ المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قُتِلَ البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج، وذوي التقدم فيهم والملك. ولما قتل البرنس خلَّفة ابناً صغيراً، وهو بيمند، فبقي مع أمِّه بأنطاكية، فتزوجت أمه بإبرنس آخر، وأقام معها بأنطاكية يدبِّرُ الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى، وهزمهم، وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أَسَره تملَّك بيمند أنطاكية بلد أبيه، وتمكَّن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس. وممَّن قال فيه القَيْسَراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها[1]: [البسيط]

هذي العزائمُ لا ما تدَّعي القضبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكُتُبُ[2]

وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خَطَبَتْ ... تعثَّرَتْ خَلْفَها الأشعارُ والخُطَبُ

صافحتَ يا ابنَ عمادِ الدين ذُرْوَتَها ... براحةٍ للمساعي دونها تَعَبُ

ما زال جَدُّكَ يبني كلَّ شاهقةٍ ... حتى ابتنى قُبَّةً أوتادُها الشُّهُبُ

لله عَزْمُكَ ما أمضى وهمُّكَ ما ... أقضى[3] اتِّساعاً بما ضاقتْ به الحِقَبُ

يا ساهدَ الطَّرْفِ والأجفانُ هاجعةٌ ... وثابتَ القَلْبِ والأحشاءُ تَضْطَرِبُ

أَغْرَتْ سيوفَك بالإفرنجِ راجفةٌ ... فؤادُ روميَّةَ الكُبْرى لها يَجِبُ

ضربتَ كَبْشَهُمُ منها بقاصمةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ

قُلْ للطُّغاة وإنْ صَمَّتْ مسامِعُها ... قولاً لِصُمِّ القَنا في ذِكْرِه أَرَبُ

ما يوم إنَّب والأيامُ دائلةٌ ... من يوم يغرا بعيدٌ لا ولا كَثَبُ

أَغَرَّكُمْ خَدْعةُ الآمالِ ظَنَّكُمُ ... كم أسلَمَ الجَهْلُ ظناً غرَّهُ الكَذِبُ

غَضِبْتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رضًى ... وكان دينُ الهُدَى مَرْضَاتُه الغَضَبُ

---

(١) أورد ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٦٣، سبعة أبيات منها.

(٢) القُضُب: جمع قضيب، وهو السيف اللطيف الدقيق.

(٣) أقضى: كذا بالأصل، ولعله تصحيف أقصى، وهي أكثر ملائمة للمعنى.

طهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ طهارةً كلُّ سَيْفٍ عندها جُنُبُ
حتّى استطارَ شرارَ الزَّنْدِ قادحهُ فالحَرْبُ تُضرَمُ والآجالُ تُحتَطَبُ
والخيلُ من تحت قَتْلاها تَقِرّ لها قوائمٌ خانَهُنَّ الرَّكْضُ والخَبَبُ[1]
والنَّقْعُ فوقَ صِقَال البيض مُنعَقِدٌ كما اسْتَقَلَّ دُخَانٌ تحتَه لَهَبُ[2]
والسَّيْفُ هامَ على هامٍ بمعركةٍ لا البَيْضُ ذو ذمّة فيها ولا اليَلَبُ[3]
والنَّبْلُ كالوَبْلِ هطَّالٌ وليس له سوى القِسِيِّ وأيدٍ فوقَها سُحُبُ[4]
ولِلظُّبى ظفرٌ حُلْوٌ مذاقَتُهُ كأنّما الضَّرْبُ فيما بينهم ضَرَبُ[5]
ولِلأسِنَّةِ عما في صُدُورِهِمُ مصادرٌ أقلوبٌ تلكَ أم قُلُبُ[6]
خانُوا فخانَتْ رِماحُ الطَّعْنِ أيدِيَهُمْ فاستسلموا وهي لا نَبْعٌ ولا غَرَبُ[7]
كذاك مَنْ لم يوقَّ الله مُهْجَتَه لاقَى العِدَى والقَنَا في كفِّه قَصَبُ
كانت سيوفُهُمُ أوحى حتوفِهُمُ يا رُبَّ حائنةٍ منجَاتُهَا العَطَبُ[8]
حتى الطوارقُ كانت من طوارقهم ثارتْ عليهم بها من تحتها النُّوَبُ
أجسادُهُمْ في ثيابٍ من دمائِهِمُ مسلوبةً وكأنَّ القومَ ما سُلبوا
أنباءُ ملحمةٍ لو أنها ذُكرت فيما مضى نَسِيَتْ أيامَها العَرَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْكِ مُكْتَسِباً من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ
ذو غُرَّةٍ ما سَمَتْ واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ إلّا تَمَزَّقَ عن شَمْسِ الضُّحى الحُجُبُ
أفعالُه كاسْمِه في كلِّ حادثةٍ وَوَجْهُهُ نائبٌ عن وَصْفِهِ اللَّقَبُ
في كلِّ يوم لفكري من وقائعه شُغْلٌ فكلُّ مديحي فيه مُقْتَضَبُ
مَنْ باتَتِ الأُسْدُ أسرى في سلاسله هل يأسر الغُلْبَ إلا من له الغَلَبُ[9]

---

(١) تقرّ: أي تسكن وتستقر. والخبب: نوع من العدو للفرس، يقال: خبّ الفرس خبباً: نقل أيامنه وأياسره جميعاً في العدو.

(٢) استقل: أي ارتفع.

(٣) البيض: جمع بيضة، وهي الخوذة. واليلب: الدروع.

(٤) الوبل: المطر الشديد، الضخم القطر.

(٥) الضَّرَب، بالتحريك: العسل الأبيض الغليظ، وقيل: عسل البر.

(٦) قُلُبُ: جمع قليب، وهو البئر.

(٧) النبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والغرب: نوع من الشجر أيضاً.

(٨) الحائنة: النازلة ذات الحين.

(٩) الغُلْب: بضم الغين، وسكون اللام: الأسد.

فـمـلَّـكُـوا سَـلَـبَ الإبـرنـز قـاتـلَـه ... وهَـلْ لـه غَـيْـرَ أَنْـطَـاكـيَّـةٍ سَـلَـبُ
مَـنْ لـلـشَّـقـي بـمـا لاقَـتْ فـوارسُـهُ ... وإن يـسـايـرهـا مـن تـحـتـه قَـتَـبُ
عَـجِبْتُ لـلـصَّـعْـدة الـسَّـمـراءِ مُـثْـمِـرَةً ... بـرأسـه إن إثـمـار الـقَـنَـا عَـجَـبُ[1]
سـمـا عـلـيـهـا سـمـوَّ الـمـاءِ أَزْهَـقَـهُ ... أُنـبـوبـةٌ فـي صَـعُـودٍ أصلُـهـا صَـبَـبُ
مـا فَـارَقَـتْ عَـذَبـاتُ الـتَّـاجِ مَـفْـرِقَـهُ ... إلا وهـــامـــتـــهُ تـــاجٌ ولا عَـــذَبُ
إذا الـقـنـاةُ ابْـتَـغَـتْ فـي رأسـه نَـفَـقـاً ... بـدا لِـثَـعْـلَـبِـهَـا مِـنْ نـحـره سَـرَبُ[2]
كـنـا نَـعُـدُّ حِـمـى أطـرافِـنـا ظَـفَـراً ... فـملَّـكَـتْـكَ الظُّبى ما ليس يُحْـتَـسَـبُ
عـمت فُـتُـوحُـكَ بـالـعَـذْوى مَـعَـاقِـلَـهـا ... كـأنَّ تـسـلـيـمَ هـذا عـنـد ذا جَـرَبُ
لـم يـبـقَ مـنـهـم سـوى نَـبْـضٍ بـلا رَمَـقٍ ... كـمـا الـتَـوَى بـعـدَ رأس الـحَـيَّـةِ الـذَّنَـبُ
فانْهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ ... يوليك أقصى المُنَى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ
وائـذَنْ لـموجكَ في تطهيرِ ساحِلِهِ ... فـإنَّـمـا أنـتَ بـحـرٌ لُـجُّـه لَـجَـبُ
يـا مَـنْ أعـادَ ثُـغـورَ الـشَّـام ضـاحـكـةً ... من الظُّبى عن ثُغورٍ زانها الشَّنَبُ[3]
مـا زِلْـتَ تُـلْـحِـقُ عـاصيها بـطـائـعـهـا ... حـتّـى أقـمـت وأنـطـاكـيَّـة حَـلَـبُ
حَـلَـلْـتَ مِـنْ عَـقْـلـهـا أيـدي مـعـاقِـلـهـا ... فـاسْـتَـجْـفَـلَـتْ وإلـى ميـثـاقِـكَ الـهَـرَبُ
وأيْـقَـنَـتْ أنَّـهـا تـتـلـو مـراكِـزَهـا ... وكـيـف يـثـبـتُ بـيـتٌ مَـا لَـهُ طُـنُـبُ[4]
أَجْـرَيْـتَ مـن ثُـغَـر الأعْـنَـاق أنْـفُـسَـهـا ... جريَ الجفونِ امتراها بارحٌ حَصِبُ[5]
ومـا رَكَـزْتَ الـقـنـا إلا ومـنـك عـلـى ... جسـرِ الـحـديـد هِـزَبْـرٌ غِـيـلُـه أَشِـبُ[6]
فـاسـعـدْ بـمـا نِـلْـتَـهُ من كـلِّ صـالـحـةٍ ... يـأوي إلـى جنَّـة الـمأوى لـهـا حَـسَـبُ
إلا تـكـن أحـدَ الأبـدال فـي فـلـك الـ ... ـتَّـقْـوَى فلا يُتمارى أنَّك القُطُبُ[7]
فـلـو تُـنَـاسِـبُ أمـلاكَ الـسَّـمـاءِ بـهـا ... لـكـانَ بـيـنَـكُـمـا مـن عِـفَّـةٍ نَـسَـبُ

---

(١) الصعدة: القناة.

(٢) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جبة السنان. والسرب: جحر الثعلب، وبيت تحت الأرض.

(٣) الشنب: هو صفاء الأسنان ونقاؤها.

(٤) تتلو: تخذل، تترك. والطنب، بالضم: حبل طويل يشد به البيت، وقيل: هو الوتر.

(٥) ثُغَر الأعناق: جمع ثُغرة، وهي نقرة النحر فوق الصدر. وامتراها: استخرجها واستدارها. والبارح: الريح الحارة في الصيف، وحصب: أي ذو حصباء.

(٦) الهزبر: الأسد، والغِيل، بالكسر: الأجمة، وكذلك عرين الأسد، والجمع غيول. والأشب: الملتف.

(٧) لا يتمارى: لا يشك.

هذا وهل كان في الإسلامِ مكرمةٌ إلّا شَهِدْتَ وعُبَّادُ الهوى غَيَبُ[(١)]

وله فيه من قصيدةٍ أُخرى: [الوافر]

أَلَا للهِ دَرُّكَ أيُّ دُرٍّ صريحٍ جاءَ بالكَرَمِ الصَّريحِ
وَعَسْكَرُكَ الذي استولى مُشِيْحاً على ما بين فاميةَ وشِيْحِ[(٢)]
ووقعتك التي نَبَتِ العوالي صوادِرَ عن قتيلٍ أو جريحِ
بإنِّبَ يومَ أبْرَزَتِ المَذَاكي من النَّقْعِ الغَزَالةَ في مُسوحِ[(٣)]
غداة كأنما العاصي احمراراً من الدَّمِ عبرة الجَفْنِ القريحِ
وقد وافاك بالإبرنز حَتْفٌ أُتيح له من القَدَرِ المُتيحِ
قتلتَ أشحَّهم بالنفس إذْ لا يجودُ بنفسه غيرُ الشحيحِ
ملأتَ بهم ضرائِحَهُمْ فأمْسَوا وليسَ سوى القَشَاعمِ من ضَريحِ
وَعُدْتَ إلى ذَرَا حلب حميداً سُموَّ البَدْرِ من بعد الجُنُوحِ
فإنْ حَلِيَتْ بغُرَّتك الليالي فكم لِسَنَاكَ من زمنٍ مليحِ
رُوَيْدَكَ تسكن الهيجا فَوَاقاً بحيث تريح من تَعَبِ المريح[(٤)]
فأنتَ وإنْ أَرَحْتَ الخيلَ وقتاً فهمُّكَ غيرُ هَمِّ المُستريحِ

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضاً بجسر الحديد[(٥)]: [الكامل]

أقوى الضَّلالُ وأَقْفَرَتْ عَرَصَاتُهُ وعلا الهُدَى وتبلَّجت قسماتُهُ[(٦)]
وانتاشَ دينَ محمدٍ محمودُه من بعد ما غُلَّتْ دماً عَبَراتُهُ[(٧)]

---

(١) غيب: جمع غائب.

(٢) مشيحاً: مجداً. وشيح: قرية كانت تعد قديماً من أعمال أنطاكية، يقال لها: شيح الحديد (الأعلاق الخطيرة الجزء الأول القسم الأول صفحة ١٢٦).

(٣) المذاكي: الخيل. والغزالة: الشمس.

(٤) الفَوَاق: بالتحريك: الراحة والتمهل، والفواق، للضرع: ما يعود فيجتمع من اللبن بعد ذهابه برضاع أو حلاب. والفُواق، بالضم: إفاقة العليل والسكران.

(٥) ذكر ابن الوردي في تاريخه ٢/٦٩ (المطبعة الحيدرية ـ النجف سنة ١٩٦٩)، ثمانية أبيات من القصيدة.

(٦) أقوى: افتقر، ومنه: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها.

(٧) انتاش: أُنقذ. وانتاشه: استدركه واستنقذه، وتناوله، وأخذه من مهواته. وفي تاريخ ابن الوردي: «عشراته» بدل: «عبراته».

رَدَّتْ علـى الإسلامِ عَصْـرَ شَبـابِـهِ وَثَـبـاتُـه مِـنْ دونـه وثَـبـاتُـه
أرسـى قـواعِـدَه ومَـدَّ عِـمـادَه صُـعُـداً وشَـيَّـدَ سُـورَهُ سـوراتُـه
وأعـادَ وجـه الحـقِّ أبـيضَ نـاصعـاً إصْـلَاتُـه وصِـلَاتُـه وصَـلَاتُـه[1]
لـمَّـا تـواكـل حِـزْبُـهُ وتـخـاذَلَـتْ أنـصـارُه وتـقـاصَـرَتْ خُـطُـوَاتُـهُ
رُفِـعَـتْ لـنـور الـدِّيـن نـارُ عزيـمـةٍ رَجَـعَـتْ لـهـا عـن طَبْـعِـهـا ظُـلـمـاتُـه
مَـلِـكٌ مـجـالـسُ لـهـوه شَـدَّاتـه ومُـشُـوقُـهُ بـيـن الـصـفـوف شَـذَاتـه[2]
يُـغْـرَى بـحـشْـحـشـة الـيـراعِ بَـنَـانُـهُ إنْ لـذ حَـشْـحَـشَـةَ الـكـؤوس لِـدَاتُـهُ
ويـروقُـه ثَـغْـرُ الـعِـدَى قـان دمـاً لا الـثَّـغْـر يَـغْـبَـقُ فـي لَـمـاه لِـثـاتُـه
فَـصَـبُـوحُـه خَـمْـرُ الـطُّـلـى وغَـبُـوقُـه نُـطَـفُ الـنُّـفـوسِ تُـديـرُهـا نـشـواتُـهُ[3]
فَـتْـحٌ تـعـمَّـمَـتِ الـسـمـاءُ بـفـخـرِه وَهَـفَـتْ عـلـى أغـصـانِـهَـا عَـذَبَـاتُـهُ
سَبَغَتْ على الإسلامِ بيض حُجُوله واخـتـالَ فـي أوضـاحـهـا جـبـهـاتُـهُ
وانـهـلَّ فـوقَ الأبـطـحـيـن غـمـامُـهُ وَسَـرَتْ إلـى سَـكْـنـيـهـمـا نَـفَـحـاتُـهُ[4]
لله بُـلْـجَـة لـيـلـةٍ مَـخِـضَـتْ بـه والـيـوم دَبَّـجَ وَشْـيَـه سـاعـاتُـهُ[5]
حَـطَّ الـقـوامِـصَ فـيـه بـعـد قِـمـاصـهـا ضربٌ يُصَلْصِلُ في الطُّلى صعقاتُهُ
نَـبَـذُوا الـسِّـلاحَ لِـضَـيْـغَـم عـاداتـه فَـرْسُ الـفـوارِسِ والـقَـنَـا غـابـاتُـهُ[6]
لـمـجـرِّب عُـمَـريَّـةٍ غَـضَـبَـاتُـهُ لله، مُـعْـتَـصِـمِـيَّـةٍ غَـزَوَاتُـهُ
تـجـنـا لـضـيـقِ صِـفَـادِهِ أُسَـراؤه وتُـفـيـضُ مـاءَ شُـؤُونـهـا نـغـمـاتُـهُ[7]
بـيـن الـجـبـالِ خـواضـعـاً أعـنـاقُـهـا كـالـذَّوْدِ نـابـت عـن بُـراه حُـدَاتُـهُ[8]
نَـشَـرَتْ عـلـى حلب عقودُ بُنودِهم حُـلَـلَ الـرَّبـيـع تـنـاسَـقَـتْ زهـراتُـهُ
رَوْضٌ جـنـاه لـهـا مَـكَـرُّ جـيـادِهِ واسْـتَـوْأَرَتْ حَـمَّـالَـةٌ حَـمَـلاتُـهُ

---

(١) إصلاته: أي تجريده للسيف من غمده. وهو هنا كناية عن الحرب، وصِلاتُه: منحه وهداياه، وهو هنا كناية عن الكرم. وصلاتُه كناية عن الإيمان.
(٢) شدّاته: أي حملاته في الحرب. وشذاته: أي شدّته وجرأته.
(٣) الطُّلى: جمع طلاة: وهي العنق.
(٤) سكنيهما: أي سكانهما.
(٥) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.
(٦) فرس الفوارس: أي قتلهم، والأصل في الفرس، دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً.
(٧) الصفاد: ما يوثق به الأسير، من قدّ وقيد وغل.
(٨) الذود: القطيع من الإبل ما بين الثلاث إلى التسع وبراه: الحلقة في أنف البعير.

متسانديـنَ على الرِّجال كما انتشى — شَـرْبٌ أَمـالَـتْ هـامَـه قـهـواتُـهُ[١]
لـم تُـنْـبـتِ الآجـامُ قـبـل رِمـاحِـهِ — شَـجَـراً أُصُـولُ فُـروعِـهِ ثَـمَـرَاتُـهُ
فَـلْـيَـحْـمَـدِ الإسلامُ ما جُـدِحَـتْ لـه — شَـرَبَـاتُ غَـرْسٍ هـذه مـجـنـاتُـهُ
وسقى صَدَى ذاك الحيا صَوْبُ الحيا — خَيْرُ الثَّرى ما كنتَ أنت نباتُهُ[٢]
نَـصَـبَ الـسَّـريرَ ومالَ عنه ومُهِّدَتْ — لِـمَـقَـرِّ مَـنْـصِـبك الـسَّـرِيِّ سَـرَاتُـهُ
مـا ضَـرَّ هـذا الـبـدر وهـو مـحـلِّـقٌ — أن الـكـواكـبَ فـي الـذُّرا ضَـرَّاتُـهُ
فـي كـلِّ يـوم تـسـتـطـيـل قـنـاتُـهُ — فـوق الـسَّـمـاء وتـعـتـلـي دَرَجَـاتُـهُ
وتـظـل تَـرْقُـمُ فـي الـضُّـحـى آثـارَه — مَـجْـداً وألـسـنـةُ الـزَّمـانِ رُوَاتُـهُ
أيـن الأُلـى مـلـؤوا الـطُّـروسَ زخارفاً — عـن نَـزْفِ بـحـرٍ هـذه قَـطَـرَاتُـهُ
عَـذَقُـوا بـأعـنـاق الـعـواطِـلِ مـا لـه — مـن جَـوْهَـرٍ فَـأَتَـتْـهُـمُ فَـذَّاتُـهُ
لـو فَـصَّـلُـوا سِـمْـطاً ببعضِ فتوحه — سَـخِـرَتْ بـمـا افـتـعـلوا لـهـم فعلاتُه
تـمـسـي قَـنـانـيـه بـنـاتُ قُـيـونـه — فـوقَ الـقـوانسِ والـقَـنـا قَـيْـنَـاتُـهُ[٣]
صَـلَـتَـانُ مـن دون الـمـلـوك تـقـرُّهـا — حـركـاتُـهُ وتُـنِـيْـمُـهـا يـقـظـاتُـهُ
قَـعَـدَتْ بـهـم عـن خـطـوه هِـمَّـاتـهـم — وَسَـمَـتْ بـه عـن قَـطْـوهـم هِـمَّـاتُـه[٤]
سَكَنُوا مسجَّفةَ الحِجَال وأَسْكَنَتْ — زجـل الرِّجـال مع السها عَزَمَاتُهُ[٥]
لـو لاح لـلـطـائـي غُـرَّة فـتـحِـهِ — بـاءتْ بـحـمـلِ تـأَوّهٍ بـاءاتُـهُ[٦]
أو هَـبَّ لـلـطَّـبـريِّ طِـيْـبُ نـسـيـمـه — لاخـتَـشَّ مـن تـاريـخِـه حشواتُـه[٧]

---

(١) قهواته: جمع قهوة، وهي الخمر.
(٢) الصوب: نزول المطر.
(٣) قنانية: جمع قنينة، من الزجاج الذي يجعل الشراب فيه، وقُيونه: جمع القين، وهو الحداد، والقوانس: جمع قونس: أعلى البيضة من الحديد، وقيناته: جمع قينة، وهي الأمة غنت أم لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماء.
(٤) القطو: المشي بثقل.
(٥) مسجّفة الحجال: السجف: الستر، والحجال: جمع حجلة، وهو بيت كالقبة يستر بالثياب، وكانت الحجلة تتخذ للعروس أيضاً. والسها: كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.
(٦) الطائي: هو أبو تمام الطائي، ويشير إلى قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها:
الـسـيـف أصـدق أنـبـاء مـن الـكـتـب — فـي حـده الـحـد بـيـن الـجـد والـلـعـبِ
(٧) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير، أبو جعفر الطبري، البغدادي المولد والوفاة، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ. صاحب التاريخ المشهور، والتفسير

صَدَمَ الصَّلِيبَ على صلابةِ عُوده فتفرَّقَتْ أيدي سبا خَشَباتُهُ
وسقى البرنس وقد تَبَرْنَسَ ذِلَّةً بالرُّوج مُمْقِرَ ما جَنَتْ غَدَراتُهُ[1]
فانقاد في خَطْمِ المنيَّة أَنْفُهُ يومَ الخَطِيمِ وأَقْصَرتْ نَزَوَاتُهُ
ومضى يُؤنِّبُ تحت إِنْبِ هِمَّةٍ أَمْسَتْ زوافِرَ غَيِّها زَفَرَاتُهُ
أُسدٌ تَبوَّأَ كالغريف فجاءَتْهُ فتبوَّأَتْ طَرَفَ السِّنانِ شَوَاتُهُ[2]
دونَ النُّجومِ مغمِّضاً ولطالما أَغْضَتْ وقد كرَّت لها لحظاتُهُ
فجلوته تبكي الأصادق تحته بدم إذا ضَحِكَتْ له شُمَّاتُهُ[3]
تمشي القناةُ برأسه وهو الذي نَظَمَتْ مَدَارَ النَّيِّرينِ قَنَاتُهُ
لو عانقَ العَيُّوقَ يومَ رَفَعْتَه لأراك شاهدَ خَفْضِه إِخْبَاتُهُ[4]
ما انقادَ قبلَك أنفُه بخزامةٍ كلا ولا همَّت لها هَدَراتُهُ[5]
طَيَّان خلف السَّرْحِ طال زئيرُه نَطَقَتْ سطاك له فطال صُماتُه[6]
لما بدا مسودُّ رأيك فوقه مبيضُّ نَصْرِك، نُكِسَتْ راياتُه
ورأى سيوفَكَ كالصَّوالج طاوَحَتْ مِثْلَ الكُرِين فقلَّصت كرَّاتُهُ[7]
ولَّى وقد شَرِبَتْ ظُباكَ كُماتَه تحت العَجاجِ وَأَسْلَمَتْه حُماتُه
ترك الكنائسَ والكِناسَ لناهبٍ بالبِيضِ ينهبُ ما حواه عُفَاتُه

المشهور (جامع البيان)، له من المصنفات: «الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة»، «اختلاف الفقهاء»، «تاريخ الرجال»، «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ومولد الرسل وأنباؤهم»، «جامع البيان في تفسير القرآن»، «تهذيب الآثار»، «كتاب البسيط في اللغة»، «الجامع في القراءات»، «كتاب التبصير»، في الأصول، «كتاب الخفيف في الفقه»، «كتاب الزكاة»، «كتاب الشذور»، «كتاب الشروط»، «كتاب الصلاة»، «كتاب الطهارة»، «كتاب العدد والتنزيل»، «كتاب الفضائل»، «كتاب القراءة»، «كتاب المحاضر والسجلات»، «كتاب المسترشد»، «كتاب الوصايا» وغيرها (كشف الظنون ٦/ ٢٦ ـ ٢٧).

(١) الروج: كورة من كور حلب. وممقر: شديد المرارة.
(٢) الغريف: الشجر الملتف. والشواة: جلدة الرأس.
(٣) الأصادق: جمع صديق.
(٤) العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. والإخبات: الخشوع والتواضع.
(٥) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير، يشد بها الزمام.
(٦) الطيان: الجائع. والسرح: الماشية. وحماته: سكوته.
(٧) الكرين: جمع كرة، وهي التي تضرب بالصولجان.

لـغـلاب أروع لا يُـمـيـتُ عِـدَاتِـه — داءُ الـمِـطـال ولا تـعـيـش عُـدَاتُـه
لـلـوحـشِ مـلـقًـى بـالـعـرا يـقـتـاتُـه — مـا كـانَ قَـبْـلُ بـصـيـده يـقـتـاتُـه
الـيـومَ مَـلَّـكـك الـقِـرَاعُ قـلاعَـه — مـتـسـنِّـماً مـا اسْـتَـشْـرَفَـتْ شـرفـاتُـه
وغـداً تُـحِـلُّ لـك الـحـلائـلَ أسـهـمٌ — مـتـوزِّعـاتٌ بـيـنـهـن بـنـاتُـهُ
أَوْطـأْتَ أطـرافَ الـسَّـنـابـك هـامَـه — فـتـقـاذَفَـتْ بـعـنـيـقـهـا قَـذَفـاتـه
لا زال هـذا الـمـلـك يـشـمـخُ شـأنُـه — أبـداً وتُـكْـفَـتُ فـي الـحـضـيضِ شـنـاتُـهُ
مـا أخـطـأتـكَ يـدُ الـزَّمـان فـدونَـه — مـن شـاء فـلـتـسـرعْ إلـيـه هَـنَـاتُـهُ
أنـت الـذي تـحـلـي الـحـيـاةَ حـيـاتُـه — وتُـهِـبُّ أرواحَ الـقـصـيـدِ هِـبَـاتُـهُ

فـصـل

[فتح نور الدين حصن أفامية]

قال ابن الأثير: وفيها[1] سار نور الدين إلى حصن أفامية ـ وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حِصْنٌ منيع على تلٍّ مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها ـ وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذلِّ والصَّغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وساروا نحوه ليزحزحُوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ.

ومدَحَه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن مُنير، قال: [الكامل]

أسنى الـمـمـالـك ما أَطَلْتَ منارَها — وجـعـلـتَ مُـرْهَـفَـةَ الـشُّـفـارِ دِثَـارَهـا
وأحـقُّ مَـنْ مـلـك الـبـلادَ وأهـلَـهـا — رَؤُوفٌ تـكـنَّـفَ عَـدْلُـه أقـطـارَهـا
من عام سام الـخـافـقـيـن وحـامـهـا — مـنـنـاً وزاد هـوًى فـخـصَّ نِـزَارَهـا
مُـضَـرِيَّـة طُـبـعـت مـضـاربُـه وإن — عَـدَّتْـهُ ذروة فـارسٍ أُسْـوارَهـا[2]
آل الـرعـيَّـة وهـي تـجـهـلُ آلـهـا — وتـعـافُ نُـطْـفَـتَـهـا وتـكـرَهُ دارَهـا[3]

---

(١) أي في سنة أربع وأربعين وخمسمائة.
(٢) الأسوار: قائد الفرس.
(٣) آل الرعية: أي ساسها وأحسن سياستها. والنطفة: الماء الصافي.

فأقرَّ ضجعتَها وأنبت نَيَّها وأساغ جُرْعتها وأثبت زارها
مَلِكٌ أبوه سما لها فسما بها وأجارها فَعَلَتْ سُهيْلاً جارَها
نَهَجَ السَّبيلَ له فأوضعَ خلفه وشدا له يُمْنُ العُلا فأنارَها[1]
أَنَشَرْتَ يا محمودُ مِلَّةَ أحمدٍ مِنْ بعدِ ما شَمَلَ البِلَى أبشارَها
إن جَانأَتْ عَدَلَ السِّنانُ قَوامَها أو نأنَأَتْ كان الحُسامُ جِبارَها[2]
عُقِلَتْ مع العُصْمِ العواصمِ مُذْ غَدَتْ هذي العزائمُ أسرَها وإسارَها
وتكفَّلَتْ لكَ ضُمَّرٌ أنضيتَها في صونها أن تستردَّ ضِمارَها
كَلأَتْ هوامِلَها وردَّ مطارها ما أريشَتْهُ وثقَّفَتْ آطارها[3]
كم حاولتْ من كَفِّتيها غِرَّةً غُلُبُ الأسودِ فقلَّمتْ أظفارَها
أنَّى وحامي سَرْحِها مَنْ لو سمت للفُلْكِ بَسْطَتُه أحال مدارَها
في كلِّ يومٍ من فتوحك سورةٌ للدِّين يحملُ سِفْرُه أسفارَها
ومطيلةٍ قِصَرِ المنابرِ إنْ غدا الـ ـخطباءُ تنثرُ فوقها تِقْصارَها[4]
هِمَمٌ تحجَّلَتِ الملوكُ وراءها بدمِ العِثَارِ وما اقتفَتْ آثارَها
وعزائمٌ تستوئِزُ الآسادَ عن نَهْشِ الفرائسِ إن أحسَّ أُوارَها[5]
أبداً تقصِّر طول مشرفة الذُّرا بالمشرفيَّة، أو تطيل قِصارَها
فغرَت أفاميةٌ فماً فهتَمْتَهُ كوبار أجناها الإران بوارَها[6]
أرهفتَ رأيك فوق رايك تحتها فحططتَ من شَعَفَاتِها أعفارَها[7]
أدركتَ ثأركَ في البُغاة وكنتَ يا مختارَ أمةِ أحمدٍ مختارَها
عاريَّةُ الزَّمنِ المعيرِ سما لها منكَ المغير فاستردَّ معارَها
زأر الهِزَبْرُ فقيَّدَتْ عاناتِها عصر الضَّلال وأسلمت أعيارَها[8]

---

(١) أوضع خلفه: أي سار خلفه.
(٢) جانأت: أي مالت. ونانأت: أي ضعفت وعجزت.
(٣) هواملها: أي المهملة. ومنه: إبل هوامل: أي مسيبة لا راعي لها.
(٤) التقصار: القلادة، للزومها قصرة العنق.
(٥) تستوئز: أي تفزع.
(٦) وبار: أرض كانت لعاد. والإران: البطر.
(٧) رايك: جمع راية. وشعفاتها: جمع شعفة، وهي رأس الجبل. وأعفارها: جمع عفر، وهو ظاهر التراب.
(٨) عاناتها: جمع عانة: القطيع من حمر الوحش.

ضاءت نجومُك فوقَها ولربَّما ... باتتْ تنافثها النجومُ سِرَارَها
أمست مع الشِّعْرى العبورِ وأصبحت ... شعراء تستفلي الفحولُ شِوَارَها
ولكم قَرَعْتَ بمقرباتك مثلها ... تلعاً، وقلَّدْتَ الكُماةَ عِذَارَها[1]
حتى إذا اشتملَتْكَ أشرَقَ سورُها ... عِزًّا، وحلَّاها سناكَ سوارَها
خرَّ الصَّليبُ وقد عَلَتْ نغماتُها ... واستَوْبَلَتْ صلواتهُ تكرارَها
لما وعاهَا سمعُ أنطاكيَّةٍ ... سَرَتِ الوقار وكشَّفَتْ أستارَها
فاليومَ أَضْحَتْ تستذمُّ مجيرَها ... من جَوْره وغداً تذمُّ جوارَها
عَلِمَتْ بأنْ ستذوق جُرْعَةَ أختِها ... إن زَرَّ أطواق القباء وزارَها
ماضٍ إذا قَرَعَ الرِّكابَ لبلدةٍ ... أَلْقَتْ له قبلَ القِرَاعِ إزارَها
وإذا مجانقُه رَكَعْنَ لصعبةِ الـ ... ـملقاةِ أسجد كالجدير جِدارَها
ملأ البلادَ مواهباً ومَهَابَةً ... حتَّى استرقَّتْ آيَهُ أحرارَها
يذكي العيونَ إذا أقامَ لعونها ... أبداً، ويفضي بالظُّبى أبكارَها
أومى إلى رِمَمِ النَّدَى فأعاشها ... وهمَى لسابقةِ المُنى فأزارها
نبويُّ تشبيه الفتوح كأنَّما ... أنصارُه رجعت له أنصارَها
أحيا لِصَرْحِ سلامها سَلْمانَها ... وأماس تحت عمارها عَمَّارَها
إن سار سار وقد تقدَّم جيشَه ... رَجْفٌ يقصِّع في اللّها ذُعَّارَها
أو حَلَّ حَلَّ حُبا القُروم بهيبةٍ ... سَلَبَ البُدُورَ بِدارِها أبدارَها
وإذا الملوكُ تنافسوا درج العُلا ... أَرْبَى بنفسٍ أفْرَعَتْهُ خِيارَها
ونُهَى إذا هِيْضَتْ تدلُّ بخيرِها ... وسُطَى تُذلُّ إذا عَنَتْ جَبَّارَها
تُهدَى لمحمودِ السَّجايا كاسمه ... لو لزَّ فاعله بها لأبارَها
الفاعلُ الفعلات يَنْظِمُ في الدُّجى ... بين النُّجوم حسودُها أسمارَها
ساعٍ سعى والسَّابقات وراءه ... عَنَقاً فعصفر منتماه عثارها
كالمَضْرَحيِّ إذا يُصَرْصِرُ رابئاً ... خرِسَ البُغاث وهاجَرَتْ أوكارَها
عُرِفَتْ لنورِ الدين نورُ وقائعٍ ... تغشى إذا اكتحلَتْ به أبصارَها
مشهورة سعطت وقد حاولتها الـ ... ـأقدار عجزاً أن تَشُقَّ غُبارَها
لله وجهك والوجوه كأنَّما ... حَطَّت بها أوقار هِيت قارَها

---

(١) المقربات: الخيل التي تكون قريبة معدة، مفردها: المقربة.

والبيض تخنِس في الصُّدور صدورها هَبْراً وتكتحل الشفور شفارَها
والخيل تدلجُ تحت أرشيةِ القَنا جَذْبَ المواتحِ غاورت آبارَها
فبقيتَ تستجلي الفتوحَ عرائساً متملِّياً صدرَ العُلا وصدارَها
في دولةٍ للنَّصْرِ فوقَ لوائِها زُبُرٌ تنمِّقُ في الطُّلَى أسطارَها[1]
فالدِّين مَوْمَاةٌ رَفَعْتَ بها الصُّوى وحديقةٌ ضَمِنَتْ يداك إبارَها[2]

وله فيه من قصيدة أخرى: [الكامل]

خَنَسَ الثَّعالبُ حين زمجرَ مصحر ملأ البلادَ هماهماً وزئيرا
تركُوا مشاجرةَ الرِّماحِ لحاذقٍ جَعَلَتْ مخافَتُه القُصورَ قُبورا
لربيبِ حَرْبٍ لم تزل فَعَلاتُهُ كالرَّاءِ يلزمُ لَفْظُهَا التَّكْريرا
أسدٌ إذا ما عاد من ظفرٍ بمفْـ ـترس أحدَّ لمثلِهِ أُظْفُورا
يتناذر الأعداءُ منه سطوةً ملءَ الزَّمان تغيُّظاً وزَفيرا[3]
عرفوا لنورِ الدين وقعَ وقائعٍ وفَّى بها الإسلامَ أمسِ نُذُورا
أبداً يظافرك القضاءُ على الذي تبغي فترجعُ ظافراً منصورا
قوَّضْتَ فانتقع الظهائر ظلمة وقفلتَ فاشتعلَ الدياجِرُ نورا[4]
وعلى العواصمِ من دفاعكِ عاصِمٌ يُنْسي الرَّشيدَ وينشرُ المنصورا

فصل

[في وفاة معين الدين أُنَر بدمشق[5]
ما كان من الرئيس ابن الصُّوفي[6] في هذه السَّنة]

قال أبو يعلى التَّميمي: فصل معين الدين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى

(١) الطُّلى: جمع طلاة، وهو العنق.
(٢) الموماة: المفازة الواسعة الملساء. وقيل: هي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس. والصوى: جمع الصوة، وهو ما نُصِب من الحجارة ليستدل به على الطريق.
(٣) يتناذر: أي يخوف بعضهم بعضاً.
(٤) الظهائر: جمع ظهيرة، وهي الهاجرة.
(٥) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٤. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٠، وقال ابن الوردي: وإليه ينسب قصر معين الدين بالغور.
(٦) هو مؤيد الدولة المسيب، سترد أخباره في هذا الجزء، وانظر «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

دمشق في أواخر ربيع الآخر، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبِّره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوَّته، وتولَّد معه مرضٌ في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق في مِحَفَّة لمداواته، فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نُقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها[1].

قلت: قبره في قُبَّةٍ بمقابر العوينة شمالي دار بطيخ الآن، واسمه مكتوبٌ على بابها، فلعلهُ نُقل من ثَمَّ إليها. وفيه يقول الأمير مؤيَّد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بُصرى وصَرْخَد مع نور الدين ـ وقد تقدَّم ذلك ـ كتب إليه قصيدةً يقول فيها: [الخفيف]

كلُّ يوم فَتْحٌ مبينٌ ونَصْرُ ... واعتلاءٌ على الأعادي وقَهْرُ
صَدَقَ النَّعْتُ فيكَ، أنت معين الد (م) ين إن النُّعوت فَألٌ وزَجْرُ
أنتَ سيفُ الإسلام حقاً، فلا كلّ (م) غِرَارَيْكَ أيها السَّيْفُ دَهْرُ[2]
لم تَزَلْ تُضْمِرُ الجِهَادَ مُسِرًا ... ثم أعلنتَ حين أَمْكَنَ جَهْرُ
كلُّ ذخرِ الملوكِ يَفْنَى وذخرا ... ك هما الباقيانِ: أجرٌ وشُكْرُ

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصَّلاة على المنبر بإبطال الفسة المستخرجة من الرَّعيَّة، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضَّرْب؛ فكثر دعاء الناس له وشُكْرُهم.

قال: واستوحش الرئيس مؤيَّد الدولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب جَمْعَ من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وحَمَلة السلاح من الجهلة العوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حَيْدَرَة[3]، للاحتماء بهم من مكروهٍ يَتمُّ عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب. ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يُسَكِّنهما ويطيِّب أنفسهما، فما وثقا بذلك، وجدًّا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثارا الفتنة، فقصدوا باب السجن وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفرُوا جماعةً من أهل الشَّاغور وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جَمْعٍ كثير، وامتلأت بهم الأزقَّة والدُّروب. فحين عرف

---

(١) هي المدرسة المعينية.
(٢) الغراران: شفرتا السيف.
(٣) قتل سنة ٥٤٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٤٢.

مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشَّاك[١]، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعُدَد، وفُرِّقت على العسكرية، وعزموا على الزَّحف على جمع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فسأل جماعةٌ من المقدمين التمهُّل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحُّوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطُّف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطاً أُجيبا إلى بعضها وأُعرض عن بعضٍ، بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُستدعًى إليها، وتقرَّرت الحال على ذلك، وسكنت الدَّهْماء. ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجَمَعَ الجمع الكثير من الأجناد والمقدَّمين والرِّعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحَصْرِ من بها، وطَلَبَ من عيَّن عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحربُ بين الفريقين، وجُرِح وقُتل بينهم نَفَرٌ يسير، وعاد كلُّ فريقٍ منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السَّلَّار زين الدين إسماعيل الشِّحْنة وأخيه إلى ناحية بَعْلَبَك، ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصُّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواصِ مجير الدين، وسكنت الفتنة وأُطلقت أيدي النَّهَّابة في دار السَّلَّارَيْن وأصحابهما، وعمهما النهب والإخراب. ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرِّياسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة[٢]: [مجزوء الوافر]

ذَرِ الأتـــراكَ والـــعَـــربـــا	وكُـــنْ فـــي حـــزب مَـــنْ غَـــلَـــبـــا
بـــجِـــلِّـــقَ أصـــبـــحـــتْ فـــتـــنٌ	تـــجـــرُّ الـــوَيْـــلَ والـــحَـــرَبـــا
لـــئـــن تـــمَّـــت فـــوا أســـفـــا	ولـــم تَـــخْـــرَبْ فـــوا عَـــجَـــبـــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة: [الخفيف]

زِدْ عُلُوًّا في المجدِ يا ابن عليٍّ	هـــكـــذا مَـــنْ أرادَ أنْ يَـــتَـــعَـــالـــى
قد حَوَى الدين يا مؤيِّدَهُ مِنْـ	ـكَ هِـــزَبْـــراً وديـــمـــةً وهـــلالا

(١) السلاح الشاك: أي السلاح التام.
(٢) تقدمت ترجمة عرقلة الشاعر قبل قليل.

وغـدت جِـلّـقٌ تـنـاديـك عُـجـبـاً هـكـذا هـكـذا وإلا فـلا لا[١]
جئتـهـا فـي الـظـلام خـيـلاً ورَجْـلاً وحـمـيـتَ الـنُّـفـوس والأمـوالا
لـن تـبـالـي مـن بـعـدهـا بـعـدوٍّ إنـمـا ذاك كـان قَـطْـعـاً فـزالا
قـد بـلـغـتَ الـمُـرَاد مـن كـلِّ ضـدٍّ وَكَـفَـى الـلَّـهُ الـمُـؤْمِـنِـيـنَ الـقِـتَـالَا[٢]

قال أبو يعلى التَّميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقَّب بالحافظ، واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر[٣] في خامس جُمادى الآخرة، وولي الأمر بعده ولدُه الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقِّب بالظَّافر[٤]، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي[٥].

فصل

[في وفاة سيف الدين غازي بن زَنْكي صاحب المَوْصِل[٦] وهو أخو نور الدين الأكبر]

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد ـ يعني زَنْكي ـ ملَك دارا، وبقيت بيده إلى أن قُتل، فأخذها صاحب مارِدِين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبي مضمن في القصيدة، وصدره:
ذي الـمـعـالـي فـلْـيَـعْـلُـوَنْ مـن تـعـالـى
يمدح في القصيدة سيف الدولة ويذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٤٤هـ. انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٦٤ (طبعة دار الكتب العلمية).
(٢) عجز البيت فيه تضمين من الآية الكريمة: **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾** [الأحزاب: ٢٥].
(٣) كذا ورد اسمه بالأصل. وهو الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المنتصر بالله العلوي، صاحب مصر، وخلافته عشرون سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحو سبع وسبعين سنة، وما ولي الخلافة من ليس أبوه خليفة غير الحافظ والعاضد. وبويع بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ عبد المجيد، واستوزر ابن مصال وبقي أربعين يوماً. انظر «الكامل» لابن الأثير ٩/ ٣٦١ ـ ٣٦٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨ ـ ٦٩.
(٤) في «الكامل» ٩/ ٣٦١: الظاهر بأمر الله أبو منصور إسماعيل. وهو تصحيف والصحيح الظافر بأمر الله. قتل في المحرم سنة ٥٤٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤.
(٥) ولي أبو الفتح بن مصال المغربي الوزارة أربعين يوماً ثم قتله العادل بن السلار. انظر «الكامل» ٩/ ٣٦١، ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٣.
(٦) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨.

أربع وأربعين، فحاصرها وملكها، واستولى على كثيرٍ من بلد ماردِين بسببها، ثم حصر ماردِين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أُخِذَ من البلاد بعد قتل والده، فتفرَّق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون. فقال صاحب ماردِين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه؟ فلقد كانت أعياداً! قد حَصَرَنا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السُّلْطان، ولا أخذوا كفّاً من التبن بغير ثمن: [الخفيف]

رُبَّ دهرٍ بكيت منه فلمَّا صِرْت في غيره بكيتُ عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوَّجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردِين وعاد إلى المَوْصل، وجُهِّزت خاتون وسُيِّرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريضٌ، فتوفِّي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنةً.

وكان من أحسن الناس صورةً، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصِل، وخلَّف ولداً ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوَّجه ابنة عمه قُطْب الدين مودود، فلم تطل أيامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحَزم.

وهو أوَّل من حُمِل على رأسه سَنْجَق[(١)] من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعلُه لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أوَّل من أمر عسكره ألا يركب أحدُهم إلا والسيف في وسطه، فلمَّا أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة؛ وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشَّافعية والحنفية نصفين. وبنى رباط الصُّوفية بالموصل أيضاً، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوفَ الكثيرة.

وكان كريماً؛ قصدَه شهاب الدين حَيْصَ بَيْصَ[(٢)]، وامتدحه بقصيدته

(١) السنجق: باللغة التركية معناه الطعن. والمراد به عند استعماله الراية، وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازاً (انظر صبح الأعشى ٢/ ١٤٢). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١/ ٤٧٤: أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم.

(٢) هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص، وإنما سمي بحيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حَيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومعنى هاتين =

المشهورة وهي من جيد شعره، فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهُّد مدَّة مُقَامه، وسوى الخلع والثياب.

قلت: أول تلك القصيدة: [الطويل]

* إلَامَ يراكَ المَجْدُ في زِيِّ شاعرٍ*[1]

يقول في آخرها[2]: [الطويل]

أتابكُ إن سُمِّيتَ في المَهْدِ غازياً ... فسابقةٌ معدودةٌ في البشائرِ
وَفَيتَ بها والدِّين قد مال رَوْقُه ... وصدَّقتها والكُفْرُ بادي الشَّعائرِ

وعزَّى* أبو الحسين أحمدُ بن منير نورَ الدِّين بأخيه بقصيدة تقدَّم بعضُها، أولُها: [الكامل]

* هو الجدُّ بَزَّ التمام البدورا *

يقول فيها: [الكامل]

سوى كل ما جَنَتِ الحادثا ... تُ ما كنتَ ظلاً علينا قريرا
أسأن وأحسن عكن الهلال ... وملأننا منك بدراً منيرا
إذا ثَبَجَ البحر أخطأنه ... فلا غَرْوَ أنْ ينتشفن الغديرا
وأَصْغِر بفقداننا الذاهبيـ ... ـن ما عشت تأتال ملكاً كبيرا
وما أغمد الدَّهرُ ذاك الحُسا ... مَ ما سلّ حدَّاك عَضْباً بَتُورا
قسيمُ عُلاك ونِعْمَ القسِيمُ ... أخٌ ساف نَزْراً وأعطى كثيرا
وكان نظيركَ غارَ الزَّما ... نُ من أنْ يرى لك فيه نظيرا
فَدَتْك نفوسٌ بك اسْتَوْطَنَتْ ... من الأمْن نوراً وقد كُنَّ بُورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين ... تُوقَّى الرَّدَى وتُوفَّى الأجُورا

الكلمتين: الشدة والاختلاط. وهو شاعر مشهور من أهل بغداد، نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة ٥٧٤هـ. له ديوان شعره. ورسائل في مسائل الخلاف (انظر: كشف الظنون ٥/ ٣٨٥، «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٩٧، خريدة القصر، قسم شعراء العراق ٢/ ٢٠٢ ـ ٣٦٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥).

(١) عجز البيت:

وقد نحلت شوقاً فروع المنابرِ

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨. وانظر مطلع القصيدة في «الكامل» ٩/ ٣٥٩.

وغـيـرك يـمـهـد بـسـط الـعـزاء ويـولـي الـمُـسَـلِّـيـن سـمـعـاً وَقـورا
ومـا نـقـص الـدَّهـرُ أعـدادكـم إذا شـفَّ قـطـراً وأبـقـى بُـحُـورا
ولـو أنـصـفَ الـمـجـدُ مـوتـاكـم لَـخَـطَّ لـهـم فـي الـسَّـمـاء الـقُـبُـورا
حـيـاتُـك أحـيـت رَمـيـمَ الـرَّجـاء وأمْـطَـتْ مـن الـجـود ظـهـراً ظـهـيـرا

وللقَيْسَراني قصيدةٌ منها: [البسيط]

مـا أَطْـرَق الـجـوُ حتـى أشـرقَ الأُفُـقُ إن أُغْـمِدَ السَّيْفُ فالصَّمصام يأتلقُ
دون الأسى منك نورَ الدِّين في حلبٍ مُـمـلَّكٌ ينجلي عن وجهه الغَسَقُ
كنتَ الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى أراق مـاءَ الـكَـرَى مـن جـفـنـك الأرَقُ
تلقى الأسى من لباس الصَّبر في جُنَنٍ حـصـيـنـةٍ تـحـتـهـا الأحـشـاءُ تـحـتـرقُ
ومـدَّةُ الأجـلِ الـمـحـتـومِ إن خَـفِـيَـتْ فـإنَّ أيـامـنـا مـن دونـهـا طُـرُقُ
وإنـمـا نـحـن فـي مـضـمـارِ حَـلْـبـتـهـا خـيـلٌ إلـى غـايـة الأعـمـار تَـسْـتَـبِـقُ
شـأوٌ إذا ابـتـدرَ الأقـوامُ غـايـتَـه كـان الـمـؤخَّـر فـيـهـا مـن لـه الـسَّـبَـقُ
إن كـان صِـنْـوك هـذا قـد ثـوى فـذوى فـفـي مـغـارسـك الأثـمـارُ والـوَرَقُ
أو أصـبـحـت بـعـدَه الأهـواءُ نـافـرةً أيـدي سـبـا فـعـلـى عـلـيـاك تـتَّـفِـقُ
مـا غـابَ مَـنْ غـابَ عـن آفـاقِ مـطـلـعـه إلَّا لـيـفـتـر عَـنْ أنـوارِكَ الأُفُـقُ
مـا دام شـمـسُـكَ فـيـنـا غـيـر آفـلـةٍ فـالـدِّيـن مـنـتـظِـمٌ والـمُـلْـكُ مُـتَّـسِـقُ

فصل

[ولاية قطب الدين مودود بن زنكي الموصل]

قال ابن الأثير[1]: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالمَوْصِل، فاتَّفقت كلمة جمال الدين[2] وزين الدين[3] على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لَيِّنَ الجانب، حسنَ الأخلاق، كثير الحلم، كريمَ الطباع. فأحضروه من داره وحلَّفوه لهم وحلَفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٢) جمال الدين: هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، جمال الدين، وزير الموصل، توفي سنة ٥٥٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٣) زين الدين: هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري، توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٨.

الأمراء والأجناد، واستقرَّ في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين. ولما ملك واستقرَّ في الملك تزوَّج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب مارِدين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قُطْب الدين أحدٌ غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحلُّ لها أن تضَعَ خِمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها.

ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمَّاهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوج عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: مِنْ معاوية رضي الله عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم؛ وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ فمعاوية جدُّ أمها، ويزيد جدُّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخوَيْها، وهؤلاء كلُّهم خلفاء وعدَّتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبنيٌّ على أصلٍ فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزوميّة، على ما بيَّناه في ترجمتها في «تاريخ دمشق». ولكن الصَّواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمرِ بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارمُ لها: معاوية جدُّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإِخوة والأعمام والأخوال وبني الإِخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك هما أخوا فاطمة وربيبا عاتكة، وعمر بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية.

وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حُسام الدين، فسِتُّ الشَّام بنت أيّوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها

الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الإِسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَك.

فصل

[مسير نور الدين إلى سنجار وصلحه مع مودود وتسلمه حمص]

قال ابن الأثير[(١)]: ولما ملك قُطْب الدين المَوْصِل والبلاد الجزريَّة كان أخوه نور الدين بحلب ـ وهو أكبر من قطب الدين ـ فكاتبه بعضُ الأمراء وطلبوه إليهم، منهم الأمير المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم[(٢)] وهو حينئذٍ دُزْدار سِنْجار. فسار نور الدين جريدةً[(٣)] في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسد الدين شِيركُوه، ومجد الدين أبو بكر بن الدَّاية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللَّبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشِّحنة وأخبروه بوصول نفرٍ من الأجناد وكأنهم تُركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين، فحين رآه الشِّحنة قبَّل يده، وخرج عن الدَّار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجدًّا إلى سِنْجار فوصلها وليس معه إلا نفرٌ يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورةٍ صغيرة من شدَّة تَعبه، وأرسل إلى المقدَّم بالقلعة يُعرِّفه وصوله، وكان المقدَّم قد استُدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه، فتوقَّف عدة أيام، فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسِنْجار، وقال له: أنا أتأخَّر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سِنْجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ووصل القاصد الذي سيَّره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتلِّ يعفر، فعاد إلى سِنْجار وسَلَّمها إلى نور الدين، وكاتَبَ فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٥.

(٢) هو شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك، من كبراء أمراء الدولتين النورية والصلاحية. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٨١ ـ ٨٢. الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٣) الجريدة: أي الحملة العسكرية المكونة من فرسان فقط ليس فيها رجّالة.

الحصن يستنجده، وبَذَلَ له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن المَوْصِل نحو سِنْجار، ومعه الجمَال والزَّين، ونزلوا بتلٍّ يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، ويهدِّدوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر، وأنا أحقُّ أن أدبِّر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليَّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتَهم لولايتكم عليهم ـ يعني الجمال والزَّين ـ فخِفت أن يحملهم الغيظ والأنَفَة على أن يُخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدُّدُكم إيّاي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم. وكان قد هرب إليه جماعةٌ من أجنادهم، فخافوا أن يلقَوْه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصُّلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نُظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدَّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنجُ، ولنا بالشَّام حمص وقد صار له عندنا سِنْجار، فهذه أنفعُ لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي أن نسلِّم إليه حمص ونأخذ سِنْجار، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعيَّن مساعدته. فاتفق الجماعةُ على هذا الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين، وأبرم معه الأمر، وتسلَّم حمص وسَلَّم سِنْجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسِنْجار من المال. ولما تسلَّم قُطْب الدين سِنْجار أقطعها لزين الدِّين، لأن حمص كانت لأخيه يَنَال وهو مقيمٌ بها. واتفقت كلمتهم واتحدَتْ آراؤهم، وكلُّ واحدٍ منهما لا يصدُر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما تستغني به عن وزيرٍ ومُشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأنَّ عدوَّك كافرٌ فالنَّاس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنتُ عند أخيك فالنَّفع إليك عائد، وأريد من بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونةً على كثرة خرجي. فأجابه إلى ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرجٌ كثير لأجل الكُفَّار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت: وقرأت في «ديوان القَيْسراني»: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سِنْجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة: [الكامل]

هــذا الــذي وَلَــدتْ لــه الأفــكــارُ ... وتــمــخَّــضَــتْ فــألاً بــه الأشــعــارُ
وجَـرَتْ لـه خـيـل الـنُّـهـى فـي حَـلْـبـةٍ ... وردت وصفـو ضـمـيـرهـا الـمِـضْـمـارُ
وأتـت بـه نُـذرُ الـقـوافـي بُـرهـةٍ ... إنّ الـقـوافـي وحـيـهـا إنـذارُ

حكَمَتْ لسيفكِ بالممالكِ عَنْوَةً حكماً لَعمري ما عليه غُبارُ
يأيها الملك المقلُّ نِجادُهُ بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيِه الأبرارُ
يا ابن السيوفِ وهل فَخَرْتَ بنسبةٍ إلا سما بك قائمٌ وغِرارٌ[١]
فارَقْتَ دارَ المُلْكِ غير مُفارِقٍ لكَ من عُلاك بكلِّ أرضٍ دارُ
في عسكرٍ تخفي كواكبُ ليله نَقْعاً فيطلِعُها القَنَا الخطَّارُ
جرَّارُ أذيالِ العَجَاجِ وراءه وأمامَهُ بل جحفلٌ جَرَّارُ
تُدْني لكَ الغاياتِ أكبرُ هِمَّةٍ نوريَّةٍ هِمَمُ الملوكِ كِبارُ
حتى ملأتَ الخافقينِ مهابةً دانت لعُظْمِ نِظامِها الأقطارُ
وَمَلَكْتَ سِنْجاراً وما من بلدةٍ إلا تَمَنَّى أنَّها سِنْجارُ
وَبَسَطْتَ بالأموالِ كفًّا طالما طالَتْ بها الآمالُ وَهْيَ قِصَارُ
وَجَرَتْ بأمدادِ الجيادِ شِعابُها جَريَ السُّيولِ وما سواك قَرَارُ
وَثَنَى الفُرَاتُ إلى يديكَ عِنَانه والبَحْرُ ما اتَّصَلَتْ به الأنهارُ
وَمَلَكْتَ رَحبة مالك فتبرَّجَتْ منها لِعَيْنِك كاعِبٌ مِعْطارُ
جاءتْكَ في حُللِ الرَّبيعِ وحَلْيِها قَبْلَ الربيع شقائقٌ وَبَهارُ
نَثَرَتْ عليكَ هوى القلوبِ محبةً وتَوَدُّ لو أنَّ النُّجُومَ نِثَارُ
فأقمت كالشَّمسِ المُنيرةِ إنْ نأتْ عن أُفْقِها فَلَها به أقْمارُ
مَنْ كان نورَ الدينِ ثُمَّ أجَنَّه ليلُ السُّرى حَفَّتْ به الأنوارُ
تَدْعو البلادَ إليكَ ألسنةُ الظُّبى فَتُجِيبكَ الأنجادُ والأغوارُ
حتى عَمَدْتَ الدِّينَ يا ابنَ عمادِهِ بقَناً أسِنَّتُها عليه مَنَارُ
وقَفَلْتَ من أسفار جدِّك قادماً كالصُّبْحِ نَمَّ بثغره الإسْفَارُ
يغشى البصائرَ نورُ وجهكَ بعدما اغـ ـتركَتْ على قَسَماته الأبصارُ
حتَّى عَمَرْتَ بكلِّ قلبٍ صدرَهْ حين الصُّدور من القلوب قِفارُ
إن تُمسِ في حَلَبٍ رياحك غضَّة فلَها بأنطاكيَّةٍ إعصارُ
وَغَدَتْ جيادُك بالشَّآم مقيمةً ولها بأطراف الدُّروبِ مُغارُ
هِمَمٌ سَبَقْتَ بها مُهَجَ العِدَى صَرْفَ الرَّدى ومسيرُه إحْضَارُ[٢]

---

(١) القائم: مقبض السيف. والغرار: حد السيف.
(٢) الإحضار: العَدْو السريع.

وأرى صباحَ القمص كان خديعةً فطغى وجَارَ وليس ثَمَّ وِجَارُ[١]
خان الصنيعة غير محقوقٍ بها والخير يهدِمُ ما بنى الخَتَّارُ[٢]
حتى إذا ما غبتَ أقدَمَ عائثاً إقدامَ من لم يَذْنُ منه قَرارُ
أمضى السَّلاح على عدوِّك بغيهُ بالغدرِ يُطْعَنُ في الوغى الغَدَّارُ
فاحْسِمْ عنادَ ذوي العنادِ بجحفلٍ كالليلِ فيه من الصَّفيح نَهارُ
جُنْدٌ على جُرْدٍ أمام صدورها صَدْرٌ عليه من اليقين صِدَارُ
قد بايعَ الإخلاص بيعةَ نُصْرَةٍ ولكل هادي أمةٍ أنصارُ
مَلِكٌ له مِنْ عدلِه ووفائه جيشٌ به تُسْتَفْتَحُ الأمصارُ
وإذا الملوكُ تثاقلَتْ عن غايةٍ وأرادَها خَفَّت به الأقدارُ
وإذا انتضَتْهُ إلى الثغورِ عزيمةٌ قامت مقام جنودِه الأخبارُ

ولابن منير من قصيدةٍ فيه: [الوافر]

ترنَّح مِعْطَفُ الزَّوْرَاءِ لما دعاك لزَوْرِ سِنْجَارٍ لمامُ[٣]
وزلزلتَ الصَّعيدَ وراءَ مِصْرٍ غداةَ عَلَتْكَ في قَطَنا الخيامُ[٤]
رجاءً هَزَّ تِيك وتلك خوفٌ ولو قد شئتَ ضمَّهما قِرامُ[٥]
بعيشك يا مبيدَ الخيلِ ركضاً حَمامٌ هنّ تحتك أم حِمَامُ

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلُّمِ قلعة حمص من يَنَال[٦]، وأنشده في القلعة القصيدة، أولها: [الوافر]

أَرِحْها فهي أزلامُ المعالي لهنَّ إلى الوغى توقُ المغالي[٧]
أما ومقيلهن بكل نَقْعٍ يقوِّضُ بالهُدَى عُمْرَ الضَّلالِ
وأيُّ سيوفك الحمر الحواشي منزَّلة متى دُعِيَتْ نَزَالِ
مَواضٍ إن سُلِلْن سلكن جزماً نفاه من الطُّلى لفظ اعتلالِ[٨]

---

(١) الوجار: سرب الضبع والأسد ونحوه، أي بيته.
(٢) الختار: الخائن، والغدار.
(٣) الزوراء: هي بغداد.
(٤) قطنا: قرية قرب دمشق.
(٥) القرام: الستر الرقيق.
(٦) ينال: هو أخو زين الدين علي كما مرّ.
(٧) المغالي: جمع مغلاة، وهو سهم يغلى به أي ترفع به اليد حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك.
(٨) الطلى: الأعناق.

لـقـد غُـلـب الـصَّـلـيـب بِـحَـرِّ حَـرْبٍ ... يُـشـيـب أُوارُهـا لِـمـمَ الـلَّـيـالـي
وشـمـتَ لـنـصـرِ هـذا الـديـن بـأسـاً ... تـحـرّم مـنـه كـل حـمًـى حـلالِ
وقـائـع أتـرعـت فـي كـلِّ فـجٍّ ... وقـائـعَ جـوُّهـا دامـي الـعَـزَالـي[1]
تـسـائـل حـمـص عـن منـسـيِّ ديـن ... تـقـاضـاه لـك الـحِـجـج الـخَـوَالـي
فـواتـتْ وهـي أُخـتُ الـنَّـجْـم بُـعـداً ... ووعـداً صِـيـغَ مـن مَـطْـلٍ مِـطَـالِ
تـشـامَـخَ أنـفُـهـا عِـزًّا وشَـدَّت ... عـلـى أن لا تـنـال يـداً يَـنَـالِ
فـمـا زالَـتْ رُقـاك تـجـدُّ نـقـضـاً ... لـمـا تـثـنـيـه مـن مِـرَرِ الـحِـبَـال
إلـى أن أطـلـقَ الـحـسـنـاءَ كَـرْهـاً ... وآل إلـى مـلاوحـة الـمـآلـي[2]
يـصـدُّ الـوجـه عـن شـمّـاء أَلْـقَـتْ ... يـداً لأشـمَّ ذي بـاعٍ طـوالِ
شغـلـت بـهـا يـمـيـنـك والـمـواضـي ... تـكـفَّـلُ أنَّ مِـصْـراً لـلـشِّـمـالِ
إذا فَـتَـحَ الـقـتـالُ عـلـيـك أرضـاً ... أبـاحـك أخـتـهـا لَا عَـنْ قـتـالِ

فـصـل

[تحالف حكام دمشق
مع الفرنج ومحاصرة نور الدين دمشق]

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحَوْرَانيَّة بالنَّهب والسَّبي، فعَزَمَ على التأهُّب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يعلمهم ما عَزَمَ عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مُقدَّم يُعوَّل عليه ـ وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين ـ فاحتُجَّ عليه وغولِطَ. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يَبُوس، وبعض العسكرية بيعفور. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبرَه ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الإِفرنج بخبره، وقرَّروا معهم الإِنجادَ عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقلان لعمارة غَزَّة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافٌّ أيدي أصحابه عن العيث والإِفساد في الضِّياع، وأمر بإحسان

---

(١) وقائع: جمع وقيعة، وهي نقرة في متن حجر في الجبل أو في السهل يستنقع فيها الماء، يقال: أعذب من ماء الوقيعة. والعزالي: جمع عزلاء: مصب الماء من الراوية والقربة.
(٢) المآلي: جمع مئلاة، وهي خرقة تمسكها المرأة عند النوح والبكاء.

الرَّأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدُّعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها. وكان الغيثُ قد انحبس عن حَوْرَان والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحِجَّة، وأقام إلى مثله، فروَّى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت بِرَكُ حَوْران، ودارت أَرْحِيَتُها، وعاد ما صَوَّح[1] من النَّبات والزَّرْع غضًا طرياً، وجدَّ الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته. ثم رحل من منزله بالأعوج، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرَّئيس، وقال: إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أُخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، وعَدِمَ النَّاصر لهم، ولا يسعني ـ مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرِّجال ـ أن أقعُدَ عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالهم والذبِّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكُم لهم أموال الضُّعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدِّياً عليهم، وهذا ما لا يُرْضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين، ولا بدَّ من المعونة بألف فارس مُزاحِي العلَّة، تُجرَّدُ مع من يوَثقُ بشجاعته من المقدَّمين، لتخليص ثَغْر عَسْقلان وغَزَّة. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السَّيْف، وسيُوافينا من الإفرنج ما يُعينُنا على دفعك إن قصدتنا ونزلتَ علينا. فلما عاد الرَّسولُ بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجُّبَ منه والإنكار له، وعزم على الزَّحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك.

[الصلح بين نور الدين وحكام دمشق ورفع حصاره عن دمشق]

ودخلت سنة خمس وأربعين[2]

ففي مستهلِّ المحرَّم تقرَّر الصُّلْح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسببُ في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة

---

(١) صوّح من النبات: أي ما يبس.

(٢) وخمسمائة.

لها، بعدما اتَّصَل به من أجناد دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلْطان، وكذا السِّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نورُ الدين على مجير الدين خِلْعة كاملةً بالطَّوق، وأعاده مكرَّماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرَّم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيَّم، وخلع عليه خلعةً كاملة أيضاً وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعةٌ من الأجناد والخواصِّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل مَن استماحه من الطُّلاب والقَرَأة والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيَّمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبَّر.

قلت: وفي ذلك يقول القَيْسَراني: [الطويل]

لك اللّهُ إن حاربتَ فالنَّصْرُ والفَتْحُ ... وإن شئتَ صُلْحاً عُدَّ من حَزْمك الصُّلْحُ
وهل أنتَ إلا السَّيْفُ في كلِّ حالةٍ ... فطَوْراً له حدٌّ وطوراً له صَفْحُ
سقيت الرُّدَينيَّات حتى رَدَدْتَها ... تَرَنَّحُ من سُكْرٍ فخلِّ القَنَا تصحو[1]
وما كان كفُّ العَزْمِ إلا إشارةً ... إلى الحَزْمِ لو لم يغضبِ السيفُ والرُّمْحُ
وقد عَلِمَ الأعداءُ مُذْ بِتَّ جانحاً ... إلى السِّلْمِ ما تنوي بذاك وما تنحوا
إذا ما دمشقٌ ملَّكتك عِنانَها ... تيقَّنَ مَن في إيليا أنَّه الذَّبحُ[2]
متى التف نَقْعُ الجحْفلين على الهدى ... فلا مَهْمَةٌ يحوي الضَّلالَ ولا سَفْحُ
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً ... فقولا لليل الإفك قد طَلَعَ الصُّبْحُ
تَرَكْتَ قلوبَ الشِّرْكِ تشكو جراحَها ... فلا زالت الشكوى ولا اندمَلَ الجُرْحُ
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مغبَّةٍ ... فسيقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّجْحُ
كأن القَنَا تجلو له وَجْه أمره ... ولو أُمهلتْ بلقيس ما غرَّها الصَّرْحُ
بدولتكَ الغَرَّاء أصبحَ ضدُّها ... بهيماً ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ
وكم مِنْ قريحِ القَلْبِ لو باتَ وارداً ... مواردَ هذا العَدْلِ ما مَسَّه قَرْحُ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جُوداً على الورى ... على أنه ما زال في طبعه شُحُّ
وقد كان يمحو رَسْمَ كلِّ فضيلةٍ ... ونحن نَرَاه اليومَ يُثْبِتُ ما يَمْحُو
بك ابتهج الألباب وابتهج الحِجَا ... وأثمرتِ الآدابُ واطَّرَدَ المَدْحُ
ولاذت بك التَّقوى وعاذت بك العُلا ... ودانت لك الدُّنيا وعَزَّ بك السَّرْحُ

(١) الردينيات: هي رماح منسوبة إلى امرأة كانت تصنع الرماح في الجاهلية.
(٢) إيلياء: هي بيت المقدس.

فلا قَلْبَ إلا قد تَمَلَّكْتَهُ هوًى ... ولا صَدْرَ إلا قد جَلاه لك النُّصْحُ
وما الجودُ في الأملاكِ إلا تجارةٌ ... فمن فاته حَمْدُ الورى فاته الرِّبْحُ
ولم أختصرْ ما قلتُ إلّا لأنني ... أعبِّرُ عما لا يقومُ به الشَّرْحُ

فصل

[في فَتح عَزاز]

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرَّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جُوسلين صاحب عَزَازَ وأصحابه، وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب، فَسَرَّ هذا الفتحُ كافَّة الناس، وتوجَّه نور الدين في عسكره إلى عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سَهَّل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المَنَعة والحصانة والرِّفْعة. فلما تسلَّمها رتَّب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول.

قلت: وذكر ابن منير فتح عَزَاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدةٍ أولها: [المتقارب]

فَدَتْكَ القُلُوبَ بألبابها ... وَساحُ الملوك بأربابها
كتائبُ تَرْمي جنودَ الصَّليـ ... ـبِ منها بتقطيعِ أصلابها
إذا ما انثنَتْ من قِرَاعِ الكُماة ... كَسَتْ وفدَها وَشْيَ أسلابِها
تَبَرْنَسَ منها البرنس الثِّياب ... وحَلَّبه وَقْعُ أحلابِها
عَشِيَّةَ غصَّت على إنَّب ... نفوس النصارى بغصَّابها
وقام لأحمد محمودُها ... بجدع موارن أحزابها[1]
تجلَّى لها حَيْدَرِيّ المصا ... ع أغلب مُودٍ بغلَّابها
مورِّث أركاسها من أبٍ ... أكولِ الفوارس شَرَّابها
همامٌ إذا اعْصَوْصَبَتْ نَبْوة ... دهاها بهاشم أعصابِها
مضى وجَنَى لك حُلْوَ الشها ... دِ مِمَّا تمطَّقَ من صابها
وأوصى بها لك من بعد ما ... تجرَّعَ ممقرَ أوصابِها[2]

---

(١) موارن: جمع مارن، وهو الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه منحدراً.
(٢) الممقر: المرّ. والأوصاب: جمع الوصب، بالتحريك: الوجع والمرض والتعب والفتور في البدن.

وأقسم جَدُّك ألا يليق بغيرك ملبس أثوابها
صَبَحْتَ دمشق بمشقِ الجياد زبورَ الوغى بين أحدابها
وأَصْلَتَّ رأيك قبل الحسام فخمَّدَ جمرةَ أجلابها
فأعطتك ما لم تَنَلْهُ يدٌ وفازَتْ رُقاك بأصحابها
وأنت تصرف فضل الزِّما م مِن حمص تأخير[1] رُكَّابها
تخونها الجَوْرُ فاسْتَدْرَكَتْ بعدلك أغبار ظبظابها
وفاجأت قُورُسَ بالشائلات تَمُجُّ القَنَا سُمَّ أذنابها[2]
فما رِمت حتى رَمَت بيْضُها إليك أزمة ضرابها
وعَزَّت عَزَاز فأذلَلْتَها بمجرٍ مضيقٍ لأسهابها[3]
بأشمخ من أنفها منكباً وأكثر من عَدِّ توراِبها
دلفت لعيطاء أم النجو م في الأمر إيطاء أترابها
وعذراءُ مُذْ عَمَرت ما اهتدت ظنون الليالي لإِخْرَابها
تفرّعتها بفروع الوشيـ ـج مثمرةً هام أوشابها[4]
وعوجٍ إذا أنبضت أغمضت ذُكاءُ لإرسال نُشَّابها
ومحدودبات تطير الخطوب ملاقط ألسُنِ خُطَّابها
تصوّب عُقْبان رَيْبِ المنُون متى زَبَنَتها بأعقابها[5]
وما ركَعَتْ حَوْلَ شمِّ الهضا بِ إلا سَجَدْنَ لأنصابها
فلاذَتْ بمعْتَصمٍ بالكتابِ وَهوبِ الممالك سلَّابها
بمعتصميِّ النّدى والهُدَى هموس السُّرى غير هَيَّابها[6]
محلَّى المحلِّ بوصفِ الفُتُوح ووصف التَّهاني وأربابها
وتعجز مُدَّاحه أن تحيطَ بآدابه فَلْكَ آدابها
بدائعُ لو رُدَّ دهرٌ رمين بنات حبيبٍ بأحبابها

---

(١) تأخير ركابها: كذا بالأصل ولعله تصحيف: يا خير ركّابها.
(٢) الشائلات: العقارب، وشولة العقرب: شوكتها التي تضرب بها.
(٣) المجرّ: الجيش العظيم.
(٤) الوشيج: شجر الرماح.
(٥) زبنتها: دفعتها. ومنه الزبانية الذين يدفعون الكفار إلى جهنم في قوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾ [العلق: ١٨].
(٦) الهموس: السيار في الليل.

وأيـــن ابـــنُ أوسٍ[١] وآيـــاتـــه[٢] مـــن الـــلَّاءِ أَوْدَتْ بـــحـــسَّـــابـــهـــا
مـــن الـــلاء عـــاد عـــتـــيـــقٌ لـــهـــا وَرَدَّ عـــلـــيـــهـــا ابـــنُ خَـــطَّـــابـــهـــا[٣]
فـــأيَّـــامـــه مـــن حـــبـــورٍ تـــكـــادُ يـــطـــيـــرُ بـــهـــا فَـــرْطُ إعـــجـــابـــهـــا
لـــك الـــفَـــضْـــلُ إنْ راسلَـــتْـــكَ الـــجـــيـــاد وقـــامـــت أدلَّـــة أنـــجـــابـــهـــا
إذا اعـــتـــسفَـــتْ هِـــمَـــمُ الـــجـــائـــريـــن أتـــيـــتَ الـــسِّـــيـــادةَ مـــن بـــابـــهـــا
أبـــوكَ أبـــوهـــا وأنـــت ابـــنـــهـــا الـــ ـــعـــريـــقُ ودمـــيـــة مـــحـــرابـــهـــا
أقـــول لـــمـــؤجـــره بـــالـــغـــرور تَـــمَـــطَّـــتْ هـــواهـــا فـــأَهْـــوى بـــهـــا
حَـــذَارِ فـــعـــنـــدَ ابـــتـــســـامِ الـــغـــيـــو ثِ يُـــخْـــشَـــى صـــواعـــق ألـــهـــابـــهـــا
ولا تُـــخْـــدَعُـــوا بـــافـــتـــرار الـــلُّـــيـــو ثِ فـــالـــنـــار فـــي بَـــرْدِ أنـــيـــابـــهـــا

فصل

[في صفة أسر جُوسلين][٤]

قال ابن الأثير: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وعَزاز، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم عربٌ شديدة أجلت عن انهزام المسلمين، وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار[٥] كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذَه إلى السُّلْطان مسعود بن

---

(١) ابن أوس: هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر المشهور.
(٢) وآياته: كذا بالأصل، ولعلها: وأبياته.
(٣) عتيق: هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه سماه رسول الله ﷺ بذلك، عن عائشة أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال: أنت عتيق الله من النار فيومئذٍ سمي عتيقاً (أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٦). وابن خطاب: هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٤) أورد ابن الأثير حادثة أسر جوسلين في حوادث سنة ٥٤٦هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٥) السلاح دار: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥: أي حامل السلاح حول الخليفة في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضاً، وهم الذين يعبر عنهم بالسلاح دارية، وكانت عدتهم تزيد على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدماً، وهم أصحاب ركاب الخليفة والسلطان، ولهم نقباء موكلون بمعرفتهم، والأكابر من هؤلاء الركابية تندب في الأشغال السلطانية وإذا دخلوا عملاً كان لهم فيه الصيت المرتفع.

قليج أرسلام السَّلْجُوقي[١] صاحب قُونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوَّج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فَعَظُمت هذه الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرَّغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلاً وإما أسراً. فاتَّفق أن جوسلين خرج في عسكره، وأغار على طائفةٍ من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأةً منهم، فخلا معها تحت شجرةٍ، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً، فصانعهم على مالٍ بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين. فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعضُ التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسيَّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين حينئذٍ بحمص. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديدَ العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدَّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدَّة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نورُ الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غَدْرُه، وحاق به مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. فلما أُسر تيسَّر فتح كثيرٍ من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعَزاز، وقُورُس، والرَّاوَنْدَان، وحصن البارة، وتل خالد، وكَفْر لاثا، وكفر سود، وحصن بَسَرْفُوث بجبل بني عُليم، ودُلُوك، ومَرْعَش، ونهر الجوز، وبرج الرَّصاص.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصْرةٍ تتجدَّدُ للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدَّة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القَيْسَراني. قال يمدَح نور الدين بعد صدوره عن دمشق

(١) توفي سنة ٥٥١هـ. انظر «الكامل» ٩/٤٠٧.

واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده[١]: [الطويل]

دعا ما ادَّعى مَن غَرَّه النَّهْي والأَمْرُ ... فما الملك إلّا ما حباكَ به القَهْرُ
وَمَنْ ثَنَتِ الدُّنيا إليه عِنَانها ... تصرَّف فيما شاء عن إذنه الدَّهْرُ
وَمَنْ راهنَ الأقدار في صَهْوَة العُلا ... فلن تُدْرِكَ الشِّعْرى مَدَاه ولا الشِّعْرُ
إذا الجدُّ أمسى دونَ غايته المُنَى ... فماذا عسى أن يَبْلُغَ النَّظْمُ والنَّثْرُ
وَلِمْ لا يلي أسنى الممالكِ مالكٌ ... زعيمٌ بجيشٍ من طلائعه النَّصْرُ
لِيَهْنِ دمشقاً أن كُرْسيَّ مُلْكِها ... حُبي منك صَدْراً ضاق عن هَمِّه الصَّدْرُ
وأنك نورَ الدين مُذ زُرْتَ أرْضَها ... سَمَتْ بك حتى انحطَّ عن نَسْرِها النَّسْرُ
خَطَبْتَ فلم يَحْجُبْكَ عنها وَلِيُّها ... وَخَطْبُ العُلا بالسَّيفِ ما دونَه سِتْرُ
جلاها لك الإقبال حُوريَّة السَّنا ... عليها من الفِرْدَوْسِ أَرْدِيَةٌ خُضْرُ
خَلُوبٌ أَكَنَّتْ من هواكَ مَحبَّةً ... نَمَتْ فانتمَتْ جَهْراً وسِرُّ الهوى جَهْرُ
فَسُقْتَ إليها الأمنَ والعَدْل نِحْلَةً ... فأَمْسَتْ ولا أسرٌ تخافُ ولا إصْرُ
فإنّ صافَحَتْ يُمْناك من بَعْدِ هَجْرِها ... فأحلى التَّلاقي ما تَقَدَّمه هَجْرُ
وهل هي إلّا كالحَصَانِ تَمَنَّعَتْ ... دلالاً وإن عَزَّ الحيا وغلا المَهْرُ
ولكنْ إذا ما قستَها بصَدَاقِها ... فليسَ له قَدْرٌ وليسَ لها قَدْرُ
هي الثَّغر أمسى بالكراديسِ عابساً ... وأصبح عن باب الفَرَاديس يَفْتَرُّ
على أَنَّها لو لم تُجِبْكَ إنابةً ... لأَرْهَقَها من بأسِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
فإما وقَفْت الخيل ناقعة الصَّدى ... على بَرَدى من فوقها الوَرَقُ النَّضْرُ
فمنْ بَعْدِ ما أَوْردتَها حَوْمَةَ الوغى ... وأَصْدَرْتَها والبيضُ من عَلَقٍ حُمْرُ
وجلَّلْتَها نَقْعاً أضاعَ شِيَاتها ... فلا شُهْبُها شُهْبٌ ولا شُقْرُها شُقْرُ
علا النَّهْرُ لما كاثرَ القَصَبُ القَنَا ... مكاثرةً في كلِّ نَحْرٍ لها نَحْرُ
وقد شَرِقَتْ أجرافه بدم العِدَى ... إلى أن جرى العاصي وضَحْضَاحُه غَمْرُ
صَدَعْتَهُمْ صَدْعَ الزُّجاجة لا يَدٌ ... لجابرِها ما كلُّ كَسْرٍ له جَبْرُ
فلا ينتحل من بعدها الفَخْرَ دائلٌ ... فَمَنْ بارَزَ الإبرنز كانَ له الفَخْرُ
ومن بَزَّ أنطاكية من مليكها ... أطاعَتْهُ ألحاظُ المُؤَلَّلة الخُزْرُ

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٠، ستة أبيات من القصيدة. وهي من: كما أهدت الأقدار للقمص. . . وستة أبيات بعدها. وذكر في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٥٧ ـ ١٥٩. أبياتاً من القصيدة.

أخو اللَّيث لولا غَدْرُه نزعت به إلى الذِّئبِ إنَّ الذئبَ شِيْمَتُه الغَدْرُ
أتى رأسُه ركضاً وغُودر شِلْوُه وليس سوى عافي النُّسورِ له قَبْرُ
وقد كان في استبقائه لك مِنَّةٌ هي الفَتْكُ لو لم تَغْضَبِ البيضُ والسُّمْرُ
كما أَهْدَتِ الأقدارُ للقمص أَسْرَهُ وأَسْعَدُ قِرْنٍ مَن حواه لك الأَسْرُ
طغَى وبغَى عدواً على غُلوائه فأوبقه الكُفرانِ عَدواه والكُفرُ
وأَلْقَتْ بأيديها إليكَ حُصُونُه ولو لم تُجِبْ طَوْعاً لجاء بها القَسْرُ
وَأَمْسَتْ عَزَاز كاسمها بك عِزَّةً تَشُقُّ على النَّسْرَيْن لو أنَّها الوَكْرُ
فَسِرْ وَامْلأ الدُّنيا ضياءً وَبَهْجَةً فبالأُفُقِ الدَّاجي إلى ذا السَّنا فَقْرُ
كأني بهذا العَزْمِ لا فُلَّ حَدُّه وأقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأَمْرُ
وقد أصبحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهراً وليسَ سوى جاري الدِّماءِ له طُهْرُ
وقد أدَّتِ البيضُ الحِدَادُ فروضَها فلا عُهْدَةٌ في عُنُقِ سَيْفٍ ولا نَذْرُ
وصَلَّت بمعراج النبيِّ صَوَارِمٌ مساجدها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ
وإن تتيمَّمْ ساحل البَحْرِ مالكاً فلا عجبٌ أن يملكَ السَّاحِلَ البَحْرُ
سَلَلْتَ سُيُوفاً أَثْكَلَتْ كُلَّ بَلْدَةٍ بصاحِبها حتى تَخوَّفَك البَدْرُ
إذا سارَ نورُ الدين في عَزَماته فقولا لِلَيلِ الإفك قد طَلَعَ الفَجْرُ
ولو لم يَسِرْ في عسكرٍ من جنوده لكانَ له مِنْ نَفْسِه عَسْكَرٌ مَجْرُ
مَليكٌ سَمَتْ شُمُّ المنابر باسمه كما زُهيت تِيهاً به الأَنْجُمُ الزُّهْرُ
فيا كعبةً ما زال في عَرَصَاتها مواسِمُ حجٍّ لا يروِّعها النَّفْرُ
خَلَعْتَ على الأيام من حُلل العُلى ملابسَ من أعلامها الحَمْدُ والشُّكْرُ
وَتَوَّجْتَ ثَغْرَ الشَّام منك جلالةً تمنَّتْ لها بغدادُ لو أنَّها ثَغْرُ
فلا تَفْتَخِرْ مِصْرٌ علينا بنيلِها فيُمناكَ نيلٌ كلُّ مِصْرٍ بها مِصْرُ
رَدَدْتَ الجهادَ الصعبَ سهلاً سبيلُه ويا طالما أمسى وَمَسْلَكُه وَعْرُ
وَأَطْمَعْتَ في الإفرنج مَنْ كان بَأْسُه تخوَّف أن يعتادَه منهم فِكْرُ
وأقحمت جُرْدَ الخيلِ أعلى حصونها ولولاكَ لم تهجم على كافرٍ كَفْرُ
ومن يَدَّعي في قتلِكَ الشِّرْك شركةً إذا لم يكن عند القوافي له ذِكْرُ
هي القانتاتُ الحافِظاتُ فروجَها فشاهِدُها عَدْلٌ وراتقها سِحْرُ
ولو لم يكن في فَضْلِها وكمالها سِوَى أنها من بعد عُمْرِ الفتى عمرُ

وله من قصيدةٍ يصف فيها وقائعه، أولها: [الطويل]

أمـا وخـيـالٍ زار مـمـن أحـبُّـه ... لـقـد هـاج مـن ذكـراه مـا لا أغـبُّـه
إذا ما صبا قَلْبُ المحبِّ إلى الصبا ... ذكـرتُ نـسـيـمـاً بـالـثُّـغـور مَـهَـبُّـهُ
فيا نَفَحاتِ الشَّام رِفْقاً بمهجةٍ ... يُحامي عليها مُدْنَفُ القَلْبِ صَبُّه
فلا تسألَنَّ الصَّبَّ أين فؤادُه ... فإنَّ فؤادَ المرءِ مَعْ مَنْ يحبُّه
وفي شُعب الأكوار مَنْ هو عالمٌ ... غداةَ اسْتَطَارَ البرق مَن طار لبُّه
يشيم ثغور المُزْن تهمي كأنَّها ... سَنَا بِشْرِ نورِ الدين تنهلُّ سُحْبُه
إذا ما سما في مُبْهَم الخَطْبِ وجهُه ... تمزَّق عن بَدْرِ الدُّجنَّة حُجْبُه
تولَّد بين الغَيْثِ واللَّيْثِ والتُّقى ... منافسةٌ أي الثلاثة تِرْبُهُ
يعدُّ مضاءَ في الظُّبى، لا، وضربُه ... بها قلل الأعداء ما السَّيف ضَرْبُهُ
مكين الحِجا أرضى الزمانَ بنفسه ... إلى الآن حتى لانَ وانقاد صَعْبُهُ
حمى قُبَّة الإسلام بالخيل فاغْتَدَتْ ... وأوتادها جُرد الطعان وقُبُّه
فكم هبوةٍ أوقعن بالكُفْرِ تحتها ... فما انقشعتْ إلا وللذُّلِّ جَنْبُه
كيوم الرُّها الورهاء والهَامُ يانعٌ ... مليٌّ برعي الهندُوَاني خصبُه
وشهباء هاجتها وغى صَرخَدِيَّةٌ ... ثناها وليلُ الحَرْبِ تنقضُ شُهْبُهُ
وعارِمَ يوماً بالعُريمة فاغتدَتْ ... كوادي ثمودٍ إذْ رغا فيه سَقْبُهُ
وعاصَى على العاصي بأرْعَنَ خاطب ... دم الإفك حتى أنكحَ النَّصْلَ خطبُه
بإنَّب لما أكسب المال وانثنى ... بصاحِبِ أنطاكيةٍ وهو كَسْبُهُ
غداة هوى شطرين للسَّيْفِ رأسُه ... وللرُّمْح حتى توَّجَ الرأسَ قَلْبُهُ
على حين للخطيِّ فيه عواملٌ ... يعاقبه خَفْضُ الحُسَام ونَصْبُهُ
وقائعُ محموديَّةُ النَّصْرِ لم يزل ... غريباً بها عن مَوْطِنِ السَّيْفِ غربُه
يقومُ مقامَ الجيشِ فيها وعيدُه ... وتفعلُ أفعالَ الكتائبِ كُتْبُهُ
وحين انتضَتْهُ عزمةٌ مِن قرابةٍ ... مضى وهو نَصْلٌ والممالكُ قربه
إلى أن دَعَتْهُ ربُّها كلُّ بَلْدَةٍ ... فليس من الأمصارِ ما لا يربُّهُ
ولما يرى بالقُمص عُجْبٌ هَوَى به ... على أمِّ رأس البغي والغَدْرِ عُجْبُهُ
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه ... بعيد على الرجلين في السَّعي قربُه
تُعاقبه البُشْرى بأَخْذِ حُصُونِهِ ... فيا عانياً ضرب البشائر ضَرْبُه
تناجي عزاز باسمه تلَّ باشرٍ ... فيلعنُهُ لَعْنُ الصَّريحِ وسبُّهُ

فإن يكن المقهورُ من ثُلَّ عَرْشُه ... فهذا عمودُ الكُفْرِ قد طاحَ طُنْبُه
فَقُلْ لملوكِ الخافقين نصيحةً ... كذا عن طريقِ اللَّيث تزأر غُلْبُهُ
وخَلُّوا عن الآفاقِ فالشَّرْقُ شَرْقُهُ ... بحكم الرُّدَيْنيَّات والغَرْبُ غَرْبُهُ[1]
ولا يعتصم بالدَّرْبِ طاغٍ على القَنَا ... فإنَّ القَنَا في ثِغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ
رحيبُ فضاءِ الحِلْمِ عن ذات قُدْرَةٍ ... إذا ضاقَ من صَدْرِ المملك رَحْبُهُ
عفوٌ عن الجاني يكادُ الذي جنى ... يكرُّ به شوقاً إلى العفو ذنبُهُ
أمتَّخِذَ الإخلاص لله جُنَّةً ... ومن يَعْتَصِمْ باللَّهِ فاللَّهُ حَسْبُهُ
أبوكَ استردَّ الشَّامَ بالسَّيْفِ عَنْوَةً ... وللرُّوم بَأْسٌ طالما غالَ خَطْبُهُ
إذا ذبَّ عن أضغاثِ دنياه مالكٌ ... فأنتَ الذي عن حَوزةِ الدين ذَبُّهُ
رأيتَ اتِّباعَ الحقِّ خيراً مَغَبَّةً ... فأفرجتَ عن أرْيٍ يسرُّك غِبُّهُ
وأوضحتَ ما بين الفريقين سُنَّةً ... بها عَرَفَ المربوبُ مَنْ هو رَبُّهُ
وَبَيَّنْتَ ما قد كانَ من كان يبتغي ... دليلاً بأن الله مَنْ أنتَ حِزْبُهُ

وقال ابنُ منير يمدح نور الدين بظاهر حمص: [الكامل]

هيهاتَ يعصمُ من أردتَ حِذارُ ... أنَّى ومن أوهاقك الأقدارُ[2]
طَلَعَتْ عليك بجوسلين ذريعة ... لا سَحْلَ أنشاها ولا إمرارُ
وسعادةٍ ما زلتَ تمري خلفَها ... فيشفُّ وَهْوَ الناتقُ المِدْرَارُ
فأرتك ما يُجني الوفيَّ وفاؤه ... وأرته كيف يُحيَّن الغَدَّارُ
عودُ أمرّ على أبارك طَلْعُهُ ... فأُحيل ذاك البر وهو بَوَارُ
ما زلتَ تُنْعِمُ وهو يكفُرُ عاتياً ... والله يَهْدِمُ ما بنى الكُفَّارُ
حتى أتاحَ لقومه ما جَرَّه ... لثمود من عَقْرِ الفصيلِ قُدَارُ[3]
أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ... ما زال يُدْمِي ظفرَه الأظفارُ
سامٍ كَقَرْنِ الشمسِ يَقْبِسُ نورَه ... وتُغَضُّ دون محلِّه الأبصارُ
يَهَبُ التلاد من البلاد وما حَوَتْ ... إنَّ السَّماحة للبحارِ بحارُ
يقظانُ يخشى الله في خلواته ... لا مُترفٌ لاهٍ ولا جَبَّارُ

---

(١) الردينيات: رماح منسوبة إلى امرأة في الجاهلية تدعى ردينة وكانت تصنع الرماح.
(٢) الأوهاق: جمع وهق، وهو حبل تشد به الإبل لئلا تند.
(٣) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.

نَصَبَ المَرَاقِبَ للعواقِب ناظراً فيها كذلك تربأ الأبرارُ[1]
لا كالَّذين تعجَّلوا حَسَواتِها وتقلَّسوها بعد وهي خُسَارُ
دَرَجُوا وأدرج في ملفِّ زُفاتهم سوأى تُساءُ لِذِكْرِها الآثارُ
والمَرْءُ من يُطوى فَيَنْشُرُ طَيَّه ما أَوْدَعَتْهُ صُدُورَها الأخيارُ
قُلْ للأُلى ناموا على نأماته ما كلُّ هَبَّةِ بارحٍ إعْصَارُ
لا تأمنوا في الله بطشةَ ثائرٍ لله مِلْءُ سَرِيرِه أسرارُ
صافٍ إذا كَدِرَ المعادنُ عادلٌ إن حافَ حُكَّامُ الملوكِ وجارُوا
أعلى أبوه له النِّجاد وشِيد في صهواتها مِمَّا ابتناه مَنَارُ
محمودٌ المحمودُ آثاراً إذا نُظِمَتْ على جِيْدِ الدُّجى الأسمارُ
دانَتْ له الأيامُ صاغِرةً كما دانت له في ظِلِّه الأمصارُ

وله من أخرى، أولها: [الكامل]

* ما الملك إلا ما حواهُ نجادُه *

يقول فيها: [الكامل]

وتدين حُسَّدُه لمحكم آيه والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به حُسَّادُه
شمسٌ إذا ما الحربُ زُرَّ جيوبها حَلَّ المعاقِدَ كَرُّه وطِرَادُه
ألوى ألدُّ حمى الشريعة جُهده وأذلَّ ناصيةَ الضَّلالِ جِهادُهُ
صَعَقَ البِرِنْسَ وقد تلألأ بَرْقُهُ وأطارَ ساكنَ جَأْشِهِ إرْعادُهُ
ولَّى وقد سُلَّت فَسَلَّتْ ضغنه زبر تلقى فودهن فؤادُه
مستلئماً مستسلماً لا عدَّةٌ رَدَّ المُنَى عنه ولا اسْتِعْدَادُه
ولجوسلين احتثَّهنَّ فأصبحت نُهْبَى لهنَّ بلادُه وتلادُه
جاءت به بعد الشماسِ عوابسٌ قودٌ يلين لعُنقهنَّ قيادُه
وتصيَّدَتْهُ لك السُّعود وقلَّما ينجو بخيرٍ من أردتَ مصاده
داني له قيناه أدهم كلَّما غنَّاه طار شماتةً عُوَّادُه
سَلَبَتْ عَزَاز عزاءه وبِقُورُس محجوبةً فُرِشَتْ له أقتادُه
وبتلِّ خالد يوم تَلَّ جبينَها خَلَطَ الثَّرى بجبينِهِ إخلادُه
وغداً يباشرُ تلَّ باشرَ قَلْبُه بأحرِّ ما حَمَلَ القلوبَ عدادهُ

(١) المراقب: جمع مرقب ومرقبة. وهو مكان الرقيب المشرف يرتفع عليه.

مـنَّـتْ أمـانـيَـهُ بـشـائـرُك الـتـي عـادَتْ لـهـنَّ مـآتـمـاً أعـيـادُهُ
وحبوتَ مُلْكَك من نظيم ثُغوره حَـلْـيـاً تَـتَـايَـه تـحـتَـه أجـيـادُه
لا يَـخْـدَعَـنْـك فـإنَّـمـا إصـلاحُ مَـنْ يُـخـشـى انـتـشـاطُ خِـناقِـه إفـسـادُه
أنـزِلْـهُ حـيـثُ قَـضَـتْ لـه غَـدَرَاتُـه وأحـلَّـه طُـغْـيَـانُـه وعِـنـادُه
فـي حـيـثُ لا يـأوي لـه سَـجَّـانـه حـتـفاً ويَـكْـشِـطُ جِـلْـدَه جـلَّادُه(١)
وَثَـنٌ هَـدَمْـتَ بـني الـضَّـلال بـهَـدْمِه وغَـدَتْ عـبـادَك عَـنْـوَةً عُـبَّـادُه
فَـتَـكَـتْ بـه آيـاتُ مَـنْ لِـمُـحَـمَّـدٍ ولِـدِيـنـه إبـداؤه وعِـوَادُه
لـو أنـشـطَ الـبـلـدُ الـحـرام تـواءمت تُـثْـنـي عـلـيـه تـلاعُـه ووِهـادُه
وَلَـوَ انَّ مِـنْـبَـرَه أطـاق تـكـلُّـمـاً نَـطَـقَـتْ بـبـاهـرِ فَـضْـلـه أعـوادُه
نـامَ الـخـلـيـفـةُ واسـتـطـار لـذَبِّـه عـن سُـدَّتـيـه واسْـتُـطـيـر رُقَـادُه
رَجَعَتْ لك العِزَّ القديمَ سيوفُه مـا زانَ رونـقَ مـائـهـا أغـمـادُه
من بعد ما نَعَقَ الصَّليبُ لحزبه ورأيـت زَرْعَ الـمـلـكِ حـانَ حـصـادُه
أنَّـى تُـمـيـلُ الـحـادثـاتُ رِوَاقَـهُ بـهـبـوبـهـا وابـنُ الـعـمـادِ عـمـادُه

فـصـل

[استيلاء نور الدين على دلوك]

قال ابنُ الأثير(٢): ولما سار نور الدين إلى قلاع جُوسلين ملك بعضاً وبقي بعض، فاجتمعت الفرنجُ، فالتقوا مع نور الدين بدُلُوك، فهزمهم، واستولى على دُلُوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن مُنير قصيدةً، منها(٣): [المتقارب]

هـي الـخَـيْـلُ خَـيْـرُ عَـتَـادِ الـكـريـ ـم يـحـضـر لـلـهـمِّ إحـضـارَهـا
ضَـغَـمْـتَ فـأدررت أفـواهَـهَـا وسِـرْتَ فـقـلَّـمْـتَ أظْـفَـارَهـا
إلامَ ولـم تُـبْـقِ مـمـا غَـزَوْتَ قُـلُـوبـاً تـكـابِـدُ إذعـارهـا
أمـا فـي مُـفَـصَّـل آي الْـقِـرا ع أن تَـضَـعَ الـحـربُ أوزارَهـا
عـسـى أنْ يُـحـمَّ لـهـذا الـحـمـا م أنْ يـتـوكَّـرَ أوكـارَهـا

(١) لا يأوي له سجانه: أي لا يرحم له.
(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٥، هذا الخبر في أحداث سنة ٥٤٧هـ.
(٣) أورد ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٥، ثمانية أبيات من القصيدة.

وما يومُ من غلته واحدٌ فتودعه الألسُنُ أشعارَها
وأينَ المَقاولُ ممّا فَعَلْتَ ولو شفعَ القَطْرُ إكثارَها
فكم أجْلَبَتْ خَلْفَكَ الجافخاتُ فَصَلْصَل فخرُكَ فَخّارَها[1]
أَعَدْتَ بِعَضْرِكَ هذا الأنيقِ فتوحَ النبيِّ وأعصارَها
وكان مُهَاجِرُها تابعيك وأنصارُ رأيك أنصارَها
فجدَّدت إسلام سَلْمانها وعمَّر جدُّك عَمّارَها
وما يوم إنّب إلا كتيـ ـكَ بل طالَ بالبَوْعِ أشبارَها
وأيامك الغرُّ من بعده تُعيد إلى الطي أغرارَها
ولما هببتَ ببُصْرى سمكتَ بأهباء خَيْلِكَ أبصارَها
ويومٌ على الجون جون السرا ة عَزَّ فَسَعَّطَها عارها
صدمت عُرَيْمَتَها صدمةً أذابتْ مع الماء أحجارَها
وفي تلِّ باشر باشرتَهُمْ بزحفٍ تسوَّرَ أسوارَها
وإنْ دالكتهم دُلُوك فقد شددت فَصَدَّقْتَ أخبارَها
وشبَّ التَّدامرُ حتى طلعتَ عليها فولَّتكَ أدبارَها
مشاهِدُ مشهورَةٌ نَمْنَمَتْ على صفحةِ الدَّهْرِ أسطارَها
يلذُّ الأغاني ترجيعُها ويستسفر السَّفْرُ أسفارَها
بنيتَ لوفدِ المنى كعبةً تجيرُ المعلَّقَ أستارَها
ومُلِّكْتَ الأرض مغبرَّةً تكادُ تُحدِّثُ أخبارَهَا
فما زِلتَ تَدْجُنُ حتى محوتَ دُجاها وشَعْشَعْتَ أنوارَها
وصَلْتَ فأَعْزَزْتَ مسكينَها وَصُلْتَ فأَذْلَلْتَ جَبَّارها
وصغتَ حُلَى من عُلاً أَحْكَمَتْ على عُنقِ الدَّهْرِ أَزْرارَها

قال أبو يعلى: وفي رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريباً من تلِّ باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مُضايقَه ومنازلَه.

قال[2]: وفي أيام من المحرَّم وصل جماعةٌ من حُجَّاج العراق وخُرَاسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعةٍ من كفَّار العُربان، وحكوا مصيبةً ما

---

(١) الجافخات: أي المفاخرات بكبر.

(٢) أورد ابن الأثير في «الكامل» هذه الحادثة في وقائع سنة ٥٤٥هـ، في رابع عشر المحرم.

نزل مثلها بأحدٍ في السنين الخالية، ولا يكونُ أبشع منها. وذُكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خُراسان وتُنَّائها[١]، وفقهائها وعلمائها، وقضاتها، وخواتين أمراء العساكر السُلْطانية والحُرَم العدد الكثير، والأموال الجمَّة، والأمتعة الوافرة، فأُخذ جميع ذلك وقُتل الأكثر، وسَلِمَ الأقل، وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصُدور لهذه النازلة، فَكُسيَ العاري منهم وأُطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦، ويس: ٣٨، وفصلت: ١٢].

فصل

[النفرة بين مجير الدين والرئيس ابن الصوفي]

قال: وكان مجاهد الدين بُزَان قد توجَّه إلى حصنه صَرْخَد لتفقُّدِ أحواله، فعرضت نُفْرَةٌ بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحالُ استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتَمَّ ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف؛ صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، وتوجَّهوا ولم يعرض لشيء من أموالهم، وقصد بَعْلَبَكَّ فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخُلْف المستمرّ بين وزيرها ابن مَصَال وبين الأمير المُظَفَّر بن السَّلَّار، ووقوع الحرب وسفك الدِّماء إلى أن أسفرتِ الحالُ عن قتل ابن مصال الوزير، وانتصاب ابن السَّلَّار موضعه في الوزارة[٢].

قال: وفي سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهَّاب الحنبلي[٣]، وكان إماماً فاضلاً، مناظراً مستقلاً، مفتياً على مذهب الإمامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدُّم، وكان يعرف اللِّسان الفارسي مع العربي، وهو حَسَنُ الحديث في الجدِّ والهزل، وكان له يومٌ مشهود، ودُفن في جوار أبيه وجدِّه في مقابر الشُّهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبي الجن، وتفجَّع الناس عليه لخيرته وشرف بيته.

---

(١) تنائها: أي من أهلها المقيمين فيها.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦١.
(٣) هو أخو شرف الإسلام نجم بن عبد الوهاب الحنبلي المتوفى سنة ٥٨٦هـ.

[حصار نور الدين دمشق]

ودخلت سنة ست وأربعين[١]

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدةِ أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدَحه ابنُ منير بقصيدةٍ يحرِّضُه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلَّف عن الخدمة لمرضٍ عَرَضَ له، منها: [الكامل]

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ له ... تصديقَ واصفِه سَراةُ المِنْبَرِ

لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ

يا نورَ دينِ الله وابنَ عمادِهِ ... والكوثَرَ بن الكوثر بن الكَوْثَرِ

صفِّر بحدِّ السَّيفِ دار أشائبٍ ... عَقَلُوا جيادَكَ عن بناتِ الأَصْفَرِ

هُم شَيَّدُوا صَرْحَ النِّفاقِ وأوقَدُوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المَحْشَرِ[٢]

أذكوا بجِلَّق حَرَّها واستشعرت ... لفحاتُها بين الصَّفا والمَشْعَرِ

شردتهم مَنْ خَلْفهم مُسْتَنْجداً ... ما ظَاهَرَ الكُفَّارَ مَنْ لم يَكْفُرِ

لا تَعْفُ بل شَقَّ الهُدَى نَفْسَ الذي ادَّ (م) ... رَعَ الضَّلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ

قَلْذه ما أهدَى عليٌّ لِمرْحَبٍ ... فلقد تهكَّمَ في الخِداعِ الخَيْبَرِي[٣]

ما الغِشُّ ممن أُمُّه نصرانةٌ ... لم تختتن كالغِشِّ من مُتَنَصِّرِ

أَذْكَتْ لنا هذي العزائمُ لا خَبَتْ ... ما غارَ من سُنَنِ الملوكِ الغُبَّرِ

إثقابُ آراء المُعِزِّ، وخَفْقُ را ... ياتِ العزيز ويَقْظَةُ المُسْتَنْصِرِ[٤]

شَمِّرْ فقد مَدَّت إليك رِقابَها ... لا يُدْرِكُ الغاياتِ غَيْرُ مُشَمِّرِ

أَوَلَسْتَ من ملأ البَسِيطَةَ عَدْلُه ... واجْتَثَّ بالمَعْرُوفِ أنْفَ المُنْكَرِ

حَدَبُ الأَبِ البَرِّ الكبيرِ، ورأفةُ الـ ... أمِّ الحَفِيَّةِ باليتيمِ الأَصْغَرِ

---

(١) وخمسمائة.

(٢) تحشّ: أي توقد.

(٣) مرحب: هو مرحب اليهودي الخيبري، صاحب حصن خيبر، الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب في غزوة خيبر سنة ٧هـ.

(٤) المعز: هو أبو تميم المعز لدين الله الفاطمي انظر «الكامل» ٧/ ٣٠٩ ـ ٣٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٥٩ ـ ١٦٧. والعزيز: هو العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد. انظر «الكامل» ٧/ ٣٦٠ ـ ٤٨٢. وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٦٧ ـ ١٧٣. والمستنصر: هو أبو تميم معد بن علي. انظر الكامل ٧/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٦ ـ ١٩٦.

يا هضبةَ الإسلامِ من يُعْصِمْ بها ... يُؤمن ومَنْ يتولَّ عنها يَكْفُرِ
كانوا على صَلْبِ الصَّليب سرادقاً ... أنْبَتْ بنيَّته بكلِّ مُذَكَّرِ
آثارُهم نجَسٌ أذالَ المسجدَ الْـ ... أقصى فَصُنْ ما دَنَّسوه وَطَهِّرِ
جارَ الخليل ومَنْ بغزَّة هاشم ... بِلُهامك المُتَدَمشِقِ المُتَمَصِّرِ (١)
بعَرَمْرَمٍ صَلَمَتْ وعاوِعُه عُرَى ... أسماعِ جَيْحُونٍ وسيْفِ البَرْبَرِ (٢)
يفترُّ عن ملكِ الملوك مُنَحَّل الْـ ... أَنْواء بل سَعْدِ السُّعود الأكْبَرِ
عن طاعِنِ الفرسانِ غيرَ مكذِّبٍ ... وَمُتَمِّمِ الإحسانِ غَيْرَ مُكَدِّرِ
بَذْرُ الجَحافِلِ والمحافلِ فارسُ الـ ... آسادِ في غابِ الوشيجِ الأَسْمَرِ (٣)
مَلِكٌ تساوى النَّاسُ في أوصافه ... عُذِرَ المُقِلُّ وبانَ عَجْزُ المُكْثِرِ
يا أيها المَلِكُ المُنَادِي جُودُه ... في سائر الآفاقِ هل مِنْ مُعْسِرِ
إنَّ القصائِدَ أصبَحَتْ أبكارُها ... في ظلِّ مُلْكِكَ غالياتِ الأمْهُرِ
إنْ كنتَ أحييتَ ابنَ حمدانٍ لها ... فأنا الذي غَبَّرْتُ في وجه السَّري (٤)
ولأَنْتَ أكْرَمُ من أُناسٍ نوَّهوا ... باسم ابن أوسٍ واسْتَخَصُّوا البحتري (٥)
ذلَّتْ لدولتِكَ الرِّقابُ ولا تَزَلْ ... إنْ تَغزُ تَغْنَمْ أو تُقَاتِلْ تَظْفَرِ

وكتب إليه من حماةَ أيضاً، وهو محاصر دمشق، قصيدةً ينال فيها من صاحبها، منها: [الطويل]

أبوكَ أبٌ لو كان للناس كُلِّهم ... أباً ورضوا وَطْءَ النُّجوم لَقُنِّدُوا
وما ماتَ حتى شدَّ ثُلْمةَ مُلْكِه ... بك اللَّهُ تَرْمي ما رماه فَتُصْرِدُ
صَدَمْتَ ابن ذي اللُّغْدَين فانحلَّ عَقْدُه ... وكالسِّلْكِ قد أمسى يُحَلُّ ويُعْقَدُ
يُقَلِّبُ خَلْفَ السَّجْفِ عيناً سَخِينَةً ... ويبكي بأُخرى ذات شَتْرٍ ويَسْهَدُ

---

(١) اللهام: الجيش الكبير، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢) وعاوعه: أي ضجيجه وجلبته.
(٣) الوشيج: يقال: وشج الشيء وَشْجاً، تداخل وتشابك والتف. ويقال: وشجت العروق والأغصان: أي التفت وتشابكت وتداخلت.
(٤) ابن حمدان: هو سيف الدولة الحمداني علي بن عبد الله بن حمدان. انظر «الكامل» ٧/ ١٦٢ ـ ٢٨٨، ويتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٣٧ ـ ٥٦. والسري: هو السري بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء، المتوفى سنة ٣٦٢هـ. من شعراء سيف الدولة. انظر يتيمة الدهر ٢/ ١٣٧ ـ ٢١٤. ووفيات الأعيان ٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢.
(٥) ابن أوس: هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور.

ولا غَزْوَ قد أبقى أبوه وجَدُّه ... له كلَّ يوم ثَوْبَ عَجْز يجدَّدُ
فيا راكباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بيوتاً على جَيْرُون بالذُّلِّ تُعْمَدُ
وقُلْ لمبيرِ الدِّينِ وَهْوَ مُجِيْرُه ... بزعم له وَجْهُ الحقيقةِ أَرْبَدُ
حَمَلْتَ الصَّليبَ باغياً ونَبَذْتَهُ ... وثغْرَاكَ موطوسٌ ببابٍ وأَدْرَدُ
وحارَبْتَ حزبَ الله واللَّهُ ناصِرٌ ... لناصره ودينُ أحمدَ أَحْمَدُ
تَنَصَّرْتَ حيناً والبلاءُ موكَّلٌ ... ولا بُدَّ من يوم به تتهوَّدُ
وأقْسِمُ ما ذاقَ اليهودُ بإيليا ... ومَوْضَعُها من بُخْتَنَصَّرَ أسوَدُ
كبعضِ الذي جُرِّعْتَهُ فَسَرَطْتَهُ ... وأيِّدَ فيه من عماك المُؤَيَّدُ(١)
ولايتُهُ عَزْلٌ إليك مُوَجَّهٌ ... وتصحيفُه قَتْلٌ عليكَ مُؤَبَّدُ
رماكَ بباقِلَا دمشق فلم تكن ... سوى بَقْلَةٍ حمقاءَ بالحُمْقِ تُحْصَدُ
وجالَدْتَ جَلَّاداً وأنتَ مُؤَنَّثٌ ... تَذَكَّرْتَ والجلَّادُ أَذهى وأَجْلَدُ
تطاوَلْتَ لا نفسٌ تسمَّى ولا أَبٌ ... وراءك زحفاً إنما أنتَ مُقْعَدُ
أمسعاةَ نورِ الدين تبغي ودونها الـ ... أسنَّة تبر والعوامِلُ تَعْضُدُ(٢)
بمحمودِ المحمود سيفاً وساعداً ... حملت لقد ناجتك صماءُ مُؤْيِدُ(٣)
وهل يستوي سارٍ تأسَّدَ طاوياً ... ونشوان يُغلَى معصماً ويؤيدُ
تَنَصَّرْتَ أمَّا بل تمجَّسْتَ والداً ... وعمَّا فَعِرْقُ الكُفْرِ فيك مردَّدُ
تخذتَ بني الصُّوفي أسراً وأُسرةً ... لكي يُصْلحوا ما في يديك فأَفْسَدُوا
لَعَمْري لَنِعْمَ العبدُ أنتَ تجيعه الـ ... ـموالي وتُوليه هَوَاناً فَيَحْمَدُ
إليكم بني العلَّات عن مُتَشاوسٍ ... له الشَّام مرفا والعراقُ مُرَفَّدُ
وما مِصْرُ إلا بعضُ أمصارِه التي ... إلى أمره تسعى قِماءً وتَحْفِدُ
أنيبوا إليه فهْوَ أرْحَمُ قادرٍ ... له الصَّفْحُ دينٌ واقبلوا النُّصْحَ تَرْشُدوا
ولا تَرْشِفُوا نَفْثَ المُؤَيَّدِ إنه ... عن الخيرِ يزوي أو إلى المَيْنِ يَسْنُدُ
وفرُّوا إلى مولاكُمُ والذي له ... عليكم أيادٍ وَسْمُها ليس يُجْحَدُ
ولا تَكْفُروه إنَّما أنتُمُ له ... ومنه ويوم عند حورانَ يَشْهَدُ
غداةَ على الجَوْلان جَوْلٌ وللظُّبى ... رُعودٌ فريصُ الموتِ منهنَّ تُرْعَدُ

---

(١) فسرطته: سرطه سرطاً: ابتلعه.
(٢) العوامل: جمع عامل، وهو صدر الرمح.
(٣) الصماء: الداهية الشديدة. والمؤيدُ، كمؤمن الأمر العظيم والداهية الشديدة.

ولما اكفهرَّ اليوم واربدَّ وجهُهُ وعوَّذ مرهون وفرَّ مزبّدُ
وأيقنَ مَنْ بين السَّدير وجاسِم بأنَّ الحرارَ السُّودَ بالجُرْد تجردُ[1]
رَدَتهم على بُصْرى وصَرْخَدَ خَيْلُهُ وقد أبصرتْ بصرى رداها وصَرْخَدُ
وطاروا تهزُّ المُرْهِفات طُلاهم كما انصاعَ من أُسْدٍ نَعَام مُشرَّدُ[2]
وليلةَ ألقى الشرك بالمَرْج بَرْكَهُ ومارِجُ نيرانِ الوغى يتوقَّدُ
رمى وأخوه مَغْرِبَ الشَّمْسِ دُونكم بمشرقها غضبان يَغْدُو ويُسْئِدُ
فمُذْ وَرَدَتْ ماءَ الأرنط مُغِذَّةً أثارَتْ بَثَوْرا غُلَّة ليسَ تَبْرُدُ[3]
أيا سيفُ شامَتْهُ يد الملك صارماً فيمهد[4] إذ يسري ويسري فيُمْهِدُ
دمشقَ دمشقَ إنما القُدْسُ سَرْحَةٌ ومركَزُها صَرْحٌ عليها ممرَّدُ
حَمُوها لكي يحموا وقد بلغَ المدَى بهم أجلٌ حَتْمٌ وعُمْرٌ محدَّدُ
متى أنا راءٍ طائرَ الفَتْحِ صادِحاً يُرَفْرِفُ في أرجائها ويُغَرِّدُ

وله من قصيدة أخرى: [المنسرح]

نَذْرُكَ بالغُوطتين قد ضَمِنَتْ رَبْوَتُها ريعه ومُقْرَاها
أطلِعْ لها الشَّمْسَ من جبينكَ لم يَرْجُ سِوَاها في النَّوْمِ جَفْناها
فالخَيْلُ صور إلى تساهم سَهْـ ـمَيْها وملهًى في بيت لهياها
دولة مَنْ دانَتْ البِلادُ له وعَمَّها ظِلُّه فأغناها
لا بِسِواها تليقُ بهجتها ولا سواه تبغي رعاياها

[نزول عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق]

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرَّم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق وما والاها، وفي الغد قصد فريقٌ وافر منهم ناحية السَّهْم والنَّيْرَب؛ وكَمَنُوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج منها إليهم أسرع النَّذير إليهم فحذَّرهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي الغد نزل نور الدين

(١) جاسم: قرية في حوران بينها وبين دمشق ٥٠ كيلومتراً، منها أبو تمام الشاعر. انظر معجم البلدان ٢/ ٩٤.

(٢) طلاهم: أعناقهم.

(٣) الأرنط: هو نهر العاصي. وثورا: أحد فروع نهر بردى.

(٤) فيمهد: كذا في الأصل، ولعلها: فيهمد.

بعسكره على عيون فاسريا بين عذراء ودُومة، وامتدُّوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجُيرا وراوية في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبثَّت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد في زروع النَّاس فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها، بلا مانع ولا دافع، وتحرَّك السعر وانقطعت السَّابلة، ووقع التأهُّب للحصار، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلَّا صلاحُ أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يَعُدِ الجوابُ إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشَّرق والغرب. وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبليّ البلد.

قلتُ: هو الذي يُسمَّى في زماننا بمقبرة المعتمد؛ بين مسجد القدم ومسجد فلوس.

قال: وهذا منزلٌ ما نزله أحدٌ من مقدَّمي العساكر فيما سلَف من السِّنين، وأهمل الزَّحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النُّفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدورُ أهل الصَّلاح، وزادَ إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كلِّ يوم مُتَّصلة من غير مزاحفةٍ ولا محاربة. فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر، فرحل العسكر النُّوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي قدايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عُرف في قديم الزمان من أقدَمَ على الدنوِّ منها. ثم رحل في العشرين من صَفَر إلى ناحية دَاريًا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنج من البلد لقوَّة عزمه على لقائهم. وصار العسكرُ النُّوري في عددٍ لا يُحصى، وفي كلِّ يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائفِ التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحدٍ من عسكره في التسرُّع إلى قتال أحدٍ من المسلمين، وكانوا ـ يعني أهلَ البلد ـ يحملهم الجهلُ والغرور، على التسرُّع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مغلولين. وأقام على هذه الصُّورة، ثم رحل إلى ناحية الأَعْوَج لقُرب عسكر الإفرنج وعَزْمهم على قصده، واقتضى رأيه الرَّحيلَ إلى جهة الزَّبَدَاني استجراراً لهم، وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلافِ فارس مع جماعةٍ من المقدَّمين ليكونوا في أعمال حَوْرَان مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم، وترقباً لوصولهم، وخروج العسكر الدمشقي إليهم، واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم. واتفق أن عسكر الإفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوَّل، ودخل منهم خَلْقٌ كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيِّده في خواصِّهما، وجماعةٌ وافرة من الرَّعية، واجتمعا بملكهم وخواصِّه، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس في النُّفوس

من كثرة ولا قوة، وتقرَّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بُصْرى لتملُّكه واستغلال أعماله. ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم؛ لعجزهم واختلافهم، وقَصَدَ من كان بحَوْران من العسكر النُّوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خَلْقٍ كثير ناحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الإفرنج إلى لَجَاة حوران للاعتصام بها، ونُمِيَ الخبرُ إلى نور الدين، فرحل ونزل على عين الجرِّ من البقاع، عائداً إلى دمشق، وطالباً قصد الفرنج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصْرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم، وظهر إليهم سُرخاك[1] واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيَّدَه يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن نَدفعه ما رحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المِصْري إلى ثغور السَّاحل في غايةٍ من القُوَّة، وكثرة من العِدَّة والعُدَّة، وذُكِرَ أن عدَّة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرِّجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أُنفق عليه فيما حُكي وقرُب ثلاثمائة ألف دينار. وقَرُبَ من يافا من ثغور الفرنج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدَّةٍ وافرة من مراكب الرُّوم والإفرنج، ثم قصدوا ثغر عكًّا، ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدَّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حُجَّاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكُلِّ مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجيَّة، فاتَّفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدَّث نفسه بملكها لعلمه بضعفه، وميل الأجناد والرَّعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذُكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلةً، ثم رحل ونزل بالدلهميَّة من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كَوكَبا غربي دارَيَّا، ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدَّم ونزل القطيعة وما والاها، ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحفٍ ولا شدٍّ في محاربة، تحرُّجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أُرفِّهُهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

(١) قتل سنة ٥٥٢هـ.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلُّم نائبه الأمير حَسَّان المَنْبِجي[١] مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وورد مع المبشرِ جماعةٌ من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وتردَّدت المراسلات في عقد الصُّلْح مع أهل دمشق على شروطٍ واقتراحات، وتردَّد فيها الفقيه بُرْهان الدين علي البَلْخي والأمير أسد الدين شِيركُوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قَبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرِّضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصْرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأنَّ سُرْخاك كان شاع خلافه وعصيانُه، ومال إلى الفرنج فاعتضدَ بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه، وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره.

قلتُ: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجَوْلان وغيرها قصيدة، أوَّلها: [الرجز]

ما بَرَقَتْ بيضُكَ في غمامها ... إلا وغِيثَ الدين لابتسامها

يقول فيها: [الرجز]

محمود المحمود جِدًّا وَجَداً ... أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلْكٌ أزالَ الرُّومَ عن صُلْبانها ... دفاعُهُ وكَبَّ من أصنامها
جَال على الجَوْلان أمس جَوْلَةً ... صفَّرت الأُدْحيَّ من نعامها
والجون قد جرَّعها أُجونه ... وَفَلَّ مشحوذاً من اعتزامِها
وشدَّ في القِد له مليكها ... قودَ عَتُودِ القَوْط في شِبَامها[٢]
وفي الرُّها صابَتْ له سحابةٌ ... صاروا جفاءَ خَفَّ في التطامها
وهَبَّ في هاب له عواصِفٌ ... تجهَّمتها الهِفُّ من جَهامها[٣]
وكَفرلاثا لاث في جبينها ... لَثْمُ ظُبًى أتت على لثامها
وقائِعُ يرفضُّ تحت وَقْعها ... نَظْمُ الثُّريا في فضا مصامها
فساعةُ البيضِ إذا عدَّدها ... سوطُ عذابٍ صُبَّ في أيامها
واعجباً لعُصب الشِّرْك التي ... لم يَغْضِبِ الرُّشْدُ على أحلامها

(١) في «الكامل» ٩/ ٣٣٩: حسان المنجي.
(٢) العتود: من أولاد المعز. والقوط: القطيع اليسير من الغنم.
(٣) الهف: السحاب الرقيق، لا ماء فيه.

حـكـمـةٌ اسـتـواؤهـا فـي غَـيِّـهـا ... فـي نَـقْـضِ مـا أُحْـصِـدَ مـن إبـرامـهـا
مُـظَـفَّـرُ الـرَّايـاتِ والـرَّأيِ إذا الـ ... ـحَرْبُ مَشَتْ تَعْثُر في خِطَامها
عَـدَتْ بـه حَـدَّ الـعَـلاءِ هِـمَـمٌ ... هـنَّ الـنُّـجـومُ أو نـواصـي هـامـهـا
جـلَّـت لـه الـدُّنـيـا عـلـى زيـزحـهـا ... عَـفْـواً فـلـم يـلـو عـلـى حُـطـامـهـا
رأَتْـهُ وهـو الـلَّـيـثُ يَـدْمـي ظُـفْـرُهُ ... أَنْـفَـذَ فـي الـمُـشْـكِـلِ مـن حُـكَّـامـهـا
فـتـوَّجَـتْـه الـعِـزَّ فـي مـرتـبـةٍ ... تـمـنـطـقَ الـجـوزاءَ فـي نِـظَـامـهـا
غـضـبـانُ لـلإسـلام لا يـغـيـظـه اسْـ ... ـتـسلامُـهـا لـلـقَـسْـرِ مـن إسـلامـهـا
خـطَّ عـلـى مِـثْـلِ أبٍ طـاعَـتْ لـه الـ ... آفـاقُ واسْـتَـشْـرَفَ لاغـتـنـامـهـا
تـصـرُّفُ الـدُّنـيـا عـلـى إيـثـاره ... عِـراقُـهـا مُـسْـتَـرْدِفاً بـشـامِـهـا
لـو لـم تـكـن دون مِـنًـى فـاتَ الـمُـنَـى ... وأُقْـعِـدَ الـفـائـزَ مـن قُـوَّامـهـا
وامـتـلـكَ مـاءَ مـكَّـةٍ رواضـعٌ ... يـقـصُـر بـاعُ الـدَّهـرِ عـن فِـطَـامـهـا
وصـارَ كـالـجـمـر الـجِـمَـارُ وخـلا ... مـن أهـلِـهِ الأشـرف مـن مـقـامـهـا
حَـمَـيْـتَـهـا لا زِلـت تَـرْقَـى فـي حِـمًـى ... مـن مُـؤْلِـم الأرداء أو لِـمَـامـهـا
تُـلْـبـس بـيـتَ الله وَشْـيَ يَـمَـنِ ... يـقـرأ آيـاتِـك مـن أعـلامـهـا
فـإنَّـمـا الـدِّيـن رحًـى قُـطْـبُـتَـهـا ... وبـازلٌ مُـكِّـنْـتَ مـن زِمـامـهـا
أَمَّـتْ بـنـا الآمـالُ مـنـكَ كـعـبـةً ... سـلـم الـلَّـيـالـي آيـة اسـتـسـلامـهـا
وأرشـفـتـنـا بـك ثَـغْـرَ نِـعْـمَـةٍ ... لا نـسـألُ الـلَّـهَ سِـوَى دَوامِـهـا

وقال أيضاً يمدحه: [الوافر]

بـجـدِّك أصـحـب الـجـدُّ الـحَـزُونُ ... وأطْـلَـعَ فَـجْـرَه الـفَـتْـحُ الـمـبـيـنُ
وفـي كَـنَـفَـيْـكَ سُـولـمـت الـلَّـيـالـي ... وفـارقَ طَـبْـعَـهُ الـزَّمَـنُ الـخَـؤُونُ
ومـنـكَ تـعـلَّـم الـقَـطْـعَ الـمـواضـي ... وقـد زَبَـنَـتْ بـهـا الـحَـرْبُ الـزَّبـونُ
وأنـتَ الـسَّـيْـفُ لـم تَـمْـسَـسْـهُ نـارٌ ... ولا شَـحَـذَتْ مـضـارِبَـه الـقُـيُـونُ(١)
تَـرَقْـرقُ فـوقَ صَـفْـحَـتِـه الأمـانـي ... وتـقـطُـرُ مـن غِـرَاريـه الـمَـنُـونُ(٢)
وقـبـلَـكَ مـا سَـمِـعْـتُ بـذي فَـقَـارٍ ... يُـبـيـرُ الـفَـقْـرَ كـانَ ولا يـكـونُ
ولا غـيـثٍ سـمـاوتـه سـريـرٌ ... ولا لـيـث وسـادتـه عَـريـنُ

---

(١) القيون: جمع قين، وهو الحداد.
(٢) الغراران: هما شفرتا السيف.

ولا قَمَر له الهَيْجَاءُ هالٌ ... ولا تاج له الدُّنيا جبينُ

جُبِلْتَ نَدًى وعَفْواً وانتقاماً ... وماءُ كلُّ مجبولٍ وطينُ

ومُلكك عَمَّمَ الأقطار قَطْراً ... فأَمْرَعَتِ الأواعثُ والحُزُونُ

تلألأُ تحتَهُ غُرَرُ اللَّيالي ... إذ الأيامُ عند سِوَاك جُونُ

وأنتَ أقمتَ للجَدْوى مناراً ... يبينُ لشائميه ولا يبينُ

وعندكَ مَشْرَبُ النُّعْمَى زُلالٌ ... إذا عبقت مشارِبَها الأُجونُ

تحكَّمُ في عَطَائك كُلَّ عاطٍ ... وقد شِيْدَتْ مِن المَنْعِ الحُصُونُ

لقد أشعَرْتَ دينَ الله عِزًّا ... تتيه له المَشَاعر والحجون

وقامَ بِنَصْرِهِ والنَّاسُ فوضى ... قويٌّ منك في الجُلَّى أمِينُ

رجعت ملوكهم وهم خيوفٌ ... أسيرٌ في صفادِكَ أو كنين(١)

فبَرْنَسْتَ البِرِنسَ لقاعِ خَسْفٍ ... وجُرِّعَ مُرَّ جوسك جوسلينُ

إذا ما الفِعْلُ عُلَّ تلاه حَذْفٌ ... يتاحُ لمنتهاهُ أو سكُونُ

غنوا حتى غزوتهم فغنى الـ ... ـصَّدَى في أرضهم خفَّ القطينُ

وَكَمْ عَبَرَ الصَّليبُ بهم صليباً ... فردّته قَناكَ وفيه لينُ

وما خَطَرْتَ بدار الشِّرْكِ إلا ... هوى النَّاقوسُ وارْتَفَعَ الأذِينُ

ملأتَ عِظَامَ ساحِهِم عظاماً ... فكلُّ ملاً لقوكَ به جرين

بإِنَّبَ والقَنَا تجري نجيعاً ... كأنَّ عيونَ أكعُبِها عُيونُ

وبين جِرار صَرْخَد ذُبْنَ حَرًّا ... له في كلِّ خَبْخَبَةٍ كَمِينُ(٢)

وفثن من العُرَيْمة في عُرَام ... له في جُونها الأقصى وجونُ

وكم حَرَم بِحارِمَ غادَرَتْهُ ... ودارته لمنسفها دَرِينُ

وفي شعراءَ قُورُس صُغْنَ شِعْراً ... تُدارُ على غِرَارَيه اللُّحون

وقائعُ صِرْنَ في صنعاء طيراً ... يوقعها على عَدنٍ عدونُ

نماكَ أبٌ إذا عُدَّ انتساباً ... تراقى مُصْعِداً والنَّاسُ دونُ

---

(١) خيوف: خيف الإنسان وغيره خيفاً: كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء كحلاء، فهو أخيف، وهي خيفاء. وخيّف عن القتال: نكص عنه. والأخياف من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال، ويقال: الناس أخياف: لا يستوون. وهم أخياف: أمهم واحدة وآباؤهم شتّى.

(٢) الخبخبة: شجر، ومنه: بقيع الخبخبة بالمدينة، لأنه كان منبتها.

شِـمـالاً كـان أمـلاكُ الـبَـرَايـا وقـد قِـيْـسُـوا بـه وهـو الـيـمـيـنُ
فـصـار قـضـاؤه فـي الأرض حـتـمـاً وطـاعـةُ أهـلـهـا لـبـنـيـه دِيْـنُ
لـهـذا الـيـوم تُـنـتـخـب الـقـوافـي ويـذخـر نـفـسـه الـدُّرُّ الـمَـصُـونُ
ونـحـنُ أحـقُّ مـنـك بـأن نُـهَـنَّـا إذا قَـرَّتْ بـرؤيَـتِـك الـعُـيـونُ
سَـلِـمْـتَ لـنـا فـإنَّـا كُـلُّ صَـعْـبٍ نـوازنـه بـأن تـبـقـى يَـهُـونُ
تـرابـطـنـا بِـعَـفْـوَتِـك الـتَّـهـانـي وتـغـبِـطُـنـا بـدولـتـك الـقُـرونُ

فصل

[في باقي حوادث هذه السَّنة]

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مِصْر بأنَّ أهل دِمْياط حَدَث فيهم فَنَاءٌ ما عُهِدَ مثلُه في حديث ولا قديم، بحيث أُحصي المفقودُ منهم في سنة خمس وأربعين سبعة آلاف شخص، وفي سنة ستٍّ وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعةَ عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقةً لا ساكن فيها ولا طالب لها.

قال: وفي ثاني جُمادى الآخرة توفي القاضي السَّديد الخطيب أبو الحسين بن أبي الحديد خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صيِّتاً عفيفاً، ولم يكن له من يقوم مقامَه في منصبه سوى أبي الحسن الفَضْل؛ ولد ولده، وهو حدَث السِّن، فَنُصِبَ مكانَه وخَطَب وصلَّى بالناس، واستمرَّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكاياتُ بحدوثِ زلزلةٍ وافت الليلة الثالثة عشرة من جُمادى الآخرة اهتزَّت الأرضُ لها ثلاث رجفات في أعمال بُصرى وحَوْران وما والاها من سائر الجهات، وهدَّمت عدةً وافرة من حيطان المنازل بِبُصْرَى وغيرها، ثم سكنت بقُدْرة مَنْ حرَّكها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجيرُ الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصِّه، ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمَهُ، وبالغ في الفعل الجميل في حقِّه وقرَّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحُسْنَ النِّيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلتُ: وفي ذلك يقول القَيْسَراني: [السريع]

وَفَـتْ لـك الـدُّنـيـا بـمـيـعـادِهـا بـاذِلَـةً أفـلاذَ أكـبـادِهـا
وأوْفَـدَتْ غـرَّ سـلاطـيـنـهـا عـلـيـك فـي هـمـة أنـجـادِهـا

تبغي سناءً أَقْصَدَتْ قَصْدَه ... طائعةً طاعةَ أجنادِها
خاضِعةً تعتدُّ أعمارَها ... يوم التَّلاقي يوم ميلادِها
شامَتْ دمشقُ بك بَرْقَ العُلا ... فأَرْسَلَتْ أَصْدَقَ رُوَّادِها
رأَتْكَ نورَ الدين نارَ الهُدَى ... قد أَشْرَقَ الأُفقُ بإِيقادِها
فيمَّمَتْ منكَ حيا مُزْنَةٍ ... بيض الأيادي ورد ورَّادِها
فاسأَلْ مجيرَ الدين عن خُبْرِه ... أورَدَها محمودَ إيرادِها
تبوَّأَتْ من عِزِّها قُبَّةً ... سُمْرُ القَنا أطنابُ أوتادِها
تنافَسَ النَّاسُ على دَوْلَةٍ ... فُتَّ بها أعينَ حُسَّادِها
يغدُو المُعادِي كالمُوَالي لها ... فَوالِها إنْ شِئْتَ أو عادِها
يا ملكاً تُزهى بأسمائِهِ ... منابرُ تسمو بأَعْوَادِها
وتأخذُ الأسماءُ أوصافَهُ ... عن جُمَعِ الدُّنيا وأعيادِها
كَمْ للمعالي فيك مِن رَغْبَةٍ ... تَفْنَى الأماني دُونَ تَعْدَادِها
لك المساعي الغُرُّ يا جامعاً ... مِنْ طَرَفَيْها بين أَضْدَادِها
تَغْشَى الوغى أفرسَ فُرْسانِها ... وفي التُّقى أزْهَدُ زُهَّادِها
فأنتَ نُسْكاً غيثُ أَبْدالِها ... وأنتَ فَتْكاً ليثُ آسادِها
في أُمَّةٍ أنتَ حِمَى دِينِها ... حيناً وحيناً شَمْسُ عُبَّادِها
يطوي بك العُمْرُ إلى غايةٍ ... حَسْبُكَ تقوى الله مِن زادِها
هذا وكم مِنْ سُنَّةٍ بِدْعةٍ ... أَعْدَمْتَها من بَعْدِ إيجادِها
مآثرٌ لو عَدِمَتْ راوياً ... تكفَّلَ النَّظْمُ بإسنادِها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعضُ التُّركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التُّركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحيةً من البِقاع وأغاروا، فأنهضَ إليهم والي بَعْلَبَكَّ رجاله. فلحِقُوهم وقد أرسل الله عليهم من الثُّلوج المتداركة ما ثبَّطهم؛ فاستخْلَصوا منهم الغنيمة.

قلتُ: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب؛ والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ستٍّ وأربعين أغار التركمانُ على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفرنج، ليستنقذوا ما أخذوه، فعاد التُّركمان عليهم فكسروهم ونهبوهم، واتَّصل ذلك بصاحب دمشق، فأغضَبَهُ فعل التركمان لِمَكان الهُدْنة

المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيَّشوا وخرجوا في جيشٍ عظيم، وشَنُّوا الغارة على البقاع والنَّاس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغَنائم والأسارى، واتَّصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبكَّ وعنده جماعةٌ من عسكر دمشق وأصحابه، فقدَّم عليهم ولده شمس الدولة[1]، فخرج وأوقع بالفرنج، واتَّفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثَلْجٌ عظيم هلك به أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورِّطون، فَقَتَل فيهم مقْتَلةً عظيمة، وخلَّص من كان مع الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السَّنة فارق صلاحُ الدين والده، وصار إلى خدمة عَمِّه أسد الدين بحلب، فقدَّمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يَعْلى: وفي ثاني شوال، وهو الثَّاني من شباط، وافت قُبيل الظُّهْر زلزلةٌ اهتزَّت لها الأرض ثلاث هَزَّات هائلة، وتحرَّكت الدُّورُ والجُدران، ثم سكنت.

قلتُ: وفي هذه السنة، في غُرَّة جُمادى الأولى، كتب أحمد بنُ منير من حماة إلى نور الدين قصيدةً يهنِّئه بوصول الخِلَع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشَّيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون، ويصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسَّيْف العربي، أوَّلها: [الكامل]

لِعَلائك التَّأييدُ والتَّأميلُ ... ولمُلكك التأبيد والتَّكْميلُ
أبداً تَهُمُّ وتقتفي فتنالُ ما ... عَزَّ الوَرَى إدراكُه وتُنيلُ
إما كتابٌ يستقلُّ به الكتا ... ئبُ أو رسولٌ للنَّجاحِ رَسِيْلُ
لك من أبي سعد زعيم سعادة ... فَمَنْ تفاءلَ فيكَ ليس يفيلُ[2]
نِعْمَ الحُسَامُ جَلَوْتَه وبلوتَهُ ... يُرْضيك حين يصلُّ ثم يصولُ
سَهْمٌ تعوَّد في الكِنانة عوده ... ويقصِّرُ المطلوب وهو طويلُ
سددته فمضى وقرطسَ صادراً ... كالنَّجْمِ لا وَهْلٌ وَلَا تهليلُ
فثنى القلوبَ إلى ولائك حُوَّلٌ ... منه بما يَجني رضاك كفيلُ
وأقامَ يَنْشُرُ في العِراقِ ودِجْلَةٍ ... آياً تأوَّلها لمصر النِّيلُ
وكساك مِنْ رأي الخليفة جنَّة ... لا النقص يُوهيها ولا التَّقليلُ

(١) هو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر، توفي بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ. وكان له أكثر بلاد اليمن. انظر «الكامل» ١٠/ ١٠٤.

(٢) أبو سعد: هو ابن أبي عصرون، عبد الله بن محمد بن هبة الله المتوفى سنة ٥٨٥. تقدمت ترجمته.

كنتَ الشَّريفَ أفضتُ في تشريفه ... ماءً عليه من سَناكَ دليلُ
أليُوسف لما طلعت مُقرطقاً ... طَمَثَتْ حَصَانٌ واستخَفَّ أبيلُ
أم عن سليمان يفرِّج ضاحكاً ... سُجف الرُّواقِ وضعضع الكيُولُ
وممَلَّكٍ في السَّرج أمْ ملكٍ سطت ... لبهائه عقلٌ وتاه عقولُ
وبَرَزْتَ في لُبْسِ الخِلافة كالهلا ... لِ جلاه في حُلَلِ الدُّجى التَّهْليلُ
خِلَعٌ خَلعْن على القلوب مَسَرَّةً ... سدكاتها[1] التعظيمُ والتَّبْجيلُ
نشرت نُضاراً جامداً أعلامها ... وتكادُ تجري رِقَّةً وتسيلُ
لَقَضَى لها أنْ لا عديلَ لِفَخْرِها ... رَبٌّ بَرَاك فلا تلاكَ عَدِيْلُ
أنتَ المهند مُنذُ سلَّتْهُ العُلا ... لم يخلُ مِن مُهج عليه تسيلُ
مُذْ هزَّ قائمَهُ الإمامُ تألَّقت ... غررٌ شُدخن لمُلْكه وحجولُ
والَيْت دولتَه فتِهت بِدَوْلَةٍ ... مُتكلِّل بصعيدِها الإكليلُ
ونَصرْتَهُ فَحلاك أبيضَ دُوْنَه ... صَرْف الزَّمان إذا استكلَّ كليلُ
قُلِّدتَه وكِلاكُما مُتَلَهْذِمٌ ... عَضْبٌ فَزانَ المغمد المَسْلُولُ
وحبا رِكابُك حين قر بزحفه الـ ... ـقرآنُ واستخْذَى لهُ الإنجيلُ
بأقبَّ أصفر مُشْرِفَ الهادي له الـ ... ـتَّحْجيل لونٌ واللَّما تحجيلُ
قَسَمَ الدُّجى بين الغدائرِ والشَّوى ... واغتامَ رَوْنَقه الأصيلَ أصيلُ
وتقاسمَ الرَّاؤُوه تحتك أنَّه ... حيزوم صرَّف عِطْفَه جبريلُ[2]
يختال في حبك الحُليِّ مخيِّلاً ... أنَّ الشَّوامخَ للبدورِ خيولُ
مُرْخَى الذَّوائبِ كالعروسِ يزينُه ... طَرْفٌ بأطرافِ الرِّماحِ كحيلُ
تتصاعق النعرات تحتَ لَبانِه ... إن شَبَّ زفْرٌ واستجشَّ صَهِيْلُ
لم يَخبُ مِثْلَكَ مِثْلَه مُهْدٍ ولم ... يُشْلَلْ على بَرْقٍ سواه شليلُ

وأنشده في هذه السنة أيضاً بحمص قصيدةً، منها: [الكامل]

الدَّهْرُ أنتَ ودارُك الدُّنيا ومَن ... في الغَدِ بعدُ مؤمِّل وحَسُودُ
وأزِمَّةُ الأقدار طَوْعُ يديك والـ ... أيَّامُ جُنْدُك والأنامُ عبيدُ
فُتَّ الوَرى وعَقَدْتَ ناصيةَ المدى ... بِمُذَمَّرِ الشِّعْرى فأين تريدُ؟!

---

(١) سدكاتها: كذا بالأصل.

(٢) حيزوم: فرس جبريل عليه السلام.

تالِ أباك فهل سليمان يرى في الدَّست مَهْدَ مُلْكه داودُ
جَلَّى وسُدْتَ مصلّياً لا يُرفع الـ ـمَعْدُومُ ما لم يَشْفَعِ الموجودُ
لَمْ يُخترم جدٌّ نماك ولا أبٌ إن النَّباهةَ في الخليفِ خلودُ
شَمَخَتْ منارُك في اليَفَاعِ وأمَّها من لم يَسُدْ فَأَرَتْه كيفَ يسودُ
وهَبَبْتَ للإسلام وهو مُصَوِّحٌ فاهْتَزَّ أهضابٌ وَرَقَّ نجودُ
وفثأت جمرةَ صالميه بِصَيْلَمٍ يَضَعِ الأجِنَّةَ يومُها المَشْهُودُ
خَطَمَتْهُمُ فوقَ الخطيمِ لوافحٌ نفس الأرين لوأرهنّ برودُ
ورُمُوا على الجَوْلان منك بِجَوْلَةٍ توئيدها نسر الضَّلال وئيدُ
ولَحَا عِظَامَهُمُ بِعِزقةَ عارقٌ ما زلتَ تمخض جوّه فتجودُ
وشللْت بالرُّوج السُّروج وفوقها زَرَعٌ لمحصده الرِّماحُ حَصِيْدُ[1]
وعلى عزاز عَنَوْا وثَلَّ عُروشَهُمْ ملكٌ مقيَّدُ مَنْ عَصَاه مقيدُ
وبِتَلِّ باشِرَ باشُروك فعافسوا أُهُبُ الأساود حَشْوهنّ أُسودُ
أوْدَوْا كما أوْدى بِعادٍ غَيُّها وعقوا كما اسْتَغْوَى الفَصِيْلَ ثَمُودُ
إنْ آلموا عقراً فإنك صالحٌ أو آلموا غَدْراً فإنَّك هُودُ
وزعْتَهُمْ فبكل مَهْبِطِ تَلْعَةٍ خدٌّ به من وازعٍ أُخدُودُ
وَعَصَبْتَهُمْ بعصائبٍ مِلْءِ الملا شتَّى وإنْ خلَّ البسالة عُودُ
آثارها محمودةٌ وإثارها مَشْهُودَةٌ وَشِعَارُها محمودُ
لَبِستْ من اسمك في الكريهة ملبساً يَبْلَى جديدُ الدَّهرِ وهو جديدُ
وقصيرة الآجال طَوَّلَ باعَها بوعٌ يسامي هامَها وقُدودُ
مطرورةُ الأسلاب مُذْ هَزَّعْتَها تاه الهُدَى وتبختَرَ التَّوحيدُ
أَشْرَعْتَها فعلى شريعةِ أحمدٍ مِما جَنَتْهُ بوارقٌ وعُقودُ
ولكم نَثَرْتَ نظيمها في مَوْقفٍ تغريد صالي حَرِّه التَّغريدُ
يجلو سناك ظلامَهُ ويحلُّ ما عَقَدَتْ قناهُ لواؤك المعقودُ
في هبوةٍ زحم السماء رواقُها والأرض تَرْجُف تحتَهُ وتَميدُ
ضَرَبَتْ مُخَيَّمهَا فكان كُمَاتُها أوتادَهُ القُصوى وأنتَ عَمودُ
في كلِّ يومٍ من فتوحك صادِحٌ هزِجُ الغِناء وطائرٌ غِرِّيدُ

---

(١) الروج: من كور حلب المشهورة.

تـهـدي لـغـانـةِ كـأسِـهِ فَـرْغَـانـةٌ وتـسـيـغ زبـدة مـا شـداه زبـيـدُ
فغِرار سَيْفِك للأحابشِ محبسٌ ومُثار نَقعِك للصَّعيد صَعِيدُ
لا تَـعْـدَمَـنْ هـذا الـمـقـلَّـدَ أمـة مُـلـقّـى إلـيـه لـرعـيـهـا الإقـلـيـدُ
الْـوِرد قَـرٌّ والـمـسـارحُ رَحْـبَـةٌ والـرِّفْـد مـدٌّ والـظِّـلال مـديـدُ
والعيش أبلجُ مشرق القَسَماتِ والْـ أشْـجـار غـرٌّ والأصـائِـل غِـيْـدُ
والـمُـلْـكُ مـمـدودُ الرِّواق منوَّرُ الْـ آفـاق وضَّـاءُ الـمُـنـى مـحـسـودُ
فـي دولـةٍ مُـذْ هَـبَّ نَـشْـرُ رَبِـيـعـهـا نُـشِـر الـرُّفـاتُ وأثـمـرَ الـجُـلْـمُـودُ
مـحـمـودَةُ الآثـارِ مـحـمـوديَّـة كـلُّ الـمـواسـمِ عـنـدَهـا تَـعـيـيـدُ

وقال يهنئه بليلة الميلاد، ويصف النَّازلين في الجبل من قلعة حلب قصيدةً منها: [المنسرح]

هُـنـيـت زورَيْ ذَرَاك صـومـك والْـ ـمـيـلاد جـاءا والـسَّـعْـدَ فـي نَـسَـقِ
فـذاك بَـخَّـلْـتَ فـيـه كـل نـدٍ وذاك أخـمـلـتَ فـيـه كُـلَّ تـقـي
وَجْهٌ كصَدْرِ الحُسَام تَصْبُو له الْـ ـعَـيْـنُ ويـنـقـدُّ الـقـلـب مِـنْ فَـرَقِ
ومُـقْـلَـةٌ شَـوْقُـهـا لَـيَـقْـظَـتِـهـا شَـوْقٌ لـحُـسَّـادِهـا إلـى الأرَقِ
ومُـرْتَـقًـى تَـعْـجَـبُ الـسَّـمـاءُ لـه إذا استطالتْ إليه: كيف رَقي؟
تَـوَّجْـتَ شـهـبـاءَهـا بـمُـشْـرقـةٍ مُـشـرفـةٍ شُـهْـبُـهـا عـلـى الأُفُـقِ
جـوٌّ تـهـادى مـنـه كـواكـبُـه طَـرْفـةَ طَـرْفِ رُجـومَ مُـسـتَـرِقِ
فـوارسٌ تُـذْهِـلُ الـفـوارسَ أن تـهـافـتـت مـن أرشـاقـهـا الـرشـق
من راكضٍ في الهواء أهوى من الْـ ـفـتـح مـجـرّ مـن تـحـتـه لـبـق
شـاوٍ مـن الـحـضـر لـو تـحـاولَـهُ الْـ ـخُـضـر لـزلَّـتْ عـن مـوطـئٍ زَلَـقِ
يـقـول مَـن ديـنـه الـفـروسـة: مـا لاقـاك إلا ضَـرْبٌ مـن الألَـقِ
بَـدائـعٌ تَـغْـبِـطُ الـسَّـمـاءُ بـهـا الْـ أرْضَ وتُذكي الإشفاق في الشَّفِق
فـي دولـةٍ جَـمَّـعَـتْ إيـالـتـهـا مـن بـدَّدَ الـحُـسْـنَ كـل مُـفْـتـرقِ
تُـزَرُّ أطـواقُـهـا عـلـى مـلِـكٍ مـكـتـفـلٍ رِزْقَ كُـلِّ مُـرْتَـزِقِ
مـحـمـودٌ اسـمـاً ومِـيـسـمـاً ونـدًى واعـتـصـب الـدَّمَّ كـل مـرْتَـفِـقِ
طَـبَّـقَ طـوفـانُـه فـلـسـتَ تـرى إلّا مـغـيـثـاً مـشـفٍ عـلـى غَـرَقِ
يـا بـحـرُ لا خُـلُـق تـدَّعـي شَـبَـهـاً فـاتَ الـمـدى مـا حَـويـتَ من خُـلُـقِ
مـلـكـك هـذا الـذي تـمـلأه صِـبَـاه يـجـري والـدَّهْـرُ فـي طَـلَـقِ

[فتح نور الدين حصن أنطرسوس ويحمور]

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرَّم بنزول نور الدين على حِصْن أَنْطَرْسُوس في عسكره، وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمانَ على النُّفوس، فأُجيبوا إلى ذلك، ورتَّب فيه الحَفَظَة، وعاد عنه، وملَك عِدَّةً من الحُصُون بالسَّبْي والسَّيف والإخراب والإحراق والأمان[1].

قال: وورد أيضاً ظَفَرُ رجال عَسْقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغَزَّة، بحيث هلك منهم العددُ الكثير، وانهزمَ الباقون.

قلتُ: وقرأت في ديوان ابنِ منير يمدح نور الدين ويهنِّئُهُ بفتح أَنْطَرْسُوس ويحمور وعوده عنهما قصيدةً، منها: [الكامل]

أبداً تُباشِرُ وَجْهَ غَزْوِك ضاحكاً ... وتؤوبُ منه مُؤَيَّداً منصورا

تُدْني لك الأملَ البعيدَ سَوَاهِمٌ ... مُحِقَتْ أَهِلَّتُها وَكُنَّ بُدُورا

مثل السِّهام لو ابتغى ذو أربعٍ ... في الجوِّ مُطَّلَباً لكُنَّ طيورا

نَبَذَتْ علائقها بحمصَ وأعلقتْ ... سِحْراً بمعرق عرقه الأُظْفورا

وغَدَوْن صافيشاء لاح شوارها ... قد أتْلَعَتْ عُنقاً إليكَ مُشِيرا

القَلْبُ أنتَ فإن تعامى عن هُدًى ... عُضْوٌ أَهَابَ به فعاد بَصِيرا

عَرَفُوا مكانَكَ والظَّهيرة بينهم ... يَفْرِي بياضُ أديمها دَيْجُورا

أين الذُّبالُ من الغَزالةِ أَشْرَقَتْ ... وجهاً وطبَّقَتِ البسيطةَ نُورا

غضبانُ أَقْسَمَ لا يَشيم حُسامه ... والأرضُ تحمل في الكُفور كَفُورا

غَسَلَ العواصِمَ أمسِ من أدرانهم ... واليوم رَدَّ به السَّواحل بُورا

لم يُبْقِ بين الحَوْلتَين وآمِدٍ ... وتراً لِمُضْطغنٍ وَلَا مَوْتُورا

أخلَى ديارَ الشِّرْكِ من أوثانها ... حتى غدا ثالوثُهن نَكِيْرا

رَفَعَ القُصورَ على نَضائِدِ هامِهِم ... من بَعد ما جَعَلَ القُصورَ قُبورا

بشواجِبِ الأَلْياط تقطو في الظَّلا ... م قطاً وتهوي في الصَّباح نُسُورا

غادَرْتَ أَنْطَرْسُوس كالطِّرْسِ امَّحى ... رَسْماً وحمَّر دِرْعُها يحمورا

وهي الزِّناد لفتنةٍ كانت على الـ ... إسلامِ أحكم كسرةٍ إكسيرا

---

(١) انظر «الكامل ٩/ ٣٧٥»، وفيه: الحرب بين نور الدين محمود، وبين الفرنج.

هَتَمَتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُها الـ ... ـبَسَّامُ من عِزِّ الثُّغور ثَغِيرا
إقليدُها كانتْ وقد أنطَيْتَه ... واسأل به مِمَّنْ دهَتْه خَبِيرا[١]
إن الأُلى أمِنوا وقاعك بعدَها ... غُرُّوا وقد ركبوا الأغَرَّ غُرورا
ألقِ العصا فيمن أطاع وَمَنْ عصى ... منهم ودمر أرْضَهُمْ تَدْمِيرا
لا يُلهِهِم أنْ قد مَنَنْتَ وشُنَّها ... شعواء تُصْلي الكافرينَ سَعِيرا
باكِرْ بركز قناً تُنَسِّفُ أُسَّها ... والخيلَ صَوِّرْ كي تُزيرك صُورا
وتُريك لامعةَ التَّريك بساحةِ الـ ... أقصى مُطهَّرةً لها تَطْهيرا[٢]
أوَلَسْتَ من قومٍ إذا هزُّوا القَنا ... فتلوا معاصمهم لها تَسْويرا
وإذا هُم خَطَبواْ اليَرَاع عزيزةً ... ساقوا الشِّفار على المهار مهورا
ألقى قسيماهم إليك أزِمَّةَ الـ ... ـمُلك المطل على السُّها تأثيرا
ضَحِكَتْ لك الأيامُ واكتأب العِدَى ... قلقاً فجئتَ مُبَشِّراً ونَذِيرا
لا مُلكَ إلا مُلكُ محمود الذي ... تَخِذَ الكِتابَ مُظاهِراً ووزيرا
تمشي وراءَ حُدُودِه أحكامُه ... تأتمُّهنَّ فَيُحْكِمُ التَّقْديرا
يَقْظَانُ يَنْشُر عَدْلَه في دولةٍ ... جاءت لِمَطْويِّ السَّماحِ نُشورا
خَلَفَ الخلائفَ قائماً عنهم بما ... عَيُّوا به ألْوى ألَدَّ غَيُورا
البرَّ والمعصومَ والمهديَّ والـ ... ـمأمونَ والسَّفَّاحَ والمنصورا
نُشِروا به فعهودُهُمْ وعهادهم ... يَمْتَخِنَ تحتَ لوائِهِ مَنْشُورا

وأنشده بحلب في هذه السَّنة قصيدةً، أوَّلُها: [الكامل]

المجدُ ما ادَّرَعَتْ ثَرَاك هضابُه ... وَتَشَقَّقَتْك شعوبُه وشِعَابُهُ
مَلْكٌ تكنَّفَ دين أحمد كِنُّه ... فأضاءَ نيِّرُهُ وصابَ شهابُه
فالعَدْلُ حيثُ تصرَّفَتْ أحكامُه ... والأمنُ حيثُ تَصَرَّمَتْ أسْرَابُهُ
متهلِّلٌ والموتُ في نَبَرَاتِهِ ... يُرْجَى ويُرْهَبُ خوفُه وعقابُه
عَقَدَ اللِّواءَ وسار يَقْدُمُهُ وما ... حلَّتْ عقودَ تَميمِها أترابُهُ
أسدٌ فرائِسُهُ الفوارِس والظُّبَى ... أظفارُهُ والسَّمْهَرِيَّةُ غابُهُ
طَبَعَ الحديدَ فكانَ منه جَنَانُه ... وسِنَانُه وإهابُه وثِيَابُهُ

---

(١) أنطيته: أعطيته، وأنطى: لغة في أعطى.
(٢) التريك: بيضة الحديد للرأس.

ويَهَشُّ إنْ كَبَتِ الوجوه كأنّما أعداؤه تحتَ الوغى أحْبابُهُ
نُشِرَتْ بمحمودٍ شريعةُ أحمدٍ وأرى الصَّحابةَ ما احتذاه صِحَابُهُ
ما غاب أصْلَعُ هاشم فيها ولا الـ ـفاروقُ باء بخطبه خَطَّابُهُ[1]
أبناءُ قَيلة قائمون بِنَصْرِه إنْ أجلبت من قاسطٍ أحزابُهُ
صَبَحوا مُحلَّقة البِرنْس بحالقٍ حرش الضباب من القلوب ضبابُهُ
ما زالَ يَغْلِبُ من بَغَاه ضلالُهُ حتى أُتيح من الهُدَى غلَّابُهُ
مُلْقًى بوحش الأصرمين تَزَيَّلَتْ آرابُهُ وتزايلتْ آلابُه
دون الأُرنط سخت به نجداتُه ونجاده وقِرابه وقُرابُهُ[2]
سَلَبَتْهُ دُرَّةَ تاجه يَدُ ضَيْغَم لم تنجه من بَأْسِهِ أسلابُهُ
وأتته تجلب جُوسلين جنائبٌ هَبَّتْ فَقَلَّ إلى القِتال هبابه
أَسَرَتْهُ لا مَنَعَتْ سُرَاه وغرّه بالقاعِ إنْ رامَ الورودَ سَرَابُهُ
يمشي فَتُسْمِعُهُ قعاقعُ قَيْدِه هَزَجاً تَقيءُ دماً له أندابُهُ
لا تلّ باشِرِه ولا كيسونه صَدَّتْ منّى عنه ولا عنتابُه[3]
ضَمِنَتْ شقاوته سعادَةُ صافح غَطَّى على إعناته إعتابه
ما زال يَغْدِرُ ثم يغدر قادراً حتّى أتاه بجامح أصحابُهُ
قَصْرُ الأماني أن يُمَلَّىء عصرك الـ إسلامُ مضروباً عليه حِجَابُه
مَجْرُ يجرُّ إلى الغنائم قُبُّهُ وحمًى يُزَارُ على الفتوحِ قِبَابُه

وأنشده بحلب أيضاً في شوال من هذه السنة قصيدةً، منها: [الوافر]

لقد أوطأتَ دينَ الله عِزًّا أديمُ الشِّعريَيْنِ له رَغَامُ
دعاك وقد تناوَشَتِ الرَّزايا له أُهباً يوزعها الـعُذَامُ
فَقُمْتَ بنصره والنَّاسُ فوضى قيام ذمَّ ما اقترفت فئامُ
جَذَبْتَ بضبعه من قَعْر يَمٍّ له من فوق مَقْسَمِهِ التِطَامُ
صببتَ على الصَّليب صليبَ بأسٍ قواه تحت كَلْكَلِهِ حُطَامُ
وَمِلْتَ على معاقِلهم فَخَرَّت وِلاءً مِثْلَ ما انتقضَ النِّظَامُ

---

(١) أصلع هاشم: هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ورد في صفته أنه أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه. والفاروق هو الخليفة الثالث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) الأرنط: هو نهر العاصي.
(٣) كيسونه: كذا بالأصل، ولعلها: كيسومه. نسبة إلى كيسوم.

بصَرْخَد والخَطيم وفي عَزاز وقائِع هَزَّ مَشْهَدَها الأنامُ
ولو لم تَغْتَرِقْ وتشم لأمسى وأصبح لا عِرَاق ولا شآمُ
ويوم بالعُرَيْمة كان حتفاً على الإشراك أمْقَرَهُ العُرَامُ
لقُوك كأنَّ ما سلُّوه شيحٌ وما اعتقلوه من خَوَرٍ ثُمامُ
وهابَ وقُورُسٍ وبكَفْرلاثا ذممتَ وأنتَ للجُلَّى ذِمامُ
صَدَمْتَهُمُ بأرعنَ مُرجحِنّ كأنّ مَطارَ أنْسُره غَمَامُ
وأيَّةُ لَيْلَةٍ لم تُلْفَ فيها لهم طَيْفاً يَروعُ به مَنَامُ
بنورِ الدين أُنشر كلُّ عَدْلٍ تعفَّتْ في الثَّرَى منه الرِّمامُ
وعاد الحقُّ بعد كلال حَدٍّ حمًى من أن تُراعَ له سَوام
تألَّقَ عَدْلُه وذَكَتْ سُطَاه فَلَا حَيْفٌ يُخَافُ ولا اهْتِضَامُ
بقاؤك خيرُ ما يرجوه راجٍ وأنْقَعُ ما يُبَلُّ به أُوام

فصل

وفي هذه السَّنة ولد لنور الدين بحمص ابنٌ سماه أحمد، وهنَّأه به ابن مُنير في بعض قصائده، ثم توفِّي بدمشق، وقبره خَلْفَ قبر معاوية رضي الله عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصَّغير. وقصيدة ابن منير قد تقدَّم بعضُها في أوَّل الكتاب، ومنها في ذكر المولود: [المتقارب]

توالتِ الأعيادُ لا زلْتَ لها تُبلي ديابيج البقاء وتُجِدْ[1]
الفِطْرُ والميلادُ والمولود لو قابلَه بَدْرُ التَّمام لَسَجَدْ
ثلاثةٌ تُغْرِبُ عن ثلاثةٍ لمثلها يذكر حمداً من حَمِدْ
فَتْحٌ مبينٌ وطلابٌ مُدْرك ودولة ما تنتهي إلى أَمَدْ

وله من أخرى: [الوافر]

وجئتَ بأحمدٍ فملأتَ حَمْداً مواردَ كان معدنُها عِذَابا
تهلَّل وَجْهُ مُلْكِكَ يَوْمَ أَهْدَتْ قَوَابِلُه لكَ المَلِكَ اللُّبابا
شَبِيْهُكَ لا يُغادرُ منك شيئاً سَناً وحَياً وبَذْلاً واستلابا

---

(١) ديابيج: جمع ديباج، وتجمع على دبابيج أيضاً، والديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير. ودبج الشيء دبجاً: نقشه وزيّنه.

قَسِيمُ الحَمْدِ إلا أن حَرْفاً ... مِن اسمِكَ زادَ للمعنى منابا
أَلَا لله يومٌ فَرَّ عنه ... وركْبٌ نَصَّ بالبُشْرى الرِّكابا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجَّه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصْرى، ونزل عليه محاصراً لِسُرْخاك واليه لمخالفته وجَوْرِه، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صَرْخَد لمشاهدته، فاستأذن مجاهدَ الدين واليه في ذلك، فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك. وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النَّائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه، وتلقِّي مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحِصْنَ من الرِّجال، ودخل إليه في خواصِّه، وسُرَّ بذلك، وتعجَّب من فعل مجاهد الدين، وشكَرهُ على ذلك، وعاد إلى مُخيَّمه على بُصرى وحاربها عِدَّة أيام إلى أن استقرَّ الصُلْح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

[وفاة الأمير سعد الدولة]

قال: وفي شوَّال تُوفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنةٌ ونَظْم جيد. وتقدَّم والده في حلب في التدبير والسِّياسة وعَرْض الأجناد.

[وفاة السلطان مسعود بن محمد وولاية السلطان محمد بن محمود]

قال ابن الأثير[1]: وفيها توفي السُّلْطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه بهمَذان، وعهد إلى ابن أخيه مَلِكْشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري[2]، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله غير قليل حتى قبضَ عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود[3]، وهو بخُوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسَّلْطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السَّلْجُوقية، وحينئذٍ يطلب السَّلْطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه وهو بهَمَذان، واجتمع به، وخدمه خاصّبك خدمةً عظيمة، فلما

(١) انظر: «الكامل» ٩/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٣.
(٢) انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٣) توفي سنة ٥٥٤هـ. وهو الذي حاصر بغداد طالباً السلطة وعاد عنها، فأصابه سلّ، فمات بباب همدان. انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٤.

كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفرَّقوا، واستقرَّ محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها. وكان قتل خاصبك سنة ثمانٍ وأربعين، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنَّه كان من بعض أولاد التّركمان، فخدم السُّلْطان، فمال إليه وقدَّمه حتى فاق سائر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشَّاغلة للسُّلْطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هُبيرة[1] في كتاب «الإفصاح»[2] أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحابُ مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتّفق الرَّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رِعْل وذَكْوان شهراً[3]. فابتدأ هو والخليفة سِرًّا، كلٌّ واحد في موضعه يدعو سَحَراً، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرَّ الأمر على ذلك كلَّ ليلةٍ، فلمَّا كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة، كان موت مسعود على سريره، لم يَزِدْ عن الشهر يوماً ولا نقص يوماً. ووصل القُصَّادُ بذلك من هَمَذَان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن

---

(١) يحيى بن هبيرة: هو عون الدين أبو المظفر الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني الفقيه الحنبلي، من وزراء المقتفي لأمر الله العباسي، وبعد، للمستنجد، أصله من قرية بني أوقر من أعمال دجيل، ولد سنة ٤٩٧هـ، وتوفي سنة ٥٦٠هـ، ببغداد، له من التصانيف: «اختلاف العلماء»، «أرجوزة في الخط»، «الإشراف على مذاهب الأشراف»، «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح» وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، «الإيضاح على معاني الصحاح»، وهو شرح الجمع بين الصحيحين لأبي نصر الحميدي، «تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت»، «الطامس والفالس» في علم السيمياء، «كتاب الإجماع والاختلاف»، «كتاب العبادات»، «كتاب المقتصد»، «كتاب المقصور والممدود». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٥٢١. «الكامل» ٩/ ٤٨٠).

(٢) هو كتاب «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح»، انظر الحاشية السابقة.

(٣) عن أنس بن مالك، قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة، ثلاثين صباحاً، يدعو على رعل وذكوان ولحيان وعصية عصت الله ورسوله. وقد روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في المناقب باب ٦، والمغازي باب ٢٨، ومسلم في المساجد حديث ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨، وفضائل الصحابة حديث ١٨٦، ١٨٧، والترمذي في المناقب باب ٧٣، والنسائي في التطبيق باب ٢٦، والدارمي في السير باب ٧٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠، ٥٠، ٦٠، ١١٦، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ٣/١١٦، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧٨، ٢٨٩، ٤/ ٥٧، ٣٨٧.

العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدَّاعين.
قال: وكان الشَّيخُ محمد بن يحيى[١] يقول: لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أنْ يُدْعى فيجيب.

[سقوط عسقلان بيد الفرنج]

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج، خذلهم الله تعالى، عَسْقَلان[٢]، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التَّميمي: وتواصلت الأخبارُ من ناحية نور الدين بقوَّة عزمه على جمع العساكر والتُركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشِّرْك والطغيان، ولِنُصرة أهل عَسْقلان على الإفرنج النَّازلين عليها، وقد ضايقوها بالزَّحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير. واقْتَضت الحال تَوَجُّه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضُدِ على الجهاد في ثالث عشر محرَّم، واجتمع معه في ناحية الشمال، وقد ملك نور الدين الحِصْنَ المعروف بإفليس بالسَّيف، وهو في غاية المَنَعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن، وحصل للعسكر من المال والسَّبْي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حُماته، وتسهَّلَتْ أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثةُ أهل عَسْقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخُلْف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارقٍ من الإفرنج طرقهم، ولا عسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج، وعزموا على مُعاودة النُزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سببٍ ولا موجب، وتفرَّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها

---

(١) هو محمد بن يحيى بن علي بن عمران القرشي الزبيدي، أبو عبد الله اليمني الحنفي، نزيل بغداد، المتوفى سنة ٥٥٥هـ. كان إماماً عابداً قدوة، وهو من شيوخ ابن هبيرة، قال علي القاري في طبقات الحنفية: له قريب من مائة مصنف منها: «تعليل من قرأ ﴿ونحن عصبة﴾ بالنصب»، «الرد على ابن الخشاب»، «كتاب الحساب»، «كتاب العروض»، «كتاب القوافي»، «مقدمة في النحو»، «منار الاقتضاء ومنهاج الاقتفاء»، في النحو. (كشف الظنون ٦/ ٩٣. المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ١٩٧ ـ ١٩٨، وفيه ولد سنة ٤٨٠هـ. وفيات الأعيان ٦/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٦ ـ ٣١٩).

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

سالماً في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوَّل، وعاد نور الدين إلى حِمْص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عَسْقلان، فقويت نفوسُ من بها بالمال والرِّجال والغِلال، وظفروا بعُدَّة وافرة من مراكب الفرنج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزَّحف بالبرج إليها. واستمرَّ ذلك إلى أن تيسَّرت لهم أسبابُ الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضَّرورة والغَلَبة إلى طلب الأمان، فأُجيبوا إليه، وخرج من أمكنهُ الخروج في البر والبحر إلى ناحية مِصْر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العُدَد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يُحصر فيذكر. ولمَّا شاع هذا الخبرُ في الأقطار ساء سماعُه، وضاقت الصُّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يُرَدُّ نافذ قضائه، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

[نزاع بين ابن الصوفي وأخويه وقتل الوزير حيدرة]

قال: وعرض بين الرَّئيس ابن الصُّوفي وبين أخويه عزِّ الدولة وزين الدين مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجيرُ الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك، وجلس في داره، وهَمَّ بالتحصُّن عنه بأحدَاث البلد والغوغاء، وآلت الحالُ إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرَّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صَرْخَد مع مجاهد الدين بُزان وإليه بعد أن قرَّر له بقاء داره وبُسْتانه وما يخصُّه ويخصُّ أصحابه. وتقلَّد أخوه زين الدولة مكانه، وأمر ونهى، ونفَّذ الأشغال على عادته في العجز والتَّقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التَّوصُّل إلى بَعْلَبَكَّ لتطييب نفس واليها عطاء الخادم، واستصحابه معه إلى دمشق لينوبَ عنه في تدبير الأُمور؛ وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بُزَان أن نيَّة مجير الدين قد تغيَّرت فيه، فاستوحشَ من عَوْده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانِه في نفسه، فوعد

بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق. ثم هَجَسَ في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرًّا طالباً صَرْخَد، فحين عَرَف خبره أنهضَ في طلبه وقُصَّ أثره، فأدرك وقد قَرُبَ من صَرْخَد، فقبض عليه، وأُعيد إلى القلعة بدمشق، واعتُقل بها اعتقالاً جميلاً.

ثم تجدَّد من الرَّئيس الوزير حيدرة[١] المقدَّم ذكره أشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيِّب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النَّازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخُبْثه. ثم عَدَلَ به الجانْدَارِية إلى الحمَّام بالقلعة مستهلّ ذي القَعْدة، وضُربت عنقُه صبراً، وأخرج رأسُه، ونُصب على حافَةِ الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة اللُّصوص وقُطَّاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السُّرور بمصرعه، وابتُهج به. ثم زحفت العامَّة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه، ومخازن غَلَّاته، وأثاثه وذخائره، فانتهبوا منها ما لا يُحصى، وغلبوا أعوان السُّلْطان وجنده عليها بالكثرة، فلم يحصل للسلطان من ذلك إلا النَّزْر اليسير. ورُدَّ أمر الرِّياسة والنَّظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التَّميمي في اليوم المقدَّم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدَّهْماء، وبولغ في إخراب منازل الظَّالم ونَقْل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبدَّ بتدبير الأمور، ومدَّ يده في الظُّلم، وأطلق لسانه بالهُجْر[٢]، وأفرط في الاحتجاب، وقصَّر في قضاء الأشغال، فتقدَّم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبكَّ وما فيها من مالٍ وغلال، ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاءُ بيوتَ أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السَّلَّار، الذي كانت رتبتُه قد عَلَتْ، ومنزلته في الوزارة قد تمكَّنت، كان لزوجته ولدٌ يُعرف بالأمير عبَّاس[٣]

(١) الوزير حيدرة: هو زين الدولة نفسه.

(٢) الهجر: القبيح من الكلام.

(٣) هو عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي، وكان عباس قد قدم مصر من المغرب مع أبيه وأمه سنة ٥٠٩هـ، ونزلوا بالإسكندرية، فلما توفي أبوه، تزوج والي الإسكندرية وقتئذٍ العادل بن السلار أمه. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٨٩. ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٨.

قد قدَّمه، واعتمد عليه في الأعمال، ولعبَّاس هذا ولدٌ[١] قدَّمه الوزير، وأنعم عليه، وأذِنَ له في الدُّخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهو نائم في فرشته، فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السَّلار[٢] وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشَّافعية بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر السِّلَفي[٣]، رحمه الله. وكان قتله في سادس المحرَّم بمواطأةٍ من الخليفة الملقب بالظَّافر ابن الحافظ[٤].

قال: وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البَلْخي[٥] رئيس الحنفية، ودُفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشُّهداء. وكان من التفقُّه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين، والعفاف والتَّصوُّن، وحفظ ناموس العلم، والتَّواضع، والتودُّدِ إلى الناس على طريقةٍ مرضية، وسجيَّة محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن مُنير الشاعر[٦] في جمادى الآخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشَّاعر أبو عبد الله محمد بن نَصْر بن صغير القَيْسراني[٧] من حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، في الثاني والعشرين من شعبان.

---

(١) هو نصر بن عباس. «الكامل» ٩/ ٣٨٩.

(٢) كان والده السلار في طائفة عسكر سقمان بن أرتق صاحب القدس، ضمه الأفضل أمير الجيوش إليه بعد استيلائه على القدس سنة ٤٨٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٧٢ ـ ٧٤. ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٨.

(٣) أبو طاهر السلفي: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي الحافظ، أبو طاهر، صدر الدين الأصبهاني الشافعي، ولد سنة ٤٧٨، وتوفي سنة ٥٧٦هـ، من تصانيفه: «أربعين البلدانية» في الحديث، «سداسيات» في الحديث، «سلفيات من أجزاء الحديث»، «سلماسيات» أمالي يعرف بالمجالس الخمسة، «شرط القراءة على الشيوخ»، «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، «معجم السفر»، «المعجم لمشيخة أصبهان»، «المعجم لمشيخة بغداد» (كشف الظنون ٥/ ٨٧).

(٤) هو الظافر بالله أبو المنصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي، قتل في المحرم سنة ٥٤٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٥) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي، له ترجمة في مرآة الزمان ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٦.

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) تقدمت ترجمته.

قلت: هما شاعرا الشَّام في وقتهما، وقد شبَّهُما العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة» بالفَرَزْدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرضٍ سنذكره.

ومما قاله ابن منير من قصيدةٍ له: [الوافر]

أيا سيفاً أعزَّ الدين منه الـ ـغِرارُ العَضْبُ والنَّوْم الغِرارُ

مَلأتَ جوانحَ الأقطارِ رَجْفاً كأنَّ الأرضَ خامَرَها دُوارُ

علاك حُلّى على الدُّنيا فتاجٌ بِمَفْرقها وفي يدها سِوارُ

أضاءَتْ شمسُ عَدْلك في دُجاها فكلُّ زمانِ ساكِنِها نَهارُ

تُحرِّق مَنْ عَصَاك وأنتَ ماءٌ وتُغرق مَنْ رَجاك وأنتَ نارُ

ألَا للّهِ وجهك والمنايا مكلَّحة وللبيض افتِرَارُ

هتكْتَ حِجابَهُ والنَّصْرُ غَيْبٌ وللهبوات طَيٌّ وانتشارُ

بِطَعْنٍ للقُلُوبِ به انتظامٌ وضَرْبٍ للرُّؤوس به انتِثَارُ

تبادره كأنَّ الموتَ غُنْمٌ وما من عادةِ البَذْرِ البدَارُ

أَنَختَ على الصَّليبِ مطاً صليباً به من صَكِّ مبركه هدارُ

بمشرفةِ المَنَاكب مقرباتٍ لهنَّ بمتن كلِّ وغى حِصَارُ

جبين بإِنِّب أنبَ العَنَاصي وإضنَ وللقَنَا منها ثِمارُ[1]

وفي هابٍ أَهَبْتَ بها فجاءت كما أجلى من الكشم الصِّوَارُ[2]

وكم في فَجِّ حَارِمَ من حريم عَفَتْهُ فلا جدير ولا جِدَارُ

وأنطاكيَّةُ اسْتَنَّتْ إليها فأَجْفَلَ خَيْطُها وله عِرَارُ[3]

وصَبَّحَ في عَزَاز بها عزازٌ فأمسى وهو وَعْثٌ أو خَبَارُ[4]

يَشُقُّ بها دُجى الغَمَراتِ عَسْفاً جَوَادٌ لا يُشَقُّ له غُبارُ

وله من أخرى: [الوافر]

وما يومُ الفرنجة مِنْكَ فَذٌّ فتحصر عدَّهُ خططُ الحسابِ

---

(١) إنّب الأولى: موضع. وأنب: فاكهة هندية. والعناصي: جمع عنصوة: القليل المتفرق من النبت.

(٢) الكشم: اسم للفهد. والصِّوار: القطيع من البقر.

(٣) العرار: صوت ذكر النعام.

(٤) الخبار: ما استرخى من الأرض وتحفر.

أجاشَ الأربعاءَ لهم خميساً بعيدَ الغَوْرِ مُلْتَطِمِ العُبابِ
وأحكم بالخطيم لهم خطاماً أَمَرَّ بريمُهُ مُرَّ الضِّرابِ
مَشَوْا متساندينَ إلى صَلِيْبٍ تبرقع هبوة الصُّمِّ الصِّلابِ
تَلُفُّهمُ المنايا في الثَّنايا وتفجُؤهم شَعوبُ من الشعاب(١)
أطاشَتْ سَهْمَ كَبْشِهِمُ هَنَاةٌ فكنتَ ذُبابَ طائشةِ الذّباب(٢)
حللتَ التَّاجَ عنه وحَلَّ تاجاً مكانَ العِقْدِ من عقد الكَعابِ
أناف على العِقاب فكان أشهى وأبهى منه في ظلِّ العُقابِ
فأَشْرَفَ وهو عن شَرَفٍ معوقٌ وأصعد وهي غايةُ الانصبابِ
تكاشِره الشَّوامِتُ وهو مُغْضٍ ثَنَاه مَنَاه عن رَجْعِ الجوابِ
بعيداً من قراعٍ وافتراع يؤوبُ له إلى يوم المآبِ
وكم سوطٍ بخيلك أقبلوه الـ ـصُّدور فكان سوطاً من عذابِ
تَرَكْتَهُمُ بأرضِ الشَّام شاماً لِظُفرٍ تتَّقيه أو لِنَابِ
هَتَكْتَ حِجابَه والشَّمْسُ وَسْنَى بشمسٍ لا تُوارى بالحجابِ
بأبيض من حَبِيك الهند صافٍ مَصُون المتن مبتذل الذّبابِ
له سمةُ الشُّيوخ صفاءَ شيب وفي خَطَراته نَزَقُ الشَّبابِ
ألا يا ناظِرَ الدُّنيا بعينٍ أرته علانَها خُدَعَ السَّرابِ
تَبَطَّنَها فطلَّقها ثلاثاً على عزِّ التملُّق والخلابِ
فلا يأوي إلى رأي شَعاعٍ ولا يثني إلى أملٍ خَرَابِ
تَرَفَّعَ عن مجاوزة الأماني وحلَّقَ عن محاضَرة التَّصابي
صلاةُ الله كلَّ ذُرورِ شمسٍ على مَثْوَى أبيك من التُّرابِ
فقد أَلْقَى إلى الإسلام عَضْباً يطبِّق في النَّوائب غير نابي
تجيشُ له رَوَاسٍ كالرَّواسي تُمَدُّ لها جِفانٌ كالجوابي

وله من أخرى: [البسيط]

مُظَفَّرُ العَزْم ممدودُ الرِّواق على معالم الدِّين يرفيها ويبنيها
رَدَّ الكنائس كُنْساً للهُدى فخبت نارُ الضَّلال وواَرتْها أثافيها

---

(١) الشعوب، بالفتح: المنية.
(٢) الذباب: حد السيف.

وأَوْرَدَ العلمِ عَدًّا من إيالته فاستَنَّ وافتنَّ عبًّا في صَوَافيها
وبَثَّ للشِّرْكِ أشراكاً فما دَرَجَتْ طريدةٌ منه إلا اسْتَوْهَقَتْ فيها
يا بَدْرُ مُذْ أَشْرَقَتْ في الدَّسْتِ غُرَّتُه غِيثَ الرَّعيةُ واخْضَلَّتْ مَرَاعيها
أقامَ أحمدُ من محمودِها عَلَماً به استقامَ على البيضاء ساريها
محيي شريعتِهِ من بعدِ ما انْهَدَمَتْ واسْتَعْجَمَتْ بعد إفصاحٍ معانيها
شابَتْ مواهبه فيها مَهَابَتُه حتى استقرَّت على سَمْتِ سَوَاريها

وله من أخرى: [الكامل]

عَزَّتْ سيوفُك فالعِراقُ عِراقُها والشَّام غير مدافعاتٍ شامُهَا
إن أغمدت حَلَّ العزائِمَ حلُّها أو جُرِّدَتْ حَرَم الكَرَى إحرامُها
شَجِيَتْ عِدَاك بها فلا إشراقُها بمفازَةٍ منها ولا إعتامُها
سربت فصبَّحها بها يقظانُها هَدَأَتْ فمسَّتها بها أحلامُها
كالماءِ إلا أنَّ في رَشَفَاته ناراً حُشاشاتُ النُّفوسِ ضِرامُها
خفَّتْ على أيمانكم أوزانُها يومَ الوغى واسْتَثْقَلَتْها هامُها
حتى أَحَلْنَ الشَّام شاماً صَرْصَرَتْ فيه جَنَادِبُها وصدَّح هامُها
وَرَحَضْنَ أدرانَ الجزيرةِ بعدما غُمِرَتْ بها وهداتها وإكامُها
شَطْراً أَبَرْت ومثله أنظرته وَقْع الخطوبِ تَكُرُّها أيامُها
بالخابطاتِ الغابَ تَزْأَرُ أسْدُه والمجفلي الحي اللِّقاح صيامُها
أورَدْتَها أجماتِ أنطاكيَّةٍ عَنقاً وقد شَبَّ الصدا إجمامُها
تلقى المَشَافِرَ في مراشِفَ كُلَّما بَرَدَتْ بها الأكبادُ زادَ هيامُها
فَغَدَتْ وقد عَزَّ السراح سراحُها وتوزَّعت في كُنْسِها آرامُها
ومشى الضَّلال القَهْقَرَى واستأصل الـ آذان مِن رَجْعِ الأذانِ صِلامُها
وغدا يخلِّلُها الخليلُ سواحباً عَذَباً يُمِرُّ لها العِذَابَ غمامُها
غَضَباً لدين الله حصَّ جناحه بغياً وأدمى صفحتيه لدامُها
فالآنَ رَدَّ النورَ فيه نورُه وانجابَ من تلك الهَنَاتِ ظَلامُها
محمودُ المحمود إقداماً إذا خامَ الكماةُ وَزُلْزِلَتْ أقدامُها
الفارجُ الكُرَبِ العِظَامِ تضاجمت أشداقُها وفَرَى القلوبَ ضِغامُها

وله من أخرى: [المنسرح]

أما الرَّعايا فإنَّها رَشَفَتْ لديك نُعمَّى عَذْباً ثناياها

سَلَكْتَ نَهْجَ العَدْلِ القويمِ بها ... فأحمدت دينها ودُنياها
وكم أُميتت خَوْفاً فأَمَّنَها ... متالفَ الخَوْفِ خَوْفُك الله
لله أقطارك التي قطرت ... لها مُناهَا إلى مَنَاياها
أنَّبَ في إنَّب فوارسها ... تردى فتردي أولاك أُخْرَاها
أشْجَتْ لهاة البِرِنْس هبوتها ... وكم عتا عاتياً فأشْجَاهَا
وجُوسلين استساغ نطفتها ... فاحتلب الذُّلَّ تحتَ مَغْدَاها
رَدَّتْهُ صِفْراً من كلِّ ما مَلَكَتْ ... يَدَاهُ أيدٍ ما ضَلَّ مَسْرَاها
جويسُ جاسَتْك أوْجُهٌ لا رأتْ ... بُؤساً وجادَ الحيا مُحَيَّاها
في سرية لو تكون فارِسَها ... يومئذٍ ما انْبَعَثَ أشْقَاها
لا زالَ ظِلُّ النَّعْماء عن ملكٍ ... ما الشَّمْسُ كفؤاً له إذا باهى
والله جازيه عن معبَّدةٍ ... أعزَّها اللَّهُ مُذْ تولاها
محمودُ المعتلي إلى فلك الـ ... ـحَمْدِ وثيراً له ولاياها
أعطاكه جَدُّك المتوج بالـ ... ـجِدِّ ونفسٌ لله مَغْزَاها
نفسٌ عَزُوفٌ عن الخنا طبعت ... نَزَّهها اللَّهُ يومَ سَوَّاها
أنتَ الذي سَلَّم الأنامُ له ... يُمْنَى طباقِ العُلا ويُسْراها
وأنتَ مولى المُلوكِ قاطبةً ... من كان فَنَّا خُسْرو شاهنشاها
والشِّعْر هذا لا قول أحمده ... أوَّه بديلٌ من قَوْلَتي واها

وله من أخرى: [السريع]

يا ابن الذي لم يألُ في نجدةِ الـ ... إسلام إدلاجاً وتَهْجيرا
تكنَّفَ الشَّام وقد شامَ بَرْ ... قَ الخوفِ إنجاداً وتغويرا
وكَفَّ كَلْبَ الرُّومِ من بعد أنْ ... أنْشَبَهُ ناباً وأظْفُورا
فأهلُهُ رِقُّك إن أنصفوا ... رقًّا بحدِّ السَّيفِ مَسْطُورا
بَدْرٌ هوى واسْتَخْلَفَ الشَّمْسَ في ... دَسْتِك إشراقاً وتأثيرا

وله من أخرى: [السريع]

ملكٌ كسا الإسلامَ من ذَبِّه ... بُرْداً بِتَدبيج الظُّبى مُعْلَما
مَن أصبح الشَّامُ به شامةً ... يَقْطُرُ من قَتْلِ عِداه دَما
لو لم يقم مُنْصلتاً دُونَهُ ... لم تَلْقَ في أقطارِها مُسْلِما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعَوْده إلى حلب: [البسيط]

الدَّهْرُ ما رُضْتَهُ بالجُودِ والباسِ مُقَسَّمٌ بينَ أغراسٍ وأعراسِ
فتح يعاقبه فَتْحٌ ومُطَّلبٌ داني المنال ومُلكٌ ثابتٌ راسي
نَصْراً ببُصرى وصفحاً عن حماةَ لقد أَحْسَنْتَ للدَّاء حَسْماً أيها الآسي
يا ابنَ الذي عَنَتِ الدُّنيا لِدَوْلته من فاطميٍّ أعزَّته وعَبَّاسي

وله فيه: [المتقارب]

غَدَا الدينُ باسمِكَ سامي العَلَمْ أمينَ العمادِ مكينَ القَدَمْ
لذلك لُقِّبْتَ نوراً له وقد أغطَشَ الظُّلْمُ فيه الظُّلَمْ
أضاءَتْ بِعَدْلِكَ آفاقُه وفَضَّتْ عُرَى الدِّين لما ادْلَهَمْ
ولم تمشِ رَهْواً لِنَصر الرُّها ومثلُكَ أدركَ لمَّا عَزَمْ
ويومَ بسوطا بَسَطْتَ الحِمام على الهضب من رُكْنها فانْهَدَمْ
وبُصرى وصَرْخَد لو لم تثر دِراكاً لكانا رَدِيفَيْ إرَمْ
ومُذْ فضَّ جيشك في الغوطتيـ ـنِ فضَّ الصَّليب له ما نَظَمْ
وفي كَفَرلاثا وهابَ حَلَلْـ ـتَ عَقْدَ البرنس ببيض خُذُمْ
معوَّدَةٍ أنها لا تُسَلُّ (م) إلا مقمقمةً للقِمَمْ
ويومَ بَسَرْفُود جَرَّعْتَهُمْ أُجاجاً أغصَّهُمُ واصطَلَمْ
وفوقَ العُرَيمة غشَّاهم عُرَامُ جيوشك سيلَ العَرِمْ
وأنت بكلبهُمُ في الكُبُولِ مباح الحريم مُذَالَّ الحُرَمْ
وبارتهم آذَنَتْ أنَّها أبارَتْهُمُ فلْيَبُوؤوا بِذَمْ
بنَوْها وأعلَوْا ولم يعلموا بما خطَّ في اللَّوْحِ منك القَلَمْ
وأنك خارِمٌ ما أَحْكَمُوه ومِنْ دِيننا راقِعٌ ما انْخَرَمْ
تَرْفَعُ من بعدِ خَفْضٍ هُدًى وتخفض من بعد رَفْعِ صَنَمْ
سَمَكْتَ المدارسَ فوقَ النُّجوم فكم مَنْجَم تحتَها قد نَجَمْ
وعاشَ الحنيفيُّ والشَّافعي بما شِدْتَ منها وكانا رِمَمْ
وإن لم تكن هاشميَّ الأُصول فإنك فَرْعُ الهِزَبْرِ الهَشِمْ
ومن يدَّعي في العُلا ما ادَّعَيْتَ وأنت ابنُ من عزَّ لمَّا احْتَكَمْ
وأُقْسِمُ ما غابَ مَيْتٌ سَقَتْ مغارِسَه عينُ هذي الشِّيَمْ

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة، ونَفَسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القَيْسَراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد المَوْصلي[1]، وسيأتي شيءٌ من شعره، إلى أن قدم العماد الكاتبُ الشَّام في سنة اثنتين وستين، فتسلَّم هذا الأمر، وعَبَّر عن أوصاف نور الدين ومناقب وغَزَواته بأحسن العبارات وأتمِّها نظماً ونثراً، وسيأتي كُلُّ ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي صاحب مَارِدين حسام الدين تمرتاش[2]، ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أُرْتُق.

قلت: وقد مدحه القَيْسَراني والعَرْقَلة[3] وغيرهما من الشعراء.

[فتح نور الدين دمشق]

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير[4]: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد[5]، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السَّنة الخالية عَسْقلان؛ وهي مدينة فِلَسْطين حُسْناً وحَصَانةً. ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهَّفُ ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها مَعْبَر، لاعتراض بلاد الإِفرنج في الوسط. وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنَّهْبَ والسَّبْي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج، واستعرضوا

---

(١) ابن أسعد الموصلي: هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).

(٢) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٨٣، في وفيات سنة ٥٤٧هـ. وقال: وفيها (سنة ٥٤٧هـ) توفي حسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفاً وثلاثين سنة، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبي.

(٣) هو عرقلة الشاعر، واسمه حسان بن نمير تقدمت ترجمته.

(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٨. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٩.

(٥) في «الكامل»: وأخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بوري، وهو تصحيف.

عبيدهم وإماءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النَّصرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه.
وزالت طاعةُ مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مُؤَيِّد الدين بن الصُّوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فجأروا إلى الله تعالى[1]، ودعَوْه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحبِّ عباده إليه، وأحسنهم طريقةً، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحَسَّنَ له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه. فلما خطر له ذلك أفكر فيه، فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذَّر عليه، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وكان قد سبق له سوابق قد تقدَّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العَرْقَلَة يمدح أتابكه معين الدين أُنَر من قصيدة: [الطويل]

يظنُّ صلاحُ الدين فرسانَ جِلِّقٍ ... كفرسانِهِ ما الأسد مثلَ الثَّعالبِ
غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلقٍ ... مُعوَّدةٍ أبطالُهُ للمصائبِ
رجالٌ إذا قام الصَّليبُ تَصَلَّبَتْ ... رماحُهُمُ في كل ماشٍ وراكبِ
لها اللَّيْلُ نَقْعٌ والأَسِنَّةُ أنجمٌ ... فما غيرُ أبطالٍ وغيرُ جنائبِ

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك حينئذٍ لم يكن ملكاً يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني صاحب حماة؛ أحد أصحاب زَنْكي، وقد تقدَّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدِّمة الجيش النُّوري لما قصد دمشق في المرتين الأُوْلَيَين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زَنْكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير[2]: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها؟ وانضاف إلى ذلك كراهيته لِسفك دماء المسلمين، فإن الدَّم كان عنده عظيماً، لما كان قد جُبِلَ عليه من الرأفة والرَّحمة والعَدْل. فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصلَه بالهدايا، وأظهر له المودَّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن

(١) فجأروا إلى الله تعالى: أي رفعوا صوتهم بالدعاء مع تضرع واستغاثة.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٨.

فلاناً ـ ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ـ قد كاتبني في المخامرة عليك، فاحْذَرْه. فتارةً يأخذ إقطاع أحدهم، وتارةً يقبض عليه. فلما خَلَتْ دمشق من الأمراء، قدَّم أميراً كان عنده يُسمَّى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوَّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكَّن من دمشق معه. فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إنَّ الحيلة قد تمَّت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابنُ منير ما يدلُّ على أن عطاءَ هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث، فإنه قال: [الوافر]

ودمشق في دمشق رجال سلم ... لحُور نسائهم منهم نساءُ
هي الفِرْدَوْسُ أصبحَ وهو عافٍ ... من العافي ومن خالٍ خَلاءُ
جِنَانٌ تعرِفُ الجَنَّاتِ فيها ... ولا رأيٌ هناك ولا رُواءُ
لأسمح صعبها ودَنَتْ قصاها ... وأمكنكَ اقتيادٌ وامتطاءُ
ويا نِعْمَ العطاءُ عطاءُ رَبٍّ ... توسَّطَهُ فأَنْشَطَهُ عطاءُ
تفاءل باسمه فالفأل وَعْدٌ ... يكون على ظُبَاك به الوفاءُ
هو السَّبب الذي شَزَرَتْ قواه ... وهذَّبه لخدمتك الصَّفَاءُ
وسَيْفٌ إن تَشِمه تَشِم حُساماً ... وإنْ تُغْمِدْ فنارٌ بل ذُكاءُ
جنَتْه لك السَّعادةُ قطف رأي ... لنقب الخادِعيك به هِناءُ[1]

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديثٌ، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لمّا بلغ مجير الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي يُنْسب إليه مسجد عطاء خارج الباب الشَّرْقي بدمشق، وجورة عطاء ببيت أبيات؛ وهي أرضٌ فيها أخشابٌ كبار من الحور تُرَبَّى أوتاراً[2] لجامع دمشق، وهي وَقْفٌ عليه. وقد مدحه العَرْقَلَة وغيرُه من الشُّعراء.

قال ابنُ الأثير: فلما قُتل عطاءٌ قوي طمعُ نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام. فكاتب مجير الدين الفرنج، وبذل لهم الأموال وقلعة بَعْلَبَكَّ إن رحَّلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا، وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق،

---

(١) الهناء، بالكسر: القطران.
(٢) أوتاراً: كذا بالأصل، ولعلها: أوتاداً.

فعادوا بخُفَّيْ حُنين. وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيَّق على من به، ثار الأحداثُ الذين كاتبهم نور الدين، وسلَّموا إليه البلد من الباب الشَّرْقي فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجيرَ الدين في القلعة، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير، من جُملته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم القلعة، وسار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسدَ الدين شِيركُوه رسولاً إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمُّلٍ عظيم ومعه ألف فارس، فَعَظُمَ على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة. ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يُعرِّفه بما جرى عليه. فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولَّى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكسر عساكرَ دمشق إلى الأسوار من قبليِّ البلد، ولم يكن أحدٌ من المقاتلة على السُّور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقيِّها، وجُلُّ العسكر مقابلُه، ورأى من كان مع نور الدين من الجَانْدَارِية والحلبيين خُلُوَّ السُّور من المقاتلة، فتسرَّعوا إلى السُّور، وتعلَّقوا به، وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال: إن امرأةً كانت على السُّور، فدلَّت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السُّور جماعة، ونصبوا السلالم، وصَعِدَ جماعةٌ أُخرى، ونصبوا علماً، وصاحوا بشعار نور الدين، فوقع على أهل البلد الخِذْلان، وكُسِرَ بابُ البلد، ودخلت الخيَّالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطُّولى في فتحها، فولَّاه نور الدين أمرها، وردَّ إليه جميع أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرَّحْبة.

[تولي أسد الدين شيركوه أمور دمشق بعد فتحها]

وقال الرَّئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرَّم وصل الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخَيَّم بناحية القَصَب من المرج في عسكرٍ يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستيحاش منه، وإهمال الخروج إليه لتلقِّيه والاختلاط به، وتكرَّرت المراسلات فيما اقتضته الحال، ولم تُسْفر عن سَدَاد ولا نيل مُرَاد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغَلَّات. ووصل نور الدين بعسكره إلى شِيركُوه ثالث صفر، وخيَّم بعيون الفاسريا عند دُومَة، ورحل في الغد، ونزل بيت الآبار من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير، ووقع الطِّرَادُ بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يوم، وتأكد الزَّحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي، فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كَيْسان والدَّباغة من

قبليّ البلد، وليس على السُّور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفرٍ يسير لا يُؤْبه لهم، فتسرَّع بعضُ الرَّجّالة إلى السُّور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلاً، فصَعِدَ فيه، وحصل على السُّور، ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه، وأطلعوا علماً نصبوه على السُّور، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وامتنع الأجناد والرَّعية من الممانعة لما هم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله، وحُسْن ذكره. وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشَّرْقي، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، وسعَوْا في الطُّرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم. وفُتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصُّه، وسُرَّ كافَّة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازله الفرنج الكُفَّار. وكان مجير الدين لما أحسَّ بالغَلَبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، وأُؤمن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيَّب نفسه ووعده الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدَّم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرَّعيَّة، والمنع من انتهاب شيء من دُورهم، وتسرَّع قومٌ من الرَّعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيَّب نفوسهم، وأزال نفرتَهُمْ. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدَّار الأتابكية؛ دار جَدِّه، وأقام أياماً، ثم تقدَّم إليه بالمسير إلى حمص في خواصِّه ومَن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عِدَّة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جُنْده، وتوجَّه إلى حمص على القضيَّة المقرَّرة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرَّعيَّة من القُضَاة والفقهاء والتُّجَّار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحُسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدُّعاء له، والثَّناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصاره إليه. ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطِّيخ، وسوق البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر النَّاسُ بصلاحِ الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونُصْرة أعلامه.

وقال ابن الأثير: لما استقلَّ نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرُمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عامًّا.

قلت: قد تقدَّم ذكره في أوَّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفرَّقة فيما بعد.

قال: وألقى الإِسلامُ جِرَانه بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشَّام من البلاد الإِسلامية بيد نور الدين.

وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشقُّ تلافيه، بل ربما تعذَّر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعَوَّضه عنها مدينة بالِس، فلم يرضها، وسار عن الشَّام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النِّظاميَّة، وتوفي بها[1].

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج كافَّةً، وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقرَّبوا إليه. ثم إن مَنْ بتلِّ باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حَسَّان المَنْبِجي؛ وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه مَنْبِج، فأمره أن يتسلَّمها منهم. فسار إليها، وتسلَّمها، وحصَّنها، ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

[إطلاق بزان من الاعتقال ووفاة مؤيد الدين المسيب بن الصوفي]

قال الرَّئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بُزان أُطلق يوم الفتح من الاعتقال، وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مُؤَيَّد الدين المسيّب إلى دمشق مع ولده النَّائب عنه في صَرْخَد إلى داره، مُعوِّلاً على لزومها، وتَرْك التعرُّض لشيءٍ من التصرُّفات والأعمال. فبدَا منه من الأسباب المُغْرِبة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السَّدَاد والرَّشاد، ما كان داعياً إلى فساد النِّيَّة فيه. وكان في إحدى رجليه فتح قد قال به ونسيه، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، وأسقط قوَّته، مع فهاق مُتَّصل وقُلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوَّل، ودُفن في داره، واستبشرَ الناسُ بهلاكه، والرَّاحة من سوء أفعاله.

[مقتل الخليفة الظافر ابن الحافظ وقدوم طلائع بن رزيك القاهرة، وهرب عباس الوزير منها]

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظَّافر ابن الحافظ[2]، وأقيم

---

(١) توفي سنة ٥٦٤هـ. وكان ولي دمشق سنة ٥٣٤هـ. انظر وفيات الأعيان ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦، الوافي بالوفيات ٦/ ١٨٨. «الكامل» ٩/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢) هو الظافر بالله أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي. صاحب مصر. انظر سبب قتله في «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

ولده عيسى مُقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقَّبوه بالفائز[١]، وعباسٌ الوزير[٢]. ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس الدين طلائع بنُ رزِّيك[٣] ـ وهو من أكابر الأمراء المقدَّمين، والشجعان المذكورين ـ لما انتهى إليه الخبر ـ وهو غائب عن مصر ـ قلق لذلك وامتعض، وجمع واحتشد، وقصد العودَ إلى مصر. فلما عرف عَبَّاسٌ بما جمع خاف الغَلَبة، فتأهَّبَ للهرب في خواصِّه وأسبابه وحُرَمه، وما تهيأ من ماله، وسار مُغِذًّا، فلما قَرُبَ من أعمال عَسْقَلان وغزَّة خرج إليه جماعةٌ من خيَّالة الإفرنج، فاغترَّ بكثرة من معه وقلَّة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه، وانهزموا أقبح هزيمة، هو وابنه الصَّغير، وأُسر ابنه الكبير الذي قتل العادلَ بن السَّلار، مع ولده وحُرَمه، وماله وكُرَاعه[٤]، وحصلوا في أيدي الفرنج، ومن هرب لقي من الجوع والعطش شِدَّة، ومات العدد الكثير من النَّاس والدَّوابِّ، ووصل في أثر هروبهم فارس المسلمين، ووضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من نجّاه الهرب على أشنع صفةٍ من العَدَم والعُرْي في آخر ربيع الآخر.

قلت: وفي ذلك يقول عُمارة اليمني[٥] من قصيدةٍ له: [الطويل]

لكم يا بني رُزِّيك لا زال ظِلُّكم ... مواطِنُ، سُحْبُ الموتِ فيها مواطِرُ
سَلَلْتُمْ على عَبَّاس بيضَ صوارمٍ ... قهرتم بها سُلطانَه وهو قاهِرُ

وذكر الأمير أُسامة بن مُنقذ[٦] في «كتاب الاعتبار» أن نصر بنَ عباس لما قَتَل ابن السَّلَّار وتوزَّر أبوه عَبَّاس كان نصر يُعاشر الخليفة الظَّافر ويخالطه، وعبَّاس كارهٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القَوْم وضَرْبِ بعض النَّاس ببعضٍ

(١) هو الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر. وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين، وكان له لما ولي خمس سنين. توفي سنة ٥٥٥هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
(٢) انظر خبره فيما تقدم من هذا الجزء.
(٣) هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، أبو الغارات الأرمني، قتل سنة ٥٥٩هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، ٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٤) الكراع: اسم يجمع البغال والحمير والخيول، وقيل: الخيل والسلاح.
(٥) عمارة اليمني: هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي الفقيه، نجم الدين أبو محمد الشاعر اليمني الشافعي المتوفى مصلوباً بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).
(٦) تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

حتى يفنوهم. وشرَعَ الظَّافر مع ابن عباس في حمله على أبيه، ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك، فنهيتُه، فأطلعَ والدَه على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرَّر معه قتلَ الظَّافر، وكانا يخرجان متنكِّرين، وهما تِرْبان سنُّهما واحد. فدعاه إلى داره، ورتَّب من أصحابه معه في جانب الدَّار نفراً، ثم لما استقرَّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سَلْخ محرَّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورماه في جُبِّ الدار. وأصبح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهارٍ للسَّلام، فجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظَّافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى زِمام القصر[1] وقال: ما لمولانا ما جلس للسَّلام؟ فتبلَّد الأُستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لا تجاوبني؟ قال: يا مولاي، مولانا ما ندري أين هو. قال: مثلُ مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع، فقال: ما وجدنا مولانا. فقال: يبقى النَّاس بلا خليفة! ادخل إلى الموالي إخوته يخرجُ منهم واحدٌ لنبايعه. فمضى وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لَنا في الأمر شيء، والدُنا عزله عنا، وجعله في الظَّافر، والأمر لولده بعده. قال: أخرجوه حتى نبايعه.

قال: وعَبَّاسٌ قد قتل الظَّافر، وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه، ويقتلهم. فخرج ولدُ الظافر، ولعلَّ عمره خمس سنين، يحمله الأُستاذ، فأخذه عَبَّاس فحمله وبكى، وبكى النَّاس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرِّواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجلٍ من المِصْريين، فما راعنا إلَّا قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السُّيوف تختلف على إنسانٍ، فقلت لغُلام لي أَرْمَنِيّ: أبصر من هذا المقتول. فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين! هذا مولاي أبو الأمانة جبريل ابن الحافظ قد قتلوه، وواحدٌ قد شقَّ بطَنُه يجذب مصارينَهُ. ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربةُ سيف، والدَّم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرَّد قال: وكان ذلك اليوم من أشدِّ الأيام التي جرت علي، لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميعُ خلقه.

---

(١) زمام القصر: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/٥٥٦: وظيفة زمام القصر، وهو بمثابة زمام الدور في زماننا. والزمام: من الزّم: وهو تقديم الشخص على أقارب الخليفة واحتسابه من أقاربه، وزمام القصر هو الذي يتولى إدارة خدم القصر والإشراف على أعمالهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٧١ ـ ١٧٣).

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في «ديوانه» قال: كان لعبَّاس أربعمائة جمل تحمل أثقاله، ومائتا بغل، ومائتا جنيب[١]، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريَّتها؛ فارسُهُمْ وراجلُهم، تقدم بشدِّ خيله وبغاله وجماله ليتحمَّل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السُّلْطان إلى الإيوان، خرج غلامٌ يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلمانُه كلُّهم تحت يده، فقال للجمَّالين والخَربَنْدية[٢] والرِّكابية[٣]: روحُوا إلى بيوتكم وسيِّبوا الدَّوابَّ. ففعلوا ذلك، وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم. وكان ما جرى من تهميل الدواب لُطفاً من الله تعالى به، فإنها سَدَّت الطريق بينَه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلقٍ كثير، ونحن في قلة ما نبلغُ خمسين رجلاً، وغلمان عباس ـ مماليكه ـ في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسِّلاح التَّام، وثمانمائة فارس من الأتراك، خرجوا كلهم من باب النَّصْر، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطَّابية فراراً من القتال. فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عبَّاس من باب النصر، وجاؤوا في إثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره. وكان عباس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتَقوَّى بهم على المصريين، واستحلفهم، ووهبهم هباتٍ عظيمة. فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدَّ قتال ستة أيام، يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف اللَّيل، ثم يركبون ويهدُّون خيلهم على جانب النَّاس، ويصيحون صيحةً واحدة، فتجفل الخيلُ وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنَّة وقوة فيأخذونه، فكان ذلك سببُ هلاك خيله، وتمكُّنِ الإفرنج منه، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضُحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حَسَباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظناً منهم أن له عودةً إليهم، وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صبَّحهم الإفرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم، فقتلوا

(١) الجنيب: جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها.

(٢) الخربندية: هم المكارون، مفردها: المكاري، الذي يكري دابته، أي يؤجرها.

(٣) الركابية: أي موكب السلطان، وهم الذين يحملون السلاح حول السلطان والخليفة عند ركوبه (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٦١).

عباساً وابنه الأوسط، وأسروا ابنَه الأكبر[١]، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صِغاراً وانصرفوا.

قلتُ: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحِمْيَري، ويلقب بالأفضل رُكن الدين، ويكنى بأبي الفَضْل، ورأيتُ علامته في الكتب أيام وزارته: «الحمد لله وبه أثق». وفيه يقول أسامة بن منقذ: [الطويل]

لقد عَمَّ جودُ الأَفْضَل السَّيِّد الوَرَى — وأغنى غَناءَ الغَيْثِ حيثُ يَصُوب

ومن أبيات لابن أسعد[٢] فيه لما قَتَلَ الظَّافر[٣]: [الطويل]

وأَنْفَقَ من إنعامهم في هلاكهم — وأَظْهَرَ ما قد كانَ عنه يُنافِقُ[٤]

ومدَّ يداً هم طوَّلوها إليهم — وحلَّتْ بأهل القَصْر منه البوائقُ

سقى رَبَّه كأسَ المنايا وما انقضى — له الشَّهْرُ إلا وهو للكأسِ ذَائِق

وكان عبَّاس قد تخيَّل من أُسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصَّالح من المودَّة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى نفَّذ من أستاذيّ داره[٥] من يدخل على حُرَمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال له: قد حملتُ ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ـ يعني ولده ناصر الدين ـ وبإخوانه. فلما خرجوا، ونُهبت

---

(١) ابنه الأكبر: هو نصر بن عباس، ناصر الدين، وقد بعثه الفرنج في قفص من الحديد إلى أخت الظافر. سنة ٥٥٠هـ. فقطعت يده، وضرب بالمقارع، وقص لحمه، ثم صلب فمات، فبقي معلقاً شهوراً ثم أحرق. انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٩٣.

(٢) ابن أسعد: هو ابن الدهان الشاعر، عبد الله بن أسعد المتوفى سنة ٥٨١هـ. تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٤) هذا البيت ملفق من بيتين في «خريدة القصر» ٢/ ٢٩٣، وهما:

ولما رأى عباس للغدر مذهباً — وأظهر ما قد كان عنه ينافق

وأنفق من إنعامهم في هلاكهم — جزاء به عمري خليق ولائق

(٥) أستاذ الدار: جمع أستاذ الدار: وهو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير، ومصروفاته، وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما: إستذ، بهمزة مكسورة، ومعناه الأخذ، والثاني: دار، ومعناه: الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار: ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢١٨.

دورُهم ودوابُهم عَجَزَ عن حمل من يخصُّه، فأعادهم أسامة من بِلْبيس، ونفَّذ إلى الملك الصَّالح يقول له: قد نفَّذت أهلي وأولادي إليك، وأنت وليُّ ما تراه فيهم. فأنزلهم في دارٍ، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإِحسان. وكان يكاتبه في الرُّجوع إلى مصر، وهو يتلطَّف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فنفَّذ إليه يقول له: تصل إلى مكَّة في الموسم، ويلقاك رسولي إليها يسلِّم إليك مدينة أُسوان، وأنفذ إليك أهلك، وأمدّك بالأموال، وهي ـ كما علمت ـ الثَّغر بيننا وبين السُّودان، وما يسُدُّ ذلك الثغر مثلك. وأكثر من الوعد، وذكر رغبته في قُرْبه، ورعايته ما بينه وبينه من قديم الصُّحبة. فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يا فلان، ما تساوي الحياة الشتات والرُّجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان. ومنعه من ذلك بإحسانه، ووعده أن يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصَّالح يعتذر ويسأله تسيير أهله. وتردَّدت بينهما مكاتبات، وأشعار مُتَّصلات، إلى أن سيَّرَهم، وهم نيِّفٌ وخمسون نسمة، في الإِكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعضُ أصحابه من دمشق، وهو بالعسكر النُّوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسر بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا بأنفسهم، وأن متملِّك الإِفرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، واكترَوْا ظَهْراً إلى دمشق، فقال أسامة: [الطويل]

إلى الله أشكو فُرْقةً دَمِيَتْ لها ... جُفُوني وأذْكَتْ بالهُموم ضَميري
تمادَتْ إلى أنْ لاذَتِ النَّفْسُ بالمنى ... وطارَتْ بها الأشواقُ كلَّ مَطيرِ
فلما قضَى اللَّهُ اللقاءَ تعرَّضَتْ ... مساءةُ دهري في طريقِ سُروري

فصل

[وصول ابن الداية
إلى دمشق عقيب عوده من الحج]

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوَّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج، وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: هذا هو ابن الدَّاية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى إخوته، وسيتكرَّر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر إخوته، وقد مدحه الشعراء. قال القَيْسَرَاني من بعض ما قاله فيه: [الطويل]

دعوا ما مضى مِنْ قَبْلِ هذا لما بَعْدُ ... فأُقْسِمُ لولا المجدُ ما عُرِفَ المَجْدُ
كريمٌ سَمَتْ أوصافُه لِعُفاته ... قرائن كل اثنين بينهما عِقْدُ[1]
محيَّاه والبُشْرى ويُمناه والنَّدى ... ونجواه والدُّنيا وتقواه والزُّهْدُ
ففي قربه الزُّلْفى وفي وَعْدِه الغِنَى ... وفي نَيْله الحُسْنى وفي رأيه الرُّشْدُ
إذا وَجْهُ نورِ الدين قابل مَجْدَه ... فَقُلْ في كمالِ البَدْرِ قابلَه السَّعْدُ

وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[2]، وولي الحرمين ولدُه قاسم بن هاشم[3]؛ وهو الذي أرسل عُمارة اليمني[4] الفقيه الشَّاعر إلى الديار المِصْرية، وسيأتي ذكره.

[هجوم الفرنج على مدينة تنيس]

قال أبو يعلى: وفي ثامن جُمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مِصْر بأن عدَّةً وافرة من مراكب الفرنج من صِقِلِّية وصلت إلى مدينة تِنِّيس على حين غَفْلَةٍ من أهلها، فهجمت عليها، وقتلت وأسرت، وسَبَتْ ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركتها صِفْراً. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سَلِمَ واختفى، وضاقت الصُّدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

[وفاة فخر الدين الطرسوسي]

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصَّمد بن الطَّرَسُوسي، وكان ذا هِمَّةٍ ماضية، ويقظة ومروءة ظاهرة في داره وولدِه، ومن يلمُّ به من غريبٍ ووافد، وقد نفذ أمره

---

(١) العفاة: الأضياف وطلاب المعروف.

(٢) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٤، في حوادث سنة ٥٣٩هـ. وقال: وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني أمير مكة، والأمير نظر الخادم، أمير الحاج، فنهب أصحاب هاشم الحجاج، وهم في المسجد يطوفون، ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.
وقد ولي هاشم إمارة مكة بعد أبيه سنة ٥٢٧هـ.

(٣) قتل سنة ٥٥٦هـ. انظر العقد الثمين ٧/ ٣٢ ـ ٣٦.

(٤) عمارة اليمني: تقدمت ترجمته قبل قليل.

وتصرُّفه في أعمال حلب في الأيام النُّورية، وأثَّر في الوقوف أثراً حسناً توفَّر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

[تسلم نور الدين بعلبك]

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

ففيها تسلَّم نور الدين بَعْلَبَكَّ من واليها ضحَّاك، وذكر ابنُ الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين[1]، وقال: كان ضحَّاك البِقاعي ينوبُ ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطَّف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها.

وقالت ابنُ أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتَّصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتبَ نور الدين في تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلَّمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيتُ بعض المؤرِّخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولَّى القلعة رجلاً يقال له ضحَّاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضَحَّاكاً، وتوسَّط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيَّره إلى دمشق، فأقام فيها، وردَّ نظر دمشق إليه، وولَّى ولده تُورانشاه شِحْنَكية دمشق، فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شِحْنَكِيَّة دمشق.

قلت: هذا وهم. تُورانشاه هو الملك المُعَظَّم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شِحْنَكية دمشق؟ وأما كونه ولي الشِحْنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيتُ ما يؤكده. قرأتُ في «ديوان العَرْقَلَة»: وقال يهنئه بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شِيركُوه بن شاذي: [الرجز]

قلتُ لحُسَّادك زيدوا في الحَسَدْ ... قد سكَنَ الدارَ وقد حاز البَلَدْ
لا تعجبوا إنْ حَلَّ دارَ عَمِّه ... أما تَحُلُّ الشمسُ في بُرْجِ الأَسَدْ

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية: [الوافر]

لصوصَ الشَّامِ توبوا من ذنوبٍ ... تكفِّرها العقوبةُ والصِّفَادُ
لئن كان الفَسَادُ لكم صلاحاً ... فمولاي الصَّلاح لكم فَسَادُ

---

(١) انظر «الكامل» ٩/٤١٩، في أحداث سنة ٥٥٢هـ.

وله فيه: [المتقارب]

رُوَيْدَكُمُ يا لصوصَ الشَّام فإني لكمْ ناصحٌ في مقالي
وإياكمُ وسميَّ النَّبيّ (م) يوسفَ ربَّ الحِجَا والجمالِ
فذاك مقطِّعُ أيدي النِّساء وهذا مُقَطِّعُ أيدي الرِّجالِ

قال ابن أبي طي: وولي صلاح الدين شِحْنَكِيَّة دمشق والديوان، فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعةٍ جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن هَمَّام[1]. فأنفذ نور الدين وأخذ ابن هَمَّام وحلَقَ لحيته، وطيف به في دمشق.

قلتُ: وابن هَمَّام هذا هو الذي ذكره الشنباشي في قصيدته وأشار إلى حَلْقِ لحيته بقوله: [الخفيف]

كأبي سالم بن هَمَّامِ لما قامَ للنُّصْحِ عاد يمشي مُلَثَّمْ

ثم قال ابن أبي طي: واستخصَّ نورُ الدين صلاحَ الدين وألحقه بخواصِّه، فكان لا يفارقه في سَفَرٍ ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحبُّ لعب الكرة.

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصَّة بالملك قليج أرسلان ابن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش[2] ملك قُونية وما والاها، فملك عِدَّةً من قلاعها وحصونها بالسَّيْف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونُصروا عليهم في وقعةٍ كانت بأقصرا في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان، وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عَظُمَ عليه هذا الأمر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمعاتبة والإنكار، والوعيد والتهديد، فأجابه نور الدين بحُسْنِ الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينها مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

---

(١) ولي مشارفة الديوان بدمشق بعناية أسد الدين شيركوه نائب دمشق وقتئذٍ، فظهرت منه خبايات وسعايات فقبض عليه. فأخذه نور الدين وحلق لحيته، وأركبه حماراً مقلوباً، وخلفه من يعلوه بالدرة، ثم طيف به في أسواق دمشق، ونودي عليه: هذا جزاء كل خائن ونمام، ثم نفي إلى حلب (ذيل تاريخ دمشق ص٣٣٦).

(٢) هو الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي، توفي في منتصف شعبان سنة ٥٨٨هـ بمدينة قونية، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، ولما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٩٧ ـ ٩٨، ١٠١ ـ ١٠٢، ٢١٩ ـ ٢٢٠.

قال: وولي الأسطول المصري مقدَّمٌ شديد البأس، بصير بأشغال البحر، فاختار جماعةً من رجال البحر يتكلَّمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابَهم، ونهضَ بهم في عدَّة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرَّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذُكر له أنَّ فيه شَخْتورة روميَّة كبيرة فيها رجالٌ كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقَتَلَ من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حُجَّاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلتُ: وفي هذه السَّنة ورد أمر الخليفة ببغداد ـ وهو المقتفي ـ إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم، يأمره أن يركِّب على باب الكعبة المكرَّمة بابَ ساج جديداً قد ألبس جميع خشبة فضَّة وطُلي بذهب، وأن يأخُذَ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسيِّرَ إليه خشب الباب القديم مجرَّداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشَّاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفِضَّة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف دِرْهم، فتوجَّهتُ إلى زَبيد وعدن من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججتُ في الموسم منها، فدفعتُ لأمير الحرمين ماله، وألزمني الترسُّل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جنايةٍ جناها خَدَمُه على حاج مصر والشَّام.

[محاصرة نور الدين قلعة حارم]

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدِّين قلعة حارِم[1]، وهي حصن غربيّ حَلَب بالقُرْب من أنطاكية، وضيَّق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج، من قَرُبَ منها ومن بَعُدَ، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطانٌ من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوَّتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذبِّ عنه، بما عندهم من العَدد والعُدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارِم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. ففَعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نورَ الدين في الصُّلح على أن يعطوه حصَّة من أعمال حارِم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدةٍ. فذكر أبياتاً من قصيدةٍ

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٠٦.

لابن مُنير. وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين. فإمَّا أن يكون ابن مُنير قال هذا الشعر في غير هذه الغَزَاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غَزَاة حارِم[١]: [الكامل]

ما فوْقَ شَأْوِكَ في العُلا مزدادُ فعلامَ يُقلقُ عَزْمَكَ الإجهادُ
هِمَمٌ ضَرَبْنَ على السَّماء سُرَادِقاً فالشُّهْبُ أطنابٌ لها وعِمَادُ
أنتَ الذي خَطَبَتْ له حُسَّادُه والفَضْلُ ما اعْتَرَفَتْ به الحُسَّادُ
قامَ الدَّليل وسلَّم الخَصْمُ اليَلَنْـ ـدَدُ وانجلى للآثر الإسْنَادُ[٢]
زهَرت لدولتك البلادُ فَرَوْحُها أرِجُ المهبِّ ودَوْحُها ميَّادُ
أحيا ربيعُ العَدْلِ مَيْتَ رُبوعها فالبَرْضُ لُجٌّ والهشيمُ مَرَادُ[٣]
فالعيش إلا في جنابك ميتة والنَّوم إلا في حِماك سُهادُ
وإذا العِدَى زرعوا النِّفاق وأحصدوا كيداً فَعَزْمُكَ ناقضٌ حَصَّادُ
بالمُقْرَبات كأنَّ فَوقَ مُتُونها جِنَّ الملا وكأنَّها أطْوَادُ[٤]
تذأى ومن وحي الكُماةِ صفورُها فالزَّجْرُ قَيْدٌ والنِّدَا قَيَّادُ
سُحُبٌ إذا سَحَبَتْ بأرضٍ ذَيْلَها فالحَزْن سَهْلٌ والهِضَابُ وهادُ
يهدي النَّواظر في دُجُنَّةِ نَقْعِها بَدْرٌ بسرجِكَ نَيِّرٌ وقَّادُ
أَلْبَسْتَ دِينَ محمدٍ يا نورَه عِزًّا له فَوْقَ السُّها إسآدُ[٥]
ما زلت تَسْمُكُه بميَّاد القَنَا حتى تثقَّف عودُه المُنْآدُ
لم يبق مُذ أَرْهَفْتَ عَزْمَك دونَه عَدَدٌ يُرَاعُ به ولا اسْتِعْدَادُ
إن المَنَابِرَ لو تُطيقُ تكلُّماً حَمِدَتْكَ عن خُطبائها الأَعْوادُ
ولئن حَمَتْ مِنْكَ الأعادي مُهلةً فَلَهُمْ إلى المَرْعَى الوبِيِّ معاد
ولَكَمْ لَكُمْ في أرضهم من مَشْهَدٍ قامتْ به لِظُباكُمُ الأَشْهادُ
مُلقٍ بأطرافِ الفرنجة كَلْكلاً طَرَفاه ضَرْبٌ صادِقٌ وجِلادُ

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٠٦، عشرة أبيات منها.
(٢) اليلندد: الشديد الخصومة.
(٣) البرض، بالباء المفتوحة، ثم الراء الساكنة: الماء القليل. ومراد: أي موضع ارتياد.
(٤) المقربات: الخيل التي تكون قريبة معدة، التي ضمرت للركوب، مفردها: المقربة.
(٥) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. والإسآدُ: سير الليل.

حاموا فلما عايَنُوا خَوْضَ الرَّدى حاموا برائشِ كَيْدِهم أو كادُوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذِلَّةً حرماً بحارمِ والمصاد مَصَادُ
ضَجَّتْ ثعالبُه فأخْرَسَ جَرْسَها بيضٌ تناسب في الحديدِ جِدادُ
وَسَوَاعِدٌ ضَرَبَتْ بهنَّ وبالقَنَا من دونِ مِلَّةِ أحمدَ الأسدادُ
يُرْكَزن في حَلَبٍ ومن أفنانها تجني فواكِهَ أمنها بَغْدَادُ
يا مَنْ إذا عَصَفَتْ زعازعُ بأسه خَمَدَتْ جحيمُ الشِّرْكِ فَهْيَ رَمَادُ
عجباً لقوم حاولوك وحاولوا عوداً فواتاهم إليه مُرَادُ
ورَأَوْا لواءَ النَّصر فَوْقَك خافِقاً فأقامَ منهم في الضُّلوعِ فُؤادُ
من مُنْكِرٌ أن ينسِفَ السَّيلُ الزُّبى وأبوه ذاك العارِضُ المدَّادُ[1]
أو أن يعيدَ الشَّمْسَ كاسِفَةَ السَّنا نارٌ لها ذاك الشِّهابِ زِنادُ
لا يَنفعُ الآباء ما سمكوا من الْـ ـعلياءِ حتَّى ترفعَ الأولادُ
ملكٌ يُقَيِّدُ خوفُه ورجاؤه ولقلَّما تتظافر الأضْدَادُ

وقال يهنئه بالنَّصْر يوم حارِم قصيدةً أولُها: [الوافر]

* لملكك ما تشاء من الدَّوامِ *

يقول فيها: [الوافر]

حَظِيتَ من المعالي بالمعاني ولاذَ النَّاسُ بَغْدَكَ بالأسامي
عزيز المُنْتَمى عالي المراقي بعيد المُرْتَمى غالي المسامي
فما أحدٌ إلى العلياء يُدْلي بِمَحْتِدِك القسيميِّ القسامي
أبوك المُعْتَلي قممَ الأعادي إذا اسْتَعَرَتْ مذامرةُ القُمامِ
زكا عِرْقُ العِراقِ وقد تكنَّى به وأطال من شَمَمِ الشَّآمِ
وجدُّك جَدَّ حتى قال قَوْمٌ على الفَلَكِ ابتنى عَمَدَ الخيامِ
فخَرت فَفُتَّ آباءً عِظَاماً إذا فَخَرَ المُنَافِرُ بالعِظَامِ
وقفنا والنَّواظِرُ مسجدات وروح العِزِّ داريُّ الخِتامِ
أساطِرَ كالزَّبُورِ مفصَّلات كأنَّا مِن صلاةٍ في نِظَامِ
لدى ملكٍ سَجَاياه سِجَالٌ تَعَاقَبُ بين عَفْوٍ وانتقامِ
فأهْلَلْنَا لسالِفَتَيْ هِلالٍ وكفَّرنا لضاحكتي حُسَامِ

(١) الزبى: جمع الزبية، وهي الرابية التي يعلوها الماء، ومنه المثل: بلغ السيل الزبى.

ذَهَلْنَا والسِّماطُ يُخالُ سِمْطاً وقد سَجَدَ المقاوِلُ للسَّلام
هلِ الدَّسْتُ استقلَّ بليثِ غابٍ أم الفَلَكُ ارْتَدَى بَدْرَ التَّمام
كريمٌ أَكْثَرَتْ يدُه أيادي الـ ـعُفاة وقلَّلَتْ عَدَدَ الكِرَام[1]
وخيرُ سماعه ضَرْبٌ مُدَامٌ إذا طَرِبَ الملوكُ إلى المُدَام
يطير به إلى العلياءِ نَفْسٌ غَروبٌ عن ملاءمة المَلام
سقَى اللَّهُ العَوَامِلَ من جبالٍ شققن النَّقْع عن نَقْع الأُوام
فكَمْ أنْتَجْتَ من أَمَلٍ عقيم بها وحَسَمْتَ من داءٍ عُقَام
بإنْب والرِّعال كأنَّ ثولاً تطاوَحَ تحتَ عير من إيام[2]
وأيدي الخيل تَذْرَعُ لُجَّ بحرٍ من الدَّم مزبد الثَّجَّيْن طامي
مقامٌ كنتَ قُطْبَ رحاه أرجى مقام بين زَمْزَمَ والمَقَام
أَحَلْتَ الدينَ فيه وكان هِمًّا عزيزَ القوم مُعْتَدِل القَوَام[3]
رميتَهُمُ بأرعن مرجحنّ أبارَهُمُ وكنتَ أبرَّ رامي
وفي شجراء حارِمَ شاجرتهم سواهُمُ كالسهام بكالسِّهام
نظائر حمَّمت لهم حِماماً تطاير تحته مثل الحَمَام
فلو قد مُثِّلَ الإسلامُ شخصاً لرشَّف ما وطئت من السَّلام
حماه وقد تناعَسَ كُلُّ راعٍ وقامَ وقد تقاعَسَ كُلُّ حام
فأكْذَبَ مُدَّعين هَفُوا وغرُّوا بأنَّ الأرضَ تخلو من إمام
أولي الأبصار كم هذا التعاشي عن النُّورِ المبين بل التَّعَامي
عن القمرِ الذي يجلوه ظِلُّ الـ ـعواصم في ضيا اللَّيلِ التِّهامي
هو المهديُّ لا مَنْ ضلَّ فيه كثير واستخفَّ سوى هشام
وقائمُ عصرِنا لا ما تمنَّى به من صَوْغ أَضْغاثِ المَنَام
بنور الدين أُنشر كلُّ حقٍ أُطيلَ ثواؤه تحت الرِّجام
وطالت قُبَّةُ الإسلام حتَّى اسـ ـتوت بين الفوارس والنَّعام
تطابقَ لاسمِه لَفْظٌ ومعنًى أحلَّاه الطِّباق على الأنام

(١) العفاة: طلاب المعروف.

(٢) الرعال: جمع رعلة، وهي الخيل. والثول: جماعة النحل. والعير: الحمار الوحشي. وإيام، بكسر الألف الدخان.

(٣) الهِمّ، بكسر الهاء، وتشديد الميم: الشيخ الفاني.

جرى قُدَّامه ابنُ سُبُكْتِكِين وقبل الوَبْلِ هَيْنَمَةُ الرِّهام[١]
وكان من النجوم بحيث تومي إليه من غيابات التكامي
وجئت فصارَ أشمخ ما بناه لما شَيَّدْتَ ألطا من رُغام
أطاعك إذْ أطعتَ الله جَدٌّ رَكِبْتَ به الزَّمانَ بلا زمام
ألا يا رُبَّما اتفق الأسامي وفاضل بينها دَرَجُ التَّسامي
جنى شرفاً من استغواه حَتْفٌ إليك وكم حياةٍ من حِمَام
ترشفك الكُماةُ وأنتَ موتٌ كأنَّك من طِعَانٍ في طَعَام

فصل

قال الرَّئيس أبو يعلى: توجَّه نورُ الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرَّابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم، وصادفه في طريقه المبشِّرُ بظفر عسكره الحلبي بالإفرنج المفسدين على حارِم، وقَتْلِ جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشِّر عِدَّةٌ وافرة من رؤوس الإفرنج المذكورين، وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقُّد أحوالها، واستقرَّت الموادعة بينه وبين ولد السُّلطان مسعود صاحب قُونية، وزال ما كان حدَث بينهما.

وفي شوال تقرَّرت الموادعة والمُهادنة بينه وبين ملك الإفرنج مُدَّة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريَّة[٢]، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدَّدة.

قال: وفي العشر الأخير من ذي الحجة غدر الإفرنج، ونقضوا ما كان استقرَّ

(١) ابن سبكتين: هو يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين، فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة، ولد يوم عاشوراء سنة ٣٦٠هـ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٢١هـ. وكان مرضه سوء مزاج وإسهالاً وبقي كذلك نحو سنتين (انظر أخباره في «الكامل» ٧/ ٤٦٦ ـ ٤٩٤، ٨/ ٣ ـ ١٨٩. ووفيات الأعيان ٥/ ١٧٥ ـ ١٨١).

(٢) الدينار الصورية: أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدَّة وافرة من الفرنج في البحر، وقوَّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات[١] خيول العسكرية والرَّعية وعوامل فلاحي الضِّياع، ومواشي الجلَّابين[٢] والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر، للحاجة إلى الرَّعي بها والسكون إلى الهُدْنة المستقرَّة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير، فانتهزوا الفُرْصة، واستاقوا جميعَ ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين غانمين آثمين. والله عادلٌ في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم.

وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السَّنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادُوس[٣]؛ كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دِمْياط، ذكره العمادُ الكاتب في «الخريدة»[٤]، وأثنى عليه. ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصَّلاة[٥]: [السريع]

وَفَاتِرِ النِّيَّةِ عَنِّيْنِها مَعْ كَثْرَةِ الرِّعْدَةِ والهِزَّةْ
مُكَبِّرٌ سبعينَ في مرَّةٍ كأنَّهُ صلَّى على حَمْزَةْ

وله في صفة كتاب[٦]: [السريع]

مِدَادُه في الطِّرْسِ لمَّا بدا قَبَّلَهُ الصَّبُّ ومن يَزْهَدُ
كأنَّما قد حلَّ فيه اللَّمَى أو ذابَ فيه الحَجَرُ الأَسْوَدُ[٧]

وبلغني أن القاضي الفاضل[٨] كان يعظِّمه كثيراً ويُسَمِّيه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكَّن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه

---

(١) الجشارات: جمع جشار، وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها (انظر صبح الأعشى ١١/ ١٧٠، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٨٥).
(٢) الجلّابون: أي تجار الماشية الذين يجلبون الماشية ويبيعونها.
(٣) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، القاضي الكاتب المصري، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أصله من دمياط (فوات الوفيات ٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢٦ ـ ٢٣٤.
(٥) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢٦.
(٦) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٠.
(٧) اللمى: سمرة الشفتين واللثات.
(٨) القاضي الفاضل: عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦هـ. تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء.

من القَصْر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر، فَيُسَايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.

قال: وفي يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوَّل من السنة توفي الفقيه الزَّاهد أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحَوْراني[١]، وكان حسنَ الطريقة مذ نشأ صبياً إلى أن قضى، متديناً تقياً، عفيفاً سخياً، مُحباً للعلم والأدب، والمطالعة للغة العرب. وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر باب الصغير المجاورة لقبور الصَّحابة من الشُّهداء، رضي الله عنهم، يومٌ مشهود، من كثرةِ المتأسِّفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزَّلازل بالشَّام.

[حدوث الزلازل بالشام]

قال أبو يعلى: في ليلة الثَّاني والعشرين من شعبان وافت زلزلةٌ هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنَّ، بحيث أُحصين ستَّ مرَّات. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع النَّاس منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة، وانهدام بُرْج من أبراج أفامية بهذه الزَّلازل المباركة. وذكر أن الذي أُحصي عددُه منها تقدير الأربعين، وما عُرف مثل ذلك في السِّنين الماضية، والأعصار الخالية. وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانيةٌ في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلةٌ مروِّعة، وثانية، وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأُخرى هائلة أيقظت النِّيام، وروَّعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلةٌ هائلة أعظم مما سبق، وعند الصَّباح أُخرى، وفي الليلة التي تليها زلزلتان أوَّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفي ثاني شوال زلزلة أعظم مما تقدَّم، وفي سابعه، وسادس عشره، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم، فله الحمد والشكر. لكن

---

(١) هو نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، شيخ الطائفة البيانية المنسوبة إليه بدمشق، كان إماماً عالماً زاهداً، قال ابن السبكي في تاريخه: له تصانيف مفيدة ومجاميع حسان نظماً ونثراً (كشف الظنون ٦/ ٤٨٩، مرآة الزمان ٨/ ١٣٩، معجم الأدباء ١٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٠).

وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وانهدام مساكنها. وأما شَيْزَر فإنَّ الكثير من مساكنها انهدم على سُكَّانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كَفْر طاب فهرب أهلُها منها خوفاً على أرواحهم. وأما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشَّامية فما عُرف ما حدث فيها من هذه القُدْرة الباهرة.

[حدوث الزلازل في الشام]

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلةٌ عظيمةٌ، وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بعظيم تأثير هذه الزلازل[١].

وفي ليلة الخامس والعشرين من جُمادى الأُولى وافت أربعُ زلازل، وضجَّ الناس بالتَّهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأنَّ هذه الزلازل أثَّرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكَفْر طاب وأفامية، وهدمت ما كان بُني من مهدوم الزلازل الأول، وحُكِي أن تيماء أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً.

وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلةٌ عظيمة لم يُر مثلُها فيما تقدَّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدُّور والحوانيت والسَّقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فصِّ الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حَرَّكهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوسَ ذِكْرُه، بحيث انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنّسوان، وهم العدد الكثير والجمّ الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير. وأما شَيْزَر فإن رَبَضَها سَلِمَ إلا ما كان خرب أولاً، وأما حِصْنُها

---

(١) انظر خبر الزلازل بالشام في «الكامل» ٩/ ٤١٣. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٢.

المشهور[١] فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنقذ[٢] ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهُدمت بعضُ دورها، وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعُدَ عنها من الحصون والمعاقل إلى جَبْلة وجُبَيْل وأتلفت سَلَمْيَة وما اتصل بها إلى ناحية الرَّحبة وما جاورها، ولو لم يدرك العبادَ والبلاد رحمةُ الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخَطْبُ أفظع.

وقد نَظَم في ذلك من قال: [الخفيف]

رَوَّعَتْنَا زلازلٌ حادثاتٌ ... بقضاءٍ قَضَاهُ ربُّ السَّماءِ
هَدَمَتْ حِصْنَ شَيْزَرٍ وحماةً ... أهلَكَتْ أهلَهُ بسوء القضاءِ
وبلاداً كثيرةً وحُصُوناً ... وثغوراً مُوَثَّقات البِنَاءِ
فإذا ما رَنَتْ عيونٌ إليها ... أجْرَتِ الدَّمْعَ عِنْدَها بالدِّماءِ
وإذا ما قضى من الله أمْرٌ ... سابقٌ في عباده بالمَضَاءِ
حار قَلْبُ اللَّبيبِ فيه ومَنْ كا ... نَ له فِطْنَةٌ وحُسْنُ ذكاءِ
وتراه مسبِّحاً باكيَ العيـ ... ـنِ مَرُوعاً من سخطة وبلَاءِ
جَلَّ ربي في ملكه وتعالى ... عن مقال الجُهَّال والسُّفهاءِ

قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التَّاسع والعشرين من رجب ارتاع النَّاس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقَّف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، فَفُتِحَ البَلَدُ وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عِدَّة ليال وأيام على الخوف والجزع، يسبِّحون ويهلِّلون، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللُّطْفِ بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرَّابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة روَّعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشَّام من تتابع الزَّلازل فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنَّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجُدْرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها

---

(١) انظر خبر حصن شيزر وتهدمه في الزلازل. وخبر بني منقذ في «الكامل» ٩/ ٤١٣ ـ ٤١٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٢.
(٢) هو الأمير ناصر الدين محمد ابن سلطان.

هدمت ما كان عُمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كلِّ يوم عدَّة وافرة من الرَّجفات الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفِي على أصوات الرُّعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنَّ. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزَّة خفيفةٌ. وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة، وفي غدها زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل، نفر الناسُ من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجُّوا بالتكبير والتهليل، والتَّسبيح والدُّعاء، والتضرُّع إلى الله تعالى. وفي يوم الجمعة، انسلاخَ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير[١]: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشَّام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدُّها بمدينة حماة وحصن شَيْزَر، فإنهما خربا بمرَّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرَّة، وغيرهما من البلاد والقرايا. وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدَّمت الأسوار والدُّور والقلاع، ولولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير حصار ولا قتال.

قال: ولقد بلغني من كثرة الهَلْكَى أنَّ بعض المعلِّمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لِمُهِمّ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدُّور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلمُ: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب.

قلتُ: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مُؤَيَّد الدولة أُسامة بن مُرشد بن مُنْقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام، وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وهلك بها من هلك من الخَلْقِ، فكان نحواً من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازلُ إلى الآن تتعاهد البلاد: [المنسرح]

نِمْنَا عن الموتِ والمعادِ وأصـ ... ـبحنا نَظُنُّ اليقينَ أحلاما
فحرَّكتنا هذي الزَّلازلُ أي ... تيقَّظُوا كم ينامُ مَنْ ناما

وقال أيضاً: [الخفيف]

أيها الغافلونَ عن سَكْرَةِ المو ... تِ وإذْ لا يسوغُ في الحَلْقِ ريقُ

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٣.

كم إلى كم هذا التَّشاغل والغَفْـ ـلة حار السَّاري وضَلَّ الطريقُ
إنما هَزَّتِ الزلازلُ هذي الـ أرْضَ بالغافلين كي يَسْتَفِيقُوا

وقال في الزَّلازل أيضاً، وقد سكن الناس بعد الدُّور والنُّزْهَة في أكواخٍ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل: [البسيط]

يا أرحم الرَّاحمين ارْحَمْ عبادك من هذي الزَّلازل فهي الهُلْك والعَطَبُ
ماجت بهم أرضُهُمْ حتى كأنَّهُمُ رُكَّابُ بحرٍ مع الأنفاس تَضْطَرِبُ
فنصفُهم هَلَكُوا فيها ونصفهمُ لمصرع السَّلَفِ الماضين يَرْتَقِبُ
تعوَّضوا من مشيدات المنازل بالـ أكواخِ فهي قبورٌ سَقْفُها خَشَبُ
كأنَّها سُفُنٌ قد أقبلتْ وهُم فيها فلا ملجأٌ منها ولا هَرَبُ

وقال يرثي أهلَه الذين هلكوا بالزلازل بحصن شَيْزَر قصيدةً منها: [البسيط]

ما اسْتَدْرَجَ الموتُ قومي في هلاكهُم ولا تخرَّمهم مثْنَى وَوُحْدَانا[1]
فكنتُ أصبرُ عنهم صَبْرَ مُحْتَسِبٍ وأحملُ الخَطْبَ فيهم عَزَّ أوْ هَانا
وأقْتَدِي بالوَرَى قَبْلي فكم فَقَدُوا أخاً وكم فارقُوا أهْلاً وجيرانا
لكنَّ سَقْبَ المنايا وسطَ جمعهمُ رَغَا فخرُّوا على الأذقان إذعانا
وفاجَأتْهُمْ من الأيَّام قارعةٌ سقتهمُ بكؤوس الموتِ ذَيْفَانا[2]
ماتوا جميعاً كَرَجْعِ الطَّرْفِ وانقرضوا هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا
أعْزِزْ عليَّ بهم من معشرٍ صُبُرٍ على الحفيظة إنْ ذو لُوثةٍ لانا[3]
لم يتركِ الدَّهْرُ لي من بَعْدِ فَقْدِهمُ قلباً أُجَشِّمُه صَبْراً وسُلْوانا
فلو رَأَوْني لقالوا ماتَ أَسْعَدُنا وعاشَ للهَمِّ والأحزانِ أشْقَانا
لم يتركِ الموتُ منهم من يخبِّرني عنهم فَيُوضِحُ ما قالوه تِبْيَانا
بادُوا جميعاً وما شادُوا فوا عجباً للخَطْبِ أهلكَ عُمَّاراً وعُمْرانا
هذي قصورُهُمْ أَمْسَتْ قبورَهُمُ كذاك كانوا بها مِنْ قَبْلُ سُكَّانا
ويحَ الزَّلازلِ أَفْنَتْ مَعْشَري فإذا ذكرتُهم خِلْتُني في القومِ سَكْرانا
لا ألتقي الدَّهْرَ من بعد الزَّلازلِ ما حييتُ إلَّا كسيرَ القَلْبِ حَيْرَانا

(١) تخرّمهم: استأصلهم، واقتطعهم.
(٢) الذيفان: السم القاتل.
(٣) اللَّوثة، بفتح اللام: الحمق والهيجان، واللُّوثة، بضم اللام: مسّ الجنون.

أَخْنَتْ على مَعْشَرِي الأَدْنَيْنَ فاصْطَلَمَتْ   منهم كهولاً وشُبَّاناً وولْدَانا
لم يَحْمِهِم حِصْنُهم منها ولا رَهِبَتْ   بأساً تناذَره الأقرانُ أزمانا
إنْ أَقْفَرَتْ شَيْزَرٌ منهم فهم جعلوا   منيعَ أسوارِها بِيضاً وخِرْصانا[1]
هُم حَمَوْها فلو شاهَدْتَها وهمُ   بها لشاهَدْتَ آساداً وخَفَّانا
تراهمُ في الوَغَى أُسداً ويومَ ندًى   غَيْثاً مُغيثاً وفي الظَّلْماء رُهْبانا
بنو أبي وبنو عَمِّي دَمي دَمُهُمْ   وإن أَرَوْني مُناواةً وشَنْآنا
يُطَيِّبُ النَّفسَ عنهم أنَّهم رَحلُوا   وخلَّفوني على الآثار عَجْلانا

وكتبَ إليه الصَّالح بن رُزِّيك قصيدةً يعزِّيه عن أهله، منها: [الخفيف]

بأبي شَخْصُك الذي لا يغيبُ   عن عِياني فهو البعيدُ القريبُ
يا أخلَّايَ بالشَّآم لئن غِبْـ   ـتُم فَشَوْقي إليكُمُ لا يغيبُ
غَصَبَتْنا الأيامُ قُرْبَكُمُ مِنَّـ (م)   ـا ولا بدَّ أن تُرَدَّ الغُصُوبُ
كَرِهَ الشَّامُ أهلَه فهو محقو   قٌ بألَّا يُقيمَ فيه لَبيبُ
إن تجلَّتْ عنه الحروبُ قليلاً   خَلَفَتْها زَلازِلٌ وخُطُوبُ
رَقَصَتْ أرْضُه عَشِيَّةَ غَنَّى الرَّ (م)   ـعْدُ في الجوِّ والكريمُ طَرُوبُ
وتَثَنَّتْ حِيْطانُه إذْ أمالَتْـ   ـها شَمالٌ بِزَمْرِها وجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لنائم من أمانيـ   ـه وللعاصفاتِ فيها هُبُوبُ
وأرى البَرْقَ شامتاً ضاحِكَ السِّنِّ (م)   وللجوِّ بالغمامِ قُطُوبُ
ذَكَرُوا أنَّهُ تَذُوبُ به السُّحْـ   ـبُ فما للصُّخور أيضاً تَذُوبُ
أبِذَنْبٍ أصابها قَدَرُ اللَّـ   ـه فللأرضِ كالأنامِ ذُنوبُ
إنَّ ظَنِّي والظَّنُّ مِثْلُ سهامِ الرَّ (م)   ـمي منها المُخْطِي ومنها المُصِيْبُ
إنَّ هذا لأنْ غَدَتْ ساحةُ القُدْ   سِ وما للإسلامِ فيها نَصِيْبُ
منزلُ الوحي قبلَ بعث رَسُولِ اللَّـ (م)   ـه فهو المحجوجُ والمحجوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَه الخنازيرُ والخَمْـ   ـرُ وبارَى النَّاقوسَ فيه الصَّليبُ
لو رآه المسيحُ لم يَرْضَ فعلاً   ذَكَرُوا أنَّه له مَنْسُوبُ
أبعدُ النَّاس عن عبادةِ رَبِّ النَّـ (م)   ـاسِ قَوْمٌ إلهُهُمْ مَصْلُوبُ

---

(١) الخرصان: جمع خرص، وهو سنان الرمح.

لَهْفَ نفسي على ديارٍ من السُّكـ (م) ـانِ أَقْوَتْ فليس فيها عَرِيبُ[١]
فاحْتَسِبْ ما أصابَ قَوْمَكَ مجدَ الدِّ (م) ين واصبر فالحادثاتُ ضُروبُ
إن تَخَصَّصْكُمُ نوائبُ ما زا لت لكم دون من سِواكم تَنُوبُ
فكذاك القناةُ يُكْسَرُ يومَ الرَّ (م) وْعِ منها صَدْرٌ وتبقى الكُعوبُ

وقرأت في «ديوان العرقلة»: كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيدٍ غلامِ المولى ـ وكان عبيد هذا موصوفاً بالثِّقَل ـ في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة، فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هُما فيه. فقال العرقلة: [السريع]

قُلْ لصلاحِ الدِّين ربِّ النَّدَى بلِّغ عُبَيداً كلَّ ما أمَّلَهْ
بثِقْلِهِ لمَّا تصاحبتُما سَلَّمك اللَّهُ مِنَ الزَّلْزلَهْ

وقرأت في بعض كتب أبي الحسين الرَّازي[٢] عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القَعْدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حُكي عنها نحوٌ مما مضى ذكره وأكثر، نسأل الله تمام العافية.

فصل

[توجه نور الدين إلى بعلبك وانتصار أمير أميران على الفرنج]

قال الرَّئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأول توجَّه نور الدين إلى ناحية بَعْلَبَك لتفقُّد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال[٣].

---

(١) أقوت: أي خلت وأقفرت. وليس فيها عريب: أي ليس فيها أحد.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد، والد تمام الرازي، الحافظ أبو الحسين، محدث الشام الشافعي، استوطن دمشق، وتوفي بها سنة ٣٤٧هـ، صنف «مناقب الإمام الشافعي» (كشف الظنون ٦/ ٤٣).

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٩، وفيه: في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى بقاع بعلبك، وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق، امتنع ضحاك بها، فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى الآن، فملكها واستولى عليها.

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المُبَشِّر من العسكر المنصور برأس الماء بأنَّ ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سريَّة وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعِدَّتهم سبعمائة فارسٍ سوى الرَّجَّالة، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حُماتها، فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كُمناء من شجعان الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينجُ منهم إلَّا القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيلٍ وجريح، ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحدُّ كثرةً، ومحقت السُّيوف عامَّة رجَّالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعُدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً. وأُنفذ إلى نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ جماعةٌ من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البُشْرى الثَّانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنَّه قد ظفر من المشركين بسريَّة وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطَّف التركمان منهم من ظفروا به.

[وصول أسد الدين شيركوه إلى بعلبك]

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجمِّ الغفير، واجتمعوا بنور الدين، وتقرَّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنُّزول على بانياس، وقدِمَ نور الدين دمشق في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجَّه. وأمر بالنداء بدمشق في الغُزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث، والمُطَّوِّعة والفقهاء والصُّوفية والمتدينين خَلْقٌ كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول.

[محاصرة نور الدين بانياس]

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمَّن كتابه الإعلام بورود المُبَشِّر من معسكر أسد الدين بناحية هُونِين في التركمان والعرب بأن الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ أنهضوا سريَّةً من أعيان مُقدَّميهم

وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظناً منهم بأنهم في قُلٍّ، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنَوْا منهم وثبوا إليهم كاللُّيوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلَّا اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُددهم من الخيول المنتخبة، والطَّوارق[١]، والقُنْطاريات[٢] إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور.

[فتح نور الدين بانياس]

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدِّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسَّيْفِ قَهْراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقُوط البُرْج المنقوب وهجوم الرِّجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونَهْب ما حواه، وانهزام من سَلِمَ إلى القلعة وانحصارهم بها، وأنَّ أَخْذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطئ، والله يسهِّله ويعجله.

قال: واتَّفق بعد ذلك أن الفرنج تجمَّعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان، ويسلِّمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوا ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والرَّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العَسْكَرَيْن؛ النَّازل على بانياس لحصارها، والنَّازل على الطَّريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السِّياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها، واستخلصوا من كان فيها، وحين شاهدوا ما عمَّ بانياس من إخراب سورها ومنازل سُكَّانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

[انتصار نور الدين على الفرنج في الملاحة]

قال: وفي تاسع جُمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النُّوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين ـ أعز الله نصره ـ لما عرف أنَّ معسكر الكفرة الإفرنج على الملَّاحة؛ بين طبريَّة وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السير، فلما شارفهم وهم غارُّون، وشاهدوا راياته قد

---

(١) الطوارق: جمع طارقة، وهي الترس.

(٢) القنطاريات: جمع قنطارة، وهي الرمح.

أظلَّتهم، بادروا بلبس السِّلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجَّل الملك نور الدين، فترجَّلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسِّهام وخِرْصان الرِّماح، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحِمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكَّنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً، واستأصلت السُّيوفُ الرَّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُمْلة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعُددهم، وكُراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً. ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رَتَّبوا على كلِّ جملٍ فارسين من أبطالهم ومعهما رايةٌ من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عِدَّة، والمقدَّمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرسٍ، وعليه الزَّرَدية[1] والخوذة، وفي يده راية، والرَّجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يُحصى لهم عدد، من الشُّيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله ـ تعالى ذِكْرُه ـ كافَّةَ المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثروا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرَّامي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه.

ونُظم في ذلك أبيات في هذا المعنى: [الخفيف]

ما رأينا فيما تقدَّم يوماً	كاملَ الحُسْنِ غايةً في البهاءِ
مِثْلَ يومِ الفرنج حين عَلَتْهُمْ	ذِلَّةُ الأَسْرِ والبلا والفَناءِ
وبراياتهِمْ على العِيسِ زُفُّوا	بين ذُلٍّ وحَسْرَةٍ وعَناءِ
بعد عِزٍّ لهم وهيبةِ ذِكْرٍ	في مصاف الحروب والهَيْجاءِ
هكذا هلاكُ الأعادي	عند شنِّ الإغارة الشَّعْواءِ
شؤم أَخْذِ الجشار كان وَبالاً	عَمَّهُمْ في صَباحهم والمساءِ[2]
نقضوا هُدْنةَ الصَّلاحِ بجهلٍ	بَعْدَ تأكيدِها بحُسْنِ الوَفاءِ

(١) الزردية: جمع زرد وهي درع مزخرفة.

(٢) الجشار: هو مكان رعي الماشية وغيرها.

فلقوا بَغْيهم بما كانَ منهم ... من فسادٍ بجهلهم واعْتِدَاءِ
لا حمى اللَّهُ شَمْلَهُمْ من شَتَاتٍ ... بِمَواضٍ تفوقُ حَدَّ المَضَاءِ
فجزاء الكفورِ قَتْلٌ وأَسْرٌ ... وجَزَاء الشَّكُورِ خَيْرُ الجَزَاءِ
ولِرَبِّ العِبادِ حَمْدٌ وشُكْرٌ ... دائمٌ مَعْ تواصلِ النَّعْماءِ

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملُّكها وتدويخها، والله المعين والموفِّق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتَّصل ذلك بنور الدين فأَنْهَدَ إليهم عسكراً كثيفاً، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدَّ حصار، حتى افتتحها في الثَّامن والعشرين من ربيع الأول، وأَخَذَ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعةً من خَيَّالتها، واتَّصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج، فلبس لأْمَتَه[1]، وتقدَّم في جماعةٍ من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرِّجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسَخين يقتل ويأسر، وغَنِمَ منهم غنيمةً حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجَّه في وجهته مُؤَيَّداً.

فصل

[توجه نور الدين إلى حلب وقرب الملك ابن مسعود منها]

قال الرَّئيس أبو يعلى: وفي العشر الثَّاني من جُمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السُّلْطان مسعود في خَلْق كثير للنُّزول على أنطاكية، وأوجبت الصُّورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنج، وتكرَّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر ولم يستقرَّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرِّ عزه في بعض عسكره، وأَقَرَّ باقيه ومقدَّميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين.

(١) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح، وإنما سمي لأمة، لأنها تلائم الجسم وتلازمه.

قال: وفي ثالث رجب توجَّه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، والنَّظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها.

ثم قال بعد ذلك: قد تقدَّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ وقَصْدِهم لها، وطمعهم ـ بحكم ما حدث من الزلازل والرَّجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها ـ لحمايتها والذبِّ عنها، وإيناس من سَلِمَ من أهل حمص وشَيْزَر، وكفَرْطاب، وحماة وغيرها، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجمُّ الغفير، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخَيَّم بهم بإزاء جَمْعِ الفرنج بالقُرْب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارسٌ منهم على الإقدام علَى الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حادٌ، فلما اشتدَّ به، وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شِيْركُوه، وأعيان الأمراء والمقدَّمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كَوْنَ أخيه نُصْرة الدين القائم في منصبه من بعده، والسَّادّ لثُلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة وشدَّة البأس، ويكون مقيماً بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة. فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض، فتوجَّه في مِحَفَّةٍ إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجَّه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج. وتواصلت الأراجيف بنور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرَّقت جموعُ المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شَيْزَر، وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. وتجمَّعَ من عِدَّة جهات خَلْقٌ كثير من رجال الإسماعيليَّة وغيرهم، وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شَيْزَر. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب، وعصى عليه، فثارت أحداثُ حلب، وقالوا: هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه. فزحفوا في السِّلاح إلى باب البلد، وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللَّوْم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جُمْلتها إعادة رسمهم في التأذين «حيَّ على خَيْرِ العَمَل، محمدٌ وعليٌّ خَيْرُ البَشَر»، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسنَ القولَ لهم والوعد، ونزل في داره وأنفذَ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حَيٌّ في نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة. فقيل: الذَّنب في ذلك للوالي. وصَعِدَ إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًّا يفهم ما يقول وما يقال

له. فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفحُ للأحداث عن هذا الخطل، ولا أؤاخذهم بالزَّلل، وما طلبوا إلَّا صلاحَ حال أخي ووليِّ عهدي من بعدي. وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأَنِسَتِ القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدَّمين، بالعَوْد إلى جهاد الملاعين. وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حَرَّان وما أضيف إليها، وتوجَّه نحوها. ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب، ووصل إليها في خيله، واجتمع بنور الدين فأكرم لُقياه، وشكر مَسْعاه، وشرعوا في حماية الأعمال من شَرِّ عُصَب الكفر والضَّلال.

قال: ونظمتُ هذه الأبيات في هذا المعنى: [الوافر]

لقد حَسُنَتْ صِفَاتُك يا زماني ... وَفُزْتُ بما رَجَوْتُ من الأماني

فكم أصبحتُ مُرْتاعاً لخوفٍ ... فبدَّلْتَ المخافةَ بالأمانِ

وجاءتنا أراجيفٌ بِمَلْكٍ ... عظيم الشَّأْنِ مسعودِ الزَّمانِ

فَرَوَّعتَ القلوب من البرايا ... وصارَ شُجَاعُها مِثْلَ الجَبَانِ

وثارَتْ فِتْنَةٌ يُخشى أذاها ... على الإسلام في قاصٍ ودانِ

ووافى بعد ذاك بشيرُ صِدْقٍ ... بعافيةِ المليك مع التَّهاني

فولَّى الخوفُ منهدمَ المباني ... وعاد الأمنُ معمورَ المغاني

قال ابنُ أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شَيْزَر، فخرج نور الدين وأخذها من بني مُنْقذ، وسلَّمها إلى مجد الدين بن الدَّاية، وسار إلى سَرْمِين، لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضَهُ هناك مرض أشفى منه، فأحضر شِيركُوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نُصْرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصُّفَّر خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنئاً له بالعافية. وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مُدَّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضَه سَيَّره إلى حَرَّان، وجعل وليَّ عهده أخاه قُطْب الدين صاحب المَوْصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه، فتحزَّم لأمره، وتقرَّب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطُّرقات والسُّبُل بالرِّجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والدَّاخلين إليها.

قلت: ولابنِ مُنير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرضٍ غير هذا: [الرجز]

يـا شـمـسُ لا كَـسْـفٌ ولا تَـكْـدَارُ ولا خَـلَـتْ مـن نُـورِكَ الأنـوارُ
الـبَـدْرُ مَـنْـقُـوصٌ وأنـتَ كـامـلٌ لـك الـسَّـرايـا ولـه الـسَّـرَارُ
بـرؤك لـلإسـلام مـن أدوائـه بُـرْءٌ وفـي أعـدائـه بَـوارُ
مـا أنـت إلا الـسَّـيْـفُ صَـدَّ صـدأً عـن مَـتْـنِـهِ مَـضْـرَبُـه الـبَـتَّـارُ
لو كـان مـحـمـولاً أذًى عـن مُـنْـفِـسٍ لَـحَـمَـلَـتْـهُ دُونَـك الأبْـصَـارُ
ولـو فَـدَتْ أرضٌ سـمـاءَ سـاقـت الـ ـمـلـوكَ فـي فـدائِـكَ الأمْـصـارُ
أنـتَ غـيـاثُ مَـحْـلِـهـم إنْ أجـدبـوا وخـيـرهُـم إن ذُكـر الـخِـيَـارُ
وفـي سـريـر الـمـلـك مـنـهـا مـلـكٌ لله فـي سَـرَّائـه أسـرارُ
خَـيْـرُ مـلـوكِ الأرضِ جـدًّا وأبـاً إن هَـزَّ عِـطْـفَـي مـاجـدٍ نِـجَـارُ
مَـدَّ عـلـى الـدِّيـن رِوَاقَ دَوْلـةٍ تـنـازعـت أسـمـارَهـا الـسُّـمَّـارُ
عـلَّـتْ بـنـايـاه وحَـلَّـتْ يـدَه فـهـي عـلـيـه الـسُّـور والـسِّـوارُ
مـحـمـودٌ الـمـحـمـودُ عـصـرُ مـلـكـه فـلِـلْـحَـيَـا مِـن مُـزْنِـهِ اعْـتِـصـارُ
يـا نـورَ ديـنٍ أَظْـلَـمَـتْ آفـاقُـه لَـوْ لَـمْ تـبـلَّـج هـذه الآثـارُ
لله أيَّـامُـك مـا تـخـطُّـه بـالـمِـسْـك مـن إسـفـارِهـا الأَسْـفـارُ
سَـلِـمْـتَ لـلإسـلام تـرعـى سَـرْحَـهُ إذا وَنَـى رُعـاتُـه وجـارُوا
شـكـوتَ فـالـدُّنـيـا عـلـى سُـكَّـانـهـا قـرارةٌ جـانَـبَـهـا الـقَـرَارُ
كـادَتْ تـمـوتُ الأرضُ مـن إشـفـاقِـهـا لـولا شـفـاءٌ رَدَّهـا تُـمـارُ
زرَّتْ عـلـيـك الـتُّـرك جَـيْـبَ نـسـب يـحـسُـدُهـا بِـزِيِّـه نـزارُ
لا عَـدِمـت مـنـك الأمـانـي ريّـهـا مـعـطًـى مـن الإقـبـال مـا يـخـتـارُ
مـا سـمـح الـدَّهْـرُ بـأن تـبـقـى لـنـا فـكـلُّ جُـرْحِ مَـسَّـنـا جُـبَـارُ

وله من قصيدة أخرى: [الخفيف]

لا نُـؤَدِّي لأنْـعُـمِ الله شُـكْـراً بـكَ يـا أعـظَـمَ الـبـريَّـةَ قَـدْرا
زَوْرُ عَـشْـرٍ وافـى لإقـلاع دارٍ جـعـلا الـمـنـة الـمـمـنَّـاة عَـشْـرا
أمَّ مَـغْـنـاك ضـامِـنـاً أنَّ أيَّـا مَـكَ تُـفـنـي الأحـقـابَ عَـصْـراً فـعـصـرا
فـي مـحـلٍّ لـه الـسِّـمـاكـانِ سـمـكٌ وجـدود لـهـا الـمـجـرَّة مـجـرى
أيـهـا الـعـادِلُ الـمُـظَـفَّـر لا قـصَّـ (م) ـتْ شَـبـا الـدَّهـر مـن شـبـاتـك ظُـفْـرا
جَـعَـلَ الـلّـهُ مـا اسـتـهـلَّ مـن الأشْـ ـهـرِ يـنـهـلُّ فـي مـغـازيـك نَـصْـرا

أبداً يـنـشـر الـتَّـهـانـي عـلـى سـا حَـاتِـك الـزَّهْـرُ فـي الـمـواسـم نَـشْـرا
أنـتَ أسرى الـمـلـوكِ نَـفْـسـاً وقِـنْـسـاً وإلـى أَسْـرِهِـمْ من الـطَّـيـفِ أَسْـرَى(١)
مَـلِـكٌ عـنـدَه الـمـشـاربُ تُـسْـتـمـ ـرَى وأخـلاف الـجـود تُـمـرى فَـتُـفْـرَى
فَـلَـكَ الله مِـنْ مُـشَـمِّـرِ بَـذْر يـصـطـفـي صـالـحـاً ويـحـصُـد أَجْـرا
عش لمُلكٍ أصبحتَ في الدَّسْت منه فـوق كـسـرى عَـدْلاً وشَـعْـبـاً وكَـسْـرا
تـفـطـر الـطَّـيِّـبـات لـلـفـطـر فـطـراً وتـعـمُّ الأعـداء فـي الـنَّـحْـرِ نَـحْـرا
يـقـتـنـي مـن كُـسَـاك أنـفـس مـلـبـو سٍ ويُـقْـنـيـك مـنـه أطـولَ عُـمْـرا
أنـت تُـمـلـي ونـحـنُ نـنـظـمُ مـا تَـنْـ ـثُـرهُ الـغُـرُّ مِـنْ مـسـاعـيـك نَـثْـرا
صَـرَفَ الله عـنـك عـيـنَ زمـانٍ بـك صـارَتْ بـعـدَ الإصـابـة عَـبْـرَى
وتـوالَـتْ لـكَ الـفُـتـوحُ إلـى أنْ تـمـلأَ الـخـافـقـيـن نَـهْـيـاً وأمـرا
كـلـمـا أَنْـهَـجَـتْ مـلابسُ نُـعـمـى وتـمـلَّـيْـتَـهُـنَّ جـدَّدْتَ أُخـرى(٢)

وقال القَيْسَراني من قصيدة: [الخفيف]

أشـرق الـبـدر يـا جـبـيـنَ الـهـلالِ فـحـلاه لـوجـهـك الـمُـتَـلالـي
عـن لـيـالٍ حَـجَـبْـنَ عـنَّـا سَـنَـاهـا إنـمـا غـيـبـةُ الـهـلالِ لـيـالـي
لـم يكـن مـا ألـمَّ بـالـجـسـم شَـكْـوى فـتُـهـنَّـا لِـوافـدِ الإقـبـالِ
لا ولا كـان زائـراً مـن سَـقَـام إنـمـا كـان طـائـفـاً مـن خَـيَـالِ
وعـكـةٌ أَقْـلَـعَـتْ وأنـتَ صـحـيـحٌ ويـصُـحُّ الـنَّـسـيـمُ بـالاعـتـلالِ
أَوَمَـا هـذه الـسـمـاء سَـرار الـ ـبَـدْرِ فـيـهـا عـلـى طـريـقِ الـكـمـالِ
نـعـمـةُ الله لا يـخـصُّ بـهـا الـخـا لِـقُ إلا مـن كـان مـنـه بِـبَـالِ
ولـبـاسٌ مـن الـمَـثُـوبـةِ والـغُـفْـ ـرانِ أُلْـبِـسْـتَ ضـافـيَ الأذيـالِ
فـهـنـيـئـاً لـك الـبـقـاء وإن كـا ن هـنـاءً يـخـصُّ فـيـه الـمـعـالـي
والـتُّـقـى والـنَّـدى ومَـقْـرَبـة الـخيْـ ـلِ(٣) وبيض الظُّبى وسُمْر العوالي
والـخِـلالُ الـتـي إذا مـا تـحـلَّـت صَـدَرَتْ مـنـك عـن كـريـم الـخِـلالِ
إنْ وَقَـتْـكَ الـنُّـفـوس مـا تـتـوقَّـى فـحـقـيـقٌ فـدا الـمُـوالـي الـمـوالـي
أو تـحـصَّـنْـتَ فـي شـعـارٍ من الـتَّـقْـ ـوَى فـمـا زلـتَ مـنـه فـي سِـرْبـالِ

---

(١) القنس: الأصل.

(٢) أنهجت: بليت.

(٣) مقربة الخيل: أي التي تكون معدة وقريبة، ضمرت للركوب.

فشفى الله مَنْ أجلُّ دوائيـ ـه صريحُ الدُّعاءِ والابتهالِ
مَلِكٌ أبْدَلَ المخافةَ بالأَمْـ ـنِ وأضحى يُعَدُّ في الأبْدَالِ
وهْو تاجُ الملوكِ فالملك العا طل حَالٍ به على كُلِّ حالِ
وإذا النَّيِّران غابا فنورُ الدِّ (م) ين شَمْسٌ فَجْرِيَّةُ الآصالِ
قد أرت وجهك العُلَا ما يريها وهي مرآةُ صالحِ الأعمالِ
وقضى الله أنَّ نجمَك في الأنـ ـجُم سامٍ وأن جَدَّك عالِ
كل يوم هذا المحيا محييٌّ بالتهاني على يد الإقبالِ

فصل

[في ذكر حِصْن شَيْزَر ووِلاية بني مُنْقِذ]

قال ابنُ الأثير[١]: وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها، على حجرٍ عالٍ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قُطع الطريق في وسطه، وجُعل عليه جسر من خشب، فإذا قُطع ذلك الخشب تعذَّر الصُّعود إليه. وكان لآل مُنْقِذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مِرْدَاس[٢] إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المُقَلَّد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم[٣]، بعد أبيه أبي الحسن علي[٤]، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بِشَيْزَر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعاً كريماً، صوَّاماً قوَّاماً. فلما حضره الموتُ استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي؛ وهو والد أُسامة، فقال: والله لا وليتها، ولأَخرُجَنَّ من الدُّنيا كما دخلتُها. وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثيرَ الصَّلاح، فولَّاها أخاه أبا العساكر سُلْطان بن علي، وكان أصغر منه، فاصطحبا أجمل صحبةٍ مُدَّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عِدَّة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا؛ منهم عِزُّ الدولة أبو الحسن علي[٥]، ومُؤَيَّد الدولة

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٣ ـ ٤١٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٣.
(٢) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٦٧ ـ ٧٢. وفيه أنه قتل سنة ٤٢٠هـ.
(٣) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٤٤.
(٤) هو سديد الملك علي بن المقلد بن نصر بن منقذ. وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ سنة ٤٧٤هـ، وكانت بيد الروم، وتوفي سنة ٤٧٥هـ. انظر وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٥) قتل شهيداً في غزة سنة ٥٤٥هـ. انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٤٨ ـ ٥٥١. ومعجم الأدباء ٥/ ٢١٤ ـ ٢٢٠، والوافي بالوفيات ٢٢/ ١٩١ ـ ١٩٢. وفي الوافي أنه استشهد بعسقلان سنة ٥٤٦هـ.

أسامة بن مُرْشد[١]، وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كَبِرَ فجاءه أولاد، فحسدَ أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صِغَر أولاده وكِبَر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما، فغيَّروا كلاً منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبياتٍ جيدة في معناها، وكلُّهم كان أديباً شاعراً، فمنها[٢]: [الطويل]

ظَلُومٌ أَبَتْ في الظُّلْم إلا تماديا ... وفي الصَّدِّ والهِجْران إلَّا تناهيا[٣]

شَكَتْ هَجْرَنا في ذاك والذَّنْبُ ذَنْبُها ... فيا عجباً من ظالم جاءَ شاكيا

وطاوَعَتِ الواشين فيَّ وطالما ... عَصَيْتُ عذُولاً في هَوَاها وواشِيا

ومالَ بهاتِيْهُ الجمال إلى القِلى ... وهيهاتَ أن أمسي لها الدَّهرَ قاليا

ولا ناسياً ما أَوْدَعَتْ من عُهودِها ... وإنْ هي أَبْدَتْ جفوةً وَتَناسيا

ولما أتاني من قريضك جَوْهَرٌ ... جَمَعْتَ المعالي فيه لي والمعانيا

وكنتُ هَجَرْتُ الشِّعْرَ حيناً لأنه ... تَوَلَّى بِرغمي حين وَلَّى شبابيا

وأينَ من السِّتين لَفْظٌ مُفوَّفٌ ... إذا رُمْتُ أَدْنى القَوْلِ منه عَصَانيا

وقلتُ أخي يرعى بنيَّ وأُسرتي ... ويحفظ عَهْدي فيهمُ وذِماميا

ويجزيهم ما لَمْ أكلِّفه فِعْلَه ... لنفسي فقد أَعْدَدْتُه من تُراثيا

فَمَالَك لما أن حنى الدَّهْرُ صَعْدتي ... وثَلَّمَ مني صارِماً كان ماضيا[٤]

تنكَّرْتَ حتى صارَ بِرُّك قَسْوَةً ... وقُرْبُكَ منِّي جفوةً وتنائيا

فأصبحتُ صِفْر الكفِّ مما رجوتُه ... كذا اليَأْسُ قد عفَّى سبيلَ رجائيا[٥]

على أنني ما حُلْتُ عما عَهِدْتَه ... ولا غَيَّرَتْ هذي السَّنونُ وِدَادِيا

فلا غَرْوَ عند الحادثات فإنَّني ... أراكَ يميني والأنامَ شِماليا

تهنَّ بها عذراء لو قُرنت بها ... نجومُ السَّماءِ لم تُعَدَّ دراريا

---

(١) هو أسامة بن منقذ، تقدمت ترجمته.

(٢) انظر القصيدة في «الكامل» ٩/ ٤١٤. وفي تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢ ـ ٨٣. تسعة أبيات منها. وفي معجم الأدباء ٥/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.

(٣) في «الكامل»: «تغاليا» بدل: «تناهيا».

(٤) الصعدة: القناة المستوية، يشبه به القامة المستقيمة.

(٥) البيت في «الكامل»:

وأصبحت صفر الكفّ مما رجوته ... أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا

تحلَّتْ بِدُرٍّ من صفاتِك زانَها كما زانَ منظومُ اللآلي الغوانيا
وعش بانياً لِلجُود ما كان واهناً مُشيداً من الإحسانِ ما كان واهيا

[سبب خروج أسامة بن منقذ وإخوته من شيزر]

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجنِّ، وبادأهم بما يسوؤهم، وتمادتِ الأيام بينهم إلى أن قَوِي عليهم، فأخرجهم من شَيْزَر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ما حُدِّثتُ به عن مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن مرشد قال: كنتُ من الشجاعة والإِقدام على ما قد علمه الناس، فبَيْنَا أنا بشَيْزَر وإذا قد أتاني إنسان فأخبرني أن بدِجْلة، يقاربُها، أسداً ضارياً، فركبتُ فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أُعلم أحداً من النَّاس لئلا أُمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلتُ عن فرسي وربطته، ومشيت نحوه، فلما رآني قصدني ووثب، فضربتُه بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزتُ عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدتُ إلى شَيزَر، ودخلتُ على والدتي وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال. فقالت: يا بني، تجهَّز للخروج من شَيْزَر، فوالله لا يُمكِّنك عَمُّك من المقام، ولا أحداً من إخوتك، وأنتم على هذه الحال من الإِقدام والجُرْأة. فلما كان الغدُ أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه، فتفرَّقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين، وشكَوْا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه من أن يسلِّم شَيْزر إلى الفرنج، وبقي في نفسه. وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتدَّ ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحدٌ كان بالحصن، فبادر إليها وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها، وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة، وكل ما خرب بالشَّام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلتُ: وسيأتي ذكر أسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين؛ وهي السَّنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شَيْزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أُنَر؛ أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدةً أولها: [البسيط]

وَلَّوا فلمَّا رَجَوْنا عَدْلَهُمْ ظَلَموا فليتَهُمْ حَكَمُوا فينا بما عَلِمُوا

ما مَرَّ يوماً بفكري ما يَريبهُمُ ... ولا سَعَتْ بي إلى ما ساءهم قَدَمُ
ولا أضعتُ لهم عَهداً ولا اطَّلَعَتْ ... على ودائعِهم في صَدْريَ التُّهَمْ
فَلَيتَ شِعْري بِمَ استوجبتُ هَجْرَهمُ ... ملُّوا فَصَدَّهُمُ عن وَصْليَ السَّأَمُ
حَفِظْتُ ما ضَيَّعُوا أَغْضَيْتُ حين جَنَوْا ... وفَيْتُ إذ غَدَرُوا واصلتُ إذْ صَرَمُوا
حُرِمْتُ ما كنتُ أرجو من وِدادِهِمُ ... ما الرِّزْقُ إلا الذي تجري به القِسَمُ
وبَعْدُ لو قيلَ لي ماذا تحبُّ وما ... تختارُ من زينةِ الدُّنيا لقلتُ هُمُ
لهم مجال الكَرَى من مُقْلَتيَّ ومن ... قلبي محلُّ المُنَى جارُوا أو اجْتَرَمُوا[1]
تبدَّلوا بي ولا أبغي بهم بَدَلاً ... حَسْبي همُ أنصفوا في الحُكْم أو ظَلَمُوا
بلِّغ أميري معين الدين مألُكَةً ... من نازحِ الدَّارِ لكنْ وِدُّه أَمَمُ[2]
وَقُلْ له أنتَ خَيْرُ التُّرك فَضْلُكَ الـ ... ـحياءُ والدِّينُ والإِقْدامُ والكَرَمُ
هلَّا أَنِفْتَ حَياءً أو محافظةً ... من فِعْلِ ما أَنْكَرَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ
أَسْلَمْتَنا وسيوفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ ... ولم يُرَوَّ سِنانَ السَّمْهَرِيِّ دَمُ[3]
وكنتُ أَحْسَبُ من والاكَ في حَرَمٍ ... لا يعتريه به شَيْبٌ ولا هَرَمُ
وما طُمانُ بأَوْلى من أُسامةَ بالـ ... ـوفاءِ لكنْ جَرَى بالكائنِ القَلَمُ
هَبْنَا جَنَيْنا ذُنُوباً لا يكفِّرُها ... عُذْرٌ فماذا جَنَى الأطفالُ والحُرَمُ
أَلقيتَهُمْ في رضا الإفرنج متَّبعاً ... رضا عِدًى يُسْخِطُ الرحمنَ فِعْلُهُمُ
جَرِّبْهُمُ مِثْلَ تجريبي لِتَخْبُرَهُمْ ... فللرِّجال إذا ما جُرِّبوا قِيَمُ

وهي طويلة. وطُمان المذكور خادم تركيٌّ كان لأتابك ملك الأمراء زَنْكي بن آق سُنْقُر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولجَّ فيه، فاشتمل عليه مُعين الدين للجنسيَّة وحماه، فلمَّا لجَّ فيه سَيَّره إلى العرب، وقام له بما يحتاجه إلى أن رَدَّه لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عَبَّاس ـ كما سبق ذكره ـ وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مُرْشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد ابن سُلْطان، صاحب شَيْزَر، الإعانة في فكاكه فلم يفعل. قال: وادَّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحُسْنَ ذكره للملك العادل نور الدين، رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً

---

(١) اجترموا: يقال: اجترم الذنب: ارتكبه، وجرم جرماً: أذنب.
(٢) المألكة: الرسالة.
(٣) السمهري: الرمح الشديد العود.

من مقدَّمي الدَّاوِيَّة[1] يقال له المشطوب، قد بذل الإِفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر.

وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[2] أنشدَ نورَ الدين: [مخلع البسيط]

مُلْكُ بني مُنْقِذٍ تولَّى ... وكان فوقَ السِّماك سُمْكُهْ
فاعتَبِرُوا وانظُروا وقُولوا ... سبحانَ مَنْ لا يَزُول مُلْكُهْ

والمعروف، مُلك بني بَرْمَك، فغيَّره المنشد لمَّا تمثَّل به في غرضه، فأجازهما أسامة بهذه الأبيات: [مخلع البسيط]

وكلُّ مُلْكٍ إلى زَوالٍ ... لا يعتري ذا اليقين شَكُّهْ
إنْ لم يَزُلْ بانتقالِ حالٍ ... أزال ذا المُلْك عنه هُلْكُهْ
والله ربُّ العِبادِ باقٍ ... وهالِكٌ نِدُّه وشِرْكُهْ
فَقُلْ لمن يَظْلِمُ البَرَايا ... غَرَّك إمهالُه وتَرْكُهْ
تنسى ذنوباً عليك تُحصى ... يحصرها نَقْدُه وحكُّهْ
كم ناسكٍ نُسْكُه رياءٌ ... أوبقَهُ في المعاد نُسْكُهْ
فاحْذَرْ فما يختفي عليهِ ... مِنْ عبدِهِ صِدْقُهُ وإفْكُهْ

وما أحسنَ ما قال أسامة في كِبَرِه[3]: [البسيط]

مع الثَّمانين عاثَ الضَّعْفُ في جلَدي ... وساءني ضَعْفُ رِجْلي واضطرابُ يَدي
إذا كتبتُ فخطِّي جِدُّ مضطربٍ ... كخطِّ مُرْتَعِشِ الكفَّين مُرْتَعِدِ
فاعجبْ لِضَعْفِ يدي عن حَمْلِها قلماً ... مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ

---

(١) الداوية: الفرنج الداوية بالأصل طائفة مشهورة من الرهبان المرابطين، كان مركزهم الأساسي في قلعة رباح بإسبانيا التي كانت حداً فاصلاً بين أرض النصارى وأرض المسلمين، وقد جاء قسم منهم إلى المشرق مع الحملات الصليبية، ويقال لهم في فرنسا: فرسان المعبد، وهم طائفة متدينة عسكرية تأسست عام ١١١٩م، وكان لها دور بارز في الحملات على فلسطين، وقد جمعوا ثروات طائلة من غزواتهم أصبحوا بفضلها ممولي البابا وعدد من الأمراء، ومنذ العام ١٣١٢م ألغى البابا كليمان الخامس شرعية هذه الطائفة بطلب وتحريض من ملك فرنسا (انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٣٧٩، والحلة السيراء ٢/ ١٧٨).

(٢) هو عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم حجة الدين أبو السعادات الشهرزوري ثم الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٥٧١هـ. قال صاحب عقد المذهب: كان يدرس ويعظ بالموصل، له تصانيف في الفقه والفرائض والعربية (كشف الظنون ٥/ ٦٠٧).

(٣) الأبيات في سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٧.

وإنْ مَشَيْتُ وفي كَفِّي العصا ثَقُلَتْ ... رِجلي كأني أَخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُلْ لمن يتمنَّى طول مُدَّته ... هذي عواقبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ

فصل

[في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين]

قال الرئيس أبو يعلى: تناصَرَتِ الأخبارُ بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضمَّ إليه من عسكر الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرَّقين مفلولين خاسرين، بعد المضايقة والتَّناهي في المحاصرة والمصابرة.

[وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه]

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السُّلْطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خُرَاسان، عقيب خلاصه من الشِّدَّة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه[1]، وكان يحبُّ العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل، وقد عَلَتْ سِنُّه وطال عمره. وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السَّنة إلى نور الدين بالتشوُّق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منَّ الله عليه به من خلاصه من الشِّدَّة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلةٍ دَبَّرها، وسياسةٍ أحكمها وقرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السَّلْطنة المشهورة، واجتماع العساكر المتفرِّقة عنه إليه.

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلِّص الدين أبي البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جَرَادة الحلبي[2]، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً، حسنَ البلاغة نظماً ونثراً، مُسْتَحْسَنَ الفنون من التَّذهيب البديع، وحُسْنِ الخَطِّ المحرَّر على الأُصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن وتوقُّد الفِطْنة والذَّكاء.

وقال: وفي رابع عشر شوَّال ورد الخبر من ناحية بُصرى بأن واليها فخر

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥ ـ ٤١٦. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤. وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٣. ومعجم الأدباء ١٦/ ١٦ ـ ١٩.

الدين سُرخاك قُتل غيلة بموافقةٍ من أعيان خاصَّته، وكان فيه إفراط في التحرُّز واستعمال التيقُّظِ، ولكنَّ القضاء لا يُغالب ولا يدافع.

قال: وفي أوائل ذي القَعْدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقَّب بصلاح الدين وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زَنْكي، وتقدَّم عنده بالمناصحة وسَدَاد التدبير، وحُسْنِ السِّفارة وصواب الرأي، ولما عَلَتْ سِنُّه ضَعُفَ عن ركوب الخيل، وألجأته الضَّرورة إلى الحمل في المحفَّة لتقرير الأحوال، والنَّظر في الأعمال، ولم ينقص من حسه وفهمه ما يُنكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولادُه في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بَلْخ في عنفوان شبابة وغضارة عوده، ما رأيتُ أفصحَ من لسانه ببلاغتَيْه العربية والفارسية، ولا أسرعَ من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلماً في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر السُّلَمي، ووعظ في جامع دمشق عِدَّة أيام، والنَّاس يستحسنون وعظه، ويستظرفون فنَّه، وسلاطة لسانه، وسرعة جوابه، وحِدَّة خاطره، وصفاء حِسِّه.

قال ابنُ الأثير: وفيها في ذي الحِجَّة توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدّبيسي صاحب جزيرة ابن عُمر، وكان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلاً حازماً، ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قُطْب الدين مودود بن زَنْكي، صاحب المَوْصِل، أخو نور الدين.

[استيلاء الفرنج على حصن حارم]

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرَّم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشَّام ـ خذلهم الله تعالى ـ بمضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق[1] إلى أن ضعف ومُلك بالسيف، وتزايد طمعهم في شنِّ الغارات

(١) المجانيق، والمناجيق: جمع منجنيق: قال ابن قتيبة في كتابه «المعارف» وأبو هلال العسكري في «الأوائل»: هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيء إلا أهلكه. وأول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة على العرب. وذكر الواحدي في تفسير سورة الأنبياء: أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام ولم يقدروا على القرب من النار ليلقوه فيها، فجاءهم اللعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقذفوا به في النار، فكان أول منجنيق عمل (صبح الأعشى ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

في الأعمال الشَّامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرُّق العساكر الإسلامية، والخُلْف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، ولله المشيئة التي لا تُدافع والأقضيةُ التي لا تُمانع.

وقال: وفي صفر ورد الخبر والمُبَشِّر بنزول نور الدين في حلب للتوجُّه إلى دمشق، واتَّفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شنِّ الغارات على أعمال حَوْران والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنَّهب والسبي والأسر، وقَصْد داريا والنزول عليها في انسلاخ صفر، وإحراق منازلها وجامعها، والتَّناهي في إخرابها، وظهر إليهم العسكريَّة والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفِّهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكُفَّار ـ خذلهم الله تعالى ـ كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول، سالماً في نفسه وجملته ولُقي بأحسن زِيٍّ وترتيب وتجمُّلٍ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدُّعاء له بدوام أيامه، وشرعَ في تدبير أمر الأجناد، والتأهُّب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غَزَّة وعَسْقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرجَ إليهم من كان بهما من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسراً، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين. وقيل: إن مقدَّم الغُزاة في البحر ظفر بعدَّة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العددَ الكثير، وحاز من أموالهم وعُدَدهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً.

قلتُ: وأرسل إلى مُؤَيَّد الدولة أُسامة بن منقذ من مصر وزيرُها الملك الصَّالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك قصيدةً يشرحُ فيها حال هذه الغَزَاة، ويحرِّض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما مَنَّ الله تعالى عليه من العافية والسَّلامة من تلك المرْضَة المقدَّم ذِكْرُها. وكان كثيراً ما يكاتبُه طالباً منه إعلام نور الدين بالغَزَاة لحثِّه عليها، وأوَّل هذه القصيدة: [الطويل]

ألا هكذا في اللَّهِ تمضي العزائمُ ... وتُنْضى لدى الحَرْبِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ
وتُستنزل الأَعداءُ من طَوْدِ عزِّهم ... وليسَ سوى سُمْرِ الرِّماحِ سلالمُ
وتُغْزَى جيوشُ الكُفْرِ في عُقرِ دارِها ... ويوطا حِماها والأنوف رَوَاغِمُ

وَيُوفي الكِرامُ النَّاذرون بِنَذْرِهم وإن بُذِلَتْ فيها النُّفُوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنا مَسِيرَ الجيشِ في صَفَرٍ فما مضى نِصْفُه حتَّى انْثَنَى وهو غانمُ
بعثناه من مِصْرٍ إلى الشَّام قاطعاً مفاوِزَ وَخْذُ العِيس فيهن دائِمُ
فما هالَه بُعْدُ الدِّيارِ ولا ثنى عزيمتَه جُهْدُ الظَّما والسَّمائمُ
يهجِّر والعُصْفُورُ في قَعْرِ وكره ويَسْرِي إلى الأعداءِ واللَّيْلُ نائِمُ
تُبَاري خيولاً ما تزالُ كأنَّها إذا ما هي انقضَّتْ نُسورٌ قَشَاعِمُ[١]
يسيرُ بها ضِرْغامُ في كلِّ مأزِقٍ وما يَصْحَبُ الضِّرْغامَ إلا الضَّرَاغِمُ[٢]
وَرُفْقَتُهُ عينُ الزَّمانِ وحاتِمٌ ويحيى وإنْ لاقى المنيَّةَ حاتِمُ[٣]
وواجهَهُمْ جمعُ الفرنجِ بحملةٍ تَهُونُ على الشُّجعان فيها الهزائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرْقَ الأسِنَّةِ وانطوَوْا عليهم فلم يرجعْ من الكُفْر ناجِمُ
وما زالتِ الحربُ العَوَانُ أشدُّها إذا ما تلاقى العَسكَرُ المتضاجِمُ[٤]
يُشَبِّهُهُمْ من لاحَ جَمْعُهُمُ له بُلجَّةِ بحْرٍ مَوْجُها متلاطِمُ
وعادوا إلى سَلِّ السُّيوفِ فَقُطِّعَتْ رؤوسٌ وحُزَّتْ للفرنجِ غَلَاصِمُ[٥]
فلم يَنْجُ منهم يوم ذاكَ مُخَبِّرٌ ولا قيل هذا وحدَه اليومَ سالمُ
نُقَتِّلُهُمْ بالرَّأي طوراً وتَارةً تدوسُهُمُ منا المَذَاكي الصَّلادِمُ[٦]
فقولوا لنورِ الدين لا فُلَّ حَدُّه ولا حَكَمَتْ فيه اللَّيالي الغواشمُ
تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تَهِن وتُظهرْ فتوراً إن مَضَتْ منك حازِمُ
فما مِثْلُها تُبدي احتفالاً به ولا تُعَضُّ عليها للملوكِ الأباهمُ
فعندَكَ من ألطاف رَبِّكَ ما به عَلِمْنا يقيناً أنَّه بك راحِمُ
أعادكَ حيًّا بعد أن زَعَمَ الورى بأنك قد لاقيت ما الله حاتمُ

---

(١) قشاعم: جمع قشعم، والقشعم من كل شيء: الضخم المسن، ويقال للحرب، والمنية، والداهية: أم قشعم.

(٢) ضرغام: هو ضرغام بن عامر بن سوار، تولى وزارة مصر سنة ٥٥٨هـ، وقتل سنة ٥٥٩هـ. انظر: «الكامل» ٩/ ٤٦٦. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٤٠.

(٣) عين الزمان، وحاتم، ويحيى، أسماء قواد في الجيش الفاطمي.

(٤) الحرب العوان: التي يتكرر فيها القتال مرة بعد مرة. والمتضاجم: المختلف.

(٥) غلاصم: جمع غلصمة: وهي اللحمة التي بين الرأس والعنق.

(٦) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد انتهاء أسنانها، سنة أو سنتان، وذلك استتمام القوة. والصلادم: جمع الصِّلْدم والصُّلادم، وهو الشديد الحافر، وقيل: القوي الشديد من الحافر.

بِوقْتٍ أصابَ الأرضَ ما قد أصابَها وحلَّتْ بها تلك الدَّواهي العظائمُ
وخَيَّمَ جيشُ الكفر في أرضِ شَيْزَرٍ فَسِيْقَتْ سبايا واستُحِلَّت محارِمُ
وقد كانَ تاريخ الشآم وهُلكُه ومن يحتويه أنَّه لك عادِمُ
فَقُمْ واشكرِ الله الكريمَ بنهضةٍ إليهمْ فَشُكْرُ اللَّهِ للخَلْقِ لازِمُ
فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نَرُوعُهُمْ ونَخْلِفُ جَهداً أنَّنا لا نسالمُ
وغاراتُنا ليستْ تَفَتَّرُ عنهمُ وليس يُنَجِّي القومَ منَّا الهزائمُ
فأسطولُنا أضعافُ ما كان سائراً إليهم فلا حِصْنٌ لهمْ منه عاصمُ
ونرجو بأنْ نجتاحَ باقِيَهُمْ بهِ وتُحوى الأسارى منهمُ والغَنَائمُ

وكتب إليه أيضاً: [مجزوء الكامل]

يا سَيِّداً يسمو بهمَّـ (م) ـته إلى الرُّتَبِ العَلِيَّهْ
فينالُ منها حين يُحْـ ـرَمُ غَيْرُه أوفَى مَزِيَّهْ
أنتَ الصَّديقُ وإن بَعُدْ تَ وصاحبُ الشِّيَمِ الرَّضِيَّهْ
يهنيك أنَّ جيوشَنا فَعَلَتْ فِعالَ الجاهِلِيَّهْ
سارَتْ إلى الأعداءِ من أبطالها مئتا سَرِيَّهْ
فتُغيرُ هذي بُكْرَةً وتُعاوِدُ الأُخرى عَشِيَّهْ
فالويلُ منها للفرنـ ـج فقد لقوا جَهْدَ البَلِيَّهْ
جاءَتْ رؤوسهمُ تلو حُ على رؤوس السَّمْهَرِيَّهْ[(١)]
وقلائعٌ قد قُسِّمَتْ بين الجنودِ على السَّوِيَّهْ[(٢)]
وخلائقٌ كَثُرَتْ من الـ أسرى تقادُ إلى المَنِيَّهْ
فانهضْ فقد أنبيتُ مجـ ـدَ الدِّين بالحال الجَلِيَّهْ
والمم بنورِ الدِّين وأعْـ ـلِمْهُ بهاتيك القَضِيَّهْ
فهو الذي ما زال يخـ ـلص منه أفعالاً وَنِيَّهْ
ويبيدُ جَمْعَ الكُفرِ بالـ بيضِ الرِّقاقِ المَشْرِفيَّهْ[(٣)]
فعساه ينهضُ نهضةً يفني بها تلك البَقِيَّهْ
إمَّا لنُصْرَةِ دِيْنِهِ أو مُلْكه أو للحَمِيَّهْ

---

(١) السمهرية: جمع السمهري، وهو الرمح القوي العود.
(٢) قلائع: هي الخيل المجنوبة.
(٣) المشرفية: هي سيوف منسوبة إلى المشارف، من أرض اليمن. مشهورة بصناعة السيوف.

وكتب إليه أيضاً: [الخفيف]

أيها المفتدي لأنتَ على البُعْـ ـدِ صديقٌ لنا ونِعْمَ الصَّديقُ
ليس فيما نأتيه من بِرٍّ أفعا لك للطالب الحقُوقِ عُقوقُ
فلهذا نرى مواصلة الكُتـ ـبِ تباعاً إليك مما يَليقُ
ونُناجيك بالمهمَّاتِ إذْ أنْـ ـتَ بإلقائها إليك خَلِيْقُ
وأهمُّ المُهِمّ أمْرُ جهادِ الْـ ـكُفْرِ فاسمعْ فعندنا التَّحْقِيقُ
واصَلَتْهُمْ مِنَّا السَّرايا فأشجا هُمْ بُكُورٌ منَّا لهم وطُروقُ
وأباحَتْ دِيارَهُمْ فأبادَ الـ ـقَومَ قَتْلٌ ملازِمٌ وحريقُ
وانتظرنا بِزَحْفِنا بُرءَ نور الدِّ (م) ين علماً مِنَّا بأنْ سيُفِيقُ
وهُو الآنَ في أمانٍ من اللَّـ ـه وما يعتريه أمرٌ يَعُوقُ
ما لهذا المُهِمِّ مثلُك مجدَ الدِّ (م) ين فانهضْ به فأنتَ حقيقُ
قُلْ له لا عَداه رأيٌ ولا زا لَ لديه لكلِّ خَيْرٍ طريقُ
أنتَ في حَسْمِ داء طاغية الكُفْـ (م) ـار ذاك المرجوُّ والمَرْمُوقُ
فاغْتَنِمْ بالجهادِ أجرَكَ كي يلـ ـقى رفيقاً له ونِعْمَ الرَّفِيقُ

فأجابه أُسامة بقصيدةٍ منها: [الخفيف]

يا أميرَ الجُيوشِ ما زال للإسـ ـلامِ والدين منك رُكْنٌ وثيقُ
أَسْمَعَتْ دعوةُ الجهادِ فلبَّا ها مليكٌ بالمَكْرُماتِ خَلِيقُ
مَلِكٌ عادِلٌ أنارَ به الدِّيـ ـنُ فَعَمَّ الإسلامَ منه الشُّروقُ
ما لهُ عن جهاده الكُفْرَ والعَدْ لِ وفعْلِ الخيرات شُغْلٌ يَعُوقُ
هو مِثْلُ الحُسَامِ صَدْرٌ صقيلٌ لَيِّنٌ مَسُّه وحَدٌّ ذليقُ
ذو أناةٍ يخالها الغِرُّ إهما لاً وفيها حَتْفُ الأعادي المُحيقُ
فاسْلَمَا للإسلامِ كَهْفَيْنِ ما طرَّ (م) زَ ثوبَ الظلام بَرْقٌ خَفوقُ

وكتب الصَّالح إليه أيضاً: [مجزوء الكامل]

قُلْ لابنِ مُنْقذِ الذي قد حاز في الفَضْلِ الكَمالا
فلِذَاك قد أضحى الأنا مُ على مكارِمِه عِيالا
كم قَد بعثنا نحوكَ الْـ أشْعارَ مُسْرِعَةً عِجالا
وصَدَدْتَ عنها حين را مَتْ من محاسِنكَ الوِصَالا
هلَّا بَذَلْتَ لنا مقا لاً حينَ لم تَبْذُلْ فِعَالا

مـع أنَّـنـا نُـولـيـكَ صَـبْــ ـراً فـي الـمـودَّةِ واحـتـمـالا
ونــبــثُّـكَ الأخــبــارَ إن أضـحـت قِـصـاراً أو طِـوَالا
سـارَتْ سَـرَايـانـا لِـقَـصْــ ـدِ الـشَّـام تَـغْـتَـسِـفُ الـرِّمـالا
تُـزْجـي إلـى الأعـداءِ جُـرْ دَ الـخـيـلِ أتـبـاعـاً تـوالـى
تـمـضـي خِـفَـافـاً لـلـمُـغـا رِ بِـهـا وتَـأتـيـنـا ثِـقـالا
حـتـى لـقـد رامَ الأعـا دي مـن ديـارِهُـمُ ارتـحـالا
وعـلـى الـوُعَـيْـرة مَـعْـشَـرٌ لـم يـعـهـدُوا فـيـهـا الـقِـتـالا[1]
لـمـا نـأَتْ عـمَّـن يـحـفُّ (م) بـهـا يـمـيـنـاً أو شِـمـالا
نَـهَـضَـتْ إلـيـهـا خَـيْـلُـنـا مـن مِـضَـرَ تـحـتـمـلُ الـرِّجـالا
والـبـيـضَ لامـعـةً وبـيـ ـضَ الـهـنـدِ والأَسَـلَ الـنِّـهـالا
فَـغَـدَتْ كـأنْ لـم يـعـهـدُوا فـي أرضـهـا حَـيًّـا حِـلالا
هـذا وفـي تَـلِّ الـعـجـا ل مَـلأنَ بـالـقَـتـلـى الـتِّـلالا
إذ مَـرَّ مُـرِّي لـيـس يـلْـ ـوي نـحـو رُفْـقَـتِـهِ اشْـتِـغـالا
واشْـتَـاقَ عَـسْـكَـرُنـا لـه أهـلاً يـحـبُّـهُـمُ ومـالا
وسَـرِيَّـةُ ابـنِ فُـريـجِ الـطَّـ (م) ـائـيِّ طـالَ بـهـا وَصَـالا
سـارَتْ إلـى أرض الـخـلـيـ ـلِ فـلـم تَـدَعْ فـيـهـا خِـلالا
فـلـو أنَّ نـورَ الـدِّيـن يـجـ ـعَـلُ فـعْـلَـنـا فـيـهـم مِـثَـالا
وَيُـسَـيِّـرُ الأجـنـادَ جَـهْـ ـراً كـي يُـنـازِلَـهـم نِـزَالا
ووفـى لـنـا وهـل دَوْ لـتـه بـمـا قـد كـان قـالا
لـرأيـتَ لـلإفـرنـجِ طُـرًّا (م) فـي مـعـاقِـلـهـا اعـتـقـالا
وتـجـهَّـزوا لـلـسَّـيْـرِ نَـحْــ ـوَ الـغَـرْبِ أو قَـصَـدُوا الـشَّـمـالا
وإذا أبـى إلَّا اطِّـرا حـاً لـلـنَّـصِـيْـحَـةِ واعْـتِـزَالا
عُـذْنـا بـتـسـلـيـمِ الأمـو رِ لـحُـكْـمِ خـالـقِـنـا تـعـالـى

فأجابه ابنُ منقذ بقصيدةٍ منها: [مجزوء الكامل]

يـا أَشْـرَفَ الـوزراءِ أخـ ـلاقـاً وأَكْـرَمَـهُـمْ فَـعـالا
نَـبَّـهْـتَ عـبـداً طـالـمـا نَـبَّـهْـتَـهُ قـدْراً وحـالا

(١) الوعيرة: حصن قرب وادي موسى، قبلي بيت المقدس (معجم البلدان ٥/ ٣٤٦).

وَعَـتَـبْـتَـهُ فَـأَنَـلْـتَـهُ ... فـخـراً ومـجـداً لـن يُـنـالا
لـكـن ذاك الـعَـتْـبَ يُـشـ ... ـعِـلُ فـي جـوانـحـه اشـتـعـالا
أسـفـاً لـجَـدٌ مـالَ عـنـ ... ـه إلـى مـسـاءتـه ومَـالا
أمـا الـسَّـرَايـا حـيـن تـر ... جـعُ بـعـد خِـفَّـتِـهـا ثِـقـالا
فـكـذاكَ عـاد وفـودُ بـا ... بـك مـثـقـلـيـن ثـنـاً ومـالا
وَمَـسِـيـرُهـا فـي كـلِّ أرْ ... ضٍ تـبـتـغـي فـيـهـا الـمـجـالا
فـكـذاك فَـضْـلُـك مـثـلُ عَـذْ ... لِـكَ فـي الـدُّنـا سـارا وَجـالا
فـاسـلَـمْ لـنـا حـتـى نـرى ... لـك فـي بـنـي الـدُّنـيـا مِـثَـالا
واشْـدُدْ يَـدَيْـك بـودٌ نـو ... رِ الـديـن والـقَ بـه الـرِّجـالا
فـهـو الـمـحـامـي عـن بـلا ... دِ الـشَّـامِ جـمـعـاً أنْ تُـذَالا[1]
ومُـبِـيـدُ أمـلاكِ الـفِـرَنْـ ... ـجِ وجَـمْـعَـهُـمْ حـالاً فـحـالا
مَـلِـكٌ يـتـيـه الـدَّهـرُ والـدُّ (م) نـيـا بِـدَوْلَـتِـهِ اخْـتِـيـالا
جَـمَـعَ الـخِـلال الـصَّـالـحـا ... تِ فـلـم يَـدَعْ مـنـهـا خِـلالا
فـإذا بـدا لـلـنَّـاظِـريـ ... ـنَ رَأتْ عـيـونُـهُـمُ الـكَـمَـالا
فـبـقـيـتُـمـا لـلـمُـسْـلـمـيـ ... ـنَ حِـمًـى ولـلـدُّنـيـا جَـمـالا

وكتب إليه الصَّالح في القصيدة المقدَّم ذِكْرُها في الزلازل: [الخفيف]

وَلَعَمْري إن الـمُـنَـاصِـحَ فـي الـديـ ... ـنِ عـلـى الله أجـرُه مَـحْـسُـوبُ
وجـهـادُ الـعـدوِّ بـالـفِـعْـلِ والـقَـوْ ... لِ عـلـى كـلِّ مُـسْـلِـم مَـكْـتُـوبُ
ولـك الـرُّتـبـةُ الـعَـلِـيَّـةُ فـي الأمـ ... ـرَيْـن مُـذْ كـنـتَ إذ تَـشُـبُّ الـحـروبُ
أنتَ فيها الشُّجاع مَا لَك في الطَّعْـ ... ـنِ ولا فـي الـضِّـرابِ يـومـاً ضـريـبُ
وإذا مـا حَـرَّضْـتَ فـالـشَّـاعـر الـمُـفْـ ... ـلِـقُ فـيـمـا تـقـولـه والـخـطـيـبُ
وإذا مـا أشَـرْتَ فـالـحَـزْمُ لا يُـنْـ ... ـكِـرُ أنَّ الـتَّـدبـيـرَ مـنـك مُـصِـيْـبُ
لـك رأيٌ يـقـظـانُ إن ضَـعُـفَ الـرَّأ ... يُ عـلـى حـامـلـي الـصَّـليـبِ صَـليـبُ
فـانـهـض الآن مُـسْـرِعـاً فـبـأمـثـا ... لِـك مـا زَال يُـدْرَكُ الـمَـطْـلُـوبُ
ألْـقِ مـنَّـا رسـالـةً عـنـد نـور الـدِّ (م) يـن مـا فـي إلـقـائـهـا مـا يُـريـبُ
قُـلْ لـه دامَ مُـلْـكُـه وعـلـيـه ... مِـنْ لـبـاسِ الإقـبـال بُـرْدٌ قَـشِـيـبُ

---

(١) أن تذالا: أي أن تهان.

أيـهـا الـعـادِلُ الـذي هـو لـلـدّيـ ـنِ شبابٌ ولـلـحُروبِ شَبِيبُ[1]
والـذي لـم يـزل قـديـمـاً عـن الإسـ ـلام بـالـعَزْمِ منه تُجْلَى الكُروبُ
وغـداً مـنـه لـلـفـرنـج إذا لا قُـوه يـومٌ مـن الـزَّمـان عـصـيـبُ
إنْ يَـرُمْ نَـزْفَ حِـقْـدِهـم فِـلأَشْـطا نِ قناهُ فـي كـلِّ قَـلْـبٍ قَـلِـيـبُ[2]
غَيْرُنـا مَنْ يقـولُ ما ليس يُمضيـ ـه بـفـعـلٍ وغَـيْـرُكَ الـمَـكْـذُوبُ
قـد كَـتَـبْـنَـا إلـيـكَ مـا وَضَـحَ الآ نَ بـمـاذا عـنِ الـكـتـابِ تـجـيـبُ
قَـصْـدُنـا أن يـكـونَ مِـنَّـا ومـنـكـم أجـلٌ فـي مـسـيـرنـا مَـضْـرُوبُ
فَـلَـديـنـا مـن الـعـسـاكـرِ مـا ضـا قَ بـأدنـاهُـمُ الـفَـضَـاءُ الـرَّحِـيْـبُ
وعـلـيـنـا أنْ يَـسْـتَـهِـلَّ عـلـى الـشَّـا م مـكـانَ الـغـيـوثِ مـالٌ صَـبِـيْـبُ
أوْ تَـرَاهـا مِـثْـلَ الـعَـروسِ ثَـرَاهـا كُـلُّـه مـن دَمِ الـعِـدَى مَـخْـضُـوبُ
لِـطَـنِـيْـنِ الـسُّـيـوفِ فـي فَـلَـقِ الـصُّـبْـ ـحِ عـلـى هـامِ أهـلِـهـا تَـطْـرِيْـبُ
ولـجـمـعِ الـحـشـودِ مـن كـلِّ حِـصْـنٍ سَـلَـبٌ مُـهْـمَـلٌ لـهـم ونُـهـوبُ
وبـحـولِ الإلـه ذاكَ ومَـنْ غـا لَـبَ ربـي فـإنَّـه مَـغْـلُـوبُ

وكتب إليه أيضاً: [الخفيف]

أيـهـا الـسَّـائـرُ الـمـجـدُّ إلـى الـشَّـا م تَـبَـارَى رِكـابُـه والـخـيـولُ
خُـذْ عـلـى بـلـدةٍ بـهـا دارُ مـجـد الـدِّ (م) يـن لا رِيـع رَبْـعُـهـا الـمـأهـولُ
وتـعـرَّفْ أخـبـارَه وَاقْـرِه مـنَّـ (م) ـا سـلامـاً فـيـه الـعِـتـابُ يـجـولُ
قُـلْ لـه أنـتَ نِـعْـمَ ذُخْـرُ الـصَّـديـقِ الـ ـيـومَ لـكـنَّـك الـصَّـديـقُ الـمَـلُـولُ
مـا ظَـنَـنَّـا بـأنَّ حـالـكَ فـي الـقُـرْ بِ ولا الـبُـعْـدِ بـالـمـلال يَـحُـولُ
لا كِـتـابٌ ولا جـوابٌ ولا قَـوْ لٌ بـه لـلـيـقـيـنِ مـنـا حُـصُـولُ
غَـيـرَ أَنَّـا نُـواصِـلُ الـكُـتْـبَ إذ قـصَّـ (م) ـرَ مـنـك الـبَـرُّ الـكـريـمُ الـوَصُـولُ
ذاكـريـنَ الـفَـتْـحَ الـذي فـتـح الـلَّـ ـهُ عـلـيـنـا فـالـفَـضْـلُ مـنـه جـمـيـلُ
جـاءنـا بـعـد مـا ذكـرنـاه فـي كُـتْـ ـبٍ أتـاكـم بـهـنَّ مـنـا رَسُـولُ
إن بـعـضَ الأسـطُـولِ نـالَ مـن الإفـ ـرنـجِ مـا لا يَـنـالُـه الـتَّـأمِـيـلُ

---

(١) شبيب: هو شبيب بن يزيد الشيباني، أحد قادة الخوارج، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان مشهوراً بقوته وشجاعته. مات غرقاً سنة ٧٧هـ. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٤/ ١٥٠ ـ ١٧٨. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٨، والبيان والتبيين ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل، الشديد الفتل يستقى به، وتشد به الخيل.

سارَ في قِلَّةٍ وما زالَ بالـلَّـ ـه وصِدْقِ النِّيَّاتِ يَنْمي القليلُ
وبقايا الأسطول ليسَ له بَعْـ ـدُ إلى جانبِ الشَّآم وُصولُ
فحوى من عكَّا وأَنْطَرْسوسٍ عِدَّةً لم يُحِطْ بها التَّحْصيلُ
جَمْعَ دِيَوِيَّةٍ[1] بهِمْ كانتِ الإفـ ـرنجُ تَسْطُو على الورى وتَصُولُ
قِيْدَ في وَسْطِهِم مُقَدَّمُهُمْ مُهْـ ـدَى إلينا وجِيْدُه مَغْلُولُ
بعدَ مَثْوَى جماعةٍ هلكوا بالسَّـ (م) ـيفِ منها الغريقُ والمَقْلُولُ
هذه نعمةُ الإله وتعديـ ـدُ أيادي الإله شيءٌ يَطُولُ
أَبْلِغَنْ قولَنا إلى الملك العا دِلِ فهو المرجُوُّ والمَأْمولُ
قُلْ له تُماطِلُ الدِّيْنَ في الكُفَّـ (م) ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المَمْطُولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحْتَسِبْ ذاك في اللَّـ ـهِ فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليلُ
وإذا ما أبطا مَسِيْرُكَ فاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ

فأجابه أسامة بقصيدة منها: [الخفيف]

يا أميرَ الجُيوشِ يا أَعْدَلَ الحُكَّـ (م) ـامِ في فِعْلِهِ وفيما يقولُ
أنتَ حلَّيْتَ بالمكارمِ أهلَ الـ ـعَصْرِ حتَّى تَعَرَّفَ المَجْهُولُ
وَقَسَمْتَ الفرنجَ بالغَزْوِ شَطْرَيْـ ـنِ فهذا عانٍ وهذا قَتِيْلُ
بالغَ العَبْدُ في النِّيابةِ والتَّحْـ ـريضِ وهو المُفَوَّه المَقْبُولُ
فرأى من عَزِيْمَةِ الغَزْوِ ما كا دَتْ له الأَرْضُ والجبالُ تميلُ
وإذا عاقَتِ المقاديرُ فاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ

وكتب الصَّالح إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها: [الطويل]

هي البَدْرُ لكنَّ الثريا لها قُرْطُ ومِنْ أَنْجُم الجَوْزَاء في نَحْرِها سِمْطُ
ذَخَرْنا سُطاها للفرنج لأنَّها بهم دونَ أهلِ الأرضِ أَجْدَرُ أن تَسْطُو
وقد كاتبوا في الصُّلْح لكنْ جَوابُهُمْ بحضرتنا ما تُنْبِتُ الخَطُّ لا الخَطُّ[2]
سُطُورُ خُيولٍ لا تُغِبُّ ديارَهُمْ لها بالمواضِي والقَنَا الشَّكْلُ والنَّقْطُ
إذا أَرْسَلَتْ فَرْعاً من النَّقْعِ فاحماً أثيثاً فأَسْنَانُ الرِّماحِ لها مُشْطُ[3]

---

(١) ديوية: هم الفرنج الداوية، طائفة من الرهبان المحاربين، قدموا مع الحملات الصليبية. تقدم التعريف بهم.
(٢) الخط: أرض في البحرين ينسب إليها الرماح الخطية.
(٣) الفرع: الشعر التام، والشعر الأثيث: الغزير الطويل.

رَدَدْنا به ابن الفُنْشِ عنَّا وإنما ... يُثَبِّتُه في سَرْجه الشَّدُّ والرَّبْطُ
فَقُولوا لنور الدين ليس لجائفِ الـ ... ـجِرَاحاتِ إلا الكيُّ في الطِّبِّ والبَطُّ[١]
وحَسْمُ أُصولِ الدَّاءِ أَوْلَى بعاقلٍ ... لبيبٍ إذا اسْتَولَى على المُدْنَفِ الخِلْطُ[٢]
فَدَعْ عنك ميلاً للفرنج وهُدْنَةً ... بها أبداً يُخطي سِوَاهُمْ ولم يُخْطُوا
تأمَّلْ فكم شَرْطٍ شَرَطْتَ عليهمُ ... قديماً وكم غَدْرٍ بهِ نُقِضَ الشَّرْطُ
وشَمِّرْ فإنَّا قد أَعنَّا بكلِّ ما ... سألتَ وجَهَّزْنا الجيوشَ ولن يُبْطُوا

قال العماد في كتاب «الخريدة»: الصَّالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك سلطان مصر في زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النَّظْم والنثر، وقرَّب الفضلاء، واتخذهم جُلَساء، ورحل إليه ذوو الرَّجاء، وأفاضَ على الدَّاني والقاصي العطاء. وله قصائدُ كثيرةٌ مستحسنة نفَّذها إلى الشَّام، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام، وما يُصَدِّق أحدٌ أن ذلك شعره؛ لجودته، وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال: إن المهذَّب ابن الزُّبير[٣]، كان ينظم له، وأن الجليس بن الجبَّاب[٤] كان يُعينه، وله ديوان كبير وإحسان كثير.

ولما جلس في دَسْت الوزارة نظم هذه الأبيات بديهةً: [مجزوء الكامل]

انْظُرْ إلى ذي الدَّار كم ... قد حَلَّ ساحتَها وَزِيرُ
ولكمْ تبخترَ آمناً ... وَسْطَ الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما ... يبقى الصَّغيرُ ولا الكبيرُ
ولمِثْلِ ما صاروا إليـ ... ـهِ من الفَنَاءِ غداً نَصِيرُ

---

(١) الجائفة: الطعنة التي تنفذ إلى الجوف. وبطَّ الجرح: شقه.

(٢) المدنف: المريض الذي اشتد مرضه وأشفى على الموت. وأدنف المرض فلاناً: اشتدّ عليه. والخلط: مخالط العقل.

(٣) المهذب ابن الزبير: هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني المصري، المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ، من تصانيفه: «تفسير القرآن» في خمسين جزءاً. «ديوان شعره»، «كتاب الأنساب». (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩).

(٤) الجليس بن الجباب: هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلبي السعدي التميمي، توفي سنة ٥٦١هـ. وسترد ترجمته في الجزء الثاني. وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

فصل

[حدوث زلزلة في حلب ودمشق]

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزلةٍ رَوَّعَتْ أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من مساكنها، ثم سكنت بقدرة محرِّكها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روَّعت وأقلقت، ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر بَرَزَ نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعَه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قَرُبَ منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيَّالة الفرنج ورجَّالتها، وقد كمنوا لهم فغنموهم، وقُتل أكثرهم وأُسر الباقون، وفيهم ولد المقدَّم المتولي حصن حارِم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارسٍ واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جُمادى الآخرة من السَّنة وافى في البقاع مطر هَطَّال بحيث حدَث منه سيلٌ أحمر كما جَرَتْ به العادة في تنبوك الشتاء[1]، ووصل إلى برَدَى، ووصل إلى دمشق، وكَثُرَ التعجب من آثار قُدْرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أُخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغَدَاة. وورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمَّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان، واتَّفق أن عسكر الإسلام حدَث فيه فشلٌ لبعض المقدَّمين، فاندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانَه في عِدَّة يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصِّه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السِّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولُّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله ـ وله الحمد ـ نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدَّة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيَّمه سالماً في جماعته، ولامَ من كان السبب في

---

(١) تنبوك الشتاء: من نبك وانتبك: أي ارتفع، ومكان نابك: مرتفع. ولعل معنى تنبوك الشتاء: أي ارتفع واشتد.

اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرَّق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدَتْ بين الفريقين مراسلات، ولم يستقرَّ بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً.

قلت: وذكر أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري[١]؛ المعيد ـ كان ـ بالمدرسة النِّظامية، في سيرة مختصرة جَمَعها لنور الدين، وقد تقدَّم شيءٌ منها، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة[٢]، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفةٍ يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجَّالة المسلمين مع رجَّالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولِّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه، مناجياً رَبَّه بسرِّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضَّعيف، ملَّكْتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُمْ بما أمرتني به، ونهيتُهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزمَ المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سَلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيِّك. فاستجابَ الله تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفَّين يطلُبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد[٣]؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج وجال بينهما ساعة، وحمل على واحدٍ منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعَهُ، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

---

(١) هو بنجير بن علي بن بنجير الأشتري، أبو الفتح. توفي سنة ٥٧٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٥).

(٢) سنة ست وخمسين وخمسمائة: كذا والصحيح كما ذكر المؤلف سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

(٣) سيرد ذكره في حوادث سنة ٥٦٥هـ.

قال: وحدَّثنا الشيخ داود المَقْدِسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه السَّلام، قال: كان أعطاني مَلِكُ القدس بغلة كنتُ راكباً عليها ـ يعني في ذلك اليوم ـ واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكُفَّار وقربوا منا شمَّت بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلبُ خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشَّرْذِمة القليلة، والطَّائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه قال: فترجَّل كلُّ من كان مع الملك العادل وتشفَّعوا إليه، وباسوا الأرضَ بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الإقليم، فإن جرى ـ والعياذ بالله ـ وَهْنٌ وضَعْفٌ من استيلاء الكُفَّار على المسلمين من الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلَف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرهاً، ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع. فلما عرف الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامةً عظيمة.

قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملكُ العادل الكُفَّارَ وقتل منهم مقتلةً عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين[1] صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصَل في الجريدة[2] ألف أسير مع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القُدْس، ودخل إلى قلعته؛ فلما جَنَّ عليه اللَّيل خرج من القلعة ومضى.

فصل

[مطالبة بعض سفهاء العوام بإرجاع المكوس والرسوم، ثم إبطال نور الدين لها ثانية]

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمَّع قومٌ من السُّفهاء العوام، وعزموا على التَّحريض لنور الدين على إعادة ما كان أَبْطَلَ وسامحَ به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضُّمَّان وحوالة الأجناد. وكرَّروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيامَ بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من

(١) صلاح الدين: هو محمد بن أيوب الياغبساني، مرت أخباره في هذا الجزء.
(٢) الجريدة: الحملة العسكرية، والعسكر الخيالة لا رجّالة فيهم.

المقدَّمين والأعيان والرَّعايا، فما اهتدوا إلى صواب، ولا نجح لهم قصدٌ في خطاب ولا جواب، وعسفوا النَّاس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضَّجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همَّه إلى النَّظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادةُ وإيثارُ العدل في الرَّعية الإعادة إلى ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المعادة إلى ما كانت عليه، من إماتتها وتعفية أثر ضُمَّانها، وأضاف إلى ذلك تبرُّعاً من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجُبْن واللَّبن، ورَسَمَ بكتابة منشورٍ يُقرأ على كافَّة الناس بإبطال هذه الرُّسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثَّناء عليه، والنَّشْر لمحاسنه.

[انتصار العسكر المصري على الفرنج]

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المُسْتَرْشِدي من ناحية مصر بجواب ما تحمَّله من المراسلات من الملك الصَّالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدَّمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النُّورية، وأنواع الأثواب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقةٌ من الإفرنج ـ خذلهم الله ـ قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النَّزْر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملةٍ وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس، وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الجفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلبُ.

[مهاجمة امبراطور الروم أعمال أنطاكية وما والاها]

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القُسْطنطينية في ذي الحِجَّة ببروز ملك الرُّوم منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الدِّيباج[1] وتخييمه فيها، وبَثَّ سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوماً من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتح من أعمال لاوين ـ ملك الأرمن ـ عِدَّة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدَث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقُّظ، والتأَهُب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

[محاصرة السلطان محمد بن محمود بغداد]

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد ابن السلطان

---

(١) مروج الديباج: واد بينه وبين المصيصة عشرة أميال (معجم البلدان ٥/ ١٠١).

محمود، فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرة(١)، فكاتَبَ أصحاب الأطراف فتحرَّكوا، ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه مَلِكْشاه قصد هَمَذَان، ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرَّقوا، وعاد محمد نحو هَمَذَان، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعَّثوا دار السُّلْطان.

قلتُ: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوَّل(٢) المحدِّث المنفرد بعلوِّ رواية كتاب «الجامع الصَّحيح» للبخاري، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين(٣)

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلةٌ عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها.

[مرض نور الدين في دمشق وإبلاله منه]

وكان قد عرض لنور الدين مرضٌ تزايد به بحيث أضعفَ قوَّته، ووقع الإرجاف به من حُسَّاد دولته، والمُفْسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرَّعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قُطَّان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصل إليه، لا سيما مع أخبار الرُّوم والفرنج، ولما أحسَّ من نفسه بالضَّعف تقدَّم إلى خواصِّ أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمتُ على وصيَّةٍ إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. إني مشفق على الرَّعايا وكافَّة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظَّلَمة الجائرين، فإن أخي نُصْرة الدين أعرفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قُطْب الدين مودود؛ متولِّي المَوْصِل، لما يرجعُ إليه من عقلٍ وسَدَاد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رُسَلَه إلى أخيه بإعلامه صورة الحَال ليكون لها مستعداً. ثم تفضَّل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوَّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسَّلام عليه.

---

(١) عون الدين بن هبيرة: هو يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني، الفقيه الحنبلي، المتوفى سنة ٥٦٠هـ. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزي الهروي الماليني، سماه أبوه محمداً، فغيره شيخه عبد الله الأنصاري إلى عبد الأوّل، وكناه بأبي الوقت، ولد سنة ٤٥٨هـ، وقدم بغداد سنة ٥٥٢هـ، وتوفي فيها عن خمس وتسعين سنة (سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٠٣ ـ ٣١١).

(٣) وخمسمائة.

وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رَتَّبَ في الطرقات من يحفظ السَّالكين فيها، فظفر المقيمُ في مَنْبج برجلٍ حمَّال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولّي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحمِّلها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم؛ متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حُجَّابه، إلى أخيه نُصْرة الدين أمير أميران صاحب حَرَّان بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لِتُسَلَّم إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جَعْبَر يخبر بقطع نُصْرة الدين الفرات مُجِدًّا إلى دمشق، فأنهضَ أسدَ الدين في العسكر المنصور لردِّه ومنعه من الوصول، فاتَّصَل به خبرُ عوده إلى مقرِّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسدُ الدين إلى دمشق، ووصلت رُسُلُ الملك العادل من ناحية المَوْصِل بجواب ما تحمَّلوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجِّهاً إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن المَوْصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو، وأنفذ وزيره -جمالَ الدين أبا جعفر محمد بن علي[١] لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زِيٍّ وأبهى تجمُّلٍ، وخرج إلى لقائه الخَلْقُ الكثير[٢].

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الأفعال وحميد الخلال، وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البرِّ والصِّلات، والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السَّلام، ومكَّة ذات الحرم، والبيت المعظَّم، شرَّفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمدُه وشُكْره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقَّه من الاحترام، وأَصْحَبَهُ برسم قطب الدين أخيه وخواصِّه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجَّه معه الأمير أسد الدين.

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقَّاه موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأُنزل في دار ابن الصوفي، وأُكرم غاية

---

(١) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وزير قطب الدين، صاحب الموصل، توفي في شعبان سنة ٥٥٩هـ، مقبوضاً، وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. فبقي في الحبس نحو سنة. وانظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٤٣٥.

الإكرام، وأُعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين، وسَيَّر معه الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً إلى قطب الدين بالشُّكْر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سَنِيَّة، فسار وعاد إلى حلب مُكرَّماً، فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حَوْران، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناسَ بالتجهُّز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسدَ الدين في قطعةٍ من العسكر للإغارة على بلد صيدا، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسرَ عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلتُ: وهذا هو ما تقدَّم ذكره بعد المرضة الأولى وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدةً بحلب، وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو الأصح، والله أعلم.

فــصــل

[وصول رسول امبراطور الروم إلى نور الدين]

قال أبو يعلى: كان قد وصل من ملك الرُّوم رسولٌ من معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال، وقوبل بمثل ذلك. وحكي عن ملك الفرنج ـ خذله الله ـ أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرَّرت؛ والمهادنة انعقدت، والله يردُّ بأس كل واحدٍ منهما إلى نحره، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قال: ووردت أخبار من ناحية ملك الرُّوم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجُّه إلى البلاد الشَّامية لإيناس أهلها من استيحاشهم من شَرِّ الرُّوم والإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشَيْزَر.

قال: وفي ثالث ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النِّيام وأزعجت اليقظى، وخاف كلُّ ذي مسكن مضطربٍ على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأُولى هَبَّتْ ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثِّمار، صيفيَّها وشتويَّها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدَّدَتْ المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر

المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأُجيب ملك الرُّوم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم. وقابل ملكُ الروم هذا الفضل بما يُضاهيه من الإتحاف بأثواب الدِّيباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الدِّيباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية. ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً ـ ولم يؤذ أحداً من المسلمين ـ في العشر الأوسط من جُمادى الأولى، فاطمأنَّتِ القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قُطْب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدَّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروْم والإفرنج سِماطاً عظيماً هائلاً تناهى فيه، وفَرَّق من الحُصُن العربية والخيول والبغال العددَ الكثير، ومن الخِلَع من أنواع الدِّيباج المختلف وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحُسْن والتجمُّلِ. واتفق أن جماعةً من غرباء التركمان وجدوا من النَّاس غفلة باشتغالهم بالسِّماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني سامة وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في أثرهم فريقاً وافراً من العسكر، فأدركوهم واستخلصوا منهم جميعَ ما أخذوه، وأُعيد إلى أربابه.

قال: وتقرَّرَ الرأي النُّوري على التوجه إلى مدينة حَرَّان لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نُصْرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصَّلاح، فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرَّر الحال على أمانٍ من بها، وسلِّمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقُرِّرت أحوالها، وأُحسن النظر في أحوال أهلها، وسلَّمها للأمير زين الدين عليّ[1] على سبيل الإقطاع، وفوَّضَ إليه تدبير أُمورها.

[وفاة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين]

ثم دخلت سنة خمس وخمسين[2]

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بُزَان بن مامين؛ أحد مقدَّمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفٌ بالشجاعة

---

(١) هو زين الدين علي بن بكتكين. صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/٨.

(٢) وخمسمائة.

والبسالة والسَّمَاحة، مواظبٌ على بث الصِّلات والصَّدقات في المساكين والضعفاء والفقراء، مع الزمان في كلِّ عصر ينقضي وأوان، جميل المحيًّا، حسن البِشْر في اللِّقاء. وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصَّلاة، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخلُ من باكٍ عليه، ومُؤَبِّن له، ومتأسِّف على فقده؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلتُ: وله أوقاف على أبواب البر منه المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدَّد، والأُخرى قبالة باب دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين رحمه الله تعالى. وله وقفٌ على من يقرأ السُّبع كلَّ يوم بمقصورة الخَضِر بجامع دمشق، وغير ذلك. وقد مدحه العَرْقَلَةُ[1] وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهلِّ صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القُرَشي[2]؛ قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين رقعةً يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله، وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري؛ وهو المشهور بالتقدُّم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنَّزاهة، وتجنُّب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائبَ عنه عند اشتغاله ولدُه.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصَّدقة الجارية بعده على الفقراء كل يوم جمعة وإليه ينسب الشُّبَّاك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مُدَّة، ويصلُّون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التَّميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله تعالى.

[وفاة المقتفي وولاية ابنه المستنجد]

قال ابن الأثير[3]: وفي سنة خمس وخمسين توفي أمير المؤمنين المقتفي بن المستظهر، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة

---

(١) عرقلة الشاعر، تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٨ _ ٤٣٩.

وشهرين[١]، وبويع ولده أبو المُظَفَّر يوسف، ولقِّب المستنجد بالله. فأقَرَّ ابنَ هُبيرة على وزارته[٢].

قال: وفيها حَجَّ زين الدين عليٌّ وأحسن إلى النَّاس في طريق مكَّة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخِلْعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمدَّ يده إلى كمراته وأخرج ما شَدَّ به وسطه، وقصَّر الجُبَّة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

[وفاة الفائز بن الظافر وولاية ابن عمه العاضد]

قلت: وفي هذه السنة توفي المستخلف بمصر، الملقَّب بالفائز بن الظافر ابن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف ابن الحافظ؛ وهو آخر خلفاء مصر[٣]. ووصل من الصَّالح بن زُرِّيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه: [الطويل]

هناءٌ بنعمى قَلَّ عن قَدْرِها الشُّكْرُ ... وصبراً لِرُزْءٍ لا يقومُ به الصبْرُ
مضى الفائز الطُّهر الإمام وقام بالْـ ... إمامة فينا بعدَه العاضِدُ الطُّهْرُ
إماماً هُدًى، لله في نَقْلِ ذا إلى ... كرامته وفي إقامةِ ذا سِرُّ
فعش أبداً واسلم لهم يا كفيلهم ... تدافعُ عنهم كلَّ حادثةٍ تَعْرُو

[خروج أسد الدين شيركوه إلى الحج]

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طَيّ: في هذه السنة حَجَّ أسد الدين من الشَّام، وخرج في تجمُّلٍ

---

(١) قال ابن الأثير في «الكامل»: في ثاني ربيع الأول توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله بعلة التراقي، وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد تدعى ياعي، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي، وماتا جميعاً في ربيع الأول.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٧ ـ ٤٣٩. وقال: كانت خلافته ست سنين ونحو شهرين، وكان له لما ولي خمس سنين. ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً، وقال له: من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال: ههنا جماعة وذكر أسماءهم... فأمر بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد، ذلك الوقت، مراهقاً قارب البلوغ، فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته.

عظيمٍ وشارة رائعة، واستصحب معه من الأزواد والكُسَى أشياء عظيمة ويقال: إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب. وحَجَّ علي كوجك المعروف بزين الدين من العراق، وحَجَّ ملهم أخو ضِرْغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثيرَ الخير، واستغنى بسببهم أهلُ الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً، وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوماً عظيماً.

[مقتل الصالح بن رزيك]

وقال أيضاً: فيها قُتل الصَّالح بن رزيك بمصر[1]، وكان سبب قتله أن عَمَّة العاضد عملت على قتله، ونفَّذَت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصَّالح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد. قال: وإنما كرهَتْهُ عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحِفْظِهِ للأموال، وقَتَلَ الصَّالحُ بسببها جماعةً من الأمراء ونكبهم، وتمكّن من الدولة تمكناً حسناً. ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقومٍ من السُّودان مالاً جزيلاً حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلَّم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصَّيحة، فعثر الصَّالح بأذياله، فطعنه أحدُهم بالسَّيف في ظاهر رقبته، فقطع أحد عمودي الرَّقبة، وحُمل إلى باب القصر، وأُصيب ولده رُزِّيك في كتفه. ولما حصل الصَّالح في داره أوصى ولده رُزِّيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورَخُصَ سعر الشعر، وانخفض عَلَم العِلْم، وضاق فضاء الفضل، وعَمَّ رُزْءُ ابن رُزِّيك، وملك صَرْفُ الدَّهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ، منحوسة الجَدّ، منكوسة الرَّاية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني[2]، وجعلها مغاني المعاني، وأنشر رميمها، وعطَّر نسيمها، وتسلَّم قصرها، والتزم خصرها. قال زين الدين الواعظ[3]: عمل فارسُ المسلمين؛ أخو الصَّالح دعوةً في شعبان من

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥١. وقال في «الكامل»: أرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين، ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم عليه في ذلك، إنسان يقال له: ابن الداعي، فوقفوا له في دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش.

(٢) يوسفها الثاني: يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويوسفها الأول: هو يوسف بن يعقوب عليه السلام.

(٣) زين الدين الواعظ: هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ. بمصر، ترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٥٩٩هـ.

السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلَّمها إلي: [الطويل]

أنستُ بكم دهراً فلما ظعنتُمُ اسْـ ـتَقَرَّتْ بقلبي وحشةٌ للتفرُّقِ
وأعجب شيءٍ أنَّني يوم بَيْنِكُمْ بقيتُ وقلبي بين جنبيَّ ما بقي
أرى البُعْدَ ما بيني وبين أحبَّتي كَبُعْدِ المدى ما بين غَرْبٍ ومَشْرِقِ
ألا جدِّدي يا نفسُ وجداً وحسرةً فهذا فِراقٌ بعده ليسَ نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرَّة، وقُتل في شهر رمضان.

قلت: ولعُمارة اليمني[1] ولغيره في الصالح مدائح ومراثٍ جليلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب «الوزراء المصرية»[2] وقال: لم يكن مجلس أُنسه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضاً، قد شَمَّ أطراف المعارف، وتميَّز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحبُّ الأدب وأهله، يُكرم جليسه، ويبسُط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبيَّة في مذهب الإمامة، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السُّنَّة وسمع كلامهم.

قال: ودخلتُ عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس قد كتبَ فيه بيتين من شعره عملهما في تلك السَّاعة، وهما: [الخفيف]

نحنُ في غَفْلَةٍ ونوم وللمو تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحِمامِ سنيناً ليتَ شِعْرِي متى يكونُ الحِمامُ

قال: ومن عجيب الاتِّفاق أني أنشدتُ ابنه مجد الإسلام في دار سعيد السُّعداء، ليلة السَّادس عشر من شهر رمضان، أو السَّابع عشر، قصيدة أقول فيها: [الطويل]

أبوك الذي تسطو الليالي بحدِّه وأنت يمينٌ إن سطا وشِمالُ
لَرُتْبَتُهُ العُظْمى وإن طالَ عُمْرُه إليكَ مصيرٌ واجبٌ ومآلُ
تخالسك اللَّحْظُ المصونُ ودونَها حجابٌ شريفٌ لا انقضى وحجالُ

قال: فانتقل المُلْك بعد ثلاثٍ إليه.

قال: ومما رثيته به قولي: [الطويل]

أفي أهل ذا النَّادي عليمٌ أسائِلُهْ فإني لما بي ذاهبُ اللُّبِّ ذاهِلُهْ

---

(١) عمارة اليمني: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية».

سمعتُ حديثاً أحْسُدُ الصُّمَّ عنده ... ويَذْهَلُ واعِيه ويَخْرَسُ قائِلُهْ
فقد رابني مِنْ شاهِدِ الحال أنني ... أرى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأني أرى فوقَ الوجوه كآبةً ... تدُلُّ على أنَّ الوجوه ثواكِلُهْ
دعوني فما هذا بوقتِ بكائه ... سيأتيكُمُ طَلُّ البكاءِ ووابِلُهْ
ولِمْ لا نبكِّيه ونندُبُ فَقْدَهُ ... وأولادُنا أيتامُهُ وأرامِلُهْ
فيا ليت شِعْري بعد حُسْن فعَاله ... وقد غاب عَنَّا ما بنا الدَّهْرُ فاعِلُهْ
أيُكْرَمُ مثوى ضيفكم وغريبكم ... فيسكن أم تُطْوى ببينٍ مراحِلُهْ

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه: [الخفيف]

طَمَعُ المرءِ في الحياةِ غُرورُ ... وطويلُ الآمالِ فيها قصيرُ
ولكم قَدَّرَ الفتى فأتَتْهُ ... نُوَبٌ لم يُحِطْ بها التَّقْديرُ
فَضَّ ختمَ الحياةِ عنك حِمامٌ ... لا يراعي إذناً ولا يستشيرُ
ما تخطَّى إلى جلالِكَ إلا ... قَدَرٌ أمرُه علينا قديرُ
يا أميرَ الجيوشِ هل لك عِلْمٌ ... أنَّ حَرَّ الأسى علينا أميرُ
إنَّ قبراً حَلَلْتَهُ لَغَنيٌّ ... إنَّ دهراً فارَقْتَهُ لفقيرُ
انطوى ذلك البِساطُ وعَهْدي ... وهو بالعِلْمِ والنَّدَى مَغْمُورُ
لا تظنّ الأنام أنك مَيْتٌ ... لم يَمُتْ مَنْ ثناؤه مَنْشُورُ
إنْ مضى كافلٌ فهذا كفيلٌ ... أو وزيرٌ يغِبْ فهذا وزيرُ
دولةٌ صالحيَّةٌ خلفتْها ... دولةٌ عادليَّةٌ لا تجورُ
أَعْقَبَ الدَّهْرُ بؤسَه بنعيمٍ ... رُبَّ حُزْنٍ في الطَّيِّ منه سرورُ
ما شَكَوْنا كَسْرَ النَّوائب حتى ... قيل في الحالِ كَسْرُكُمْ مجبورُ
نَصَرَ النَّاصر العُلا بالعوالي ... وَلَنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصِيرُ

وقال أيضاً يرثيه: ويذكر الظَّفَر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقَرافة، قصيدة طويلة، منها: [الكامل]

قد كنت أشرَقُ من ثِمَادِ مدامعي ... أسفاً فكيفَ وقد طَمَى التَّيَّارُ
عَمَّ الورى يوم الخميس وخَصَّني ... خَطْبٌ بأنْفِ الدَّهرِ منه صَغَارُ
ما أوحشَ الدُّنيا غديَّةَ فارَقَتْ ... قُطْباً رحى الدُّنيا عليه تُدَارُ
خَرِبَتْ ربوعُ المكرمات لواحدٍ ... عَمَرَتْ به الأجداثُ وهي قِفارُ
نَعْشُ الجدودِ العاثراتِ مُشَيَّعٌ ... عَشِيَتْ برؤيةِ نَعْشِهِ الأبصارُ

نـعشٌ تَـوَدُّ بـنـاتُ نَـعْـشٍ لـو غَـدَتْ ونـظـامُـهـا أسـفـاً عـلـيـه نِـثـارُ
شَـخَـصَ الأنـامُ إلـيـه تـحـتَ جِـنـازةٍ خُـفِـضَـتْ لـرفـعـةِ قَـدْرِهـا الأقـدارُ
سـارَ الإمـامُ أمـامَـهـا فَـعَـلِـمْـتُ أنْ قـد شَـيَّـعَـتْـهـا الـخـمـسـةُ الأبـرارُ
ومشـى الـمـلـوكُ بـهـا حُـفـاةً بـعـد مـا حَـفَّـتْ مـلائـكـةٌ بـهـا أطـهـارُ
فـكـأنَّـهـا تـابـوتُ مـوسـى أُودِعَـتْ فـي جـانـبـيـه سـكـيـنـةٌ ووَقـارُ
لـكـنَّـه مـا ضَـمَّ غـيـرَ بـقـيَّـةِ الـ إسـلامِ وهـو الـصَّـالـح الـمـخـتـارُ
أَقْـطَـنْـتَـهُ دارَ الـوِزَارةِ ريـثـمـا بُـنـيـت لـنـقـلـتـه الـكـريـمـةِ دارُ
وتـغـايـرَ الـهَـرَمـان والـحـرمـانِ فـي تـابـوتـه وعـلـى الـكـريـم يُـغـارُ
آثـرتَ مِـصْـراً مـنـه بـالـشَّـرف الـذي حَـسَـدَتْ قـرافـتَـهـا لـه الأمـصـارُ
وَجَـعَـلْـتَـهـا أمـنـاً بـه ومـثـابـةً تـرجـو مـثـابـةَ قَـصْـدِهـا الـزُّوَّارُ
قـد قـلـتُ إذ نـقـلـوه نـقـلـةَ ظـاعـنٍ نَـزَحَـتْ بـه دارٌ وشَـطَّ مـزارُ
مـا كـان إلا الـسَّـيـفَ جَـدَّد غِـمْـدَه بـسـواه وهـو الـصَّـارمُ الـبَـتَّـارُ
والـبَـدْرَ فـارق بُـرْجَـه مـتـبـدِّلاً بُـرْجـاً بـه تـتـشَـعْـشَـعُ الأنـوارُ
والـغـيـثَ رَوَّى بَـلْـدَةً ثـم انـتـحـى أُخـرى فَـنَـوْءُ سَـحـابِـه مِـدْرَارُ
يـا مُـسْـبِـلَ الأسـتـار دون جـلالـه مـاذا الـذي رُفِـعَـتْ لـه الأسـتـارُ
مـا لـي أرى الـزُّوَّارَ بـعـد مـهـابـةٍ فـوضـى ولا إذنٌ ولا اسـتـئـمـارُ
غَـضِـبَ الإلـه عـلـى رجـالٍ أقـدَمـوا جـهـلاً عـلـيـك وآخـريـنَ أشـاروا
لا تـعـجـبـاً لِـقُـدَارِ نـاقـةِ صـالـحٍ فـلـكـلِّ دَهْـرٍ نـاقـةٌ وقُـدَارُ[1]
واخجلتا للبِيضِ كيف تطاوَلَتْ سَـفَـهـاً بـأيـدي الـسُّـودِ وهـي قِـصـارُ
واحَـسْـرتـا كـيـف انـفَـرَدْتَ لأَعْـبُـدٍ وعـبـيـدُكَ الـسَّـاداتُ والأحـرارُ
رَصَدُوك في ضِيقِ المجالِ بحيثُ لا الـ خَـطِّـيُّ مـتَّـسـعٌ ولا الـخَـطَّـارُ
مـا كـانَ أقـصـر بـاعـهـم عـن مـثـلـهـا لـو كـنـتَ مـتـروكـاً ومـا تـخـتـارُ
ولـقـد ثَـبَـتَّ ثـبـاتَ مُـقْـتَـدِرٍ عـلـى خِـذْلانـهـم لـو سـاعَـدَ الـمـقـدارُ
وتـعـثَّـرَتْ أقـدامُـهُـمْ بـك هـيـبـةً لـو لـم يـكـن لـك بـالـذُّيـول عِـثَـارُ
أَحْـلَـلْـتَ دارَ كـرامـةٍ لا تـنـقـضـي أبـداً وحَـلَّ بـقـاتـلـيـك بَـوَارُ
يـا لـيـتَ عَـيْـنَـكَ شـاهَـدَتْ أحـوالَـهـم مـن بـعـدِهـا ورأَتْ إلـى مـا صـاروا

---

(١) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.

وَقَعَ القِصاصُ بهم وليسوا مَقْنعاً ... يُرْضي وأينَ من السَّماء غُبارُ
ضاقَتْ بهم سَعَة الفِجَاج وربما ... نامَ العدوُّ ولا ينامُ الثَّارُ
وتوهَّموا أن الفِرَارَ مطيَّةٌ ... تنجي وأينَ من القَضَاءِ فِرارُ
طاروا فمدَّ أبو الشجاع لصيدِهم ... شَرَكَ الرَّدَى فكأنَّهم ما طاروا
فتهنَّ بالأجرِ الجزيل وميْتَةٍ ... دَرَجَتْ عليها قَبْلَكَ الأخيارُ
مات الوصيُّ بها وحمزةُ عمُّه ... وابنُ البتولِ وجعفرُ الطَّيَّارُ
نِلْتَ السَّعادَةَ والشَّهادَةَ والعُلا ... حيًّا ومَيْتاً إن ذا لَفَخارُ
ولقد أَقَرَّ العينَ بعدَكَ أروعٌ ... لولاه لم يكُ للعُلا اسْتِقْرَارُ
النَّاصِرُ الهادي الذي حَسَناتُهُ ... عن سيِّئاتِ زمانِنا أعذَارُ
لمَّا استقامَ لحفظِ أُمَّةِ أحمدٍ ... عُمرت به الأوطانُ والأوطارُ

[هزيمة نور الدين تحت حصن الأكراد]

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1]: فيها جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها، وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه؛ لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشُجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحِّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد بن مُنْقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج؛ فلما دخله عامئذٍ كتب على حائطه: [الطويل]

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنَّةٍ ... عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْري
نَزَلْتُ بهذا المسجد العامَ قافلاً ... من الغَزْوِ موفورَ النَّصيبِ من الأَجرِ
ومنه رَحَلْتُ العِيس في عاميَ الذي ... مضى نحو بيت الله ذي الرُّكْن والحِجْرِ[2]
فأدَّيْتُ مَفْروضي وأسقطتُ ثقل ما ... تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْري

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٥٧.

(٢) رواية عجز البيت في «الكامل»:

مضى نحو بيت الله والركن والحجر

قلتُ: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوحٍ من رُخام: [مجزوء الكامل]

احذرْ من الدُّنيا ولا تغترّ بالعُمْرِ القصيرِ
وانظرْ إلى آثارِ مَن صَرَعَتْهُ منَّا بالغُرورِ
عمروا وشادوا ما تراهُ من المنازلِ والقُصُورِ
وتحوَّلوا من بعد سُكْناها إلى سُكْنى القُبُورِ

قلت: ابنُ أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقَّب عين الدَّولة، مات سنة خمسٍ وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النّفيس.

[مجيء شاور وزير مصر إلى نور الدين مستنجداً وإرسال شيركوه إلى مصر المرة الأولى ورجوعه عنها وذكر بداية أمره وأمر أخيه نجم الدين أيوب]

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1]: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلْبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رِجْله شِبْحة[2]، فنزل إنسانٌ من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلَّفي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلْمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة قَدَس على فرسخ من حمص، وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقفُ دون حلب، وكان رحمه الله تعالى

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣. ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج، وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة.

(٢) الشبحة: هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.

أشجع من ذلك وأقوى عزماً. ولما نزل على بحيرة قَدَس اجتمع إليه كلُّ من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر، وفرَّق ذلك جميعه على من سَلِمَ، وأما من قُتل فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة؛ لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر الخرج إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مائتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابِّ والخيام والسِّلاح وغير ذلك. وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادَّعى شيئاً كثيراً علم بعضُ النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه. فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرةً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل. فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، «فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»[1]. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[2].

---

(١) حديث حسن صحيح، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم». أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الجهاد باب ٧٦، وأبو داود في الجهاد باب ٧٠، والنسائي في الجهاد باب ٤٣، والترمذي في الجهاد باب ٢٤، وأحمد في المسند ١/ ١٧٣، ٥/ ١٩٨.

(٢) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

قلتُ: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبد الله بن أسعد المَوْصلي[١] نزيل حمص، من جُملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى، أوَّلها[٢]: [البسيط]

ظُبى المواضي وأطرافُ القَنَا الذُّبُلِ ... ضوامِنٌ لك ما حازوه من نَفَلِ
وكافِلٌ لك كافٍ ما تحاوِلُه ... عِزٌّ وعزمٌ وبأسٌ غير مُنْتَحَلِ
وما يَعِيْبُكَ ما حازوه[٣] من سَلَبٍ ... بالخَتْلِ قد تُؤسر[٤] الآسادُ بالحِيَلِ
وإنَّما أَخْلَدُوا جُبْناً إلى خُدَعٍ ... إذْ لم يكن لهمُ بالجيشِ من قِبَلِ
واستيقظوا وأرادَ اللّهُ غفلتَكُمْ ... ليَنْفُذَ القَدَرُ المحتومُ في الأَزَلِ
حتى أتوكم ولا الماذيُّ من أَمَمٍ ... ولا الظُّبى كَثَبٌ من مُرْهَقٍ عَجِلِ[٥]
قَناً لَقًى وقِسِيٌّ غيرُ مُوتَرَةٍ ... والخيلُ عازبة تَرْعَى مع الهَمَلِ[٦]
ما يصنَعُ اللَّيثُ لا نابٌ ولا ظُفُرٌ ... بما حوالَيْهِ من عُفْرٍ ومن وُعُلِ
هلَّا وقد رَكِبَ الأُسْدُ الصُّقُورَ وقد ... سلُّوا الظُّبى تحتَ غاباتٍ من الأَسَلِ
وإنَّما هُمُ أضاعوا حَزْمَهُمْ ثِقَةً ... بِجَمْعِهِمْ ولَكَمْ من واثقٍ خَجِلِ
بني الأَصَافِرِ ما نِلْتُم بمكْرِكُمُ ... والمَكْرُ في كلِّ إنسانٍ أَخُو الفَشَلِ[٧]
وما رَجَعْتُم بأَسْرى خابَ سَعْيُكُمُ ... غير الأراذِلِ والأتباعِ والسَّفَلِ
سَلَبْتُمُ الجُرْدَ مُعْراةً بلا لُجُمٍ ... والسُّمْرَ مَرْكُوزةً والبيضَ في الخِلَلِ
هل آخذُ الخيلِ قد أَرْدَى فوارِسَها ... مثالُ آخذِها في الشَّكْلِ والطُّوَلِ
أم سالِبُ الرُّمحِ مركوزاً كسالبه ... والحربُ دائرةٌ من كفِّ مُعْتَقِلِ
جيشٌ أصابَتْهُمُ عَيْنُ الكمالِ وما ... يَخْلُو من العين إلَّا غيرُ مُكْتَمِلِ
لهم بيوم حُنَيْنٍ أُسوةٌ وهمُ ... خَيْرُ الأنامِ وفيهم خاتَمُ الرُّسُلِ
سَيَقْتَضِيكَمْ بِضَرْبٍ عند أَهْوَنِهِ ... البيضُ كالبيضِ والأَدْرَاع كالحُلَلِ
مَلْكٌ بعيدٌ من الأَدْناسِ ذو كَلَفٍ ... بالصِّدْقِ في القول والإخلاصِ في العَمَلِ

---

(١) هو ابن الدهان الشاعر، المتوفى بحمص سنة ٥٨١هـ. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢.
(٣) في «خريدة القصر»: «ما نالوه» بدل: «ما حازوه».
(٤) في «خريدة القصر»: «توتر» بدل: «تؤسر».
(٥) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي خالص الحديد وجيده.
(٦) في «خريدة القصر»: «الحمل» بدل: «الهمل».
(٧) بنو الأصافر: هم الروم.

فالسُّمْرُ[١] ما أصبَحَتْ والشَّمْسُ ما أَفَلَتْ والسَّيفُ ما فُلَّ والأَطْوَادُ لم تَزُلِ
كَمْ قد تجلَّتْ بنورِ الدين من ظُلَمٍ للظُّلْمِ وإنجاب للإضلال من ظُلَلِ
قُلْ لِلْمُولِّين كُفُّوا الطَّرْفَ من جُبُنٍ عند اللِّقاءِ وغضُّوا الطَّرْفَ من خَجَلِ
طَلَبْتُمُ السَّهْلَ تَبْغُونَ النجاةَ ولو لُذْتُم بِمَلْكِكُمُ لُذْتُمْ إلى جَبَلِ
أَسْلَمْتُموه وَوَلَّيتُمْ فأسلمكم[٢] بِثَيْبَتةٍ لو بَغَاها الطَّوْدُ لم يَنَلِ
فقامَ فَرْداً وقد ولَّتْ جحافِلُه فكانَ من نَفْسِهِ في جَحْفَلٍ زَجِلِ
في مَشْهَدٍ لو لُيوثُ الغِيلِ تَشْهَدُهُ خَرَّتْ لأذقانِها من شِدَّةِ الوَهَلِ
وَسْطَ العِدَى وحدَه ثَبْتَ الجَنَانِ وقد طارَتْ قلوبٌ على بُعْدٍ من الوَجَلِ
يَعُودُ عنهم رُوَيْداً غيرَ مُكْتَرِثٍ بهم وقد كَرَّ فيهم غيرَ مُحْتَفِلِ
يَزْدَادُ قُدْماً إليهم من تَيَقُّنِهِ أَنَّ التَّأَخُّرَ لا يَحْمِي من الأَجَلِ
ما كان أقربهم من أَسْرِ أَبْعَدِكُمْ لو أنَّهم لم يكونوا منه في شُغُلِ
ثباتُهُ في صُدُورِ الخيلِ أَنْقَذَكُمْ لا تَحْسِبوا وَثَبَاتِ الضُّمَّرِ الذُّلُلِ
ما كل حينٍ تُصابُ الأُسْدُ غافلةً ولا يُصيبُ الشَّديدَ البَطْشِ ذو الشَّلَلِ
واللهُ عَوْنُكَ فيما أنتَ مُزْمِعُهُ كما أعانكَ في أيَّامِكَ الأُوَلِ
كم قد ملكتَ لهم مُلْكاً بلا عِوَضٍ وحُزْتَ من بَلَدٍ منها بلا بَدَلِ
وكم سَقَيْتَ العَوَالي من طُلَى مَلِكٍ وكم قَرَيْتَ العَوَافي من قَرا بَطَلِ
لَا نكَّبَتْ سَهْمَكَ الأقدارُ عن غَرَضٍ ولا ثَنَتْ يدَكَ الأيامُ عن أَمَلِ

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله: [البسيط]

غيري بأكثر هذا النَّاس ينخدعُ[٣]

القصيدة.

فإنَّ كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً، عفا الله عنهما.

وعبد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مُفْلِق، كان مدرِّساً بحمص يعرف

---

(١) في «خريدة القصر»: فالشمس»، بدل: «فالسمر».

(٢) في «خريدة القصر»: «فسلَّمكم» بدل: «فأسلمكم».

(٣) عجز البيت:

إن قاتلوا جبنوا أو حدَّثوا شجعوا

والبيت في ديوان المتنبي ٢/ ٦٢ (طبعة دار الكتب العلمية).

بابن الدَّهَّان، وله ترجمة في «تاريخ دمشق». وقد ذكره العماد الكاتب في «خريدته»[١]، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضاً في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ـ أعني سنةَ ثمانٍ وخمسين ـ توفي عبد المؤمن بن علي؛ خليفة المهدي محمد بن تُومَرْت؛ صاحب المغرب، وولي بعده ابنُه يوسف[٢].

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شِيركُوه بن شاذي إلى مصر المرَّة الأولى؛ وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النُّورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية[٣].

وكان أسد الدين وأخوه نجمُ الدين أيوب ـ وهو الأكبر ـ ابنا شاذي، من بلد دُوِين، وهي بلدةٌ من آخر بلاد أَذْرَبِيجَان مما يلي الرُّوم، وأصلهما من الأكراد الرَّوَادِية؛ وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق، وخدما مجاهد الدينِ بِهْرُوز الخادم[٤] وهو شِحنة العراق، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسْنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً بتَكْريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زَنْكي الشهيد؛ والد نور الدين، بالعراق من قراجة السَّاقي؛ وهو أتابك داود ابن السُّلْطان محمود[٥]، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تَكْريت، فخدَمهُ نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجْلَة هناك، وتبعَهُ أصحابه، فأحسن نجم الدين صُحْبتهم وسيَّرهم. ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بِتَكْريت لملاحاة جَرَت بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تَكْريت.

وقيل: إن أيوب كان يحسن الرِّماية، فرمى شخصاً من مماليك بِهْرُوز بسهمٍ

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٩٤. وانظر أيضاً ترجمته في وفيات الأعيان ٣/ ٥٧ ـ ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦١. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٥.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧: ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها.

(٤) بهروز الخادم: هو مجاهد الدين بهروز بن عبد الله، أبو الحسن. مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي. كان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين سنة. توفي ببغداد سنة ٥٤٠هـ. (انظر «الكامل» ٩/ ٣٣٦، ووفيات الأعيان ٧/ ١٤٢).

(٥) في «الكامل» ٩/ ١٤٨: قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

فقتله، فخشي على نفسه، فتوجَّه نحو الشام وخدم مع زَنْكي. وقيل: لما قَتَلَ أسدُ الدين شيركُوه النَّصْراني ـ وكان عزيزاً عند بِهْرُوز ـ هرب إلى المَوْصِل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمانٍ وستين.

ثم إن أيوب وشِيركُوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جُمْلة جُنْده. فلما فتح حصن بَعْلَبَك جعل نجم الدين دُزْداراً فيه. فلما قُتل الشهيد حَصر عسكرُ دمشق نجمَ الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي ـ وقد قام بالملك بعد والده ـ يُنهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجمُ الدين أن تؤخذ عَنْوَةً ويناله أذًى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسَلَّم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدُّم، وصار عنده من أكابر الأمراء.

واتصل أخوه أسد الدين شِيركُوه بالخدمة النُّورية بعد قتل الشَّهيد ـ وكان يخدمه في أيام والده ـ فقرَّبه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجزُ عنها غيرُه لشجاعته وجُرْأته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرَّحبة وغيرهما؛ وجعله مقدَّم عسكره.

فلما تعلَّقت الهمة النُّورية بملك دمشق أمر أسدَ الدين، فراسل أخاه نجم الدين ـ وهو بها ـ في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لمَّا ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لا سيَّما نجم الدين، فإن جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلَّا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يُؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فَسَيَّره.

وكان سببُ ذلك أن شاوَرَ بن مُجير أبا شجاع السَّعْدي[1]، وهو الملقَّب أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من جُمْلَة قصيدة: [الكامل]

ضَجِرَ الحديدُ من الحديد وشاوَرٌ ... في نَصْرِ آلِ محمدٍ لم يَضْجَرِ

---

(١) انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٤٦٠، وانظر أيضاً نسبه في وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩.

حلَفَ الزَّمانُ ليأتينَّ بمثلِه   حَنِثَتْ يمينُك يا زمانُ فكَفِّرِ

وهو وزير الملقَّب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمانٍ وخمسين في سادس ربيع الأول، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذَ منه منصبَه قهراً.

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَّعوا للقاهر منهم ورتَّبوه ومكَّنوه، فإن قوَّتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقَّب عندهم بالسُّلْطان، وما كانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبَّة وقواعدهم مستقِرَّة من أول زمانهم على هذا المثال.

وكان شاوَرُ قد غلب على الوزارة، وانتزعها من بني رُزِّيك، وقَتَلَ العادل بن الصَّالح بن رُزِّيك الذي وزر بعد أبيه، واسمُه رُزِّيك، ويلقب بالنَّاصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عُمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية». وقال: غرس منه للدولة، بل للملَّة، شجرةً مباركة متزايدة النماء، أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء.

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضِرْغام بن سِوَار ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَل، فغلبه وأخرجَه من القاهرة وقَتَلَ ولدَه طيئاً، واستولى على الوزارة.

فرحل شاورَ إلى الشَّام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعودَ إليها، ويكون له فيها حصَّة ـ ذكرها له ـ ويتصرَّف على أمره ونَهْيه واختياره. ونور الدين يُقدِّم في ذلك رجلاً ويؤخِّر أُخرى، تارةً تحملُه رعاية قصد شاور وطلب الزِّيادة في الملك والتقوِّي على الفرنج، وتارةً يمنعُه خطرُ الطَّريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البَرِّ فيتعرَّضُوا لخطرٍ آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً. ثم استخار الله تعالى، وأمر أسد الدين بالتجهُّزِ للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وجساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يُبالي بمخافة. فتجهَّزَ وسار مع شاورَ في جُمادى الآخرة[1] من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابنُ الأثير، والعماد الكاتب وقال القاضي ابن شدَّاد: كانَ ذلك سنة ثمانٍ وخمسين، والقول في ذلك قولهما، فقد بَيَّنا أنَّ قدوم شاور إلى

---

(١) في «الكامل»: جمادى الأولى.

الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسالَ نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

قالوا: وأمر نورُ الدين أسدَ الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره لِيَشْغَلَهُمْ عن التعرُّض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسدُ الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاورَ في الوزارة، وقُتل، وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكَّن من منصبه(١).

وكان عُمارة قد مدح ضِرْغاماً بقصيدةٍ منها: [الكامل]

وأحقُّ من وَزَرَ الخلافةَ مَنْ نشا ... في حَضْرَةِ الإكرامِ والإجلالِ
واختصَّ بالخُلَفاءِ وانكشَفَتْ له ... أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرَّفَ الوزراءُ عن آرائه ... كتصرُّفِ الأسماءِ بالأفعَالِ

قال عُمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكنُ صَفَّ الخليج بالقاهرة، قلتُ ارتجالاً: [الوافر]

أرى حَنَكَ الوزارة صار سيفاً ... يَجُذُّ بحدِّه صِيدَ الرِّقابِ
كأنَّك رائدُ البلوى وإلا ... بشيرٌ بالمنيَّةِ والمُصَابِ

ولعُمارة اليمني من قصيدةٍ مدح بها شاور، وذكر وزارتيه: [الكامل]

فنُصرتَ في الأولى بضربٍ زَلْزَلَ الـ ... أقدامَ وهْي شَديدةُ الإقدامِ
ونُصرتَ في الأخرى بضربٍ صادقٍ ... أضحى يطيرُ به غُرابُ الهَامِ
أدركتَ ثأراً وارتجعتَ وزارةً ... نزعاً بِسَيْفِك من يَدَيْ ضِرْغامِ

وكان ضِرْغامُ أولاً من أصحاب شاور وأتباعه، وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله من قصيدةٍ له: [الكامل]

كانت وزارتُك القديمةُ مَشْرَعاً ... صَفْواً ولكنْ كُدِّرَتْ غُدْرَانُها
غَصَبَتْ رجالٌ تاجَه وسريره ... مِنْ بَعْدِ ما سَجَدَتْ له تِيْجانُها

وله من قصيدةٍ أُخرى في شاور: [الطويل]

وزيرٌ تَمَنَّتهُ الوزارةُ أولاً ... وثانيةً عفواً بغير طِلابِ

---

(١) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٠، ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

فخانته في الأولى بطانةُ ودِّه ... وربَّ حبيبٍ في قميصِ حُبابِ[1]

وجاءته تبغي الصُّلح ثانيَ مَرَّةٍ ... فلم يرضَ إلا بعد ضَرْبِ رِقابِ

ولم يُغلب وزيرٌ لهم وعاد غير شاور. وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مُدَّة الحمل. نَصَّ عُمارة على ذلك، وقال: قُتل ولدُه طيّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز رأسُه على رُمْحٍ تحت الطِّيقان، والنِّساء يولولن بالصُّراخ، وكان فيهن واحدةٌ تحفظ قولي في الصَّالح: [الطويل]

أَيُنْسَى وفي العينينِ صورةُ وَجْهِهِ الـ ... ـكريمِ وعَهْدُ الانتقالِ قَرِيْبُ

فما زالت تكرِّره حتى رأت رأس ضِرْغام.

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلتُ في ذلك: [الكامل]

وَنَزَعْتَ مُلْكَكَ مِنْ رجالٍ نازَعُوا ... فيه وكُنْتَ به أَحَقَّ وأَقْعَدا

جَذَبوا رِداءك غاصبين فلم تَزَلْ ... حتى كَسَوْتَ القَوْمَ أرديةَ الرَّدَى

وبردْتَ قَلْبَكَ من حَرارة حُرْقَةٍ ... أَمَرَتْ نسيمَ اللَّيلِ ألّا يَبْرَدا

تاريخُ هذا نِلْتَهُ في مِثْلِه ... يوماً بيوم عبرةً لمن اهتدى

حَملت به الأيامُ تسعةَ أَشْهُرٍ ... حتى جَعَلْنَ له جُمادى مَوْلدا

وله فيه أيضاً في ذلك: [البسيط]

لله درُّك موتوراً أَقَضَّ به ... دَسْتٌ وسَرْجٌ وأجفانٌ ومُضْطَجَعُ

ما غِبتَ إلا يسيراً ثم لُحتَ لنا ... والثَّأرُ مُسْتَدْرَكٌ والمُلكُ مُرْتَجَعُ

قَضيَّةٌ لم يَنَلْ منها ابنُ ذي يَزَنٍ ... إلا كما نِلْتَ والآثارُ تُتَّبَعُ

فافَخَرْ على الحيِّ من قَيْسٍ ومن يَمَنٍ ... أبا شُجَاعٍ فليسَ الحقُّ يَنْدَفِعُ

قال ابن الأثير[2]: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قَرَّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشَّام، فأَنِفَ أسدُ الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان

(١) الحباب: الحية، والشيطان أيضاً.

(٢) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٦.

استقرَّ، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوَّابه فتسلَّموا مدينة بِلْبِيس، وحكم على البلاد الشَّرْقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدُّهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملَك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إنْ ملَكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاورَ إليهم يستنجدهم ويطلبُ منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فَرَجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلْبية دعوته، والمبادرة إلى نُصْرته، وطمِعُوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهَّزوا وساروا. فلما بلغ نور الدين خَبَرُ تجهُّزهم للمسير سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مقَامهم إذا ملَك أسدُ الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملكُ القُدْس في الباقين إلى مصر. وكان قد وصل إلى السَّاحل جمعٌ كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدَّس، فاستعانَ بهم ملك الإفرنج، فأعانوه، وسار بعضُهم معه، وأقام بعض في البلاد يحفَظُها.

فلما قارب الفرنجُ مصر فارقَها أسدُ الدين وقصد مدينة بِلْبيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصَّن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسدَ الدين بمدينة بِلْبيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنع أسدُ الدين بها وسورُها من طين، قصير جداً، وليس له خندق ولا فصيل[1] يحميها، وهو يُغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبينا هم كذلك إذ أتاهم الخبرُ بهزيمة الفرنج بحارِم، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلى بانياس. فحينئذ سُقط في أيديهم، وأرادوا العودَ إلى البلاد ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يُدْركوها إلا وقد ملكوها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وراسلوا أسد الدين في الصُّلْح، والعود إلى الشَّام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك، لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في السَّاحل.

قال ابنُ الأثير[2]: فحدَّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بِلْبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ[3] من حديدٍ يحمي

(١) الفصيل: هو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد.
(٢) انظر «الكامل» ٩/٤٦٦ ـ ٤٦٧.
(٣) اللتّ: الفأس العظيمة، وهي فارسية معربة.

ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون قال: فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية! فقال شِيركُوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثلَه، كنتُ والله أضع سيفي، فلا أُقتَل حتى أقتُل رجالاً، وحينئذ يقصدُهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادَهم، ويُفْني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء ـ يعني أصحابَه ـ لخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا، فَصَلَّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه، وسار شِيركُوه إلى الشَّام وعاد سالماً.

وقال العماد الكاتب: وصل شاوَر إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه معدياً مشكياً، وسيَّر معه أسد الدين على قرارِ عَيْنه، وأمرِ بَيِّنه، وبُغيةٍ يدركها، وخطَّةٍ يملكها، ومَحجَّةٍ واضحة في الملك يسلكها. فمضى معه ونَصَرَه، وأصفى له مَشْرَعَه، واستردَّ له موضعَهُ، وأظهره بعلوِّه، وأظفره بعدوِّه، فلما باد خصمه، بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده. وكان قد رَاسل الفرنج وهَدَاهم في حرب الإسلام، فوصلوا، فتحصَّن شِيركُوه ومن معه بمدينة بِلْبيس، فحاصَره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهلِّ رمضان إلى ذي الحِجَّة، فبذلوا له قطيعةً فانصرف عنهم، وعاد إلى الشَّام وفي قلبه من شرِّ شاور الإحن، وكيف تمَّت بغدره تلك المِحَن.

قلتُ: وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله في مدح شاورَ، وذكر الإفرنج. فقال: [الكامل]

وأنقذتَ من مصرٍ عدوًّا بمثله ... فلله من ظُفْرٍ فَلَلْتَ ونابِ
صَدَمْتَ جُموعَ الكُفْرِ والشَّامِ صَدْمَةً ... أقمتَ بها للقومِ سوقَ ضِرابِ
وقد جَرَّدَتْ أجنادُ مِصْرَ عزائماً ... مضارِبُها في الصَّخْرِ غير نوابي
تولَّوا عن الإفرنج فادحَ ثِقْلها ... ودارَتْ رَحَاها منهمُ بهِضَابِ
أقامَتْ دروعُ الجُنْدِ تسعينَ ليلةً ... ثياباً لهم ما بُدِّلَتْ بثيابِ
وهم بين مطروحٍ هناك وطارحٍ ... وبين مُصِيبٍ خصمَه ومُصَابِ

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه ابنُ أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مُقَدَّم عسكره وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرِّر حالاً إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال

والسعادة، والفكرة الصَّحيحة، واقترانِ النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وَقْعٌ عظيم، وخافه أهلُ مصر، ونَصَرَ شاور على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرَّر قواعِدَه، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال.

وكان ابتداءُ رحيله عنها متوجِّهاً إلى الشَّام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مُدَبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدِّثاً بذلك نفسه، مقرِّراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلتُ: ولِفعل شاور ما فَعَل مع أسد الدين وصفَه الشعراءُ بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره، وبقي متخوِّفاً من أسد الدين. فقال عَرْقَلة الكلبي من جُملة قصيدةٍ له: [الطويل]

وهَلْ هَمَّ يوماً شِيرَكُوه بِجِلَّقٍ ... إلى الصَّيدِ إلا ارتاعَ في مِصْرَ شاوَرُ
هو المَلِكُ المنصورُ والأَسَدُ الذي ... شذا ذِكْرِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ سائِرُ

في ذي الحِجَّة من هذه السنة احترقت جيرون بعد رجوعِ أسد الدين إلى دمشق، فقال العَرْقَلَة يمدحه ويذكر ذلك: [الخفيف]

جارَ صَرْفُ الرَّدى على جَيْرونِ ... وسقَى أهلَها كؤوسَ المَنُونِ
أصبحَتْ جَنَّةً وأَمْسَتْ جحيماً ... تتلظَّى بكلِّ قَلْبٍ حزينِ
كيف لا تُذْرَفُ الدُّموع عليها ... وَهْي في الشَّامِ نزهةٌ للعيونِ
حَبَّذا حِصْنُها الحصينُ لقد كا ... ن جمالاً لكلِّ حِصْنٍ حَصِينِ
أيُّ سيفٍ سطا على دارِ سَيْفٍ ... وزَبُونٍ أتى بحَرْبٍ زَبُونِ
خِلْتُ نيرانَها وكلَّ ظلام ... نارَ ليلى تلوحُ للمجنونِ
كم غنيِّ اليمينِ أمسى فقيراً ... وفقيرٍ أمسى غنيَّ اليمينِ
كلَّ حينٍ لها حريقٌ جديدٌ ... ليتَ شِعْرِي ماذا لها بعد حينِ
كلُّ هذا البلاء عاقبةُ الفِسْـ ... ـقِ وشُرْبِ الخمور والتَّلْحِينِ
ولقد رَدَّها بعزمٍ وحَزْمٍ ... أسدُ الدين غايةُ المسكينِ
وحمى الجامعَ المقدَّسَ والمشْـ ... ـهَدَ من جمرها بماءٍ معينِ
مَلِكٌ فِعْلُه بِدَلْجةَ والبا ... ب فَعالِ الإمام في صِفِّينِ

فصـــل

[في فتح حارِم][1]

قال العماد الكاتب: وفي تلك السِنة ـ يعني سنةَ تسعٍ وخمسين ـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقصَدَهم، واجتمعوا على حارِم، فضرَبَ معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم، ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس، وابنُ لجوسلين، ودُوك الرُّوم وذلك في رمضان.

وقال في «الخريدة»: كانت نوبة البقيعة نوبةً عظيمة على المسلمين، وأَفْلَتَ نورُ الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الإفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأُسر من نجا، وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبيناً[2].

قال ابن الأثير[3]: والسَّبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق، من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثأره، وغزو العدوِّ في عُقْر داره، وليرتق ذلك الفَتْق، ويمحو سِمَةَ الوَهْن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قُطْبَ الدين بالمَوْصِل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ونجم الدين ألبي بمارِدِين، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً، وعلى مقدِّمة عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصُّه: على أيِّ شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْم والصلاة، فهو يلقي نفسَه والناس معه في المهالك. وكلُّهم وافقه على ذلك. فلمَا كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهُّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج،

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

وما نالهم من القتل والأسر والنَّهب، ويستمدُّ منهم الدُّعاء، ويطلبُ منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلا بدَّ من إجابة دعوته. ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً. فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارِم، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، ومقدَّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدُّوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، قد ملؤوا الأرض وحجَبُوا بِقَسْطلهم[1] السماء، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شُجعان الرجال. فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمَّ[2]، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغَمِّ، ثم تيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدوِّ مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المُسْلِمين، ويضعُوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على ما دَبَّروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر المَوْصِل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمْنعوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادَفوا راجلهم على الصَّعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين؛ فسُقِط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قَدْ ضلُّوا، وخضعت رقابُهم وذلُّوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذٍ حمي الوطيس،

(١) القسطل: الغبار الساطع.
(٢) عمّ: قرية بين حلب وأنطاكية.

وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة. وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاث الطُّيور، فمزَّقوهم بَدَداً، وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف. وأما الأسرى فلم يحصوا كثرةً، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أُسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوِّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القُسْطنطينية وسلَّموها إليه، ومجاورة بيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الرُّوم.

وبثَّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك، وعادوا سالمين. ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمالٍ جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كَسَرَ نورُ الدين الرُّوم والأرمن والفرنج على حارمِ، وكان عدَّتهم ثلاثين ألفاً. قال: ووقع بيمند في أسر في نوبة حارم، وباعه نفسه بمالٍ عظيم أنفقَهُ في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قُبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عزّ وجلّ، ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: يا رب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى ذلك يا رب إن نَصَرْتَ المسلمين فدينكَ نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحقٍّ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم، انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَن هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمسٍ وستين عند رحيل الفرنج عن دِمْياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذٍ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شِيركوه كما سبق، وهذا من عجيبِ ما وقع واتفق.

فصل

[وفاة وزير الموصل جمال الدين]

في ذكر وزير المَوْصِل جمال الدين، الجَوَاد الممدَّح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله[١].

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنَّفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً. فمما ذكره في كتابه الموسوم «بنُصرة الفَترة وعُصرة الفِطرة، في أخبار الوزراء السَّلْجوقية» أن قال: ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي؛ وهو صاحب الوزير شمس المُلك بن نِظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فَهَّاداً في عهد السُّلْطان مَلِكْشاه بن ألب أرسلان، وابنه الكامل أديبٌ لبيب، وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النمو حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وقد كان زوَّج بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز ـ يعني عم العماد الكاتب ـ قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرَّجه في الأدب ودرَّجه في الرُّتَب، فأول ما رتَّبه في ديوان العَرْض السُّلْطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعتَه الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج. واتفق أنه لما تولى زَنْكي بن آق سُنْقُر الشَّام تزوج بامرأة الأمير كُنْدُغْدي وولدها خاصْبَك بن كُنْدُغدي؛ من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتَّبه العزيز لخاصْبَك وزيراً، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الهشاشة، بهي البشاشة؛ فتوفرت مُنى زَنْكي على منادمته، وقَصَرَ صباحه ومساءه على مساهمته، وعوَّل عليه في آخره عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زَنْكي جُود، ولا عُرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يُحَصَّل له إلى خزانة زَنْكي استبقاءً لجاهه، واستعلاءً به على أشباهه، فمكَّنه زَنْكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرَّ بإساءته، ومنهم من انتفع بإحسانه.

ولما قُتل زَنْكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً، وللبيت الآق سُنْقُري معاذاً، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

---

(١) انظر خبر وفاته وأخباره في «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة المَوْصِل واستولى، فعاض بنداه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به المَوْصِل قِبْلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سُعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعَمَّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبِرِّ أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيَّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظُ الفِصاح، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وقُصد من كل بلد سحيق، وقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي، المعروف بحيصَ بيص[١]. قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها[٢]: [الكامل]

يا لـلـصَّوارِمِ والـرِّمـاحِ الـذُّبَّـلِ ... نَـصْراً ومـن أنـجـدتـمـا لـم يُـخْـذَلِ

لـو شئـتُـما ومشيـئـةٌ بـمشيـئـةٍ ... جـادَ الـزمـانُ وبـالـعُـلا لـم يَـبْـخَـلِ

فاقْني فخارك يا مُجاشعُ واعلمي ... أني لـكـم مـن هِـمَّتـي في جَـحـفـلِ

أنـا فـارسُ الـيـومـيـنِ يـوم مـقـالـةٍ ... ووغًـى أصـولُ بـصـارمـي وبـمِـقْـوَلـي

ظَـلَـمَـتْ فضائِلـيَ الـمَقَـاوِلُ مثـلَـما ... ظَـلَـمَـتْ جـمـالَ الـديـنِ مأوى الـعُـيَّـلِ

مَـدَحُـوه كـي يـحـووا مـنـاقـبَ نَـفْـسِـهِ ... فطَـمَـتْ فـسـالَـتْ بـالـمـدائـحِ مـن عَـلِ

فأتيتُ أبـذلُ مـا استطعتُ ومن يُـرِدْ ... نَـقْـلَ الـخِـضَـمِّ إلـى الـمـزادةِ يَـخْـجَـلِ

شَـمْـسٌ مـن الإحـسـانِ عَـمَّ ضـيـاؤهـا ... بـل آيـةٌ جـاءت بـحُـجَّـةِ مُـرْسَـلِ

يُـعْـطـي الـجـزيـلَ لـسـائـلـي مـعـروفـه ... ويـجـودُ بـالـنُّـعـمـى إذا لـم يُـسـأَلِ

وتـزيـدُه شـوسُ الـخُـطُـوبِ طـلاقـةً ... فيـكـون أبـسـمَ مـا يُـرَى في الـمُـعْـضِـلِ

ثَـقُـلَـتْ بـه الأعـنـاقُ مـن مِـنَـنِ الـنَّـدى ... فـالـهـامُ مُـطْـرِقـةٌ لـذاك الـمُـثْـقِـلِ

فـإذا تـلاقـى الـنَّـاسُ كـان حـديـثُـهـم ... عـن كـلِّ جَـفْـنٍ بـالـحـجـالـة مُـسْـدَلِ

أُسـراء مـعـروف الـوزيـر فـكـلُّـهـم ... عـافٍ تـراه مُـطْـلَـقـاً كَـمُـكَـبَّـلِ

مـن سـمْـرَقـنـدَ إلـى تِـهـامـةَ شـاهـدٌ ... فَـضْـلَ الـجـمـالِ عـلـى الـحَـيَـا الـمُـتَـهَـلِّـلِ

الـسُّـحْـبُ تُـمْـطِـرُ مـا تُـظِـلُّ وجُـودُه ... يَـسْـرِي ودارُ مُـقـامـهُ بـالـمَـوْصِـلِ

---

(١) سعد بن محمد الصفي: كذا ورد اسمه بالأصل، واسمه: سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.

وتَـقَـرُّ عـيـنُ مـحـمـدٍ بـمـحـمـدٍ مُحيي دَرِيسَيْ عِلْمِهِ(١) والمَنْزِلِ
مـعـمـارُ مَـرْقَـدِهِ وحـافـظُ ديـنـه ومـعـيـنُ أمَّـتِـه بـجـودٍ مُـسْـبِـلِ
جَعَلَ المدينةَ مِصْرَ ربعاً(٢) آهِلاً نـشـوانَ يـمـرح بـالـنعيم المُخْضِلِ
فـكـأنَّـهـا بـالـخِـصـب مـن قُـرُبـاتـه بَلَدٌ على شَطِّ الفُرَاتِ السَّلْسَلِ
فـلـو أنـه فـي عَـصْـرِهِ نَـزَلَـتْ لـه في مَدْحِهِ سُوَرُ الكتابِ المُنْزَلِ
عَـبْـدٌ أَخٌ فـي ضـيـفـه وَوِدَادِه لا يـسـتـحـيـلُ وسيِّدٌ في المَحْفِلِ
خِـرْقٌ يُـنـاطُ قـمـيـصُـهُ ورداؤه بـعُـبـاب زَخَّـار وهَـضْـبَـةِ يَـذْبُـلِ

وقال العماد. وكنت أنا في ذلك العهد متفقهاً ببغداد، واتفق حضوري بالمَوْصِل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرتُ عند جمال الدين بالجامع في جُمْعتين، وتكلَّمْتُ عنده مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به قصيدة، أوَّلها: [الوافر]

أظـنُّـهـمُ وقـد عَـزَمُـوا ارتـحـالا ثَـنـوا عَـنَّـا جَـمـالا لا جِـمـالا
سَرَوْا والصُّبْح مُبْيَضُّ الحواشي فـلـمـا حـالَ عَـهْـدُ الـوَصْـلِ حـالا
هـم اعـتـادوا الـمَـلاَل فـكـيـفَ ملُّوا وِصَـالَـهُـمُ ومـا مـلُّـوا الـمَـلالا
أحـادي عِـيْـسِـهـم بـالـلّـهِ رِفْـقـاً فـإنَّ الـسَّـيْـرَ أورثـهـا الـكَـلالا
وعُـجْ نـحـو الأراك بـهـا فـإنـي أراه لاجـتـمـاع الـشَّـمْـلِ فـالا
سقى صَوْبُ الحَيَا تَلَعاتِ نجدٍ وحـيَّـا بـالـحـمـى تـلـك الـتِّـلالا
أخـلائـي وهـل فـي الـنَّـاسِ خِـلٌّ بـه أُخْـلـي مـن الأحـزانِ بـالا
لئن لم أشفِ صدري من حَسُودي ولـم أُذِقِ الـعِـدَى داءً عُـضَـالا
فـلا أدْرَكْـتُ مـن أدبـي مُـرَاداً ولا صـادَفْـتُ مـن حَـسَـبـي مَـنَـالا
ولا وَخَـدَتْ إلـيـكـم بـي جِـمـال ولا والـيـتُ مـولانـا الـجَـمـالا
هـو الـمُـغْـنـي إذا مـا الـمـرءُ أَقْـوَى هـو الـمُـنْـجـي إذا مـا الـخَـطْـبُ هـالا
وقـائـلـةٍ أفـي الـدُّنـيـا كـريـمٌ سـواه فـقـلـت لا وأبـي الـعُـلا لا
أطَلْتَ على الورى كَرَماً وفَخْراً كـذلـك مـن حَـوَى هـذيـن طـالا
وحُزْتَ المجدَ عن كَسْبٍ وإرثٍ فـيـا صَـدْرَ الـورى حُـزْتَ الـكـمـالا
خُصِصت بكلِّ مَنْقَبَةٍ وفَضْلٍ تـعـالـى مـن حَـبـاكَ بـه تـعـالـى

(١) في «خريدة القصر»: «شرعه»، بدل: «علمه».
(٢) في «خريدة القصر»: «ريفٍ»، بدل: «ربعاً».

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة: [المنسرح]

يهوى تجنِّيه والصُّدودَ كما ... يهوى المعالي محمدُ بنُ علي
جمالُ دينِ الإله خيرُ فتًى ... للرِّزْقِ أقلامُهُ وللأَجَلِ
مُعْطي القُرى والقِرى لقاصدِه ... من غير مَنٍّ والخيلِ والخَوَلِ
مِثْلُ فتوحِ الفاروق نائِلُهُ ... شَرْقاً وغَرْباً في السَّهْلِ والجَبَلِ
من قال لم يَخْوِ ذا ويسكن ذي ... أصبحَ مما يقولُ في خَجَلِ
محمدٌ خاتَمُ الكِرامِ كما ... سميُّهُ كانَ خاتَمَ الرُّسُلِ

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدةٍ: [الوافر]

كسا الحَرَمينِ لِبْسَةَ عَبْدِ شَمْسٍ ... وهاشم غُرَّتي نسلِ الخليلِ
ولِلْبلدِ الأمينِ أجدَّ أمناً ... تكنَّف مِثْلَه جَدَث الرَّسُولِ
عَشَيْتُم يا ولاةَ الأمرِ عمَّا ... أتيحَ له مِنَ الأثرِ الجميلِ
وطارَ لها وأشفقتم فشدَّ الـ ... ـيدين على عُرَى المَجْدِ الأَثِيْلِ
بيوتٌ بالحجازِ مقدَّساتٌ ... رماها الدَّهْرُ بالخَطْبِ الجليلِ
وكان أذالَهُنَّ فصابَ صوناً ... لمن آوته من ولد البَتُول
مآثرُ باقياتٌ يوم يُجْنَى الـ ... ـمقال ويُجتنى طيبُ المقيلِ
وكم للمَوْصِلِ الحدباء مما ... تُنيل يداه من ريفٍ ونيلِ
بَرُود الصَّفْح مَلْتَهِبُ الحَوَاشي ... مَهِيْبُ البَطْشِ فرَّاسُ الدخول

ولأبي المجد قسيم الحَمَوي[1] فيه من قصيدة: [الوافر]

أغرّ تبصرُ منه النَّاسَ في رَجُلٍ ... واللَّيْثَ في بَشَرٍ والبَدْرَ في غَضَنِ[2]
سما بهمَّته في المَكْرُماتِ إلى ... علياءَ تَقْصُرُ عنها هِمَّةُ الزَّمَنِ
يلقاك واضحَ ليلِ الفِكْرِ راجحَ نيـ ... ـلِ الكفِّ طاهرَ ذيل السِّرِّ والعَلَنِ
ماضي العزيمةِ ميمون النقيبة، رئـ ... ـبال الكتيبةِ عَيْنُ القائلِ اللَّسِنِ
إذا تكلَّم واسْتَجْليتَ غُرَّته ... في مَحْفِلٍ رُحت حالي العين والأُذُنِ
كأنَّ في الدَّسْتِ منه حين تنظره ... شمسَ النهار وصَوْبَ العارِضِ الهَتِنِ

---

(١) أبو المجد قسيم الحموي: هو مسلم بن خضر بن قسيم الحموي، الشاعر، المتوفى سنة ٥٥٥هـ. له ديوان شعر (كشف الظنون ٦/ ٤٣٢).

(٢) الغضن: الدرع.

قال قال ابن الأثير[١]: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وخمسمائة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وكان قد خدَمَ الشهيد، فولاه نَصِيبين، وظهرت كفايتُه، فأضاف إليه الرَّحبة، فأبان عن كفايةٍ وعِفَّة، وكان من خواصِّه فجعله مشرف مملكته كلِّها، وحكَّمه تحكيماً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى الشهيد أتابك قبلي ويخرجُ بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قُتِلَ الشهيد، ثم وزر لولَدَيْ الشهيد سيف الدين ثم قُطْب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهودٌ ومواثيق على المُصَافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونَه ويقعون فيه عند زين الدِّين، فنهاهم.

وكانت المَوْصِل في أيامه ملجأً لكل ملهوف، ومأمناً لكلِّ خائف، فسعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدَّق بها. فلم يمكنه أن يغيِّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع على زين الدين من غيَّره عن مصافاته ومؤاخاته، فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المَوْصِل، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواصَّ قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قُبض تبسَّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين. فبقي جمالُ الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض، ومضى لسبيله عظيم القدر والخَطَر، كريم الوِرْدِ والصَّدَر، عديم النظير، في سَعَة نفسٍ، لم يُرْوَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروَّة.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصُّوفي[٢] ـ وهو رجلٌ من الصَّالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـ قال: لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مُدَّة حبسه، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أُنقل من الدَّسْت إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعضَ الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفْني. فقلت في نفسي: قد اختَلط الرجل. فلما كان الغد أكثرَ السؤالَ عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ له: جاء الطائر. فاستبشر، ثم قال: جاء الحق. وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى، وتُوفي. فلما توفى طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

(٢) في «الكامل» ٩/ ٤٧١: حكى لي إنسان صوفي، يقال له أبو القاسم، كان مختصاً بخدمته في الحبس.

ودفن بالمَوْصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شِيركُوه عهداً؛ من مات منا قبل صاحبه حمله الحيُّ إلى المدينة ـ على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ فدفنَه بها في التُّرْبة التي عملتها، فإن أنا مُتُّ فامضِ إليه وذكِّره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمِلَه به إلى مكة والمدينة، وأمر أنْ يحجَّ معه جماعةٌ من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول والرَّحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك، فكان يُصَلِّي عليه في كل مدينة خلقٌ كير، فلما كان في الحِلَّة اجتمع النَّاس للصلاةِ عليه، فإذا شابٌ قد ارتفع على موضع عالٍ، ونادى بأعلى صوته:[1] [الطويل]

سَرَى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وطالما ... سَرَى بِرُّه[2] فوقَ الرِّكابِ ونائِلُهْ
يَمُرُّ على الوادي فتُثني رمالُه ... عليه وفي النَّادي فتبكي أرامِلُهْ[3]

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة، وصلُّوا عليه بالحَرَم، وحملوه إلى المدينة فصلُّوا عليه أيضاً، ودنُوه بالرِّباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً.

قلت: كذا قال ابن الأثير، وقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفسَ القبر الشريف، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه.

ثم قال[4]: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيماً بالنَّاس، متعطفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد بناء مسجد الخَيْف بمِنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة[5]، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم[6] خِلَعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر

---

(١) البيتان في «الكامل» ٩/ ٤٧١.
(٢) في «الكامل»: جودُه»، بدل: «برُّه».
(٣) رواية عجز البيت في الكامل»:
عليه، وبالنادي فتثني أرامله
(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٥) النقرة: الفضة.
(٦) هو عيسى بن فليتة، وجده الأعلى أبو علي محمد بن جعفر، تولى مكة بعد قتل ابن أخيه

أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدةً في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان(١) في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً. وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي ﷺ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْكٍ وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعَو له، لأنَّا كُنَّا في ضرٍّ وضيق ونكد عيشٍ مع العرب، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا؛ فكيف لا ندعو له!

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإِدرارات والتعهّدات، قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دِجْلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضاً جسراً على نهر الأرْيار عند الجزيرة أيضاً. وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنْجار، ونَصِيبين، وغيرها، وقصده الناس من أقطارِ الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي(٢)؛ رئيس أصحاب الشَّافعي، رضي الله

قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦هـ. وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة ٥٧٠هـ (العقد الثمين ٦/ ٤٦٥ _ ٤٧٠).

(١) نعمان: واد بين مكة والطائف، على ليلتين من عرفات (معجم البلدان ٥/ ٢٩٣).

(٢) صدر الدين الخجندي: في «الكامل» ٩/ ٤٧٢: ابن الخجندي، ولعله: محمد بن ثابت بن الحسن بن علي الخجندي، أبو بكر الشافعي، نزيل أصبهان المتوفى سنة ٤٨٣هـ. صنف «روضة المناظرين»، «زواهر الدرر في نقض جواهر النظر» (كشف الظنون ٦/ ٧٥). ولعله (وهو الأرجح): محمد بن عبد اللطيف (وقيل: عبد الله) الخجندي، فخر الدين الطبيب المتوفى بأصبهان سنة ٥٥٢هـ. صنف: «التلويح إلى أسرار التنقيح» أي اختصار التنقيح له، «تنقيح المكنون من مباحث القانون لابن سينا» في الطب (كشف الظنون ٦/ ٩٢).

عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذان، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصُدُور والعلماء ومشايخ الصُوفية، وصارت المَوْصِلُ في أيامه مقصداً وملجأ.

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدَّق. حكى لي والدي قال: كنتُ يوماً عنده وقد أُحضر بين يديه قُنْدُر[1]، ليُعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قُنْدُزاً بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غيرَ مَرَّة فلم يفعل.

قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصِل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصِل رجل من الصَّالحين يقال له الشيخ عمر المَلَّاء[2]، فأحضر جمال الدين وسلَّم إليه مالاً، وقال له: تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفذ غيره، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدَّقوا بثمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها وعرَّفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العِمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة. فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدَّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعضُ الصُوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النَّسَائي؛ شيخ الشيوخ بالمَوْصِل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماشٌ كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة، فتوصل هذه الرِّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي، فتوصل إليه هذه الرِّزْمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه

---

(١) قنذر: هو القندس، ثعلب الماء، تتخذ من جلده فراء فاخرة يلبسها السلاطين.

(٢) الشيخ عمر الملاء: هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ. له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين». (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها السَّلام، توصَّل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوفُ الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدُّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيراً، فطلب منه شيئاً، وتردَّد إليه عِدَّة أيام، ثم انقطع، فسأله عنه، فقيل: إنه سافر. فشقَّ ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو مارِدِين. فأرسل إليه خِلْعَةً ونفقة إلى مارِدِين.

قال: ولو رُمتُ شرحَ مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض عليَّ الدخول إلى دارٍ في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نِينَوَى[1]، وأتابك قد ركب إلى المَيْدَان، وينفذ إلي يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدتُ يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا السَّاعة. قال: قل. قلت: أقول لك ما قاله الشَّريف الرضي[2]: [البسيط]

ما ناصَحَتْك خفايا الودِّ من أحدٍ ما لم يُصِبْك بمكروهٍ من العَذَلِ

(١) نينوى: قرية بالموصل، وتسمى قرية يونس بن متى عليه السلام (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩).

(٢) الشريف الرضي: هو محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم الموسوي، الشريف الرضي الشيعي، نقيب العلوية ببغداد، ولد سنة ٣٥٩هـ، وتوفي سنة ٤٠٦هـ. له من التصانيف: «أخبار قضاة بغداد»، «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، «حقائق التنزيل في تفسير القرآن»، «خصائص الأئمة»، «ديوان شعره»،

مـودَّتـي لـك تـأبـى أن تُـسَـامـحـنـي ... بـأن أراكَ عـلـى شـيءٍ مِـنَ الـزَّلـلِ

وقد بسطتَ يدَكَ في إنفاق المال في الصَّدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أنَّ الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[1] في هذا الوزير الجَوَاد لما نكب[2]: [البسيط]

ما حَطَّ قَدْرَكَ من أوجِ العُلا القَدَرُ ... كـلا ولا غَـيَّـرَتْ أفـعـالَـكَ الـغِـيَـرُ

أنـت الـذي عَـمَّ أهـلَ الأرض نـائِـلُـه ... ولـم يَـنَـلْ شـأوَه فـي سُـؤْدَدٍ بَـشَـرُ

سارَتْ صفَاتُك في الآفاقِ واتَّضَحَتْ ... وصدَّقَ السَّمْعُ عنها ما رأى البَصَرُ

فاصبرْ لِصَرْفِ زمانٍ قد مُنِيْتَ به ... فآخِرُ الصَّبْرِ يا طودَ النُّهى الظَّفَرُ

فما تَرَى أحداً في الخَلْقِ يَسْلَمُ مِنْ ... صـروفِ دَهْـرٍ لـه فـي أهـلـه غِـيَـرُ

سَعَوْا بقصدِك سِرًّا واستتبَّ لهم ... ولـو سَعَوْا نـحوه جَهْراً لـما قَدَرُوا

لولا الأماني التي تحيا النُّفُوسُ بها ... لمتُّ من لَوْعةٍ في القَلْبِ تَسْتَعِرُ

وأَصْدَقُ النَّاسِ في حِفْظِ العُهُودِ إذا ... مَيَّزْتَ بالفِكْرِ أحوالَ الوَرَا عُمَرُ

الـزَّاهِـدُ الـعـابـد الـبَـرُّ الـتـقـيُّ ومـن ... يـزوره ويـقـوِّي أزرَه الـخَـضِـرُ

وقال العَرْقلة يرثي جمال الدين الوزير والصَّالح بن رُزِّيك: [السريع]

لا خَـيْـرَ فـي الـدُّنـيـا ولا أهـلِـهـا ... بـعـد جـمـالِ الـدِّيـن والـصَّـالـحِ

بَـحْـرانِ لـولا دَمْـعُ بـاكـيـهـمـا ... مـا كـانَ مـاءُ الـبَـحْـرِ بـالـمـالـحِ

«الرسائل»، «الزيادات في شعر أبي إسحاق الصابي وشعر أبي تمام»، «طيف الخيال»، «كتاب الحسن من شعر الحسين» انتخبه من شعر ابن الحجاج، «كتاب المتشابه في القرآن» «مجازات الآثار النبوية»، «نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٦٠).

(١) الشاتاني: نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٧٩هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦١ ـ ٣٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤. وفي الوفيات: توفي سنة ٥٩٩هـ).

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٢.

قال ابن الأثير: وقال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيامِ الشَّهيديةِ من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة فيها، ما يدلُّ على تمكُّنه من الكفاية. فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشَّهيد، وجمالُ الدين وزيرُه حينئذٍ، وقد تمكَّن زين الدين عليٌّ بن بُكْتِكِين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدَّم عند قطب الدين جماعةٌ من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكُّنه وعلوِّ محلِّه يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء. فقال: أنت صبي غِرٌّ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما ينسِبُهُ، ذلك الوقت كان لنا صاحبٌ متمكن قوي العزم، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يَتَلَوَّن بأقوال أصحابه، فحفظناه، فكان ما أفعله هو الكفاية. وأما الآن فلنا سُلْطان غير متمكن، وهو محكومٌ عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

[فتح نور الدين قلعة بانياس]

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير(١): فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارِم، وأَذِنَ لعسكر المَوْصِل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيَّق عليها وقاتلها. وكان في جُملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سَهْمٌ أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى.

وجدَّ في حصارِها، وسمع الفرنجُ بذلك فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة، ورجالاً عِدة.

وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتمٌ بِفَصٍّ ياقوت من أحسن الجوهر، فسَقَط من يده في شَعْراء بانياس ـ وهي كثيرةُ الأشجار ملتفة الأغصان ـ فلما أبعد

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠، فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، في أحداث ذي الحجة من سنة ٥٥٩هـ.

من المكان الذي ضاع فيه الفَصُّ عَلِمَ به، فأعاد بعضَ أصحابه في طلبه ودَلَّهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع. فعادوا إلى فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشَّاميين، وأظنُّه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحُه بها ويهنئه بهذه الغَزَاة وعود الفَصِّ الياقوت[1]: [الكامل]

إن يـمْـتَـر الـشُّـكَّـاك فيـك فـإنَّـك الـ ـمـهـديُّ مـطـفـئُ جَـمْـرَةِ الـدَّجَّـالِ
فـلـعـودةِ الـجَـبَـلِ الـذي أضـلـلـتـه بـالأمـسِ بـيـن غـيـاطـل وجـبـالِ[2]
مـسـتـرجـعـاً لـك بـالـسَّـعَـادةِ آيـةً رَدَّتْ مـطـال الـفـال غـيـر مُـطَـالِ
لـم يُـعْـطَـهـا إلا سـلـيـمـانٌ وقـد نِـلْـتَ الـرِّفـاءَ بـمـوشـكِ الإعـجـالِ
زجـرٌ جَـرَى لـسـريـر مُـلْـكِـكَ أنـه كـسـريـره عـن كُـلِّ جَـذْرٍ عـالِ
فـلـو الـبِـحَـارُ الـسَّـبْـعَـةُ اسْـتَـهْـوَيْـنَـهُ وأَمَـرْتَـهُـنَّ قَـذَفْـنَـهُ فـي الـحـالِ

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغَزَاة؛ فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفَتْحُ بانياس كما تراه في سنة ستين وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فَصٍّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شِرَاه ألف ومئة دينار. وفي نسخة: وَوِجْدان خاتم ضاع منه في الصَّيد قيمته ألف ومئة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص. فذكر القَصيدة، وأولها: [الكامل]

* يـومـاك يـوم نـدًى ويـوم نِـزال *

يقول فيها: [الكامل]

أَخْـرَسْـتَ شِـقْـشِـقـةَ الـضَّـلالِ وقُـدْتَـه قـودَ الـذَّلـولِ أطـاعَ بـعـد صِـيـالِ
ورمـيـتَ دارَ الـمـشـركـيـن بـصَـيْـلَـمٍ ألـحـقـتَ فيـهـا الـحَـرْبَ بـعـد حِـيـالِ
وسَـعَـرْتَ بـيـن تـريـبـهـم وتـرابـهـم ذُعْـراً يُـشـيـبُ نـواصـيَ الأطـفـالِ
فوق الخطيم وقد خَطَمْتَ زَعِيمَهُمْ ضَـرْبـاً سـوابِـقُـهُ بـغـيـر تـوالـي
ضَـرْبـاً مـلأْتَ فـرنـجـةً مـن حـرِّه رُهْـبـاً بـه سَـيْـفُ الـصَّـقـالـب صالـي
وبـفَـجٍّ حـارمَ أحـرمـتْ لـقـراعـهـم هـيـمٌ أحـلـن الـنـوم غـيـر حَـلالِ
عَجَموا على الجسر الحديد حديدَها نـبـعـاً يـعـاذِمُـهُ أُديـرِدُ صَـالِ
زلـزلْـتَ أرضَـهُـمُ بـوقـعِ صـواعـقٍ أعـطـيـنـنـا أمـنـاً مـن الـزِّلـزالِ

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٧٠، خمسة أبيات.

(٢) غياطل: جمع غيطلة، وهي اجتماع الشجر والتفافه.

فـي مـأزِقٍ شَـمَّـرْتَ ذيـلـك تـحـتَـهُ والـنَّـصْـرُ فـوقَـك مُـسْـبِـلُ الأذيـال
فـي دولـةٍ غَـرَّاءَ مـحـمـوديَّـةٍ سَـحَـبَـتْ رداءَ الـحَـمْـدِ غـيـر مُـذَال
تُنْسي الفتوحُ بها الفتوحَ، وتجتَنى زُهـر الـمـقـال بـبـاهـرِ الأفـعـالِ
لَـبِـسَـتْ بـنـورِ الـدِّيـن نـور حـدائـق ثـمـراتُـهُـنَّ غـرائـبُ الأفـضـال
مـلـكٌ تـحـجَّـب فـي الـسـريـر بـزأرةٍ زرَّتْ حـواشـيـهـا عـلـى رئـبـالِ
تـنـجـابُ عـن ذي لـبـدتـيـن شَـذَاتُـه فـي بُـرْدَتـي بَـدَلٍ مـن الأبـدالِ
رَفَـعَ الـرِّواقَ بـروقِ أنـطـاكـيَّـةٍ فـرمـى الـخـلـيـجَ بـمـرهـق الـبَـلْـبَـالِ
بَـدْرٌ لأربـعَ عَـشْـرَةَ اقـتـبـسَ الـسَّـنـا مـن خـمـسَ عَـشْـرَةَ سـورة الأنـفـالِ
فـوزُ الـمـآل أخـاضـه مـاءَ الـطُّـلـى وسـواه يُـقـعـده احـتـيـازُ الـمـال
مـتـقـسِّـمٌ بـيـن الـقـسـيـمـيـن الـعُـلا عـن عـمٍّ عـمٍّ أو مـخـايـل خـالِ
لا زِلْـتَ تـطـلُـعُ مـن ثـنـايـا جَـحْـفَـلٍ يـقـفـو لـواءك كـالـلـوى الـمِـنْـهَـالِ
تـغـزو فَـتَـنْـهَـبُ أو تـؤوبُ فَـتُـنْـهِـبُ الــ ـعـافـيـن سَـلْـبَ قـنـاً وكَـسْـبَ نِـصَـالِ
لـك أن تـطـلَّ عـلـى الـكـواكـبِ راقـيـاً ولـحـاسـديـك بُـكـاً عـلـى الأطـلالِ

ومما يناسِبُ هذه السعادة في وِجْدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرَّشيد أخذه، فطلبه منه فامتنعَ، فألحَّ عليه فيه، فحنق الرشيد ومَرَّ على جسر بغداد فرماه في دِجْلَة. فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ، وأمر الغَطَّاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأوَّل، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير(١): ولما فتح نور الدِّين حِصْنَ بانياس كان ولد معين الدِّين أُنَر الذي سَلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفتَ إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جِلدة والدك من جهنم.

وقد تقدَّم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

[وفاة الوزير ابن هبيرة]

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبَيْرة

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠.

الشَّيْبَاني[١]، من بني ذُهْل بن شَيْبَان بن ثَعْلَبَة بن الحِصْن. وكان عالماً ديناً مدبراً حنبليَّ المذهب، وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: «الإِفضاح في شرح الأحاديث الصحاح». وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة. توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة. ورئيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإِسلام، وأَوْلى الأمور ستر العيوب.

[نجز الجزء الأول من كتاب الروضتين،
ويليه الجزء الثاني
ويبدأ بحوادث سنة (٥٦١)]

(١) ابن هبيرة: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

فهرس المحتويات